



دعوة إلى الكتاب والمثقفين العرب

- ترحب مجلة المعرفة بإسهامات الكتاب والمفكرين العرب في مجمل قنوات المعرفة الإنسانية.
- يفضل أن يتراوح حجم المقال بين ١٠٠٠ - ١٥٠٠ كلمة وحجم البحث بين ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ كلمة.
- يُراعى في الإسهامات أن تكون موثقة بالإشارات المرجعية وفق الترتيب التالي:
اسم المؤلف - عنوان الكتاب - مكان الطباعة وتاريخها - رقم الصفحة مع ذكر اسم المحقق في حال الكتاب محققاً، واسم المترجم في حال الكتاب مترجماً.
- ترحو المجلة من كتابها أن يقرنوا إسهاماتهم بتعريف موجز لهم.
- ترحو المجلة أن تردها للإسهامات منضدة على الحاسوب ومراجعة من قبل كاتبها.
- تلتزم المجلة بإعلام الكتاب عن قبول إسهاماتهم خلال شهر من تاريخ تسلمها، ولا تعاد لأصحابها.

يرجى توجيه المراسلات إلى المجلة
الجمهورية العربية السورية - دمشق - الروضة
رئيس تحرير مجلة المعرفة
تلفاكس: ٣٣٣٦٩٦٣
www.moc.gov.sy
Almarifa1962@yahoo.com

المواد المنشورة في المجلة تعبر عن رأي أصحابها،
ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة. وترتيبها
يخضع لاعتبارات فنية.

سعر النسخة ٧٥ ل.س أو ما يُعاد لها
تُضاف إليها أجرة البريد خارج القطر

المعرفة

AL - MARIFA
مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية

العدد ٦٢٧ - السنة ٥٤ - صفر ١٤٣٧ هـ - كانون الأول ٢٠١٥ م

رئيس مجلس إدارة
عصام خديك
وزير الثقافة

رئيس التحرير
د. علي القيم

أمانة التحرير
سمير الزركي

الهيئة الاستشارية

د. طيب تيزيني د. ملكة أبيض
د. إنصاف حمد د. غسان غنيم
فايز خضور د. سعد الدين كليب
د. نزار بريك هنيدي

الإشراف الفني والطباعي

م. زياد العواودة

التصميم والإخراج

ريما محمود

التدقيق اللغوي

منهال الغضبان - أماني الذبيان

في هذا العدد

قصة

- قطع غيار لكبار السن.....
نجيب كيالي ١٦١
الوجه الآخر.....
باسم عبود ١٦٥

أفاق المعرفة

- هل كانت الموسيقى رابع العلوم الأساسية اللازمة لفهم الكون عند اليونان؟.....
د. سعد الله آغا القلعة ١٦٩
الرمزية في فكر جلال الدين الرومي.....
د. سيف الدين القصير ١٧٧
الشعر التعليمي فنٌ يُمخّر عباب بحر العلوم.....
د. كارين صادر ١٨٣
عربة أفلاطون.....
د. مورييس منصور ١٨٨
هل يوجد طريق ثالث للفلسفة؟.....
مؤيد جواد الطلال ١٩٣
كونفوشيوس والحضارة الصينية.....
جميل حسين الأحمد ٢٠٤
سحر الشخصية (الكاريزما).....
ترجمة: هبة الله الغلاييني ٢١٢
تفاعل الحضارات وعقدة الآخر.....
د. محمد ياسين صبيح ٢٢٣
قصر الحمراء شاهد على تفوق العبقريّة العربيّة.....
محمد مروان مراد ٢٣١
بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية.....
د. قحطان السيوفي ٢٤٢
تقدم العلم مجموعة منتقاة من الأخبار العلمية.....
م. فايز فوق العادة ٢٤٧
الأشعة غير المرئية.....
وهدان وهدان ٢٥٥

قراءة في كتاب قديم:

- سورية ومصر تحت حكم آخر خمسة سلاطين في تركيا.....
عبد الله حجار ٢٦١

حوار العدد

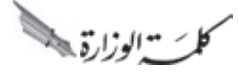
- مع الأديب الدكتور هزوان الوز.....
إعداد: محمد خالد الخضّر ٢٧١

كتاب الشهر

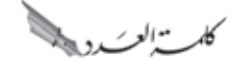
- «بصد الدولة العربية المندنية».....
عرض وتقديم: سمر الزكري ٢٧٧
نافذة على إصدارات جديدة.....
إعداد: حسني هلال ٢٨٩

آخر العالم

- نجمي السكري والجمالية الموسيقية.....
رئيس التحرير ٢٩٣



تعزيز البنية المعرفية والثقافية
والاخلاقية للمواطن السوري
عصام خليل
وزير الثقافة



الرها، مدينة المياه المتدفقة
وحيي رستم
رئيس التحرير



- التراجم والحكايات الشعبية في أدب الأطفال.....
ترجمة وإعداد: د. ملكة أبيض ١٥
الحُطينة في مرايا التلقي.....
د. فايز الداية ٢٥
التلعفري الشيباني: شاعر من العصر الأيوبي.....
ماجدة رحيباني ٤١
بواكير الإبداع في الشعر.....
عبد اللطيف الأرنؤوط ٥٠
ماندة الأدب العامرة.....
عبد الباقي يوسف ٦٠
الفكر الإنساني عند ندره اليازجي.....
موسى ديب الخوري ٧١
«محاولات التشكيك بجابر بن حيان».....
إبراهيم محمود الصغير ٨٤
«البارابسيكولوجيا، والعلم التجريبي».....
ترجمة وإعداد: ونام الجراد ٩٤
الطبية: مدنٌ خلّدها التاريخ.....
د. خليل المقداد ١٠٤
المجمع الجنائزي في تل أم المرّ الأثري.....
د. محمود حمود ١١٨
إشكالية الكتابة التاريخية في القرنين الأول والثاني الهجريين...
عبد الله السليمان ١٢٩
البحث العلمي في مسيرة البناء والتطور.....
د. ميخائيل معطي ١٤٢

الإبداع

شعر

- سراج الأعمى.....
ساجدة الموسوي ١٥٥
الجواد- لذكرى الرضوان عماداً وجهاداً.....
محمد حمدان ١٥٨



عصام خليل
وزير الثقافة

تعزيز البنية المعرفية والثقافية والأخلاقية للمواطن السوري

تماماً كما يخرج الموج من وجع الماء. كما ينهض العشب من لوعة
الندى، يجب أن نخرج من التاريخ لكي ندخل الجغرافية!!
لا نخرج من التاريخ انقلاباً، ولا جحوداً، فالسنديان لا يعمّر أنفاسه في
الهواء، وإنما في رئة الأرض، وشرائينها.
لكنّ فارقاً كبيراً بين حياة في الذاكرة وذاكرة في الحياة!
نحن لا ندعو إلى قطيعة معرفية مع الماضي، فهذا خطأ لا يرتكبه عاقل، لكننا
ندعو إلى قراءة نقدية فاحصة، تنصبّ على كلّ ما شكّل قناعات محسومة، توارثنا
تداولها بلا أي تمحيص أو تفكير، حتى اكتسبت قشرة من القداسة، تزداد قساوة
كلما تراكم الزمن.

✻ نهى الكلمة الافتتاحية التي ألقاها السيد الوزير في المنتدى الحواري الذي أقيم في مكتبة الأسد
الوطنية في دمشق بين (١٢ و١١ تشرين الثاني ٢٠١٥م).

إنَّ أقدس المقدسات هي حياة الإنسان. منذ بدأ الوعي البشري مترافقاً بأسئلة الوجود، وقلق المصير، كانت حياة الإنسان وجوداً وخلوداً هدف السعي الفكري الباحث عن إجابات حول الكينونة، والسيرورة، والسيرورة. ولأن الحياة مقدسة فلا يجب أن تكون وقتاً من ندم!! وهي - لا شك - ستكون كذلك إن كانت مجرد زمن يهدره من لا يجيد إغناء الحياة، وصناعة المستقبل. فهل أسسنا ثرواتنا البشرية، على توجهات ومفاهيم تخدم مبدأ قدسية حياة الإنسان، وتعمل على الاستفادة القصوى من طاقاته؟

إنَّ المحنة السورية التي نعيشها، لا تساعد على القناعة بنجاعة الأساليب والوسائل، وإن اتفقنا على صحة الأهداف ونبليها. متى كانت الهوية مسألة ملتبسة في أذهان السوريين، حتى تمكن الخطاب التحريضي البغيض، من استدراج الغرائز، وصولاً إلى إقدام سوريين، على طلب التدخل العسكري الأجنبي ضد بلادهم وشعبهم؟ متى كان الموقف من السلطة السياسية دافعاً للاصطفاف ضد الوطن، وللعمل على تمزيقه، بذريعة مناهضة السلطة؟

متى كان المثقفون دعاة علنيين لموقف انتهازي، يلقي جانباً كل ما كانوا ينظرون به على غيرهم من مبادئ وقيم، من أجل حفنة مالٍ مقبوض من شرايين شركائهم في الولادة، والحياة، والمصير؟

هذه الأسئلة على فجائعتها. لا تحتمل أكثر من جوابٍ صادمٍ حاسم: حدث ذلك لأننا لم نؤسس بنية الإنسان المعرفية والثقافية والأخلاقية، على نحو يمكنه من الاستجابة لتحديات الحياة، ويساعده على فهم أعمق لإيقاعاتها المتبدلة، وعلى التفاعل الإيجابي مع مستجدات العصر، بلا تعصب يقود إلى الجمود والانغلاق، ولا انفتاح ساذج يدفع إلى الذوبان والتلاشي!!

لا تراث الأجيال مفاهيم الحياة، وإنما تتعلمها. ولم نكن معلمين صادقين مع تاريخنا، وناجحين مع مستقبلنا، فيما حاولنا تعليمه لأبنائنا. هكذا يقول الحاضر محدراً من خسارة المستقبل!!

هل يقرأ طلابنا مناهجهم ليتعلموا أم لينجحوا؟! هل تمثل شهادتنا تعبيراً مرموقاً عن مستوى علمي متميز، أكثر مما تمثل قناعةً بالحق المكتسب، في الحصول على فرصة العمل؟! التزامنا بالقانون مؤسس على الخوف، أكثر مما هو ناجم عن الاحترام والقناعة، والقانون، في أعلى مراحل الالتزام به، يتحول إلى أخلاق، لكنه يحتاج إلى البيئة التي تعزز رده الذاتي، وإلا كيف نفسر التزام السوري، خارج بلاده. بكل قوانين البلاد التي يعيش فيها، وسعيه لتجاوز القانون في سورية؟ خطابنا، بكل مكوناته السياسية، والتعليمية، والثقافية، يعتمد التلقين ولا يفكر. مجرد تفكير، في أنه قد لا يكون مستساغاً أو متفقاً عليه! ولذلك فهو يفقر إلى المصادقية والجاذبية اللتين تحرّضان العقل على الاستجابة له، والتجاوب معه. كلنا مسؤولون عما فيه وعليه حالنا، وكلنا مدعوون لابتكار ما يساعدنا على الخروج من هذه المحنة، وعلى التأسيس لمرحلة يكون فيها الفرد رافداً للمجتمع، لا عبئاً عليه. لقد كان، وسيبقى، الاستثمار في الإنسان، أعلى وأرقى أشكال الاستثمار، ومؤسساتنا وأدواتنا بالغة التأثير، عندما نستثمرها على النحو الذي يكفل تحقيق أعلى ريعية وطنية ممكنة. إن الإرهاب هو اللغة المسلحة لأزمنا الثقافية والأخلاقية، ونحن ندرك أن مواجهتنا في هذه الحرب الكونية الظالمة على سورية، هي مواجهة ثقافية، ضد عقل ظلامي إغائي، يستهدف الإنسان وجوداً، وهويةً، وحاضراً، ومستقبلاً. ولأن وقت السوريين من موتٍ وغربة، يجب أن تحتشد العقول، وتتفاعل الأفكار، بحثاً عن سماواتٍ تتسع لطموحات الياسمين، وبمقدار ما نفهم حاضرتنا وحاجاته، بمقدار ما نتحكم بمستقبلنا ونستجيب لمقتضياته!

وإذا كان هذا المنتدى يسعى لرصد إشارات أولية للطريق إلى المستقبل، فقد يكون من الملائم أن يضع في الاعتبار أن أجيالاً ثلاثة ستكون تحت مجهر البحث. فهناك جيل متقدم في التجربة، مستقر القناعات، وليس بوسعنا إعادة إنشائه من جديد، ولربما ينبغي علينا أن نتجنب تأثيره السلبي ما أمكن. وهناك جيل ما نزال نمتلك القدرة في التأثير عليه نسبياً، وفي تصويب بعض مفاهيمه، ولا ينبغي أن يحبطنا تعدد المحاولات، وصعوباتها، لأن في هذا الجيل طاقات خلاقة لا يجوز إهدارها، مهما كان تصويب مسارها شاقاً. وهناك جيل هو الأمل، والأمل لا يتحقق بمجرد الرغبة.

هذا الجيل ينبغي أن ينشأ متحرراً من كوابح العقل، يرافق الضوء في مسارب الكشف عن يقينه، ويعبر الزمن بوعيه لا بسنيته.

جيل الأطفال جبل الصباح، بمقدار ما تتراكم عليه الشمس، بمقدار ما تتسع السماء. فليكن جهدنا خالصاً لوجه الطفولة، حتى يكون المستقبل خالصاً لنا، فلا معنى لإعادة إعمار الحجر قبل إعادة بناء البشر!

وإن كنا نتوجه بحزم وتصميم إلى إعادة إعمار سورية، ينبغي أن نؤسس هذا التوجه على قاعدة صلبة، هي إعداد المرأة، فهي التي تهب الحياة لأجيالنا، ومن أجدر من الحياة بحماية أبنائها؟ نحن أمة لا تفتقر إلى القامات الشامخة، وإنما إلى الإيمان بقدرتنا على ابتكار هذه القامات.

أمة الوليد، والرشد، وزهير بن أبي سلمى، والمتنبى، وأبي تمام، وابن حيّان، هي ذاتها أمة حافظ الأسد، وبيشار الأسد، وحسن نصرالله، وفارس الخوري، ويوسف العظمة، وماري عجمي، وبيدوي الجبل، ونزار قباني، ونازك العابد، وعمر أبي ريشة، ومحمد سعيد رمضان البوطي، ومحمد الماغوط، وغيرهم، وغيرهم..

أمة تنبع من أحشائها كل هذه الجبال، جديرة بأن ترافق البحار إلى تخوم المدى، وأن يتكئ الفجر على أكتافها واعداً بالصباح.





و.ع.سلي القِيم
رئيس التحرير

الرَّها، مدينة المياه المتدفقة^٣

تعدّ مدينة الرَّها (أورفا) القديمة، من أمهات مدن شمال سورية، وهي مكان مولد الأدب السرياني، ومركز انطلاق الحركة التجارية والعلمية والأدبية على مدى قرون عديدة، وقد عرفت بماضيها التليد ورجالاتها العظام، أمثال: مار أفرام، ومار يعقوب، ومار رابولا، وقد ذكر العلماء أن اسمها مشتق من شكل مشوّه لكلمة يونانية وتعني «المدينة» ذات المياه المتدفقة الجميلة، أو هي مشتقة من جذر سامي urh (ماء)، وفي العربية «وريحة» أي ذات المياه الطيبة أو المروية جيداً، وعلينا أن نأخذ هذه النظريات بعين الحيطه والحذر، لأنها تفترض أن المدينة اكتسبت اسمها بعد العصر السلوقي فقط، وهناك إشارات كثيرة إليها منذ العصر الكلداني.

إنّ تقاطع تيارَي الحضارتين الشرقية والغربية في الرّها، أوجدا جواً نشطاً وحيوياً في هذه المدينة الراقية، فقد كان بلاطها الملكي في فترة زمنية طويلة ملتقى المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء والحرفيين والفنانين، وكان للرّهاويين ميل حيوي للموسيقى في الأزمان القديمة والمتأخرة، لذلك ليس غريباً أن يكون «أورفيوس» وقيثارته السحرية، من المواضيع المحببة والرئيسة للوحات فسيفسائية كثيرة اكتشفت في الرّها ومنطقتها.. وعلينا عند الحديث عن هذه المدينة ألا نتردد في أن نعزو إليها نشاطات أدبية مليئة بالحيوية والتجدد وفي أدب «برديسان» أفضل الأمثلة، فهو الذي يقول: «إذا رغبت في العلم، فمن المفيد أن تأخذ العلم من الكبار، ولكن إذا رغبت في أن تعلم، فليس من الضروري أن تسأل الناس شيئاً بل أغرهم كي يسألك هم ما تريد.. إنه شيء حسن أن تعرف كيف تسأل الأسئلة».

وهو القائل: «إنّه لمن الأسهل أن تفعل خيراً، من أن تمتنع عن الشر، لأن الخير هو جزء من الإنسان، ولذلك يبتهج عند فعله، ولكن الشر هو نشاط للعدو، ويفعل الإنسان هذه الأشياء القبيحة عندما يكون مضطرباً ومريضاً في طبيعته..».

لقد أوجد «برديسان» ترانيم رائعة، وأرفقها بالموسيقى، وبقيت جواهر نادرة حتى يومنا هذا، وقد وجد فيها علماء الموسيقى ذلك الخليط السحري الذي يشفي العليل، ويقدم غذاء الروح..

وتظهر المرأة في لوحات الفسيفساء والنقوش البارزة على الحجر في الأضرحة الكهفية في المكتشفات الأثرية التي اكتشفت في الرّها، في أوضاع مهندمة ومحترمة، وفي صورة العائلة نجد الابنة تقف مع أشقائها إلى يمين والدها، مما يدل على علو مكانتها في السلم الاجتماعي.. وتبرز في الرّها شخصية القديس أفرام، الذي يعد أشهر الآباء والأدباء في القرن

الرابع الميلادي، فقد أَلَف ألف ترنيمة «فيما يخص الفردوس» و «ضد الهرطقات» وقد عاش مار أفرام سنواته العشر الأخيرة في الرها، وبموجب الأسطورة عمل خادماً في حمام عند أول مجيئه إليها، غير كان واعظاً نشيطاً، ومرشداً ناصحاً للقادة.. يقول أحد كتّاب سيرة حياته: أنه كانت ثقة إخوانه الرهاويين به عظيمة، حتى إنهم طلبوا إليه أن يُشرف على أعمال إغاثة الفقراء، أثناء المجاعة التي حصلت أواخر أيام حياته، وقبل أن يوافيه الأجل في سنة (٣٧٣م) طلب أن يدفن بين قبور الفقراء المعدمين، ولكن بعد فترة من الزمن نقلت رفاتهِ إلى مكان دفن أساقفة الرها، وظل هذا الرجل القديس يبجل تحت اسم «خضر الياس» في أورفا حتى الفترة الأخيرة من المسلمين أيضاً..

كان مار أفرام يتجنّب الحياة الاجتماعية في المدينة، ويقال إنه عاش في أحد الكهوف، التي لا حصر لها في التلال خارج مدينة الرها، وربما كان هذا السبب الذي أكسبه الشهرة كناسك، ولا ريب في أنه كان يعطف على حياة التقشّف والرهبنة، وفي رسالته للنساء الذين كانوا يملؤون التلال المجاورة، يحثّهم على حياة العزلة والإيمان والصلاة، كما فعل يسوع (عليه السلام) في البرية من دون خوف من الحيوانات المفترسة أو الجوع، وعليهم ألا «يتلطفوا بوحل الخطيئة في المدينة لأنهم ألقوا عن كواهلهم، نير العالم، وطغيان الممتلكات» و «ألا يرهبوا صوت أولئك الذين بيدهم السلطة، كما يفعل مالكو العقارات والثروات» ولكن مار أفرام كان رجل فعل أيضاً، ولديه اعتبار عظيم لعلم الآخرين حتى لو كانوا أعداءه، وكان كاتباً غزير الإنتاج بصورة غير عادية.. لقد تدفق بسيل من المواعظ الشعرية الموزونة والترانيم والتعليقات والخطب التفسيرية، التي كانت تترجم بسرعة إلى اليونانية والأرمنية والقبطية والعربية والحبشية واللاتينية، وامتد أثرها

ليس في جميع أنحاء بلاد ما بين النهرين وسورية فقط، بل في جميع العالم المسيحي، وكان مار أفرام مطلقاً على أعمال الفلاسفة الإغريق، وكان بلا شك سيّد الأسلوب السرياني..

يقول في مدح الرها: «أيتها الرها المليئة بالعفة والحكمة والذكاء المُسرّيلة بالفتنة والحكم السليم، المحلاة بنطاق الإيمان، والمُسلّحة بخوذة الحق الذي لا يتبدّل».



عند الحديث عن الفكر والأدب في مدينة الرها، لا بد من الإشارة إلى «رابولا» الشهير الذي ولد في مدينة قنسرين قرب حلب، ترك ممتلكاته، ليصبح ناسكاً معزلاً، واجتاز فترة من التقشف ثم عين مطراناً للرّها نحو (٤١١م). كان بسيطاً في لباسه وطعامه وآنية مائدته.. ولم يبن «رابولا» كنائس جديدة كأسلافه، بل بنى عوضاً عنها ملاجئ للعجزة والمرضى المحتاجين رجالاً ونساءً، وقد تصرّف تجاه الهراطقة والمنشقين بحيوية مميزة، وكان كاتباً، ولكن لم يبق إلا القليل من كتاباته الأدبية..

كانت الرها، وفق ما أورده «ج.ب. سيفال» في كتابه «الرّها، المدينة المباركة» موطن السريانية الكلاسيكية، ومن المعتقد أن سكانها كانوا يتكلمونها ويكتبونها في أحسن وأكمل حالاتها، حول ذلك يقول «ديونيسيوس التلمحري» إن جذر أو أساس اللغة السريانية، أي الآرامية، هي الرّها. ويقول يعقوب الرّهاوي في هذا الموضوع: «لقد توافد الطلاب على الرّها ليتعلموا الخط وعلم النسخ الصحيح. ومنذ تاريخ قديم، شغلت عملية الترجمة إلى اللغة السريانية طليعة علماء الرها، وكانت مدارس الرّها المسؤولة عن ترجمة أعمال «ديودورس الطرسوسي» و «بولس السميساطي» و «سويرس الأنطاكي».. كما تمّت في الرّها عمليات الترجمة العكسيّة، من

السريانية إلى اللغات الأخرى، وقد تكون قصة أهل الكهف الشهيرة، أول أعمال الترجمة من السريانية إلى اليونانية، وأعمال «مار أفرام» التي ترجمت في الرّها إلى عدة لغات بعد وفاته بوقت قصير..

شاعر سرياني، أمضى سنوات حياته الباكرة، وتلمذ على يدي أحد تلامذة «مار أفرام» في الرّها، يدعى «إسحق الأنطاكي» وبعد ذلك ذهب إلى أنطاكية وتوفي فيها عام (٤٦٠م).. كانت كتاباته غزيرة، يقرّع في كثير منها النساء المنافقين، الذين يطيلون شعورهم خلافاً لنظام تعليمهم، ويتجولون في المدن ليجمعوا الصدقات.. ويتشوقون لراحة بطونهم، وينتقلون من دير إلى دير ينشدون دوماً ولأثم جديدة، كالغرباء..

وهناك قطعة من الشعر لإسحق الأنطاكي، عنوانها «من قوة الشيطان في إغواء الإنسان» وقد كتبها في الرّها، ويوردها «سيغال» في كتابه «الرّها المدينة المباركة» وفيها يزجر النساء المؤمنات بالخرعبلات في المدينة فيقول: «إيمانهن ليس عظيماً، وأخطأتهن جسيمة.. إنهن يلتجئن إلى النساء ليمسحوهن بالزيت، ليس لأن النساء رجال أتقياء، ولكنهن يقلن: إنهم سيشفوننا أكان بالسحر أو بالعزائم، ومع أن الناسك أحق متعجرف تهرع إليه نساء حمقاوات، يركضن إلى بابه متنكرات، عديمت الحب، ويقلن في أنفسهن: مهما يكن فإنه يستنبط شيئاً.. سيطرده الشياطين من أبنائنا».

أمّا يعقوب السروجي، فقد كان الأقرب إلى الرّها، ولد عام (٤٥١م) في سروج التي تبعد أربعين كيلو متراً جنوب غربي الرّها، عاش حياته في بلده، وكان يُدرّس في الرّها، وترك مجموعة من رسائله، التي تعد ذات فائدة كبيرة، وقصائد كثيرة، أكسبته لقب «مزممار الروح القدس، وقيثارة الكنيسة المؤمنة».. ويحكى أنه في عام (٥٢١م) استدعاه المطران بولس في

الرّها، ولبي النداء.. ووصل إلى دير الفرس، الذي يبعد ستة أميال عن الرّها، فرأى هناك رؤية، أوحى إليه أنه سيموت خلال يومين، فرجع إلى بلده ورتب أمور كنيسته، وتوفي في الوقت الذي أنبأ فيه حلمه..

وهناك رسالة كتبها يعقوب السروجي، موجهة إلى رهبان «مار باسوس» قرب آفاميا يقول فيها: «المودة كالذهب، ولكن الإيمان كاللؤلؤة، فمن أين أتيت أيتها اللؤلؤة؟.. إنك تفوقين أسرار الضياء، ومسرلة بالجمال والبهاء.. التجار يشتهونك ولا يشبعون أبداً من النظر إليك..»

وتجيب اللؤلؤة: «أنا ابنة النور، وبداخلي تتشكل صورته.. تركت العُلا، ونزلت إلى أعماق الهاوية ولمستها.. أنا نداوة القبة الزرقاء، ولدت في الرحم العظيم.. ركض البرق أمامي، والرعد زميلي، وحفرتني السحب في مسالكها، وحملتني الرياح وأنت بي، وأنا مكسوة بضباب النور، نزلت من بيت أبي، وتشوّق البحر للقياي، واستقبلني.. رحم الظلمة حملني ولكن لألائي لا ينطمس..»

وينذر يعقوب السروجي بأن حب الذهب وحده سيمكّن الشيطان من إرجاع حكم عبادة الأصنام..



كان قادة الرّها، كما تشير الدراسات التي كتبت عنها، من المواطنين والوجهاء الملاكين، ومنهم ينتخب أعضاء لمجلس المدينة، ولكن المهنة التي كانت الثروة تستمد منها أكثر ما يكون من السرعة هي التجارة، وكانت السلطات الرومانية حريصة على السيطرة وتشجيع سير القوافل بين بلاد فارس والإمبراطورية التي كانت في زمنها المتأخر تجبي ضريبة جمارك بنسبة (١٢,٥%) على الواردات والصادرات، وكان هناك في زمن «ديوقليسيان» طريق تجارة رئيسي إلى فارس يمرّ عبر نصيبين على حدود الأراضي الرومانية.. أما نقطة الجمارك البيزنطية فقد كانت في «كالينيكوس»

(الرقّة) في بداية القرن الخامس الميلادي، وكان موقع الرها على الطريق الرئيسي إلى نصيبين، مصدر فائدة لا يستهان به لمواطنيها.. إنّ السلعة الرئيسة في التجارة كانت الحرير، وكان يصل إلى أسعار عالية فاحشة في روما.. صحيح أن بعض الرومان كانوا يعتبرون استعماله عملاً مُخَنَّثاً، بحيث أن الإمبراطور «أورليان» لم يلبس الحرير، ولم يسمح لزوجته بلبسه أيضاً.. ومهما يكن، فعندما غدت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الشرقية، كان الطلب على الحرير نهماً ولا يقف عند حد، ويبدو أن تجار هذه الفترة كانوا يتمتعون بسلوك غير شريف، فكتب أحد أدباء الرها عن أخوين كانا تاجرين رحالين، يحملان تجارتهم ما بين القسطنطينية وبلاد فارس، ثم يعلّق بمغزى قائلاً: «إنهما امتنعا عن الممارسات الشريرة التي يميل إلى اتباعها تجار العالم، من المساومة وحلفان اليمين بجميع أشكالها والكذب والابتزاز».

لقد اهتم سكان الرها بالطب والشفاء، وكانت حالة ومنزلة الأطباء فيها راقية، وبموجب القانون كان الأطباء كالمعلمين في المدن والقرى، معفيين من دفع رسوم المهنة، وينص القانون على أن «الأطباء يشفون الأجساد، والمعلمين الأرواح» ونقرأ في كتابات «بروكوبيوس» الرهاوي عن طبيب يدعى «اسطيفان» من أهالي الرها، فيقول: «هو طبيب ذو علم فريد، بين معاصريه على الأقل، أشفى ملك الفرس كاواد، عندما مرض وأصبح يملك ثروة عظيمة بوساطته، وكان اسطيفان قد أرسله البيزنطيون ليقنع خسرو بالانسحاب من محاصرة الرها في سنة (٥٤٤م) وادعى الطبيب أنه ربّى خسرو منذ طفولته، وأنه نصح والده أن يعينه خليفته على العرش».

وكان لأصحاب الحرف والصناعات التقليدية في الرها هيئة اجتماعية معترف بها، وجمعيات نقابية، والإشراف عليها كان صارماً، وصنع الخبز كان عادة من

مهام النساء، وللزراعة دورها في مجتمع الرها، فهي مصدر الرزق، ويصف مؤرخ السهل الواقع أمام سفوح تلال الرها إلى الجنوب والشرق بأنه: «أرض خصبة، وكان يروي رياً حسناً فينتج محاصيل وفيرة من الحبوب والخضار والفواكه، وكان يتضمن مزارع وقرى عديدة» وكان القروي إما مزارعاً مستقلاً، أو عاملاً زراعياً (فلاحاً) وكثيراً ما كانت معيشة المزارعين متزعزعة وغير مستقرة..

كانت البيوت تبنى في الرها حول فناء مركزي، والطابق العلوي يوصل إليه بوساطة درج خارجي، وكانت الأسطحة منبسطة، والبيوت قريبة من بعضها، حتى كان بالإمكان القفز من سطح إلى آخر، كما فعل القائد البيزنطي عندما فرّ من جنوده الثائرين في سنة (٥٠٥م)..

أما العمارات الأكثر أهمية ومتانة فقد كانت من القرميد أو الحجر المخصص بالجير، وأكوخ الفقراء كانت تصنع من الصلصال، ويبدو أن استعمال الخشب في البناء كان باهظاً، ومع ذلك فقد عاش أثرياء الرها في حالات من البذخ، وكان للمؤرخين السريان صبر قليل عليهم، فلم يكتثروا من انتقادهم، ولكنهم ذكروا أن الفقراء في الرها عاشوا على شفا الجوع بصورة دائمة تقريباً.. ففي عام (٤٩٩م) اتهم الجراد جميع المحاصيل، وحلت المجاعة في السنة التالية، وتدفق أهل الأرياف إلى المدينة، وهجر العاجزون والمرضى والنساء والأطفال القرى يحاولون الحصول على لقمة العيش بالتسوّل في شوارع الرها، يقول أحد كتّاب الرها في وصف حالهم: «أولئك الذين تركوا في القرى كان بعضهم يأكل الكرسيّة وآخرون يفلون حبّات العنب الساقطة الداوية.. والذين في المدينة كانوا يتجولون في الشوارع يلتقطون أوراق وسيقان الخضراوات القذرة بالوحد ويأكلونها، وينامون في الأروقة والشوارع، وينوحون أثناء الليل والنهار من غصّات الجوع.. كانت المدينة بأكملها تعجّ بهم، وبعدئذ راحوا يموتون في الأروقة والطرقات».. لعن الله الفقر ومسبباته، ونتأججه..

الترانيم والحكايات الشعبية في أدب الأطفال



ترجمة وإعداد: د. ملكة أبيض



الترانيم والحكايات الشعبية جزء من الفولكلور. فبدءاً من الطفولة المبكرة يستمتع الأطفال بالترانيم، ومع النمو يبدؤون بفهم الحكايات الشعبية مثل حكايات الحيوان، والجن، والحمقى، والأبطال، والخرافات، والحكايات الطويلة... وهذه الخلفية الأدبية تشكل أفكارهم حول كيفية عمل القصص.

أولاً: الترانيم Nursery Rhymes

تشكل ترانيم «الأم الإوزة» وغيرها أساس التراث الأدبي لدى العديد من الأطفال.

✽ أديبة وناقدة وأستاذة التربية في جامعات عربية.
العمل الفني: الفنان علي الكفري

خصائصها: الكلمات الإيقاعية للترانيم تقوّي حسّ الطفل اللغوي، وإيقاع اللغة: الضربة، والنبرة، والصوت، واللحن، يعكس الأصل الشفوي ويسحر أذن السامع.

والخاصة الثانية للترانيم هي الاستخدام المتخيل للكلمات والأفكار؛ والثالثة، هي البنية المكثفة التي تنشئ المشهد بسرعة، وتكشف على الفور عن الحكمة. وهكذا فإن توكيد الفعل، والاقتصاد في الكلمات ينتجان عن التريمية التي تتشد بصوت مرتفع على شفاه عدّة أجيال قبل أن تصل إلى الطابعة. وخلال انتقال الأشعار من منشد إلى آخر يجري شحذها وصلها إلى أن تبلغ بساطتها الأخيرة.

كما أن فطنة أشخاص الأم الإوزة وغرابتهم تفسران شعبية هذه الترانيم واستمرارها. فالأطفال يثمنون اللامعنى المضحك في ترنيمة كهذه:

Peter, Peter, Pumpkin eater
Had a wife and couldn't keep her,
He put her in a pumpkin shell,
And there he kept her very well.

بيتر، بيتر، آكل اليقطين،
عنده زوجة، لم يستطع الحفاظ عليها،
وضعها في قشرة يقطينة،
وهناك حافظ عليها جيداً.

ومما يثير العجب أن الإيقاع والقافية في الترانيم، وبنيتها المكثفة، إضافة إلى أشخاصها الشديدي الجاذبية.. كل ذلك يشكل نماذج سخية للأطفال الصغار الذين يتعلمون اللغة. فمن خلالها يحصل الأطفال على معلومات حول الأشخاص، والشيئات، والبنى، وتلك العناصر تصبح أساساً لتربيتهم الأدبية اللاحقة.

وفي الوقت الذي يترنم الأطفال بالعبارات، ويقلّدون الكلمات غير ذات المعنى، ويرددون إلى ما لا نهاية القوافي المتجانسة المكررة، يطور الأطفال أيضاً وعياً لفظياً - أي قدرة على تقطيع الأصوات في الكلمات المنطوقة، وهو ما يعدّ متطلباً أساسياً لتعلم الأصوات، ويشكل قاعدة للمهارة في القراءة. فالتعرض للترانيم يحسّن مهارات الأطفال الصوتية وبالتالي قدراتهم في القراءة. وما هو أكثر أهمية أن الأطفال يستمتعون بألعاب الكلام.

إنّ الترانيم لا تعرف حدوداً إقليمية، أو عرقية، أو ثقافية، أو لغوية. والناس من مختلف أرجاء العالم دندنوا أبياتاً متشابهة لأطفالهم. وسحر «الأم الإوزة Mother Goose» ما زال ينتقل من جيل إلى آخر شفويّاً، على الرغم من أن عدّة مجموعات من الترانيم أصبحت متوافرة في الأسواق.

خصائصها: للحكايات الشعبية شكل فني لكنه بسيط مشتق من التقليد الشفوي. والحبكة فيها واضحة مباشرة. والبداية المختصرة تنشئ الأشخاص، والإطار، والمشكلة. ويقوم النص بعرض المشكلة، ثم يتحرك نحو الذروة، وتأتي النهاية لتحل المشكلة دونما تعقيد. فالحكايات الشعبية، في الواقع، تمثيلات مصغرة.

إن حبكة الحكاية الشعبية تتفرج دونما غموض: فالأشخاص الطيبون، طيبون بشكل مطلق، والسيئون سيئون إلى أبعد الحدود، والعدالة تسود من دون تسوية أو حلول وسطى. والمشكلة أو الخلاف يجري تحديده باكراً، ولا يبقى في النقل الشفوي إلا الأحداث التي تبنى عليها المشكلة، أو التي تضيف إليها بعض التعقيد. إن حل المشكلات يتم بصورة نهائية ومختصرة ويقود إلى النهايات الكلاسيكية السعيدة.

ولما كانت الحكايات الشعبية تهتم بالحدث، أكثر مما تعنى بالشخصية، فإن الأشخاص يوصفون باقتصاد، بتجسيد ملمح بارز واحد في العادة. وهؤلاء الأشخاص أحاديو الأبعاد، يتبلورون في أشكال: الأحمق، أو الحكيم، أو الشرير، أو الخير. ويتصرفون جميعاً بطرق يمكن التنبؤ بها، ونادراً ما يتغيرون خلال مجرى الحكاية.

ليس للترنيمه معنى حقيقي بالطبع، ولكنها تمتع الطفل، وتحقق ما ذكرنا من أهداف لغوية وأدبية وفنية.

ثانياً: الحكايات الشعبية Folktales

استمتع الصغار والكبار بالحكايات الشعبية على مدى أجيال لا تحصى. هذه الحكايات التي تضم حكايات الحيوان الناطق، والحكايات الضاحكة، وحكايات الجن، والحكايات الطويلة، هي سرديات ينتصر فيها الأبطال (والبطلات) على الشدائد بفضل خصال حميدة كالذكاء، أو الشجاعة، أو مساوئ محبة كالسذاجة المطلقة. وثيماتها، الواضحة على الرغم من أنها لا تذكر دائماً بصراحة، تعبر عن قيم الناس الذين أوجدوها. وقد رَوّت المؤلفتان «أليس ماكجيل وفيرجينيا هاملتون Alice McGill & Virginia Hamilton» الحكاية الأمريكية الأفريقية التي يطير فيها العبيد نحو الحرية، بلغة تأسر روح شعب يتوق للحرية. وهذه الحكاية مدرجة في مجموعتهما القصصية بعنوان «استطاع الشعب الطيران: حكايات شعبية أمريكية أفريقية» وتصوير «ليوو ديان ديون Leo & Diane Dillon». وهذه المجموعة تمثل تعبيراً قوياً عن التعزّي بالحرية المتخيلة.

أنواعها:

١- حكايات الحيوانات الناطقة،

والمحتالين:

في هذا النوع من الحكايات تتحدث الحيوانات مع الكائنات البشرية أو مع بعضها بعضاً. والحيوانات الناطقة، شأنها شأن الأشخاص من البشر، قد تكون طيبة أو شريرة، حكيمة أو سخيفة. أما الطيبة والحكيمة منها فهي تلقى المكافأة.

إنَّ الأطفال الصغار، بشكل خاص، يحبُّون حكايات الحيوانات الناطقة. وهي تأتي من كل مكان. فجيسكا سهامي «Jessica Suhami» تعيد سرد حكاية تقليدية من الهند بعنوان: «لا عشاء! قصة العجوز واليقطينة! No Dinner! The story of the old woman and the Pumpkin» فالمرأة العجوز استطاعت، بمساعدة حفيدتها التفوق على دبٍّ، وذئبٍ، ونمرٍ كانوا يريدون افتراسها عشاءً لهم. كما أنَّ «ليزبيت زويرجر» «Lizbeth Zwerger» وضعت رسوماً لحكاية الأخوين غريم الكلاسيكية «موسيقيو مدينة بريمن The Bremen town musicians» التي ترجمتها «أنثيا بيل Anthea Bell» إلى الإنجليزية، وفيها يتفوق كلب، وقطة، وديك، وحمار على لصوص، ويعثرون على بيت يأويهم...

واللغة في الحكاية عامية، مباشرة، حية تعكس الإرث الشفوي للحكاية. وهي خفيفة على اللسان نظراً لكونها شُحذت وصُقلت خلال قرون.

وعلى الرغم من أنَّ الحكايات الشعبية تستخدم لغة دقيقة، فإنَّ الإطار اللغوي يبقى غائماً، والقصص تحدث في أزمان غير محددة، وفي أماكن تذكر مع أقل قدر من التفاصيل، وبذلك تتيح للفنانين أن يتركوا مخيلتهم تحلق كما تشاء. فالحكايات الشعبية لا تعرف حدوداً جغرافية أو زمنية. إنها تأتي إلى الحياة أينما كان، ولكل جيل جديد من الأطفال.

وفيما يلي تلخيص لخصائص الحكايات الشعبية:

- الأشخاص يمثلون ملامح مثل الذكاء، أو الشجاعة، أو السذاجة المفرطة.
- الأشخاص يوصفون باقتصاد.
- خطوط الحبكة مباشرة، ولا تظهر فيها قضايا جانبية (وهذا يختلف بحسب الثقافات).
- يشوب الحكايات القليل من الغموض.
- يتم تحديد الخلاف فيها باكراً.
- الحل فيها نهائي وقاطع.
- الثيمات تعبر عن قيم الجماعة التي أوجدتها.
- اللغة عامية، مباشرة، ملتصقة بالحياة.
- الإطار المكاني والزمني غائم، وهو يختلف عما تمثله الرسوم في الكتب.

إنَّ الأطفال يثْمَنون الحالات الفكاهية واللغة الإيقاعية في الكثير من حكايات الحيوان الشعبية، وهي شائعة في قصص من ثقافات عديدة. لقد كتب «جوليوس ليستر Julius Lester» (٢٠٠٤): إنَّ الخاصة الأساسية في حكايات الاحتيال هو غياب النزعة الأخلاقية. ويقول «العم ريموس Uncle Remus» «إنَّ المخلوقات لا تعرف ما هو خير وما هو شر. وهي لا تميز بين الصواب والخطأ. إنها ترى ما تريد، وتحصل عليه إذا استطاعت ذلك بالسنارة أو الخطاف» وربما كان المحتالون وقصصهم يملكون جاذبية لدى الأطفال لهذا السبب وحده: وهو أن المحتالين سيعملون أي شيء للحصول على ما يريدون.

٢- حكايات الحمقى Noodle head Tales:

تركز قصص الحمقى الهزلية على الأشخاص السذج الذين ينقصهم الحكم السليم. وفي مجموعة «قصص الحمقى من أرجاء العالم Noodle head stories from around the world» لـ «موريتز أ. جيكندورف Moritz A. Jagendorf»، يصف المؤلف الأحمق بأنه إنسان مضطرب لا يستخدم الحس السليم، ولا يتعلم من الخبرة. مثال ذلك حكاية «نقانق Sausages» لـ «جيسيكا سوهامي Jessica

Suhami». وهي حكاية مسلية، تعيد فيها الكاتبة سرد الحكاية الكلاسيكية المعروفة حول «الرغبات الثلاث». وخلاصتها أن صياداً اصطاد سمكة، وحين مضى بها إلى البيت انقلبت إلى جنية، ووعدته - على الفور هو وزوجته - بتحقيق ثلاث رغبات لهما إن أعادها إلى البحر. وسرعان ما أبدى الصياد رغبته في كمية من النقانق، فحضرت النقانق. ولكن الزوجة غضبت وصرخت في وجه زوجها؛ ليتها تلصق بأنفك، وسرعان ما التصق حبل النقانق بأنف الزوج. عند ذلك تدخلت الجنية قائلة: بقي لكم أمنية ثالثة فأحسننا اختيارها. وبناء على رجاء الصياد، وافقت الزوجة على أن تكون رغبتهما الأخيرة، انتزاع حبل النقانق من أنف الصياد. هذا ولكل جماعة ثقافية حكاياتها الخاصة عن الحمقى.

٣- حكايات الجن Fairy Tales:

تتضمن حكايات الجن سحراً، وعلى الرغم من أن بنية حكايات الجن لا تختلف عن غيرها من الحكايات الشعبية، فإن طابعها السحري العميق يضعها في فئة خاصة. فالأقزام، والجنيات العرَّابات، والكائنات السحرية الأخرى تتدخل في حصول الأشياء. وإذا وضعنا السحر جانباً، فإن تلك الحكايات ترسم رؤية مثالية للحياة مبنية

حكايات الجن مشكال (Kaleidoscope)، وأحداثها قطع الزجاج الملون في المشكال. فما إن تهزه حتى تسقط تلك القطع في تنوع من الأشكال الجذابة. وبعض الأشكال أكثر ملاءمة من الأخرى، لذلك تستمر بقوة، وتنتشر على مدى أوسع. ونحن نعرف اليوم أن هناك أكثر من ١٥٠٠ رواية مختلفة لهذه الحكاية الخالدة. وقد جمع «بول فليشمان Paul Fleischman» ستاً وثلاثين رواية مختلفة لهذه الحكاية من سبع عشرة ثقافة عبر العالم في كتابه الذكي «الخف الزجاجي والحذاء الذهبي: سندريلا عبر العالم Glass Slipper, Gold Sandal: A world wide Cinderella» الذي وضعت رسومه المعاصرة «جولي باشكيس Julie Poschkis». وفي هذه الرسوم جرى تنظيم بعض أجزاء الحكاية معاً، كما لو كانت قصة متصلة تعكس عدّة روايات، ذلك أن الرسوم دمجت تفاصيل ثقافية (مع لصيقة صغيرة) تعكس أصل النص الخاص؛ وكل ذلك وضع على خلفية جرى تلوين كل قسم منها بلون مختلف من ثقافة إلى أخرى، وشكل مشكلاً من القصص يعكس في الوقت نفسه الجوانب المتنوعة والمشاركة في هذه القصة المحبوبة.

على الأمل بأن يتم الاعتراف بالفضيلة، وأن تجري مكافأة الجهد والعمل القاسي، في حين يعاقب الشر والطمع؛ ذلك أن حكايات الجن ترينا أن الشجاعة، والأمانة، والبراعة تحظى بالتقدير. والعديد من حكايات الجن متوافرة للصغار.

والواقع أن أصول هذه الحكايات غائم فيما قبل التاريخ. والعديد منها يأتي من ثقافات عديدة. والكتاب والفنانون يضخون حياة جديدة في الروايات العديدة للحكايات الشعبية القديمة. وللعديد من قصص الفولكلور مئات من الروايات تأتي من مختلف أرجاء العالم. ومقارنة الأفكار الرئيسية، والأشخاص، والقيم، لهذه الروايات المختلفة يمكن أن تشكل نشاطاً مفيداً للقراء.

وسنناقش هنا أحد الأمثلة البارزة لحكايات الجن، وهو الروايات المختلفة لسندريلا، وقد أشار إلى ذلك «م. ر. كوكس M.R. Cox»، وهو رائد في بحوث الفولكلور، خلال تسعينيات القرن التاسع عشر، في كتابه للكبار بعنوان: «سندريلا ٣٤٥ رواية مختلفة (١٨٩٣م) Cinderella: Three Hundred and Forty – Five Variants».

وفي مقدمته لمجموعة كوكس يقول «آندرو لانج Andrew Lang» «إن

عمل تمثيلي يزيد في تأثيرها . وهي تختلف عن غيرها من أشكال الأدب التقليدي بأن الحكمة وراء القصة تعلن فيها صراحة .

والعديد من الأمثال السائرة تأتي من الخرافات، ومنها «الفاصوليا واللحم في سلام خير من الكعك والعسل مع الخوف» وهو يأتي من خرافة «فأر المدينة وفأر الحقل»؛ و«البطيء الثابت ينتصر في السباق» وهو من خرافة: «السلفاة والأرنب»؛ وإحدى هذه الخرافات أعيدت روايتها وتم تصويرها بريشة «جيرى بينكني Jerry Pinkney» في «خرافات إيسوب Aesope's Fables» وفيها هذا المثل «المعرفة الجزئية قد تصنع حكاية جميلة، لكن الحكمة تأتي من الرؤية الكلية»، والخرافة مصورة في «سبع فأرات عمياء Seven Blind Mice» لإد يونغ Ed. Young. «لا تؤجل عمل اليوم إلى الغد»، وهو أحد الأمثال التي جاءت في كتاب: «الحكمة غير المقصودة: مجموعة خرافات إيسوب» لـ هيلين وارد Helen Ward. إن تضمينات كهذه، مصوغة بصراحة بصفتها حكماً، يجري تعليمها بالمجاز، أو بالترميز السردى. والحيوانات والأشياء الجامدة تتخذ ملامح بشرية في هذه القصص التي تُظهر بوضوح حكمة الدروس البسيطة.

ففي قصة من ذات الحدث الواحد، كما هو الحال في الخرافات يجري نصحن

كما أن قصة سندريلا المبنية على رواية شارل بيرو جرى تصويرها (بأجزائها وغناها) بريشة العديد من كبار الفنانين، ومنهم «باربارا ماك كلينتوك Barbara Mc Clintock» التي ضمنت رسومها تفاصيل غنية للقصر الفرنسي، ولهرة رمادية صغيرة وفيه جرت مكافأته في نهاية القصة.

أمّا الرواية الألمانية للحكاية التي عرضها الأخوان غريم، وهي أقل انتشاراً، فقد وضعت رسومها نوني هوغروجيان Nonny Hogrogian، تلك الرسوم التي اتخذت طابعاً رهيباً. ففي سبيل جعل الخف الزجاجي الصغير يدخل في قدميهما، اتخذت شقيقتنا سندريلا إجراءات قاسية: فقد قطعت إحداهما إصبع قدمها، وقطعت الثانية كعبها؛ وفي النهاية أعمتهما الحمام المنقمة.

وتضم الروايات الأخرى، النسخ الأبالاشية، والصينية، واليهودية البولونية، والمصرية، والإنجليزية، والإندونيسية، والإيرلندية، والكورية، والفارسية، والإسبانية، والأمريكية، والفيتنامية، واليونانية، وغيرها.

٤- الخرافات Fables:

حكايات قصيرة تعرض حكمة خلقية واضحة صريحة. والخرافات تقدم تعليقات تربوية حول الطبيعة البشرية باستخدام

لذلك قد يغيب قصدها عن الأطفال الصغار الذين قد يتوقفون عند المعنى الحرفي. على أن المجموعات المصورة يمكن أن تعوّض ذلك بالرسوم التي يمكن للصغار أن يفسروها بطريقتهم الخاصة.

٥- قصص الأبطال - الملاحم والأساطير:

تركز قصص الأبطال على الأفعال الجريئة للأفراد المتميزين في صراهم ضد بعضهم البعض، وضد القوى الخارجية. والأبطال يجسدون المشاعر البشرية العالمية ويمثلون النزاع الأبدي بين الخير والشر. وتسهم قصص الأبطال في تقويم للتاريخ والأدب العالميين، وفهم المثل الوطنية للسلوك، وتثمين الشجاعة والنبيل. إن الملاحم تكتب عادة شعراً وتتمثل في سلسلة من الحكايات التي تدور حول بطل أسطوري. ولعل أكثر الملاحم شهرة في العالم الغربي الإلياذة Illiad والأوديسة Odyssey لهوميروس اللتان تحدثتا عن حرب طروادة.

ويهمنا في هذا المجال أن نذكر بملحمة البطل «جلجامش» الذي دار العالم، يرافقه صديقه أنكيكو، وهو يحارب المسوخ والأشرار. إنها أقدم ملحمة مسجلة في التاريخ. وفي المقدمة التي كتبها جيرالدين ماك كوجرين Geraldine

بالابتعاد عن الزهو، والجشع، والكذب، وفي قصة «الأصدقاء الحقيقيون: حكاية من تانزانيا True friends: a tale from Tanzan'a» يروي «جون كيلاغا John Kilaga» قصة الصداقة بين فيل وجرذ، التي تأكلت حين قاد الجوع الفيل إلى سرقة حبوب الأرنب. هذه الرواية تعكس أسلوب سرد القصص التانزانانية التقليدية، من حيث كونه متعرجاً، ملتوياً وليس مرتباً على شاكلة معظم القصص الغربية.

وتعزى أصول الخرافات إلى كل من اليونان والهند. والمشهور أن عبداً يونانياً اسمه «إيسوب Aesope» استخدم الخرافات لأغراض سياسية. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يشككون في وجوده، فإن اسمه ارتبط بالخرافات منذ الأزمنة القديمة.

وفي القرن السابع عشر جاء شاعر فرنسي اسمه «لافونتين La Fontaine» فحوّل بعض خرافات إيسوب إلى الشكل الشعري.

ونظراً لأن الخرافات قصيرة، وجرت روايتها بلغة بسيطة، أعطى بعض الراشدين الخرافات للأطفال الصغار جداً، ولكنهم أخطؤوا في ذلك. فقد رأى الباحثون أن أطفال السابعة لا يدركون مغزى معظم الخرافات المعروفة. ذلك أن الخرافات بنيت من منظور النقد، والمجاز، والرمز،

العالم. وإعادة السرد هذه تستند إلى أجزاء صغيرة من قصص تعود إلى العراق القديم، وتتضمن حواشي ومقدمة.

٦- الحكايات الطويلة Tall tales:

هذه الحكايات شكل أمريكي للحكايات الشعبية، وهي مزيج من التاريخ، والخرافة، والواقع.

لقد أعطت الحكايات الطويلة للمهاجرين الأمريكيين الأوائل رموزاً للقوة، ووازت ببعض الفكاهة الوقائع القاسية للأرض غير المذلة. فالقوة المبالغ فيها، والأكاذيب الصارخة في الحكايات الطويلة أضفت طعماً إلى حياة الجهد القاسي، وخففت من صعوباتها. وبينما كان المستوطنون الأوائل يبنون بلداً جديداً، فإنهم أوجدوا أبطالاً أقوى، وأقدر، وأجرأ ما يمكن تصوره بين قاطعي الأخشاب، ورجال سكك الحديد، وعمال مناجم الفحم، وجدّافي القوارب النهرية، وعمال الصلب والفولاذ...

إنّ العديد من أبطال الحكايات الطويلة أشخاص واقعيون، ولكن قصصهم المستحيلة جعلتهم أوسع من الحياة. ف«ديفي كروكييت Davy Crocket» و«دانييل بونون Daniel Boone»، و«جونني أبلسيد Johnny Appleseed».. أدوا أعمالاً خارقة لا يجرؤ آدمي عليها؛ وهم يمثلون القوة العضلية التي طوّرت أمريكا.

Mc Caughrean لكتابها «جلجامش البطل Gilgamesh the hero»، بينت أن القصة كانت محفورة على اثني عشر رقماً تفتتت إلى آلاف من القطع على مدى آلاف السنين. وهي تروي حكاية هذا الملك السومري في ما بين النهرين (العراق حالياً). وقد جرى ترميم القطع بصعوبة على يد الباحثين وربما تكون ناقصة حالياً. وعلى الرغم من أن جلجامش كان بطلاً قوياً، إلا أنه تعذب كثيراً. «لقد جثا جلجامش على ركبتيه على شاطئ النهر وهو يتقيأ تعاسته بنشيج متواصل. وضرب معصميه الممزقين على الأرض وصرخ مثل حيوان متوحش» كما تقول الملحمة. وعلى غرار ثيمات العديد مما تلاها، تنتهي قصته كما تقول الملحمة أيضاً «مشى عبر الظلام، وهكذا رأى وميض الضياء».

في إعادة السرد التي أجرتها «كاتي هندرسن Kathy Henderson» بعنوان «لوغال باندا: الصبي الذي أمسك به في حرب Lugal Banda: The Boy who got caught up in a war» وصورتها «جين راي Jane Ray» يكون البطل والد جلجامش. وهذه الملحمة السومرية المسجلة على رُقْم قبل خمسة وأربعين قرناً، هي واحدة من أقدم القصص في

تتناول ثيمات وأفكاراً رئيسة عالمية، وتظهر بهيئات مختلفة حول العالم.

على أن الخرافات تتضمن حكماً أخلاقية معلنة بغية توجيه السلوك؛ كما أن حكايات الأبطال تكشف عن القيم والمعتقدات الثقافية.

ويعترف المعلمون في الصفوف الابتدائية بأن الفولكلور، إضافة لكونه مصدراً رائداً للمتعة لدى التلاميذ، فإنه مصدر ثمين أيضاً لتنمية اللغة، وتفهم الأدب، وتعلم الكثير حول الثقافات الأخرى. وهو يؤدي الوظائف نفسها التي نهض بها في الماضي، ألا وهي الإمتاع والتربية.

إن هذه الحكايات هي قبل كل شيء حكايات مثيرة أمتعت السامعين خلال عقود طويلة لأنها ملأى بمغامرات مريفة وأشخاص مخيفين وفي الوقت ذاته، بأبطال خرافيين ينتصرون في النهاية. وحين يشارك المعلمون تلاميذهم بهذه القصص الخالدة، فإنهم يصلونهم بالأقوام الماضية من جميع أرجاء العالم.

إن الأطفال يحبون المبالغات التي تميز الحكايات الطويلة. وهم يضحكون حين يرون عربات حمل الأخشاب الكبيرة تجلب شرائح اللحم حتى أمام أقدامهم، وتترلع عبر صينية الكعك المحلى لتطليه بالزبدة... وهم يستطيعون تصور الرضيع «بيكوس بيل Pecoce Bill» يسقط خارج عربة القطار المغطاة، ويحف نحو الذئبة الأم التي راحت تربيته مع قطيع الذئاب. فالأبطال في الحكايات الطويلة أقوى، بحيث يعرف القراء أنهم سينجحون في مواجهة التحديات. على أن ما يثير القلق هو كيف سيفعلون ذلك.

الخلاصة:

هدفت هذه الدراسة إلى التعريف بأنواع الفولكلور في أدب الأطفال، ولا سيما بالترانيم والحكايات الشعبية وفيها: حكايات الحيوانات الناطقة والمحتالين، وحكايات الحمقى، وحكايات الجن، والخرافات، وحكايات الأبطال، والحكايات الطويلة. لكل نوع من هذه الأنواع خصائصه، فالترانيم تسحر الصغار جداً، والحكايات

المراجع

- Lee Galda, Lawrence R. Sipe, Lauren A. Liane, Bernice E. Cullinan, Literature and the Child, 8th edition, wadsworth, cengage learning, U.S.

الحطيئة في مرايا التلقي



د. فايز الداية



نال الحطيئة موقعاً في الرصيد الثقافي العربي المعاصر، وهو بمقياس الشهرة يتقدم كثيراً من شعراء تراثنا، ولكن هل الصورة التي شكّلت في المحافل الأدبية وفي أوساط الجامعات والكتب التعليمية تُرضي هذا الشاعر؟ أو بعبارة موضوعية: هل هي عادلة أنصفته؟ وإلى أي مدى تصدق الملامح التي رُسمت له ولكلماته؟ فكان فيها يقوده الجشع والأموال، ويبدو بهيئة تقتحمها العين يستغلّ القصائد والأشعار ويسلّطها هجاءً على بعض من

✻ بامك وناقده وأستاذ الأدب العربي في جامعة حلب.

عمر فروخ و العصر الإسلامي عند شوقي
 ضيف وسلسلة الروائع لفؤاد إفرام البستاني
 «عدد الحطّية»^(١).

نعود إلى مرآة التلقّي عند المؤرّخين
 والنقاد العرب القدامى في القرنين الثالث
 والرابع الهجريين، وفي بؤرة هي أبرز الكتب
 التي تناولت الحطّية: «طبقات فحول
 الشعراء» لمحمّد بن سلام الجمحي و«الشعر
 والشعراء» لعبد الله بن قتيبة و«الأغاني»
 لأبي الفرج الأصفهاني، وقد قدّم كلُّ منهم
 رأيه، وتضمّنت صفحاتهم آراءً من سبقهم أو
 عاصرهم في هذا الشاعر.

اشتملت هذه الكتب على مجموعة من
 أخبار الحطّية ومتخبرٍ من أبياته المقتناة
 بها، وربطت بها آراءً قيميةً عامّةً حول آفاقه
 وأساليبه في إطار التراث. سنقرأ ما قالوه
 في شخصيته أولاً، وسنلاحظ التباين الضارب
 إلى عمق هوة قاطعة! عندما يديرون الكلام
 على شاعريّته.

يقول ابن سلام (٢٣٢هـ) على طريقتة
 في الإيجاز: «وكان جشعاً سوّلاً»^(٢)، ويجمل
 ابن قتيبة (٢٧٦ هـ): «وكيف ما كان،
 فإنّه كان رقيق الإسلام لئيم الطبع»^(٣)،
 ويقول أبو الفرج (٣٥٦ هـ): «وكان ذا شرٍّ
 وسفه»، ويذكر عبارة لأبي عبيدة - المتريّص
 بالحطّية! - (٢١٠ هـ): «بخلاء العرب أربعة

الناس، فيبذلون ما يكفّ أذاه، ويسارع آخرون
 ليستبقّوا ذاك الشرّ قبل أن يحلّ بهم، ولعلّ
 بعضاً من أبناء زمننا يتخيّلونه واحداً يشبه
 شخصيات أشرار السينما!!

مرايا عبر العصور:

لو تفحصنا مرآة التلقّي المعاصرة
 وزواياها لوجدنا أنّها في عدد من الحالات
 تختلط بِسَمْتين يضطرب معهما النظر،
 وهما سمة الاختزال المتسرّع وسمة التتميط
 القسري، فقد اختير الحطّية «جَرُول بن
 أوس» معبراً عن سطوة جائرة للهجاء في
 شعر الجاهليّة وصدر الإسلام، ولم ينصرف
 الاهتمام إلى الأغراض الأخرى كالمديح
 وإلى خصائص شعره وقدراته التعبيرية،
 بل غلب التقاطُ العلامات الشكلية السلبية
 والسلوك الناشز المنسوب إلى هذا الشاعر
 ليتحدّد الشواظ الهجائي الهدّام!!، وكأنّما هو
 يرصد الخطوات في الزوايا لينقضّ مثيراً
 الفزع! وإذا تتبعنا هذه المرأة المعاصرة
 فسنجد أنّها اقتفت أثر أقوال لنقاد الأدب
 العربي ومؤرّخيه القدماء، إضافة إلى بعض
 الغبش الذي اعتراها بقصدية سلبية لدى
 بعضهم! وقد يكون موضحاً الأمر الرجوع
 إلى ثلاثة من النصوص التاريخية والنقدية:
 تاريخ الأدب العربي «الأدب القديم، عند

قد علمتَ روايتي لكم أهل البيت، وانتقاعي إليكم، وقد ذهب الفحولُ غيري وغيرك، فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسك وتضعني موضعاً بعدك... فإنّ الناس لأشعاركم أروى وإليها أسرع، فقال كعب «ضمن قصيدة له»:

فَمَنْ لِلْقَوَافِي شَانَهَا مَنْ يَحْكُوهَا
إِذَا مَا ثَوَى كَعْبٌ وَفَوَزَ جِرْوُ
كَفَيْتَكَ لَا تَلْقَى مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا
تَنْحَلُ مِنْهَا مِثْلَ مَا تَنْحَلُ
نَقُولُ فَلَا نَعْبَا بِشَيْءٍ نَقُولُهُ
وَمِنْ قَائِلِيهَا مَنْ يُسِيءُ وَيُجْمَلُ
نَتَقَضُّهَا حَتَّى تَلِينْ مَتُونُهَا
فَيَقْصُرُ عَنْهَا كُلُّ مَا يُتِمُّهُلُ^(٦)

ويذكر رأي الأصمعي (٢١٦ هـ): «كان جشعاً سؤولاً ملحفاً، دنيء النفس، كثير الشرّ، قليل الخير، بخيلاً، قبيح المنظر، رثّ الهيئة، مغموز النسب، فاسد الدين» ولعلّ موقف أبي العلاء المعري (٤٤٩ هـ) من الحطّيبية أكّد الصورة السلبية، ففي «رسالة الغضن» تكون مرتبة الحطّيبية في الجنّة، ولكنّ القيمة الشعريّة العالية التي لم يستطع المعريّ تجاهلها لم تمنعه من النيل من صاحبها، ونقرأ:

«فيذهبُ» ابن القارح» فإذا هو ببيت في أقصى الجنّة، كأنّه حفشُ أمةٍ راعية، وفيه رجلٌ ليس عليه نور سكاّن الجنّة، وعنده

حُميد الأرقط وأبو الأسود الدؤلي وخالد بن صفوان والحطّيبية، ثم ينقل قوله وهو يَصوّر الشاعر وكأنّ الشرّ هجاءٌ بعضٌ من تكوينه لا يستطيع العيش إلّا بإطلاقه»!!:

«كان الحطّيبية بذيئاً هجاءً، فالتمس ذات يوم إنساناً ليهجوه فلم يجدّه، وضاق عليه ذلك، فأنشأ يقول:

أَبَتُ شَفَتَايَ الْيَوْمَ إِلَّا تَكَلَّمَا
بِشَرِّمَا أَدْرِي لِمَنْ أَنَا قَائِلُهُ
وَجَعَلَ يَذْهَبُ هَذَا الْبَيْتَ فِي أَشْدَاقِهِ،
وَلَا يَرَى إِنْسَانًا، إِذْ أَطْلَعَ فِي رَكْبِي أَوْ حَوْضٍ،
فَرَأَى وَجْهَهُ، فَقَالَ:

أَرَى لِي وَجْهًا شَوَّهُ اللَّهُ خَلْقَهُ
فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهِهِ وَقُبِّحَ حَامِلُهُ^(٧)»

وعندما يورد أبو الفرج رأياً سلبياً في الحطّيبية ينسبه إلى ابن سلام وأبي عبيدة، فنعود إلى «طبقات فحول الشعراء»^(٨) فلا نجد التناول السلبى، وإنّما هو رأي أبي عبيدة- الذي عرفنا تحامله على الحطّيبية في الخبرين السابقين- يقلب دلالة رؤية أدبية نقدية خطرت للحطّيبية، ووافقها عليها كعب بن زهير، فأنشأ أبياتاً يذكر الخصائص الإبداعية لكلّ منهما، وقد اجتمعا على درب الشعر:

«فبلغ من دناءة نفسه أنّه أتى كعب بن زهير، وكان الحطّيبية راوية زهير وآل زهير، فقال له:

شجرة قميّة ثمرها ليس بذاك...» وعندما يسأله يجيب: «والله ما وصلت إليه إلا بعد هياط ومياط وعرق من شقاء، وشفاعة من قريش وددت أنّها لم تكن. فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا الحطّيب العبسي^(٧)».

أمّا الشقّ الثاني من آراء هؤلاء فيذهب إلى مكانة الحطّيب الإبداعية، ونجد أنّ ابن سلام صنّف الحطّيب في الطبقة الثانية من فحول الجاهليّة مع أوس بن حجر وبشر بن أبي خازم وكعب بن زهير، ولم يسبقهم إلا شعراء الطبقة الأولى: امرؤ القيس والنابعة وزهير والأعشى، ويفتح أبو الفرج القول عنه: «وهو من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم، متصرّف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيدٌ في ذلك أجمع^(٨)»، وجاءت عبارة الأصمعي نادرة في حكم إيجابى يرفع الحطّيب فوق معظم الشعراء، فمن الصعب أن تجد مأخذاً عليه في شعره: «وما تشاء أن تقول في شعر شاعر من عيب إلا وجدته، وقلّما تجد ذلك في شعره^(٩)».

لا بدّ لنا من التساؤل عن هذا التضاد أو الانقسام بين مكانة شعريّة رفيعة للحطّيب يستظلّ بها هؤلاء! وحالة بائسة لصاحبها تنزل به إلى القاع مع الرّكّام؟ وتتضح القضية عندما نذكر أنّ هذا الشاعر تفتّحت

موهبتة وهو قريب من زهير بن أبي سُلمى يروي أشعاره، ويعايش الجذور في قصائد أوس بن حجر وبشامة بن الغدير ويصحبه كعب بن زهير، ولن يغالط أيّ من هؤلاء في قيمة شعره وهو متداول بين الأيدي، ولكنهم اتخذوا مواقف من شخصيّته وسيرته، وتركوا لنا في كتبهم أخباره والوقائع التي عايشها، وهذه ميزة تمكّننا من أن تكون لنا قراءتنا وتأويلنا، من غير أن نفع في ذلك التناقض، أو في تلك الازدواجية في المعايير التي وقعوا فيها عندما وقفوا عند شاعر يقارب الحطّيب في هيئته ومسالك حياته وهو أبو دلّامة الذي كان ابن عبد أعتق، وعاش في كنف ثلاثة من الخلفاء العباسيين هم أبو العباس السّفّاح وأبو جعفر المنصور والمهدي، على الرغم من أنّه كان يمضي أياماً في الحانات، وكما قال أبو الفرج كان «مضيّعاً للفروض، مجاهراً بذلك» فهم «يقدمونه ويصلّونه ويستطيعون مجالسته ونوادره^(١٠)» وتذكر أبياته في هجاء نفسه وأمّه وزوجته وابنته، وتروى وقائع يبتزّ فيها قضاة ورجالاً في القصر على أنّها من الطرائف تصحبها ابتسامه^(١١)، ويذكره الّأمدي (٣٧٠هـ) في «المؤتلف والمختلف»: «زند بن الجون هو أبو دلّامة. الأشجعي مولىّ لهم، كوفيّ مليح الشعر كثير النادرة^(١٢)».

تلقّي الحُطَيْيَّة في مرآة اليوم:

إنّا سنجمع أخبار الحُطَيْيَّة التي وردت في كتب المؤرّخين والنقّاد، ونكمل بعض الخطوط فيها من خلال طبيعة البنية الاجتماعية والأدبية وتفاعل النفس البشرية معها، ويظلّ تفسيرنا لجوانب منها مرتبطاً بمراحلها التاريخية، وبهذا يتمكّن القارئ من إطلاق أحكامه إيجاباً أو سلباً.

(١)

تزوَّج أوس بن مالك بن جُوَيَّة العبسي بنت رباح بن عمرو من شيبان بن ذهل، وكانت لها جارية اسمها «الضرّاء»، فحملت الجارية من أوس وولدت غلاماً، هو جرول الذي سيلزمه لقب يطغى على اسمه: «الحُطَيْيَّة»، فتسأل السيدة وتجبب الضرّاء - درءاً لغضبها - إنّه من الأفقم أخيك، فتتظر في ملامح وجهه، وتقول لها صدقت، والمعروف أنّ الجارية في الجاهلية ليس لها من أمرها ما يمنع سطوة السادة ورغباتهم، وبعد موت أوس تعتق بنت رباح الجارية التي تنسب عندئذ الغلام إليه، وتتزوَّج رجلاً عبسياً، ويبقى جرول في هذا البيت واحداً من أهله وقد نال حرّيته بعد أن كان عبداً ابن أمة، ولعلّ تباعد الأعراق بين الأب أوس بن مالك والأمّ الضرّاء نتج عنه تميّز الحُطَيْيَّة بطاقة إبداعية غنيّة في التخيل وبارعة في

تداول اللغة وقادرة على اختزان الذاكرة لرصيد واسع، إضافة إلى ذكاء ومكر سيكون الإحساس الدرامي بعضاً منهما، وهذا كلّه يعوّض الشكل الخارجي - للجسم والوجه - الذي يخاصم الجمال والملاحة!! وكانت هذه طفرة وراثية حملت إليه ظاهراً غير متوازن، فإنّنا سنرى أنّ ابنته مُليكة حملت هيئة بارعة الجمال جعلت زوجة الزبيرقان تصدّق ما أشاعه بنو قريع من أنّ زوجها سيقترن بابنة الحُطَيْيَّة، وهو من هو مكانة وحسن مُحَيّا^(١٣).

(٢)

اتصل الحُطَيْيَّة بزهير بن أبي سلمى وهو ذروة إبداعية كثّفت خبرات أسلوبية وتمرساً في آفاق الأغراض والمواقف، وقد اكتسبها من الجيل الذي تداول الشعر فنّاً ناضجاً «بشامة بن الغدير خاله وأوس بن حجر زوج أمّه» عمِلَ على الارتقاء به أكثر من جيل من الشعراء قبله في زمن الجاهلية البعيد، وقد ارتضى زهير أن يكون الحُطَيْيَّة راويةً يحفظ قصائده، وقربه يبصره بدروب الإبداع وأساليبه عندما لمس تمثله للغة وأدائها، وبدت له ومضات تخترق الغيوم تنبئ بمواسم الإبداع.

تحدّد المكانة الرفيعة التي كان عليها زهير في المجتمع الجاهلي مستوًى وهيئة

(٣)

نتابع الخطبة في اكتمال الشباب فالكهولة ثم الشيخوخة، وكانت استقامت له مسارات، ورفعتها إلى الواقع تصوّرات ورؤية للعالم، لقد انتظم مع زوجته وأولاده في إطار أسرة تعيش على دفقات تتوالى من الأموال دراهم أو نوقاً، ورأى أن الكلمات هي جواده الرابع في مسالك المجتمع الجاهلي وشعابه ومنعرجات له، فتماهى مع الشعر يصقل أدواته، ويرجع النظر فيما لديه من أعمال تراثه المحفوظ في ذاكرة حيوية، وفي الأشعار التي تتشكل في المواقف التي يضع نفسه في غمراتها، وهنا نرى مركبات فنية شكلت العروق اللامعة في جدلية أدائه الذي لا يغيب عن الذاكرة، ويظل المتلقون تتردد الصور في مخيلتهم طويلاً بعد سماع قصائده، ذلك أن مسحة من السخرية داخلت خطابه خاصة في الهجاء، ومعها لمحات درامية جعلت زوايا عديدة غنية بالحركة المركبة أو بالمفارقة الدرامية.

كان العلاج الذي ارتأى الخطبة لقلق نفسي يعاوده هو هذا التحدي يخوضه مع الناس في كل مواقعهم، فيحقق الغلبة! ونسأل هل لاقى عنتاً أو إرهاقاً في أيامه؟ فلا نجد إشارة إلى مثل هذا فهو يغشى بيوتات العرب، ويتصدّر مجالسهم

لمن يجاوره ويعايشه، وقد اكتسب الخطبة في هذه البيئة دراية بالسلوك والعلاقات الاجتماعية تسائر الخبرة الأدبية العالية وخطابها، ونتأكد من استمرار هذا السميت عندما يقرن كعب بن زهير اسمه - بعد أمد - بالخطبة في شعره ليبقى عبر العصور.

عرفت المحافل والمنتديات الشاب الخطبة يلقي شعر زهير على نحو مميز، ويقدمه أستاذه لتسمع النخبة بعضاً من إبداع شاعر جديد، وبهذا كان يمهد له ليغدو من حملة الكلمة في المجتمع الجاهلي، وهي التي تحفظ التاريخ والقيم وتتخلل العلاقات، وتتلاقى عندها الروح والفكر، وهكذا تتواصل جولات الخطبة بعد رحيل راعيه بين بيوت القبائل ووجوهها، وقد أمضى شطراً من هذه المرحلة في ضروب مما يكون للشباب من نشاط وتسليه أو لهو كما نجد في حكاية ترد في ديوانه، ويلفت الانتباه أنه يصحب أبناء الطبقة العليا في المجتمع: «وخرج زيد الخيل (وهو زيد بن مهلهل الطائي) يتطرف ذات يوم فلقى الخطبة وكعب بن زهير ورجلاً من بني بدر - وهم يتصيدون - فأخذهم. فأما الخطبة فقال: واللّه ما عندي من مال فأعطيك، وما هو إلا لساني، فأطلقه فمدحه، وأما كعب فأعطاه فرساً، وأما البدري فأعطاه مئة ناقة...»^(١٤).

(٤)

لقد نصَّ النِّقَادُ القدماء على براعة الحطِيبَةِ في أغراض متعدّدة: المديح والهجاء والنسيب والفخر والثناء، وهذا ما نجده في القصائد والمقطوعات التي اشتمل عليها ديوانه الذي وصل إلينا وثمة شعر له لم يصلنا، ولم يُرجع أيّ منهم مكانته إلى غرض واحد، ولعلّ العودة إلى ابن سلام تُجزئ، فهو اشترط لتفوّق الشاعر وسبقه لآخرين كثرة النتاج وتعدّد الأغراض وجودة الأداء الأسلوبي، ولو كان الحطِيبَةُ مقرون البراعة في الهجاء فحسب لما وضعه في المرتبة الثانية بين الفحول، ويأتي الترتاب في الديوان بتصدّر المديح ثم الهجاء الذي يتداخل معه في عدد من النصوص، وهناك الفخر والثناء والنسيب الذي يشكّل جزءاً من قصائد الديوان إضافة إلى زوايا متفرّقة.

في مديحه ارتاد بيوتاً عريقة تتصدر القبائل كما في بيت بني بدر في فزارة «عيينة بن حصن الفزاري، وأخوه خارجة»، واتصل بشخصيات تجمع المكانة والثروة: علقمة ابن عُلاثة وعبد الله بن جُدعان وشبّث بن حوط اليربوعي الفزاري، وكان يطلب على نحو مألوف من بعض منهم، وكان بعضهم يبادره ويدعوه إلى دياره. نقرأ في ديوانه:

ويُطلب ودّه، ولم يرو أصحاب الأخبار عن مضايقات في الأسواق والملتقيات، ونعاود التساؤل فمن أين ذاك القلق؟ يبرز أماننا جانبان هما مسألة اضطراب نسبه إلى أوس العبسي أو إلى الأفقم الذُهلي شقيق زوجته، ولم يحظ بفرصة جلاء الحقيقة لأنّ أوساً مات وكذلك الأفقم، وأمّه الضراء لا تشفي غليله، فقد كانت أشدّ ذكاءً ومكرّاً، فلا تريد أن يدخل معركة خاسرة بعد تشتّت خيوطها، فتعابث كلماتها وتتركه ليفكر مليّاً، والجانب الآخر هو وجهه الذي حمل ملامح بعيدة عن الجميل وهيئته القصيرة الناحلة. لقد عرف أن مشكلته قائمة مع الدنيا ومصادقاتها إنّها مشكلة وجوديّة، والضراء إنّما هي أمة لا تملك مصيرها وليس من العدل أن يحاسبها عمّا جرى، ومهما يكن فلا جدوى تُرجى، وهكذا وصل إلى أن انتصاره المديد لن يتأتى بتأكيد النسب ولا بأردية تغطّي وتجمّل، بل باستمرار ارتفاع كلماته فوق تلك الفيافي والمضارب والأسواق يلتقي فيها الشعراء والناس، وتدوّن فيها الإنجازات في الصدور وطّيّات الليالي وأيام تتسلسل في الأزمنة، فتقدّم إلى الناس بما هو عليه، ولبسانه الذي لا تغيب حدّة ألوانه، وتلبّس شخصيّة فنان تمنحه قدرة على إطلاق كلماته لا تهاب أحداً.

«لقي الحطّيبَة طريفَ بن دقّاع الحنفي، فقال له طريف: إلى أين تريد يا أبا مُليكة؟ قال: أريد اللبّن والتمر. قال: اصحبني فلك ذلك عندي، فسار به إلى اليمامة، فأقام عنده حيناً، فأعطاه وأكرمه^(١٥)»، وكذلك كان بدء اتصاله بالزبرقان بن بدر، وما تلا من إغراء بني قريع واستضافته لديهم.

إنّ تلك الشخصيّات كانت تبذل عطاءً للحطّيبَة لأمرين أولهما ظاهر ويبدو واحداً في النظرة العجلى، وهو اكتساب المديح الذي ينتشر في المحافل ويورث أصحابه الفخر وأداة غلبة على آخرين منافسين أو منافرين، وثانيهما هو رعاية للشعر وهو الفن الأساسي والحامل للروح ومعالَم هذه الثقافة-الحضارة تجمع القبائل، فعلى الرغم من الخصومات وأيام عاصفة بينهم نراهم يجتمعون في الأسواق والمواسم الكبرى، ويتفقون على الأشهر الحرم، ويتناوب شعراء من جهات وفروع شتّى على منابر أو منصّات ينشدون أشعارهم، فتزدّ أصداءها الفلوات والحواضر بلغة مشتركة تملو على ما يشوب لهجات لهم من صيغ صوتية جانبية أو اختيارات دلالية.

لم يكن الحطّيبَة وبحسب طبيعته النفسيّة ممّن يثمّرون الأموال، فتتعاظم وتغنيه عن السعي في الآفاق بمدائحه،

ولهذا نجد عبارة أبي سعيد السكّري في مفتتح شرحه لديوانه: «كان الحطّيبَة رجلاً مملاقاً، ولم يكن يقتني المال، ولا يحسن إمساكه، وكان لا يسأل إلحاحاً، يأتي الرجل فيسلم عليه..^(١٦)».

ترسّخت مكانة الحطّيبَة من خلال قصائد المديح، وذلك بلغتها والملاح التي ترسمها، وزوايا ينظر من أطرافها إلى المواقف والقيم الفاعلة في حركة المجتمع، وقد حفظت تقاليد أسلافه زهير وأوس والنابغة الذين كانوا يرجعون النظر فيما يبدعون حتّى يكتسب رواء تتوهّج معه تلك الدفقات التي تتابعت من الواقع والمخيّلة. إنّ سيرورة القصيدة أو المقطوعة أو أبيات منها هي كلمة السرّ التي كان يتداولها وجوه القوم والنخبة من العارفين بالشعر، وقد اتسعت شهرة الحطّيبَة عندما أسهم في ظاهرة اجتماعيّة وثقافيّة تداخل فيها المديح والتعريض والهجاء في العصر الجاهلي، وهي المنافرات، وفيها نرى شخصيّتين تستعرض كلّ منهما- إثر خلاف أو منافسة أو خصومة - مزايا ووقائع تفخر بها وتراها رافعة لها فوق الطرف الآخر، وقد يقوم طرف ثالث بالحكم وتغليب واحد منهما، ويصحب ذلك استعانة أصحابها بالشعراء لتنداح في مدى واسع بأن يقترن

الهجاء وهي ضرورة الفصل بين شخصيّة الفنان الذي يرسم صورته، ويمسك بالخطوط التي تشكّل المنحنيات وتتسلسل الألوان فيها أو تتكسّر الأشعة، وما يكون من سلوك في الحياة الواقعية.

مارس الحطيفة أساليب متنوعة، واتخذ زوايا طريفة في أركان المواقف في أجواء نصوصه، وهو فيها لاعب يتحرّك وحوله مشاهد تتقلّب تضاف إليها امتدادات وتحذف أطراف بما تتطلبه أهواء الحالة، وهو في كلّ ذلك يتمثّل الأطر العامة لقيم المجتمع ومعاييره، كما في خطابه للزيرقان:

دع المكارم لا ترحل لبغيته

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهبُ العرفُ بين الله والناس

وعندما بدأت حياة جديدة بعد الإسلام تكيّف الحطيفة معها، وظلّت هوامش قليلة لديه تتبّعها خصومه.

أمّا في بيته فهو الأب يعرف واجبات تحلّ لديه في المقام الأوّل، فيعزم مرّة على السفر لكنّ امرأته كانت في حالة من القلق جعلتها تلتمس بقاءه ريث تتجلى غمة فقالت له:

اذكُرْ تَحَنُّنَنَا إِلَيْكَ وَشَوْقَنَا

واذكُرْ بَنَاتَكَ إِنَّهُنَّ صَغَارُ

التعبير الموسيقي الشعري بالأداء النثري الذي بدأت به المنافرة.

وقف الحطيفة مع علقمة بن علّالة عندما نافر عامر بن طفيل الذي وقف بجواره الأعشى وليبد^(١٧)، ووقف مع عيينة بن حصن الفزاري في منافرته لزبان بن سيّار، وكذلك وقف في صفّ بني قريع الذين كانوا ينافسون الزبرقان بن بدر على السيادة، فهم أعرق وهو أكبر بحضور أفعاله ومرتبته التي مكّنها في أرض الواقع.

وثمة قصائد ومقطوعات في هجاء أفراد من عبس كالحصين بن لقمان وقدامة وبني بجاد، أو غيرها من القبائل كالحارث والعاص ابني هشام بن المغيرة، وبني سهم، وهناك مديح على حافة الهجاء كما فعل مع عتيبة بن النّهاس العجلي من بكر بن وائل.

ويبقى جانب ممّا عدّ في الهجاء وهو في حقيقته مداعبة أو تنفيس عن حنق، ولا يمثل هجوماً أو تجريداً لمن توجه الأبيات نحوه، وهو ما قاله الحطيفة في أمّه أو أبيه وبعض من أقاربه وعن نفسه هو في بضعة أبيات. ونذكر هنا طرائف أخرى من مثل هجائه لضيف أو بخيل.

(٥)

نصل إلى أهم نقطة في مناقشة إبداع الحطيفة وخاصة فيما أدرج تحت عنوان

فقال: حُطُّوا، لا رحلْتُ لسفَرٍ أبداً^(١٨).

وتظَلُّ أبياته التي استعطف بها الخليفة عمر بن الخطَّاب تحمل الحنوَّ والخوف على أولاده بمقدار استنفاره قدراته التعبيرية للخلاص من السجن والعقوبة:

ماذا تقول لأفراخٍ بذِي مرخ

زُغِبَ الحواصلُ لا ماءً ولا شجرُ

القيت كاسبهم في قعر مظلمة

فاغفرْ عليك سلامُ الله ياعمُرُ

فامننْ على صبيةٍ بالرمل مسكنه

بين الأباطح نغشاهم بها القرُ

أهلي فداؤك كم بيني وبينهم

من عَرَضَ داوِيةَ تعمى بها الخُبُرُ^(١٩)

ونلاحظ حرصه على بناته عندما نزل

ببني مُقَلَّد بن يربوع في زمن جدب، فرحبوا

به « وقالوا له: يا أبا مُليكة، إنَّك اخترتنا

على سائر العرب، ووجب حقُّك علينا، فمُرنا

بما تحبُّ أن نفعله وبما تحبُّ أن ننهي

عنه، فقال: لا تُكثروا زيارتي فتملُوني، ولا

تقطعوها فتوحشوني، ولا تجعلوا فناء بيتي

مجلساً لكم، ولا تُسمعوا بناتي غناء شبابكم،

فإنَّ الغناء رُقيَّةُ الزنا... فلم يزل مقيماً فيما

يرضى حتَّى انجلت عنه السَّنة^(٢٠) ».

يترقَّع الخطيئة عن الربح الماديَّ مهما

عظم في عدد من المواقف، وذلك وفاءً

وحفظاً للجميل واليد التي امتدَّت إليه

بالخير، فأبى أن يهجو أوس بن حارثة الذي نفَس عليه أقوام مكانته عند النعمان، فائنمروا وطلبوا من الخطيئة أن يهجو، وأغروه بثلاث مئة ناقة فأبى، وكذلك في موقف آخر فقد طلبت فزارة وأفناء قيس إلى شعراء العرب أن يهجو بني لأم وزيداً «زيد الخيل»، فتحامتهم شعراء العرب، وامتنعت من هجائهم، فصاروا إلى الخطيئة، فأبى عليهم، وقال: اطلبوا غيري، فقد حقن دمي وأطلقني بغير فداء، فلست بكافر نعمته أبداً، قالوا نعطيك مئة ناقة، قال: والله لو جعلتموها ألفاً ما فعلت ذلك، وقال:

كيف الهجاء وما تنفك صالحة

من آل لأم بظهر الغيب تأتينا

المنعمين أقام العزُّ وسطهم

بيض الوجوه وفي الهيجام طاعينا^(٢١)

ونراه في خبره مع الزبرقان بن بدر،

وقد تباطأت زوجة بدر في رعايته، يأبى

أن ينقلب إلى بني قريع ويقول: «إنَّ من

شأن النساء التقصير والغفلة ولستُ

بالذي أحمل على صاحبها ذنبها» وعندما

اشتدَّ عليه الأمر وغدا عندهم «جعل

يمدحهم من غير أن يهجو الزبرقان، وهم

يحضونه على ذلك ويحرِّضونه، فيأبى

ويقول: لا ذنب للرجل عندي»، وعندما

يدفع الزبرقان بالشاعر دثار بن شيبان

فيهجو بغيض بن عامر بن شماس و يذكر الحطّية:

وما أضحى لشماس بن لأي
قديم في الفُعال ولا رباء
سوى أن الحطّية قال قولاً
فهذا من مقالته جزاء
يبدأ بهجاء الزبرقان.^(٢٢)

أمسك عمر بن الخطّاب بالخيط الفاصل بين الأداء الفنّي في الشعر الذي أثار مشكلة الزبرقان، وما كان عليه الحطّية في الحياة الاجتماعية، فهو غضّ الطرف أولاً عن أبياته لإعجابه الضمني ببراعة التناول وهو العليم بأسرار الشعر، ثم أمر بعقوبة رمزيّة، ونهى الشاعر عن المخايرة بين الناس، وأعانه بمبلغ يبعده عن الهجاء، ولكنّ ما روي في خبرٍ يستوقفنا، فعمر يزكي الحطّية في رسالة يحملها إلى واحد من أصحاب المكانة والثراء، فلولاً أنّ الشاعر لا شائبة على سلوكه خارج اللعب بالفن الشعري لما تمّ الأمر، فقد قال الحطّية لعمر: «اكتب لي كتاباً إلى علقمة بن علثة لأقصده، فقد منعني التكبّب بشعري «هجاء»، فقال: لا أفعّل! فقيل له: يا أمير المؤمنين، وما عليك من ذلك؟ إنّ علقمة ليس بعاملك، فتخشى أن تأثم، وإنّما هو رجل من المسلمين لتشفّع له إليه! فكتب له بما أراد^(٢٣)».

ولا بدّ أن نشير إلى جانب ضخمه أولئك الحانقون على الحطّية، فهم نعتوه بالبخل، وفي كلامهم مضمر أنّه كانت تصله مرّاتٍ أعطيات تبلغ مئة من النوق، وعندما نرجع إلى الحوادث والحوارات التي نسبت إليه مع ضيف أو سائل، نجد فيها ملمح الفكاهة والسخرية، ولعلّنا نتذكّر طبيعة الحطّية التي لا تحسن حفظ المال، وقد تمرّ شهور من غير رفق يصله، ولن يكون متيحاً لكلّ طارق ما يبغيه، وهذا إنّما تميّز به الأغنياء وسادة القبائل، وليس كلّ خباء مفتوحاً للواردين جميعاً تفرش لهم الموائد!!

المفارقة والسخرية والدراما:

نشير أولاً إلى المفارقة التي كان الحطّية يحسن التقاطها، ومن ثمّ يستثمرها بطاقة تخيلية مركّبة، فيدير علاقة ثنائيّة سلبية، ويعيد صياغة ثنائيّة جديدة وبقيم مختلفة تتقلب عن الأولى. فهو أجال البصر والذاكرة في لقب يعرفه العرب علامة سلبية يتوارى منها بنو قريع: «بنو أنف الناقة»، ويبدو لهم ارتفاع مراتب كثير من قبائل العرب لأنّهم سلموا من لقب يقرنهم بالخسيس أو البشع من الأشياء، ونلاحظ أن إعادة تداول هذا الرمز رفعته وأصحابه، فقد حوّل الحطّية النظر إلى وحدة دلالية في الدال-الرمز:

التي يأخذ حملها الممدوح وقبيله، وتُستعرض في البيت التالي وما وراءه، ويبقى في البال أن هؤلاء عبثٌ جهدهم السلبي والقاصر.

تتوالى مفارقات وهي تحيط بالزبرقان عندما يصوره الحطّيبية، وستكون الثالثة أشدها إيلاماً، فنحن نراه في الأولى وقد غرق في مياه النهر، بينما تعوم فيه الضفادع وهي المخلوقات الضعيفة، ولعلّ إيماة ضمنية تطلّ عبر تشابه وحيد بين هذا الغارق وهذه الكائنات هو الصوت: «النقيق»، وتبرز المفارقة الثانية بمحاولة بائسة لأنها جاءت في الوقت الضائع بعد فوات الأوان، ثمّ يجّبه الحطّيبية الزبرقان بالقاصمة عندما يجعل خصمه الماجد رفيع المكانة يتشفّع له، ويمنع الشاعر من إشهار معايبه:

وغرقت في زبدِ تعوم خلال لجّته القراقرز
أنشأت تطلب ما تغيّر بعد ما نشب الأظافر
إنّي نهاني أن أعيبك ماجد الجدين فاخر^(٢٣)
يعرض الحطّيبية في موضع آخر مشهداً
درامياً بإيقاع ساخر، إنّه يهجو قدامة العبسي أمامنا، فكانّما يفتح ستارة ويشير بكلمات أولى من خلالها قدامة ومن خلفه قومه يستظهر بهم في معركته، ثمّ يأتي أسلوب الالتفات عندما يخاطبه ومنّ معه، وتتوالى بعدها جولات حوارية، وهنا تتجلّى

«أنف الناقة» وهي الارتفاع موقعاً، ومن ثمّ العلوّ مكانة بتحميل المادّي قيماً مجردة: ذهنيّة أو نفسيّة، وأطلقها في كلام ميسور التصرّو وفي دوالّ قريبة، فغدت قيمة إيجابية يفخر بها أصحابها، ويستعلون على الآخرين:

سيرى أمّام فإن الأكثرين حصاً
والأكرمين إذا ما ينسبون أبا
قوم هم الأنف والأذنب غيرهم

ومنّ يسوي بأنف الناقة الذنبا^(٢٤)

وهذا ما أعطى الشاعر قدرة تكوين مفارقات في قصائد المديح التي تضفر الخيوط بالهجاء، فيعرض طرفين بينهما تفاوت أو تناقض في تمثّل القيم العليا في المجتمع، بل إنّ الأدنى والضعيف يتصدّى لمن يقيم دعائم الرفعة:

أتت آل شماس بن لأيّ وإنما
أتاهم بها الأحلام والحسب العد
يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها
وان غضبوا جاء الحفيظة والجّد
أقلّوا عليهم لا أبا لأبيكم
من اللوم أوسدوا المكان الذي سدّوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنى
وان عاهدوا أو فوا وان عقدوا شدّوا^(٢٥)

وتأتي «أو» في البيت الثالث للسخرية والتحدّي، فهؤلاء الذين يخاصمون لا يستطيعون القيام بأعباء المروءة والسيادة،

في قفلة ضاحكة من ذلك البخيل، وكانت الافتتاحيّة تكثيفاً تصويرياً كَمَن فيه سعي الشاعر وعناؤه للوصول إلى ما يعينه، ولكنّ الوجهة انجلت عن صخرة لا منفذ فيها لماء يتخلل، ولا يُقدّر على تحريكها، وهكذا تمّ التمهيد المجلّم للموقف، ثمّ تتابعت الحركة الدراميّة تشدّنا إليها:

كدحتُ بأظفاري وأعملتُ معولي

فصادفتُ جُلموداً من الصّخر أملسا

تشاغلَ لما جنتُ في وجه حاجتي

وأطرقَ حتّى قلتُ قد مات أو عسى

وأجمعتُ أن أنعاه حين رأيته

يفوقُ فوّاق الموت حتّى تنفّسا

فقلتُ له لا بأس لستُ بعائدٍ

فأفرخُ تعلوه السّمادير ملّبسا^(٢٨)

لم يكتف الحطّبة بهذا الأداء الدرامي في مواضع من شعره، فكان يغتم فرصاً ليستعرض قدراته الدراميّة، إنّنا نراه، خاصّة بعد تقدّمه في السنّ وذيوخ صيته ومكانته في الأرجاء، يحضر مجالس بهيّة بسيطة، لا يعلن عن نفسه، وفي لحظة يكشف عن شخصيّته، ويفاجئ الجميع بمعرفته الأدبيّة والنقدية يروي الأشعار ويعلّق عليها ويفاضل بين أصحابها، وهنا يجدّد انتصاره أو تحدّيه ليكون في الذروة من الاهتمام والتقدير. ولا تغيب هنا استفادة بديع الزمان

براعة الشاعر الذي انفرد بالفعل الغالب، وتظلّ ردود أفعال الخصم أضعف والشخص أضالّ من أن ترتفع إلى المواجهة الحقيقيّة التي أسماها «منافرة، التنافر»، فلا نسمعها وإنّما نشعر بها من كلمات الحطّبة، وهذا ما يؤكّده الشاعر بأنّه نسي هؤلاء الذين كانوا أو مرّوا خلسة، وهم عارضون في وجودهم، حملتهم رياح الموسم مع البقول وما عليها من كائنات عالقة بها، ولكنّ الموسم انقضى!!، ويا للمفارقة يريد الدّبا أن يقيم في جفاف يقطع سبل وجوده:

قدامة أُمسى يعركُ الجهلُ أنفه

بجداء لم يعركُ بها أنفُ فاخرٍ

فخرتُم ولم تعلم بحادثٍ مجدكم

فهاثِ هلمْ بعدها للتنافرِ

ومَن أنتم؟ إنّنا نسينا مَن أنتم

وريحُكم من أيّ ريحِ الأعاصرِ

فهذي التي تأتي على كلّ منهجٍ

تبوعُ أم القعواء خلف الدوابِ

متى جئتُم؟ إنّنا رأينا شخوصكم

ضئالاً فما إن بيننا من تفاكُرٍ

وأنتم أولي جئتُم مع البقل والدّبا

فطارَ وهذا شخصُكم غير طائرٍ^(٢٩)

وثمة لوحة دراميّة ساخرة صوّر فيها لقاءه برجل بخيل، ويمكن أن نطلق عليها صورة كوميدية، فهي حملت التتابع والتوتّر بين الطرفين، وبلغت ذروة ثم انفرجت

الهمذاني فيما بعدُ في مقاماته من هذا بابتكار شخصية أبي الفتح الإسكندراني الذي يتخفّى في المواقف المختلفة، ثم تُكشف هويّته في اللحظات الأخيرة، وعبر قفلة دراميّة.

كان الموقف الأوّل مع سعيد بن العاص بالمدينة وكان والياً عليها، فأراد رجاله إبعاد رجل تقدّم وجلس بين وجوه القوم في المأدبة التي يقيمها، فطلب أن يتركوه، وعندما أخذوا في تداول الشعر تدخل الحطيئة، واستعرض ما يراه أفضل الشعر وأحسن الشعراء، وقدّم نفسه واحداً منهم: «لحسبك بي عند رغبةٍ أو رهبة إذا رفعت إحدى رجلتي على الأخرى، وعويت عواء الفصيل الصادي، فقال: «سعيد» ومن أنت؟ قال: الحطيئة، قال: فرحب به سعيد، ثم قال: أسأت بكتماننا نفسك منذ الليلة، ووصله وكساه»^(٢٩).

أمّا الموقف الآخر فهو أكثر إثارة وإدهاشاً، وفيه دلالات متعدّدة تؤكد ما ذكرناه قبلُ عن أنفة الحطيئة، فقد رأى جماعة أمام دار عتيبة بن النّهاس العجلي وهو من وجوه بكر بن وائل، فدخل عليه في عباءة فلم يعرفه عتيبة، ولم يسلم عليه، فقال له: اعطني، فقال له عتيبة: ما أنا على عمل فأعطيك من عدده، وما في

مالي فضلٌ عن قومي، فقال له الحطيئة: لا عليك وانصرف «وهنا نبّه عتيبة واحداً من الحضور عرف الحطيئة، وقال له ستعرّضنا للشر» فقال: ردّوه، فردّوه، فقال له عتيبة: إنك لم تسلّم تسليم أهل الإسلام، ولا استأنست استئناس الجار، ولا رحبت ترحيب ابن العم، وكتمتنا نفسك كأنك كنت تطلب العلل علينا، اجلس فلك عندنا ما تحبُّ، وسأله: من أشعر العرب، فقال: الذي يقول:

وَمَنْ يَجْعَلُ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرْضِهِ

يُفِرُّهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِي الشَّتْمَ يُشْتَمُ

يقصد زهير بن أبي سلمى ثم قال عتيبة لوكيله: اذهب به إلى السوق فلا يشيرن إلى شيءٍ إلّا اشتريته له، فكان يعرض على الحطيئة اليُمّنة والخزّ وبياض مصر والمروّي فلم يرد ذلك، وأشار إلى الأكسية والكرابيس الغلاظ والعباء، فاشترى منها بمئتي درهم، واشترى له قطفاً وحمل راحلة تمرّاً وأخرى بُراً، فقال له: حسبك، فقال له الوكيل: لقد أمرني أن أبسط يدي لك بالنفقة، فقال له: لا حاجة لقومي في أن تكون لهذا عليهم يدٌ أعظم من هذه.

وودّع الحطيئة عتيبة بيتين يحملان حقيقة الموقف واقعةً جرت، ويسبران أغوار النفس!

كما يريدُها، لا كما جاءته مشوبة بما
يكدِّرها في بعض جوانبها، ونحن في هذا
نخفّف من غلواء من صوّروه بسلبية ليست
عادلة في قراءة أحواله وأخباره، وبطبيعة
الحال هذه قراءة تتطلّع إلى أن تفتح الحوار،
وتحرّك السكون الذي يعتري صفحات كثيرة
في أدبنا.

سُئِلْتُ فلم تبخلْ ولم تعطِ طائلاً
فسيانَ لا ذمَّ عليك ولا حمداً
وأنت امرؤ لا الجود منك سجيّة
فتعطي وقد يُعدي على النائل الوجد^(٣٠)
لقد أردتُ أن نرى الحطّيبَة من زوايا
متعدّدة، وأن نقف ملياً عند شخصيّة الفنّان
التي أتاحَت له أن يعيد التوازن لحظوظه

الهوامش

- ١- فرّوخ عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت (١٩٨٤م)، ط٥، ج١ ص (٣٣٣-٣٣٨)، وضيّف شوقي، تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، (١٩٧٦، ط٧، ص٩٥-١٠٠)، والبستاني فؤاد إفرام، الروائع، عدد الحطّيبَة، المطبعة الكاثوليكيّة، بيروت (١٩٣١م).
- ٢- الجمحي محمد بن سلام، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود شاكر، دار المدني، جدّة، (١٩٧٤، ج١، ص٣٧٨).
- ٣- ابن قتيبة عبد الله، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، (١٩٨٨م)، ج١، ص (٣٢٢-٣٢٨).
- ٤- الأصفهاني أبو الفرج «علي بن الحسين»، الأغاني، دار الثقافة، بيروت، (١٩٥٥م)، ج٢، ص١٣٦.
- ٥- ابن سلام، طبقات، ١، ص٣٧٢.
- ٦- الأصفهاني الأغاني، ٢، ص١٣٨.
- ٧- المعريّ أبو العلاء «أحمد بن عبد الله بن سليمان»، رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، القاهرة، (١٩٥٠م)، ص٢١٧-٢١٨.
- ٨- الأصفهاني، الأغاني، ٢، ص١٣٠.
- ٩- الأصفهاني الأغاني، ، ص١٣٦.
- ١٠- الأصفهاني، الأغاني، ١، ص٢٤٨-٢٧٦.
- ١١- الأصفهاني، الأغاني، ١، ص٢٧٦-٢٧٨.
- ١٢- الآمدي، «أبو القاسم الحسن بن بشر»، المؤتلف والمختلف، تحقيق عبد الستار فراج، دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة، (١٩٦١م)، ص١٩٢.
- ١٣- الأصفهاني، الأغاني، ٢، ص١٥٢.
- ١٤- الحطّيبَة، «جرول بن أوس»، الديوان، تحقيق نعمان أمين طه، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، (١٩٥٨م)، ص٨٢.
- ١٥- الحطّيبَة، الديوان، ص٧٠.

- ١٦- الحُطَيْبَةُ، شرح الديوان، أبو سعيد السَّكْرِي، دار التقدّم، القاهرة، (١٩٠٥م)، ص ٢.
- ١٧- الأعشى، الديوان، تحقق. د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة (١٩٥٠م)، ص (١٣٩، ١٤٩، ٢٠٤).
- ولبيد، الديوان، تحقق. د. إحسان عبّاس، وزارة الإعلام، الكويت، (١٩٨٤م)، ص (٣٣١، ٣٤٣).
- ١٨- الأغاني ٢، ص ١٤٨.
- ١٩- الأغاني ٢، ص ١٥٦-١٥٧.
- ٢٠- الأغاني ٢، ص ١٤٩-١٥٠.
- ٢١- الأغاني ١٧، ص ١٩١-١٩٢، والديوان، ص ٨٥-٨٦.
- ٢٢- الأغاني ٢، ص ١٥٤-١٥٠.
- ٢٣- الحُطَيْبَةُ، الديوان، ص ١٨.
- ٢٤- الحُطَيْبَةُ، الديوان ص ١٢٨.
- ٢٥- الحُطَيْبَةُ، الديوان، ص ١٤٠.
- ٢٦- الحُطَيْبَةُ، الديوان، ص ١٦٩.
- ٢٧- الحُطَيْبَةُ، الديوان، ص ٣١٠.
- ٢٨- الحُطَيْبَةُ، الديوان، ص ٢٨٢.
- ٢٩- الأغاني ٢، ص ١٣٩.
- ٣٠- الأغاني ٢، ص ١٤٠، الشعر والشعراء ج ١، ص ٣٢٤، الديوان، ص ٣٢٦.



التلعفري الشيباني: شاعر من العصر الأيوبي



ماجدة رحيباني

سافر إلى دمشق فكان من شعراء
صاحبها (الملك الأشرف موسى الأيوبي)،
وابتلي بالقمار (وهي زاوية مهمة جداً
في حياته) نغم عليه الأشرف لتهتكه
واستهتاره وميله للقمار والخمر فطرده
إلى حلب في أيام الملك العزيز غازي
بن صلاح الدين (٦١٣-٦٣٤هـ) فأكرمه
صاحبها وقرر له رسوماً فجعل يضيعها
في القمار فنودي في حلب مَنْ قامر
مع شهاب الدين قطعت يده، وضاعت
عليه الأرض فعاد إلى دمشق، ثم ذهب

محمد بن يوسف بن مسعود الشيباني،
شهاب الدين أبو عبد الله (٥٩٣-٦٧٥ هـ)
وكلمة شهاب الدين تفتح نظرنا إلى ظاهرة
الألقاب في هذه الفترة (العصر الأيوبي)
نسبته إلى «تل أعفر» بين سنجار والموصل
(أي شمال العراق) ولد وقرأ بالموصل، نبغ
في الشعر مبكراً، وتوصل من خلاله إلى
قلوب الملوك والأمراء.

قال في مدح السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم

فقد أتى أخذ الدنيا ومعطيها

✽ بامئة سورية.

- إلى مصر ولكنَّ انطباعه عنها في سفره
يحمل التبرم وخيبة الأمل:
مالي ولمصر لا سقاها ربي
غيثاً غدقاً من ساريات السحب
بالروح دخلتها وبالقلب فلا
بالروح خرجت ولا بالقلب
وبقي يحن إلى دمشق حنيناً يملأ أحلامه
وذكرياته، ثم أقام في «حماة» في ظل الملك
المنصور الثاني محمد (٦٤٢-٦٨٣هـ).
ومن حنينه إلى دمشق:
قلله أيام تولت بجانبني
«يزيد» فقد كانت ببهجتها الثمرا
وما كان مقصودي يزيد وبرده
ولكن قصدي كان أن أنظر الزهرا
وفي البيتين توريات لطيفة حسنة.
توفي التلعفري في حماة وقد نظم في
ساعة وفاته (٦٧٥هـ).
«أحماة» إن عهد أهلك أحكمت
أسبابها عندي فليست تُنقَضُ
أرض أروح بأرضها متروحا
أترى ترى عيني بمن تتعوض؟
إذا عرَّجنا الآن على إحدى قصائد
التلعفري لدراسة خصائص شعره خاصة
وخصائص الشعر الأيوبي عامة نرى أن
الشاعر يقسمها وفاق الأقسام التالية:
أ- مقدمة نفسية يتحدث فيها الشاعر
عن هواه الذي أحال نهاره قلقاً وليله أرقاً:
- ١- نهاري كله قلق وفكر
وليلي كله أرق وذكر
٢- يقسمني الهوى كمداً وحزناً
فأمرهما لحتفي مستمر
فإذا جاوز ذلك انتقل إلى الحديث عن
الخمرة فوصفها في أربعة أبيات:
٣- فقم نخطب عروساً بنت كرم
لها الأموال والألباب مهر
٤- عجوز قد أسنت وهي بكر
ومن عجب عجوز وهي بكر
٥- مفرحة يفر الهمة منها
فليس يضمها والهمة صدر
٦- إذا برزت وجنح الليل داج
تبلى من سناها فيه فجر
ويقوده وصف الخمرة إلى الحديث عن
الساقى ووصفه في هذه الأبيات:
٨- يطوف بها علينا بدر تم
منير عمره خمس وعشر
١٢- إذا وافى بها يهتر عطفاً
فغصن نقاً وشمس ضحى وبدر
١٤- متى ما رمت من عطفيه ضماً
نهاني عنه من جفنيه كسر
١٧- وينهر سائلاً من دمع عيني
ويجري منه في خدي نهر
١٨- كلت به أغن الطرف أحوى
له قد كغصن البان نضر

هذه معانٍ ليست جديدة بل مطروقة ونحن لا ننكر على الشعراء أن يتناولوا المعاني المعروفة ولكننا نطمح إلى أن يكون تناولهم للمعنى تناولاً جديداً، أن يضيفوا للمعنى القديم بعض الإضافات وأن يذيلوا عليه بعض التذييلات الجديدة التي تجعله وكأنه أخرج مخرجاً جديداً... وهكذا فإننا لا نريد من الشاعر المعنى الجديد دائماً وإنما نرتضي منه الأسلوب الجديد أو الصورة الجديدة أو الإضافة الجديدة والتلعفري ما أشد ما أساء إلى المعاني القديمة حين عرضها بمثل هذا الإيجاز الممل والتركيز المسيء ولنتمثل البيت:

فقم نخطب عروساً....

هنا قصة كاملة: وجود عروس وخاطب ومهر وقد استثمر أبو نواس هذا المعنى استثماراً ضخماً جداً فأنشأ عدداً من المقطوعات التي قامت على أساس هذا التخيل (الخاطب والعروس والمهر) ولكنه لم يضغط ذلك ولم يقتله بهذا الأسلوب التقريري النثري ولم يمت فيه الأجزاء والتفاصيل وإنما نثره في ألوان من الحوار وجزئيات من المعاني أحييت القطعة وأشاعت فيها الألق والحيوية وحرارة الحديث والحوار واستطاعت أن تترك أثرها الكبير في النفس.

قال أبو نواس:

يا خاطبَ القهوةِ الصهباءِ يمهراً
بالرطلِ يأخذُ منها ملاءَ ذهباً
قَصَرْتُ^(١) بالراحِ فاحذرْ أنْ تُسمِعَها
فيحلفَ الكرمُ أنْ لا يحملَ العنبا
إنِّي بذلتُ لها لما بَصُرْتُ بها
صاعاً من الدَرِّ والياقوتِ ما تُقبأ
فاستوحشتُ وبكتُ في الدنِّ قائلةً
يا أُمِّ ويحكُ أخشى النارَ واللهبا
فقلتُ «لا تحذريه عندنا أبداً»
قالتُ ولا الشمسِ قلتُ «الحرُّ قد ذهباً»
قالتُ فمن خاطبي هذا فقلتُ «أنا»
قالتُ «فبعلي» قلتُ «الماءُ إنْ عُدْبا»
ولنأخذ مثلاً آخر من وصف الخمرة للتلعفري:

إذا برزت وجنح الليل داج
تبلج من سناها فيه فجر
فالشاعر في هذا البيت يتحدث عن إشراق الخمرة وأضوائها ولكنه اكتفى من ذلك بهذا الحديث الجامد الذي قرر فيه المعنى تقريراً جافاً بقوله: أنوار بمثابة الفجر حين يشق جنح الليل. فالشاعر هنا عرض لونين فقط متتاليين، ولكن عند شاعر آخر كأبي نواس في همزيته الأولى نلمح كيف يستطيع الشاعر المبدع أن يتحدث عن إشراق الخمرة وعن أضوائها وألوانها وتلألئها، ومن تتابع هذه الألوان وتفاعلها والتقائنها بما حولها في كثير من

عجوزٌ قد أسنّت وهي بكرٌ
ومن عجبٍ عجوزٌ وهي بكرٌ!
 معنى البيت في الأصل يقوم على هذه
 المفارقة الضخمة والتناقض الكبير بين
 سن العجوز وسن الفتوة، وأن الخمرة قادرة
 على أن تجمع بينهما معاً فهي عجوز وهي
 بكر، ومع أن هذا التناقض أو هذه المفارقة
 كانت مجالاً لعمل فني كبير فإن الشاعر
 هنا بتأثير الروح المنطقية قتل العجب
 الذي يولد هذا التناقض بتعبير: ومن عجب
 عجوز وهي بكر لأنه نقلنا إلى جو من
 البساطة والبدائية والعجب السطحي الذي
 لا عمق له ولا جذور.
 فإذا انتقلنا إلى الأسلوب في مختلف
 مظاهره وجدنا مايلي: إن العنصر الذي
 يتحكم في هذا النص ويعطيه لونه الشاحب
 هو الصناعة، فالخضوع للصناعة البديعية
 هو الذي ضيق على الشاعر مجاله وحوّل
 إبداعه عن الطريق الأصلي إلى هذه
 الزخرفات اللفظية التي لا قيمة لها وحدها
 إذا غاب عنصر الإبداع الأصيل.
 ظهرت هذه الصنعة في البيت الأول حين
 جمع الشاعر بين الخطبة والعروس والمهر
 والأموال وهو ما يسمونه (مراعاة النظر)
 وفي البيت الثاني طابق بين عجوز وبين بكر
 وأعاد الألفاظ نفسها في الشطر الثاني،

الصور الآسرة القوية التي تحاول أن تنظر
 إلى المعنى من زاوية واحدة، وبعين بعيدة
 قادرة على أن تميز الألوان وتفاعلها في
 استيعاب معجب.

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
لومسها حجر مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكر
فلاح من وجهها في البيت لألاء^(٢)
فأرسلت من فم الإبريق صافية
كانما أخذها بالعين إغفاء^(٣)
فلومزجت بها نوراً لمارجها
حتى تولد أنواراً وأضواء
 واضح إذن أن المعاني عند التلعفري
 تتصف بأنها ليست بجديدة لا في أصلها
 ولا في عرضها ولا في أسلوبها.
 اتخذت طريقة التقرير فخلت من عنصر
 المفاجأة والمبادهة والاستفهام والنداء وهي
 الفارق بين الأسلوب النثري والشعري
 جاءت مكدسة بعضها فوق بعض وليس
 العمل الشعري قائماً على غزارة المعاني
 وعلى تكديسها وإنما يقوم على اختيار
 جانب من جوانب المعاني أو جزئية ما من
 معنى ثم إخراجه مخرجاً شعرياً.
 سيطرت على المعاني روح من المنطق
 الذي قتل لحظات الإعجاب والانفعال
 فالبيت الذي يقول:

ولننتقل الآن إلى دراسة بقية عناصر العمل الشعري: عنصر الخيال مثلاً، هل يبدو أن للخيال مكانة في هذا العمل الشعري؟ لا نتردد في القول إن الشاعر لا يحمل هذه القدرة المتخيلة القوية التي يملكها الشعراء الموفقون. وذلك أن عنصر الخيال هو الذي يساعد الشعراء عادةً على أن يصوغوا معانيهم في قوالب جديدة ليس لغيرهم بها سابق عهد، وخيال الشاعر هو الذي يستطيع أن يدفعه ليجمع بين أشياء تبدو متباعدة ولكن الشاعر يستطيع أن يلمح بينها نقاط الالتقاء ليشكل هذه الصورة الجديدة المبتكرة فالفرات مثلاً لا يتصل بالنعمان وليس بينهما مشابه، ولكن الشاعر هو الذي استطاع أن يقع على مناح من التشابه بين الفرات والنعمان (الفرات في الغزارة والتدفق والنعمان بالكرم والجود) فألف الصورة الرائعة التي نعرفها.

قال النابغة الذبياني في مدح النعمان:

وما الفرات إذا جاشت غواريه

ترمي أواذية العبرين بالزبد

يوماً بأجود منه سيب نائلة

ولا يحول عطاء اليوم دون غد

فإذا نظرنا هنا في أبيات التلعفري

وجدنا خياله قاصراً قصوراً واضحاً، وكأنه

وكذلك حكمته الصنعة في البيت الرابع حين جمع بين الليل والفجر والتبج والنهار وأما في البيت الأخير فقد جمع بين الفضة والذهب بالمقابلة بين الكأس والخمرة. نحن لا ننكر البديع ولكننا ننكر أن يكون وحده هو الذي يسوق الشاعر ويحكمه ويحول بينه وبين الانطلاق.

أمَّا التراكيب التي نلمحها في هذه الأبيات فنحن لا نتردد في أن نقول إنها بعيدة عن مستوى القوة، إنها ليست جزلة كتراكيب الجاهليين، وليست سهلة كتراكيب العباسيين، وليست لينة كتراكيب شعراء ما قبل عصور الانحطاط، ولكنها انحدرت إلى منطقة الضعف الذي بدا في ألفاظها وفي تناسق هذه الألفاظ وإلا كيف نصف تركيب: فأمرهما لحقتي مستمر، غنيت بكأسها وبها ولم لا، ثم كيف نفسر هذا التركيب الذي اضطر فيه الشاعر إلى تقسيم عمر الساقى إلى العديدين: عشرة وخمسة فقال: عمره خمس وعشر.

ومع ذلك فنحن نلمح بعض التراكيب التي لا تبلغ مرتبة الضعف وإنما تحمل شيئاً من عناصر القوة، وذلك يعود إلى الثقافة الشعرية للشاعر وإلى تأثره ببعض التراكيب المعروفة والشائعة كقوله: فليس يضمها والهم صدر.

اضطر التلعفري في هذه الأبيات أن يذكر الغصن مرتين. مرةً (فغصن نقا) ومرة (كغصن البان).

أمّا عن العاطفة في هذه الأبيات فنحن لا نستطيع أن نجزم هل كان الشاعر يحمل هذه العاطفة في نفسه أي هل كان هناك واقع معين صادق دفعه إلى هذا النوع من الحديث.

إنّنا لا نملك أن نثبت ذلك ولا أن ننفي، ولكن الحديث الشعري نفسه يطلعنا على أن العمل الفني الذي قام به هذا الشاعر وأمثاله في مثل هذه المواقف إنما كان عملاً تقليدياً صرفاً، إنه لم يكن ناتجاً عن معاناة وعن ممارسة لمجالس الشراب أو لمواقف الحب أو لغير هذه وتلك من المواقف إنما كان عملاً تقليدياً صرفاً.

إن وجود العاطفة يقتضي وجود تجربة بذاتها تولد عند الشاعر نوعاً خاصاً من العواطف، ثم يكون من هذه العواطف وتفاعلها ما يساعد الشاعر على أن يصوغ تجربته بشكل فني موفق.

أمّا عن أثر العاطفة في العمل الفني فنلاحظ أن التلعفري لم يكن قادراً على أن يعوض النقص العاطفي بالقدرة على تمثيل هذه المواقف والاندماج فيها، ولم يكن عنده من القدرة على التعبير ما يساعده على

ملكة معطلة ليست لها أي قدرة على الحركة والانطلاق، ذلك أنه يمد يده إلى التراث الشعري ولكنه لا يحاول أبداً أن يغير في الأشياء التي يقتبسها، ولا يحاول أن يضيف إليها أو أن يغير في تلاوينها.

نلاحظ بعد ذلك أن الشاعر حاول أن يعوّض عن قصور الخيال بعملية جمع يلم فيها مجموعة من التشابه بعضها وراء بعض من دون أن يجاوز ذلك إلى أن يضرب الصور بعضها ببعض لتوليد صورة جديدة.

والنقطة الثالثة التي نستطيع أن نقولها هنا: إنّ الخيال لا يتجاوز مرحلة التشبيه بحال من الأحوال فأقصى ما يصل إليه خيال الشعراء أن يختاروا واحداً من هذه التشابه المعروفة في الأدب العربي ونحن نعلم أن الخيال يبدأ بالتشبيه ولكنه يتابع تقدمه بعد ذلك ليرسم الصورة أولاً ثم يمضي بعيداً ليكون المشهد الكامل، وذلك هو نصيب الشعراء المجوّدين.

هنالك ما هو أدعى إلى التنبه عند هؤلاء الشعراء ذلك هو: محاولة الإصرار على أنواع معينة من التشابه فالقوام دائماً يشبه الغصن وكأنما ليس هنالك أية قدرة على الانتقال إلى تشبيه آخر، وقد

خصائص شعر التلعفري: مما يؤيد فقر هؤلاء الشعراء أننا نجد عندهم ظاهرة التكرار الممل للمعاني نفسها والصور ذاتها التي تعرض بها هذه المعاني. وعلى سبيل المثال إشارته في ديوانه إلى المعنى نفسه ثلاث مرات في صفحتين:

متى ما رمى من عطفيه ضماً
نهاني عنه من جفنيه كسرُ
لك جفنٌ عجبٌ إذ فاز بالنص
ر على ضعفه وفيه انكسارُ
لم ينتصر وهو المحارب دهره

إلا بذابل جفنه المكسور
كانت العملية الشعرية تتم من المعنى -الصورة- التزيين فأصبحت في عصور الانحطاط من: التزيين -صورة مستقرة في الذهن- المعنى.

من الواضح أن العمل الشعري السليم يبدأ في نفس الشاعر أثراً لتجربة معينة أو تمثلاً لتجربة معينة.

وهو يبدأ بالمعنى ويسوق المعنى إلى محاولة من الشاعر في إبراز هذا المعنى من المنطقة النفسية الخاصة، إلى المنطقة المشتركة بين الناس وهي منطقة التعبير، وبذلك يتخذ المعنى تعبيراً معيناً في صورة معينة.

هذا النقص، ولقد جاء شعره وكأنه مجرد تجريداً كاملاً من هذا العنصر الأساسي في العمل الشعري.

وكذلك نلاحظ -في محاولة منا تكوين فكرة عامة عن مثل هذه القصائد- أن نواحي الضعف فيها لم تكن بسبب واحد فقط: قصور الخيال وحده ولا فقر المعاني وحده، ولا ضعف العاطفة وحده وإنما كان يضاف إلى ذلك عامل آخر معوق هو: ضغط الصناعة وإلحاحها وحرص الشاعر عليها.

من مظاهر الصناعة

أولاً: الجمع بين ألوان من البديع في بيت واحد، فهو في البيت الأول يطابق بين النهار والليل، ويجانس جناساً ناقصاً بين قلق وأرق، وبين فكر وذكر.

ثانياً: بعض آثار الثقافة القرآنية مغلفة بالصناعة كقوله: وينهر سائلاً من دمع عيني... تورية في لفظ سائل من سال أو سأل، وهناك إشارة إلى الآية القرآنية وأما السائل فلا تنهر...».

ثالثاً: مصطلحات النحو والاستمداد منها وإخضاعها لمعاني الغزل كما في البيت:

متى ما رمى من عطفيه ضماً
تهاني عنه من جفنيه كسرُ

أي أنه أهمل تماماً الزاوية النفسية فلم ينطلق منها، وإنما بدأ باللفظة نفسها.

فبتأثير من الطباق الذي خضع للثقافة النحوية (وهي ثقافة تركت طابعها على شعر هؤلاء الشعراء) تذكر الشاعر كلمة ضم، والضم نفسه ساقه إلى اتجاهين: الضم بالمعنى النحوي، والضم بالاتجاه الغزلي كما أن الكسر له دلالة النحوية، وله بالوقت نفسه إشارته الغزلية، ومن مجموع ذلك كَوَّن الشاعر بيته.

وبتأثير من الطباق اللغوي الصرف انتصب في ذهن الشاعر كلمتان -نصر وانكسار- ومنهما معاً قامت هذه العملية (الحربية) التي جعلت الموصوف ينتصر وعلى الرغم من انكسار جفنه وهكذا تكون البيت في شكله الجديد.

وعليه أرجو أن أكون قد قدمت صورة واضحة عن خصائص الشعر في هذه الفترة عامة.

وخصائص شعر التلعفري خاصة، كما أقيت الضوء على العوامل الكثيرة التي تدخل في تشكيل العملية الشعرية عند هؤلاء الشعراء مما جعلهم يتخلفون عن سبقوهم من الشعراء المجيدين الموفقين، وبذلك أطلق عليهم شعراء عصر الانحطاط.

ثم يأتي بعد ذلك عامل الزينة التي يلجأ إليها الشاعر في لون من الترف الفني، وهذا هو الطريق الطبيعي أما في عصور الانحطاط فالملاحظ أن الشاعر عجز أن يولد المعنى أو أن يرسم الصورة وبدأ بداية معاكسة تماماً للخط الطبيعي فبدأ من الزينة نفسها أي من الصناعة، وجعل يستوحي معانيه من هذه الصناعة نفسها.

ونحن لا نهتم من أين جاءت المعاني ونتقبلها، غير أن الواقع: الصناعة لاتساعد على توليد معانٍ واسعة (إذا كانت هي المنطلق) إنها تولد جزئيات صغيرة لا يمكن بحال أن تهض فتكوِّن صورة أو مشهداً أو تشبيهاً طويلاً. إن مداها بطبيعته قصير، ولهذا فإن شعراء عصر الانحطاط كانوا يقفزون قفزات سريعة وقصيرة من صورة إلى صورة أو من معنى إلى معنى دون إشباع لواحدة من الصور أو إيضاح لواحد من المعاني، وعليه فإن الابتداء بالزينة هو الذي قطع الطريق على الشعراء، ومثال ذلك الأبيات الثلاثة السابقة فالملاحظ فيها أن الشاعر بدأ فيها من لفظة الكسر أو التكسر أو الانكسار في الجفن فلم يبحث عن أثر ذلك في نفسه، ولم يحاول أن يبين عما كان من انفعاله بهذه الجفون الذابلة المريضة

الهوامش

- ١- قصّرت بالراح: لم تعطِ الخمرة حقها.
- ٢- لألاء: بريق.
- ٣- لشدة نورها مضطر أن يكسر طرفه ويضم أجفانه مخافة الوهج وكأنه في حالة إغفاء.

المصادر

- ١- ابن شاکر الکتبی (محمد): فوات الوفيات، تحقیق إحسان عباس، دار صادر، بیروت (١٩٧٣م).
- ٢- ابن أیّک الصفدي: الوافي بالوفيات.
- ٣- ابن کثیر (عمر): البداية والنهاية، بیروت «ط٣»، (١٩٧٩م).
- ٤- التلعفري الشيباني (محمد): دیوان التلعفري تحقیق رضا رجب.
- ٥- المقري التلمساني (أحمد)، «ت ١٠٤١ هـ»، نفح الطيب.
- ٦- أبو شامة: عبد الرحمن «عیون الروضتين فی أخبار الدولتين»، تحقیق أحمد البیومي، وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٢م).

بواكير الإبداع في الشعر



عبد اللطيف الأرناؤوط



تدخل مشكلة تشجيع المواهب الأدبية في إطار علم الأدب، وهو علم له أثر هام في قيادة التطور الثقافي للمجتمع، ومن أولى واجباته المشاركة في تربية أجيال جديدة من فناني الكلمة على تجربة أسلافهم وقد وعوها علمياً ولكن.. كيف يتيسر للأجيال أن تتمثل تجارب السلف الأدبية، إذا لم يقيم علم الأدب نفسه على أسس علمية؟.. وما دور الناشئة في تطوير الأدب نفسه ودفعه إلى آفاق من الحداثة؟

✽ أديب وناقد ومترجم سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

كثيراً من الأدراّن والبداية غير أنّها على مرّ الزمن تزداد صفاءً وأصالَةً وتعبيراً عن الذات.

غير أنّ افتراضنا أنّ الناشئ لابدّ من أن يمرّ بمرحلة من التجربة، وأن نتاجه يزداد صفاءً مع الزمن لا يخلو من مغالطة، مع أنّ الوقائع الجازمة تثبت أنّ نتاج الموهوب الأول لا يخلو من العيوب.. وأنّ شاعريته تتحسن على الدوام، يؤيد ذلك ما يقيّمه النقاد من مقارنات بين شعر البدايات عند الشعراء، وشعر النضج، وبينهما نرى الفارق الملحوظ من حيث الأصالة والكمال الفني، غير أنّ المسألة تأخذ بعداً آخر، ذلك أنّ إحساس الأديب المبتدئ يمتاز بالتدفق والحرارة، وتعبيره يحفل بالحيوية وصفاء الانفعال، إذ إنه لم يكن قد أصبح بعد أسيراً للصنعة الفنية، وتقنيات العمل الأدبي التي يمتلكها الناشئ عبر التجربة، ومعنى ذلك أنّ بعض شعر البدايات قد يكون من حيث حرارته وصدقه أقرب إلى نفوسنا من ذلك الشعر المصقول وفق مواصفات فنية اكتسبها الشاعر بالدربة الطويلة، وإن كان ذلك الشعر لا يحمل من المواصفات الفنية ما يحمله شعر مرحلة النضج.

لاشك في أنّ مشكلة تنمية المواهب الأدبية الناشئة وتشجيعها ذات أبعاد متعددة لها صلة وثيقة بعلم النفس وعلم الجمال ومبادئ الفن والقوانين الاجتماعية المختلفة، إنّها ذات طبيعة معقدة ومتداخلة شأن كل مشكلات الإبداع الفني. سنتوقف عند بعض الأمور الجوهرية التي تمسّها في محاولة لتجلية أبعادها المتشعبة..

- دوافع الإبداع الأدبي:

ثمّة طفل موهوب يتجلى اهتمامه بالشعر والأدب منذ الصغر، إنه يكتب لنفسه أولاً، وقد يملك الجرأة فيقرأ لزميله ما كتب وقد يدفعه شيطان الشعر قبل أن يبدع إنتاجاً ذاتياً إلى قراءة دواوين الشعراء الكبار.. إنّ موهبته تتحفز وتتغذى، وتحاكي، وهي بركان ثائر يلتمس له طريقاً للتدفق، وحممه الحبيسة تتحسس قشرة الأرض لتجد لها منفذاً إلى الخارج، حتى إذا وجدت نقطة ضعف في هذه القشرة حطمتها وتدفقت تحمل معها الجميل والقبيح، وعلى مرّ الزمن تصفو شعلة ناره المقدسة وتتخلص من كل الأدراّن العالقة بها. وهكذا، يتخبط الناشئ أولاً في محاولات الإبداع التي تحمل مع صفائها

ونادراً ما تتطور مع الزمن، وكأنها بصمات
تنبئ عن الذات الفنية وسماتها المميزة.

وهؤلاء هم البذرات التي تنبئ بالخير،
وتبعث على الأمل، أما أولئك الذين لا تتجلى
موهبتهم، ولا يكشف إبداعهم عن نفسه منذ
البواكير، فمن المشكوك فيه أنهم سيتحسنون
بالمعاودة والدأب الطويل.

إنَّ مواهبهم كاذبة، وهم كمن ينطح
في صخر، ولعل من الخير لهم أن يتحولوا
عن محاولات النظم المخففة إلى اكتشاف
هواياتهم الحقيقية.

ولا يتعارض هذا مع ما زعمه النقاد
من أن ثلاثة أرباع الإبداع الفني يقوم على
الجهد والمثابرة وربعه يعزى إلى الموهبة،
ذلك أنَّ الجهد المبذول من الناشئ إنما
يهدف إلى صقل الموهبة وتوجيهها في
مسارها السوي، فإن لم يكن ثمة موهبة فلا
فائدة من الجهد ولا مردَّ له، وحين قدم
«جورج ديهاميل» حُكمه على الإبداع الأدبي،
وأشار إلى أنه جهد ومثابرة فإنما أراد جهد
الموهوبين لكي تتجدد مواهبهم إلى إبداع
موجَّه سليم، ولم يدِرْ في خلد أن الجهد
وحده من دون موهبة يمكن أن يخلق الشاعر
أو الأديب أو الفنان.

إذن الإشكالية في أنَّ كثيراً من الناشئة
تقبل على نظم الشعر من دون أن تثبت من

يُروى أن «حسان بن ثابت» نظم أول
مانظم شعراً في وصف قبرة رآها فقال:
يا لك من قبرة بمعبّر خالك الجوف بيضي واصفري
ونفري ما شئت أن تنفري

وهو شعر إن كانت تتقصه عناصر الفن
الشعري، ويفتقر إلى الرصانة والجلالة، إلا أنه
يمتاز بالصدق والحيوية والالتصاق بالحياة،
ويعكس عفوية الشاعر وبراءة التعبير عنده..
ونسبت إلى المتنبّي في بدايات نظمه
أبيات منها:

ما مقامي بأرض نخلة إلا

كمقام المسيح بين اليهود

ومع مافي هذا الشعر من مبالغة كان
من الممكن أن تحدّ منها تجربة الشاعر
الحياتية الطويلة، إلا أن ذلك لم يقع، فقد
ظلَّ المتنبّي تغذيه قوة نفسه محافظاً على
اعتداده بذاته والمبالغة بإظهار عظمة
شخصيته وتفرده.

فشعر البدايات ليس بالضرورة محاولات
فجّة لناشئ لم يتمرس بعد تجربة الشعر،
بل نجد عند بعض الناشئين محاولات تلفت
النظر وهي العلام الذي ينذر الناس بظهور
شاعر جديد...

إنَّ بعض الناشئين يُطلون علينا وكأنهم
يملكون نضجاً فنياً كاملاً، بل إن خصائص
شعرهم الفنية تتجدد من محاولاتهم الأولى،

الفني» وبرهن على ذلك بتحليل شخصيات بعض الأدباء، كذلك ظلَّ علماء الجمال ومنظِّرو الأدب ومؤرخوه البرجوازيون في الغرب يلجُّون على استقلالية عملية إنشاء القيم الأدبية واستحالة تفسيرها بشيء إلاَّ بدور قوى اللاشعور المبدعة، وفردية الفنان الحرة الطليقة.



الدوافع الاجتماعية:

أمَّا الاتجاه الثاني فيذهب إلى أن الأدب ينشأ من الإنسان، ولأجل الإنسان، فهو إفراز اجتماعي يتشكل ويتطور تاريخياً في إطار المجتمع، وليست حاجات الناس وأذواقهم هي التي تتغير وحدها في مجرى التطور التاريخي: «بل طبيعة الإنسان نفسها تتغير»، ولا يمكن للناشئ أن يبدع عازلاً نفسه عزلاً تاماً عن المجتمع، حتى فرديته ذاتها هي نتيجة التطور الاجتماعي، فالناشئ حين يبدع وينظم ويكتب إنما يعبر عن حاجة اجتماعية هي الحاجة إلى البوح والمشاركة والتعبير عن الذات في إطار الجماعة والتعامل مع الفن الذي هو ضرورة اجتماعية.

فالدوافع التي تدفع الناشئ للكتابة هي دوافع فردية واجتماعية معاً، ويدخل

مواهبها ومدى صدقها، فيسقط مَنْ يسقط على الدرب، ويتشبث من يتشبث وراء سراب خادع فلا يجني إلاَّ الخيبة، ولكن بعد أن يزعج الناس ويفسد الأذواق بنتاجه الزائف، مما يدفعنا إلى بيان الأسباب التي تغري بعض الشبان بالمثابرة على نظم الشعر من دون أن تجد من ينصحهم بالعدول عن ذلك، غير أن النصح أحياناً لا يجدي القناعة الراسخة لأن الناشئ يعتقد أنه يملك موهبة كبيرة في الإبداع.. فما سر هذا الإصرار وما الدافع إليه..؟



الدوافع الفردية:

إنَّ ذلك يقودنا إلى بيان دوافع نظم الشعر أو كتابة الأدب لدى الناشئ، فإذا استبعدنا الرغبة في الظهور الأدبي الذي لا يتحقق لكل ناشئ، فإن علم الأدب يقدم لنا تفسيرات شتى للإقبال على ممارسة الأدب، فالنقد الغربي يردُّ عملية الإبداع الأدبي إلى شعور بالنقص في شخصية المبدع أو اغتراب عن المجتمع يدفع صاحبه إلى التعويض عنه بالكتابة، فالفن عندهم تعويض عن الواقع الذي يعاني منه الناشئ..

وقد عالج الدكتور «مصطفى سويف» هذه النظرية في كتابه «الأسس النفسية للإبداع

الفنية وبنيتها التي يقوم عليها نتاج الناشئ، وكل ما يمكن أن يقدمه النقد الفني في هذا المجال هو دراسة المسودات والرسائل والمفكرات والمذكرات التي تركها الناشئ والمقابلات الصحفية لمعرفة الدوافع الاجتماعية والنفسية والفنية التي حفزته على الكتابة، والاستعانة بها لتفسير إبداعه الفني وخصائصه.

ومهما يكن من أمر فإن إبداع الناشئ مرتبط إلى حد بعيد ببيئته من مؤثرات تلك البيئة الاجتماعية والفنية شريطة أن يملك الموهبة، فالشاب الذي يملك الموهبة، ويعيش في جو ثقافي وأدبي معين هو أكثر فرصاً للإبداع من شاب آخر موهوب، لكنه يعيش في بيئة ثقافية فقيرة، وكلاهما لا يدرج في عالم الفن مالم تتوافر لهما الدوافع النفسية التي تحفز على الكتابة والإبداع.



الثقافة الفنية للناشئ:

وعلى الرغم من ذلك كله، فإنَّ للشعر غاياته، ولا يمكن للناشئ أن ينتج أدباً مقبولاً معتمداً على حدسه العفوي فحسب، وهنا تدخل مسألة إشكالية الثقافة الفنية للناشئ، إذ عليه أن يتمرس بالشروط الفنية للإبداع، وغالباً ما يتم له ذلك عن طريق

في إطار الدوافع الاجتماعية ميل الإنسان إلى الجمال، وتمسكه بقيم الحق والخير والجمال، ومن هنا فإن دوافع كثيرة تحفز الشاب للتعبير عن ذاته تعبيراً جمالياً، ومنها الحب والوطنية والدفاع عن القيم والإفصاح عن العقد النفسية التي يعاني منها المراهق، وضروب الإحباط التي يتعرض لها، كالخيبة في الصداقة أو الروابط الأسرية.

ولاشك أن الدوافع الفردية تظل هي المحرك الأول للإبداع الفني، ولذلك يطغى شعر الحب على نتاج الناشئة، لأنه يعكس معاناتهم، فإذا تجاوزنا النظر إلى الإبداع الفني على أنه تعبير عن وضع (سيكوباتي) واعتبرنا أن الناشئ يلجأ إلى الإبداع الفني مدفوعاً بقيم جمالية بحتة، فإن هذا الرأي لا يعدو الصواب أيضاً، ذلك أن الطفل تنفتح عيناه على ضروب من الجمال الفني منذ أن تهدده أمه في المهد، ثم يتشبع ميله الأدبي بالأغاني التي يسمعها في وسطه العائلي، فإذا ارتقى إلى عالم المدرسة والتعلم كان الأدب المدرسي زاده الذي يغذي ميوله الأدبية، ويكون له مثلاً إلا أن إبداع بعض الناشئين الموهوبين يتجاوز أحياناً المحاكاة حتى ليتعذر إخضاعه لنمذجة معينة، مما يستدعي الشك في القدرة على تحليل كامل لطبيعة العناصر

قراءة التراث الأدبي، وعليه بالمقابل أن يدرك الغايات الاجتماعية والجمالية للأدب والفن، وأن تكون له نظرته الخاصة نحو الفن، ولا يمكن إنكار دور الفنون التشكيلية الأخرى في الأدب عامة، والشعر خاصة، كالموسيقى التي ترتبط بالشعر ارتباطاً وثيقاً، فالناشئ الذي يكتب الشعر الحديث إنما يعتمد تقنيات تختلف كلياً عن تقنيات الناشئ الذي يؤثر الشعر التقليدي، وكلاهما يجب أن يتمتع برهافة الحس الموسيقي، وبالمقابل فإن فن التصوير الأدبي يستفيد من فن الرسم عموماً بسبب تشابه الخصائص بين الرسم والتصوير الأدبي. فالمكونات الموضوعية للتصوير تقرب الرسم من الأدب، مثلما يقرب من الموسيقى الإيقاع الموسيقي في الشعر الذي يستند إلى ذاتية المعبر، وبصورة عامة فإن احتكاك الناشئ بالفنون الأخرى يهيئ له ثقافة فنية تنعكس على نتاجه الأدبي، ولا غنى للناشئ لكي يبدع شعراً عن الثقافة اللغوية، فاللغة على حد تعبير غوركي: «هي العنصر الأول في الأدب»، على أنها ليست كل شيء في النتاج الأدبي، وإلاً فإننا نذكر موارد الأدب الأخرى وأدواته.

إن مواجهة الناشئ للتعبير الأدبي وأساليبه تستلزم أن يدرك كثيراً من خصائص

هذا التعبير، فإذا أراد أن يجري الشعراء المحدثين، فإن عليه أن يعرف كيف يتعامل مع اللغة الشعرية، فيختار اللفظة والجملة، وقد يجد نفسه مضطراً أن يحطم شبكة اللغة الوظيفية عن طريق المجاز ليعيد تركيب اللغة في إطارها الشعري المنشود، وليس هذا بالأمر اليسير على الناشئ الذي لم يتزود بعد، ولم تسمح له تجربته اللغوية بامتلاك أسرار اللغة الجمالية وغاياتها، ولذا فإن أكثر ما يتعثر به الشعراء الناشئون هو الجانب اللغوي في التعبير الأدبي.

إن محاكاتهم للكبار تظل فجّة ومغلوبة وبعيدة عن غايات الفن مالم يتهيأ لهم إمكانات لغوية متميزة، وإن العفوية في التعبير لا تشفع لهم في بلوغ آفاق من فن الكلمة يتمتع بها الشعراء الكبار، وكثير منهم يعتمد إلى الإغارة على تراكيب الشعراء الكبار وأساليبهم في التعبير، وهم يحسبون أنهم بامتلاكها يقبضون على أسرار الناس المقدسة، فالتقليد لا يجدي مالم يملك الناشئ الموهبة في التعبير التي تسمح له بالإفصاح عن ذاته بأسلوبه الشخصي المتميز..

وسواء أبدأ نتاجه بتقليد الشعر التقليدي أم الحديث، فإنه يضطر في نهاية المطاف أن يتجاوز دائرة التقليد ليكون له أسلوبه الذاتي المتميز. وللمدرسة دورها البارز في

تتمية ذاتية الناشئ وتعويدة التعبير عن ذاته بصدق وأمانة دون الاتكاء على المحفوظ، ولدروس التعبير دور بارز في كشف المواهب وتنمية الذات، ويتوقف الأمر على المُعلِّم الذي يتولى مهمة تشجيع التعبير الذاتي والكشف عن المواهب ورعايتها.

ولاشك أن تعليم الموهوب أدبياً له أساليب تختلف عن أساليب تعليم الأدب واللغة للأطفال العاديين، فللموهوبين يتجه تدريس التعبير والأدب نحو تعزيز خطاهم على طريق الإبداع الأدبي، في حين يتجه تدريس التعبير والأدب للطلاب العاديين أول ما يتجه نحو فهم الأدب وتذوقه والاستمتاع بالتعبير الجميل ومحاكاته.

وإلى جانب اللغة على الناشئ أن يتقن عملية النمذجة الأدبية، فالنموذج الأدبي هو المعادل للطبيعة إلا أن بنيته وعمله شفافان تماماً بالنسبة إلى فكر الإنسان، ويخضعان إلى تأثيره المباشر لأن النموذج الأدبي من إبداعه، والتأليف كأى تركيب آخر يمكن نمذجته على شكل صيغ، ويبدو أن الناشئ حين يكتب يقوم شأن أي أدب بعملية تركيب إبداعية معاكسة لعمل الناقد الذي يحلل النص ويفككه مع فارق أن الناقد ينطلق من وعي وإدراك لعمله في حين أن الناشئ يبدع بصورة عفوية، لكن هذه العفوية على ما فيها

من حرارة وصدق لا تخلق أدباً وقيماً، فلا بد من أن يتمرس الناشئ بأسرار تأليف العمل الأدبي، عليه أن يقف على أربعة عناصر على الأقل من بناء الصورة، وهي:

١ - الرمز:

وهو أداة الفن التقليدية التي يستخدمها الأديب متحدثاً عن أمر وهو يقصد أمراً آخر، والرمز طريقة في عرض المضامين تبعث على الإمتاع.

٢ - المجاز:

وقد يصل المجاز إلى حد الرمز الذي يحفز القارئ إلى المشاركة في التفكير.

٣ - التكتيف:

والأديب الناشئ عليه أن يتقن فن التكتيف، حين يحتمل الرمز أكثر من معنى، ولاسيما في الأعمال الأدبية المفتوحة التي تحتمل أكثر من تفسير، حتى ليذهب بعض النقاد إلى أن في تعددية المعنى خاصيته المؤدية للشعرية...

٤ - التوضيح:

إن الاستعارة المحققة هي رمز بصري ملموس، فعلى القارئ الكشف عن الفكرة الكامنة وراء كل رمز، ودون ذلك لا يمكن أن يكون للعمل الفني معنى..



التراث، وما كان يمكن له أن يتخطى أسلافه لولا إلمامه الواسع بطرائقهم الفنية. ومن هنا ندرك أهمية الإجراء الذي لجأ إليه أجدادنا حين كانوا يرسلون الناشئ إلى البادية ليتمرس بأدبها، ويقف على أساليب الفصاحة في لسان أهلها، فكانت البادية مدرسة الإبداع التي ينطلق منها الشاعر الناشئ إلى دروب التجديد بعد أن يتمثل تجارب السلف، بل كان بعضهم يحفظ آلاف القطع الأدبية قبل أن يُقدم على نظم الشعر.

وشابنا الأدباء الناشئون اليوم، يميلون إلى التسرع في الإنتاج الأدبي، على حد تعبير «طه حسين»، قبل أن تكتمل لهم وسائله وأدواته، فيشيع في نتائجهم الغلط اللغوي والضحالة، يشجعهم على ذلك أن وسائل النشر والإعلام تفتح أبوابها لهم دون أن تقوم تجاربهم وترشد خطاهم فيركبهم لون من الغرور الذي يحول بينهم وبين الثقافة الفنية واللغوية، ولا شك أن عمر الشاعر الزمني في ممارسة الشعر ليس مقياساً لإبداعه، فالشاعر الناشئ الذي يجهد في تثقيف نفسه قد يتخطى شعراء أقدم منه في حرفة الشعر لكنهم لا يجهدون في تحسين وسائلهم وأساليبهم.



إن تلك الأساليب الفنية هي المصادر الأولية للإبداع الفني، وهي تلقى في عصرنا حياة جديدة، وتكتسب مضموناً فكرياً وأخلاقياً جديداً، والشاعر الناشئ لا يمكن أن يشق دربه دون تعرّفها وممارستها، ولا يمكن أن يصل إليها دون ثقافة فنية راسخة، بل إن كثيراً من الأدباء حتى بعد أن يتخطوا مرحلة البدايات يظلون يفتقرون إلى الثقافة الفنية الراسخة التي هي أساس العمل الفني ومنطلق كل تحديث.

فالحداثة لا تقوم على المحاكاة فحسب، وإنما هي نظرة معاصرة للفن والحياة يثبت بهما الأديب براعته ويطوّر نتاجه، ولا يتيسر له ذلك إلا بالثقافة الفنية، ولكن يقع في كثير من الأحيان أن يشق الأديب الناشئ لنفسه طريقاً أدبية تقوده إليها مواهبه وتجاربه الخاصة، فيحقق كثيراً من هذه الشروط دون أن يمتلك ثقافة نقدية عميقة، وهي حالة نادرة تقود فيها الموهبة الناشئة للإبداع الفني، فتغدو طريقته مذهباً أدبياً، وهكذا تجاوز الشاعر أبو تمام تقنيات الإبداع في عصره، لكن هل يمكن الجزم بأنه اختل مذهباً دون أن يتعرف أساليب الشعراء قبله.؟؟؟

إن مطالعته الأدبية وتأليفه كتاب «الحماسة» تثبت اطلاعه الواسع على

نصائح للشبان الشعراء الناشئين:

١ - الموهبة بذرة خيرة لا تثبت في الأرض الموات، فلا بد أن تُطرح في أرض مسمدة لتخصب، فليحسن شعراؤنا الشبان في بواكير نتاجهم تطوير أنفسهم بالمطالبة الفنية واللغوية المتواصلة، وليكفوا عن الاعتداد بمواهبهم فحسب.

٢ - من واجب النقد أن يسد خطوات الناشئين وينير لهم دروب العمل الفني لتحسين عطائهم وتطويره.

٣ - على المدرسة أن تُعنى بالموهوبين فتضع لهم برامج خاصة في الأدب واللغة تتجه نحو صقل مواهبهم، وتعريفهم بتقنيات الإبداع الأدبي وأصوله.

٤ - من الملائم أن يُشارك في تقييم الأقسام الناشئة عدد من المختصين في الدراسات النقدية والنفسية والاجتماعية.

٥ - للبيت والأسرة دور كبير في رعاية المواهب الأدبية، ونحن نعلم أن أكثر الأدباء نجحوا في أسر يمارس أغلب أفرادها الكتابة والإبداع، وهكذا يغدو البيت المدرسة الثانية للآديب الناشئ.

٦ - يجب أن تكون للأقسام الناشئة مجلاتها الخاصة لتشجيعها على الإبداع، على ألا تفتح المجلات الكبيرة صدرها لنتاجهم، لئلا تصيبهم عقدة الغرور إلا بعد

أن يجتاز الناشئ مراحل من الإنتاج يثبت فيها تمرسه وجدارته الأدبية.

٧ - السنوات الأولى من العمر هامة جداً، وفيها تتكون شخصية الأديب، فلا بد من تزويده بثقافة فنية ملائمة تسمح له بالانطلاق على أسس متينة، ومن النادر أن نجد شاعراً أو أديباً تحول إلى الإنتاج الأدبي بعد سن الشباب، وإن وقع ذلك، فإن مثل هذا الأديب يكون قد قضى سنوات شبابه في حالة كمون أدبي، واستعداد لإنتاج أفضل، لكنه في الوقت ذاته أضاع أثمر فترات حياته الإبداعية، لأن قشرة إحساسه تكون قد تبلدت، وفقد على مر الزمن عفويته.

وكثيراً ما يطور الأديب أدبه في مرحلة النضج، أي بعد أن يكون قد قطع شوطاً في ممارسة الكتابة، والنقاد يتمثلون بالكتاب الروسي «زوشينكو» الذي تحول في آخر عمره إلى إنتاج لون من الأدب العلمي والفني في وقت واحد مستعيناً برسائل وجهها إليه القراء، فاندفع إلى دراسة العلوم، ووضع قصة (عودة الشباب) التي انصهر فيها الأدب والطب في بوتقة واحدة، وبلغت ملائمة للقراء، وتعرض فيها إلى مسائل معقدة تجاوزت الأدب المألوف، ومع ذلك فإنها احتفظت بمتعة جمالية ونفسية

مذهلة، على أن حالة «زوشينكو» تظل نادرة لأن باستطاعة الناشئ أن يسرع في امتلاك وسائل التحديث قبل أن يفوته قطار العمر. ٨- إن غياب النقد الأدبي الواعي على الساحة الثقافية يضع مشكلة أدب الناشئة في حلقة فارغة، حتى ليتعذر تصنيف الأدب الذي يعدّ من أدب الناشئة من سواه، فالمسألة ليست مسألة عمر زمني، إنها أبعد من ذلك، لأن كثيراً من الأدباء يجمدون عند أساليبهم الذاتية، ولا يساعدهم النقد على تطوير أنفسهم، وبغياب النقد الواعي تختل الموازين وتضيع القيم الأدبية ويختلط الحسن بالقبيح، ويغني كل شاعر على ليله، دون أن يعرف قيمته ومستواه في الإنتاج الأدبي.

فمن الواجب دفع حركة النقد الأدبي إلى الأمام وبنائها على أسس سليمة من الثقافة الفنية، لكي يتميز الطيب من الفاسد، ولينطلق الأدب إلى آفاق أصيلة، ودروب متنوعة من الحداثة النابعة من الذات الإنسانية ومن التراث العربي، لا من تقليد الأنماط المستوردة التي يأتي بها أدب الناشئة تقليداً، فتستهلك المواهب وتجمد في حدود ما رسم لها من أطر جمدت بانتظار إطار جيد مستورد، وكأن أدبنا أصبح سلعة تحكي ما أنتجه الغرب من سلع استهلاكية دون أن يكون للمواهب دور في توجيهه للتعبير عن ذاتية الإنسان العربي وخصائصه المتميزة.



مائدة الأدب العامرة



عبد الباقي يوسف



دوماً إن مائدة الأدب هي عامرة بألوان وأشكال أطايب الإبداعات كافة، ولذا نذ الأفكار، ودوماً ينهل الإنسان من ثراء هذه المائدة دون أن تتفد، بل إنها تبقى متجددة وغنية بما يضيف إليها أهل الأدب والفكر والنبوغ البشري من ثمار جديدة.

منذ أن تفتتح مدركات الإنسان على الحياة، تفتتح مدركاته الغريزية لتلقي أشكال وألوان العلوم والمعارف، فتري الطفل الصغير كثير السؤال، ويريد أن يعرف كل شيء عن طريق السؤال، وكلما كبر، تعززت

✻ أديب وقاص وناقد سوري.

مكانة غريزة المعرفة في نفسه، فيعتمد على نفسه من أجل معرفة مالا يعرف، وحتى من أجل معرفة مالا يعرفه غيره.

يرتقي الإنسان على قدر ما يقرأ، ويلبث مراوفاً في موضعه على قدر حالة اللاقراءة التي يدور في تيهها.

يوسع القارئ الماهر والمدير لما يقرأ مدركات القراءة لديه حتى تغدو سلوكاً يومياً، وتغدو تقليداً في عرفه، إنه ينهل علوم الحياة، وعلوم الإنسان من صيده الثمين في بواطن الكتب، ويشعر أنه يرتقي على قدر ما يقرأ. إن كل وجله يكمن في أن تخفت شعلة الاندفاع نحو القراءة في نفسه، ولذلك يعزز في نفسه هذه القيمة، ويبلغ مرحلة لا يكتفي فيها بتلقي العلوم والمعارف والآداب من ثنايا السطور، بل يستمتع بحالة القراءة، وهي درجة متقدمة من درجات تعزيز سلوك القراءة في النفس.

الأدب هو رسالة محبة خالصة من الإنسان إلى أخيه الإنسان، سعى الأدب خلال تاريخه إلى إظهار نقاء الإنسان، إظهار صفحته البريئة، إظهار اللمسات الجمالية والحسية التي يتمتع بها.

مقابل ذلك أظهر الأدب حجم عدوانية وشراسة الإنسان إذا تخلص عن قيمه ومبادئه الإنسانية. لذلك كان تركيز الأدب

على القيم والأخلاق والمبادئ التي تنظم للإنسان قاعدة حياته في سيرورة اجتماعية حميمية دافئة.

دعا الأدب عبر تاريخه إلى الصدق مع الذات ومع الآخرين، وألا يتنازل الإنسان عن عزة نفسه وكرامته الإنسانية لأنه بهما يمضي شامخاً مشرقاً، ودونهما يلبث مظلماً منكسر النفس.

كان الأدب عبر كل تلك الأحقاب الزمنية دعوة للإنسان كي يحافظ على نزاهته، على الاستمتاع بممارسة حريته الشخصية، على تعميم مشاعر المحبة والأخوة الإنسانية، وعقد علاقات إنسانية ثمينة.

الأدب هو حب من الإنسان إلى الإنسان، حرص من الإنسان على الإنسان، خوف من الإنسان على الإنسان.

أمسى الأدب رشيداً للإنسان، ينير أمامه الدروب الداجية، ويقدم له العظة والخبرة من خلال سجل حافل من التجارب الإنسانية، وانتشرت الأفكار الأدبية بوسائل شتى كي تصل إلى غالبية الناس ومن مختلف مواقعهم ومستوياتهم الاجتماعية والمعرفية، ومن ذلك الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التي تلخص بعض التجارب البشرية، فغدا الناس من جميع مقاماتهم يرددون حكماً وأقوالاً مأثورة شفاهية للتحذير من مغبة القيام بفعل

- ما، أو للتشجيع على القيام بعمل ما، وهي حكم وأمثلة تدخل في حقل الأدب لأنها على الأغلب تُستخرج من بطون كتب الأدب.
- للنظر هنا إلى جملة من هذه المأثورات الشعبية الشفاهية التي تشبه برقيات أدبية مكثفة، أو تشبه رسائل الهواتف الخليوية القصيرة التي تتداولها الشعوب كحالة يومية لا غنى عنها:
- «لا تسقط التفاحة بعيداً عن شجرتها»، مثل روماني.
- «من هزَّ بيت جاره، سقط بيته»، مثل سويسري.
- «المفلس يجتاز السوق سريعاً»، مثل إنجليزي.
- «إذا شبع المرء.. لم يجد للخبز طعماً»، مثل أسكتلندي.
- «ما من نبتة تحمل الأرز مطبوخاً»، مثل ياباني.
- «ما أعظم النصر الذي يتم دون إراقة دماء»، مثل إسباني.
- «من نظر إلى الناس بعين العلم مقتهم، ومن نظر إليهم بعين الحقيقة عذرهم»، مثل إيطالي.
- «ليس للأكذوبة أرجل، لكن للفضيلة أجنحة»، مثل صيني.
- «لا يقول عن الحظ أعمى إلا الذي لا يراه»، مثل فرنسي.
- «الغضب ريح قوية تطفئ مصباح العقل»، مثل أمريكي.
- «على الذين يعطون أن لا يتحدثوا عن عطائهم، أما الذين يأخذون فليذكروا ذلك»، مثل برتغالي.
- «الشجرة الضخمة تعطي ظلاً أكثر مما تعطي ثمرًا»، مثل إيطالي.
- «التخمة أشد فتكاً من الجوع»، مثل ألماني.
- «أزرع كل يوم تأكل كل يوم»، مثل مصري.
- «أيها الإنسان لا تنس الموت فإنه لن ينسأك»، مثل تركي.
- «لذة الانتقام لا تدوم سوى لحظة، أما الرضا الذي يوفره العفو فيدوم إلى الأبد»، مثل إسباني.
- «الحب والعطر لا يختبئان»، مثل صيني.
- «من ليس في محفظته نقوداً.. ينبغي أن يكون في لسانه حريراً»، مثل ماليزي.
- «قطرات الماء القليلة قد تصنع جدولاً»، مثل ياباني.
- «يهب الله الطيور غذاءها، لكن لا بد أن تطير حتى تصل إليه»، مثل هولندي.
- «يمكنك أن تبعث النصائح والمواعظ،

ولكنك لا تستطيع بعث مكارم الأخلاق»،
مثل تركي.

«يبقى الحب ما بقي المال»، مثل فرنسي.
«هناك أشخاص يرغبون في مساعدتك
على وضع سلتك على رأسك لأنهم يرغبون
في معرفة ما بداخل السلة»، مثل زنجي.
«من يتزوج امرأة جميلة يحتاج إلى أكثر
من عينين»، مثل إنجليزي.

«من دواعي الرثاء أن تنفق الذهب في
الطلاء»، مثل فارسي.

«من ارتضى لنفسه أن يكون شاة أكلته
الذئب»، مثل فرنسي.

«حتى الفئران تعض القطط الميتة»،
مثل ألماني.

«لا يفتح المرء فمه واسعاً عندما يدلي
بأكذوبة كما يفعل عندما يقول الصدق»،
مثل إسباني.

«أمدح الحقل الكبير.. وازرع حقلاً
صغيراً»، مثل ياباني.

«إذا كنت لا تستطيع الابتسامة فلا تفتح
دكاناً»، مثل صيني.

«الوجه الحسن هو أقوى خطاب توصية
يحمله صاحبه»، مثل إنجليزي.

«من أضر بشخص واحد أصبح خطراً
على مئة»، مثل إيطالي.

«فعل الخير مع ناكر الجميل.. مثل إلقاء

ماء الورد في البحر»، مثل بولندي.
«إذا أردت أن تعرف رقي أمة فانظر إلى

نسائها»، مثل فرنسي.
«كثيراً ما نرى الأشياء على غير حقيقتها
لأننا نكتفي بقراءة العنوان»، مثل أمريكي.
«أخطاء الآخرين دائماً أكثر لمعانا من
أخطائنا»، مثل روسي.

«قناعتك نصف سعادتك»، مثل إيطالي.
«من الذي يسبقك إذا كنت تجري
وحدك»، مثل أثيوبي.

«سلح عقلك بالعلم خير من أن تزين
جسدك بالجواهر»، مثل صيني.

«الإعجاب بالنفس وليد الجهل»، مثل إسباني.

ومما تقوله العرب:

يلقى المثل الشعبي قبولاً واستحساناً
لدى غالبية شرائح الناس.

وقد قسمت بعض المؤلفات هذه الأمثال
إلى أقسام ومنها:

- الأمثال القديمة: وتضم الأمثال
الجاهلية والإسلامية التي جمعها علماء
اللغة في القرنين الثاني والثالث الهجريين.
- الأمثال الجديدة أو المولدة: وهي التي
جُمعت منذ القرن الرابع الهجري وقد أفرد
لها الميداني مكاناً خاصاً بها في نهاية كل
فصل من فصول «مجمع الأمثال».

يسميه البلاغيون بالتمثيل المركب كقولنا:
كانت القرى مطمئنة فدهمها السيل فأصبحت
كالسفن الهائجة في البحر المضطرب.

- المثل الخرافي: وهي حكاية ذات
مغزى تقال على لسان غير الإنسان وتهدف
لغرض تعليمي أو فكاهي.

ومن جواهر أدب المثل عند العرب:

- إِنَّ من البيان لسحراً.
- إِنَّ الجواد قد يعثر.
- إِنَّ البلاء موكل بالمنطق.
- إِنَّ أَخا الهيجاء من يسعى معك ومن
يضر نفسه لينفعك.

- أنف في السماء وإست في الماء.
- إِنَّ الذليل الذي ليست له عضد.
- أي الرجال المهذب إنما هو كبرق
خَلْبٍ.
- إذا أدبر الدهر عن قوم كفى عدوهم
أمرهم.

- إياك أعني فاسمعي يا جارة.
- إِنَّ لم يكن وفاق ففراق.
- إذا حان القضاء ضاق الفضاء.
- إِنَّ المناكح خيرها الأَبكار.
- إذا كنت مناطحاً فناطقاً بفوات
القرون.
- أوي إلى ركن بلا قواعد.

- الأمثال الحديثة: وهي التي جمعها
الأوروبيون بل غيرهم في القرنين التاسع
عشر والعشرين من بلاد العرب.

- الأمثال العامية أو الشعبية: وهي
التي تقال باللهجات المحلية.

- الأمثال الناجمة عن حادث: وهي التي
تقال بعد انتهاء حادث ما كقولهم «وافق شن
طبقة» وتعود قصته إلى رجل اسمه (شن)
وجد ضالته بفتاة اسمها (طبقة) فتزوجها.

- الأمثال الناجمة عن تشبيه: وهي
التي تستقي مادتها من اتخاذ شخص ما
أو شيء ما، أو حدث معين، مثلاً يحتذى به
كقولهم: «أجود من حاتم».

- الأمثال الناشئة عن قصة: والمقصود
بالقصة هنا، تلك المروية أو المتداولة على
ألسنة الناس كقصة إحياء السيد المسيح
عليه السلام الموتى التي أنتجت المثل
(لمسة نبى).

- الأمثال الناشئة عن حكمة: كقول
زهير بن أبي سلمى:

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب

تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم

- المثل السائر: وهي كلمة موجزة قيلت
في مناسبة ما ثم تناقلتها ألسن الناس جيلاً
إثر جيل.

- المثل القياسي: وهو نوع من التشبيه

استطاع أدب الأطفال أن يبني
لخصائصه مؤسسة صناعية أدبية طفلية
على أرضية ثابتة خصبة بأسماء حرفية
ذهبية، وهي مؤسسة صناعية تخرّج كل عقد
ثلاثة من الصناعيين الجدد الذين يتألقون
ويبدعون، ويجددون لمؤسستهم الصناعية
أمر دعائهما.

مائدة أدب الطفل:

يقول أريديزون: «إذا لم نلجّ إلى العالم
القاسي في كتب الأطفال، فإننا لن نكون
صادقين على ما أعتقد».

ويقول جان جاك روسو: «دموع الأطفال
هي توسلات، فإن كانت لتُجاب صارت
أوامر».

ويرى هارولد هولبرت: «الأطفال بحاجة
إلى الحب ولاسيما إذا كانوا غير جديرين
به».

وفي رأي له يقول أندريه مورو: «أطفالنا
بحاجة إلى وجودنا أكثر من حاجتهم إلى
عطايانا».

أمّا برناردشو فإنه يقول: «الأطفال أناس
صغار لا يسمح لهم بأن يفعلوا ما كان آباؤهم
يفعلونه وهم صغار».

يلقى الطفل زاده على هذه المائدة، هذا
الزاد الذي يجعله ينمو معرفياً، وينضبط

- إياك أن تضرب بلسان عنقك.
- أكل وحمد خير من أكل وذم.
- آفة المروءة خلف الوعد.
- إذا قلت له زن طاطاً رأسه وحزن.
- إذا أتاك أحد الخصمين وقد فقئت
عينه فلا تقض له حتى يأتيك خصمه فلعله
فقئت عيناه.

أمام حقيقة هذه المنزلة الرفيعة
للأدب، وأهمية الدور الذي يقوم به في
الارتقاء بأذواق وسلوكيات ومعارف الناس
ولدت فكرة صناعة أدب موجه إلى الطفل
بشكل خاص، حتى تنمو مدركات الطفل
في محراب القراءة ويصبح الأدب جزءاً من
حياته اليومية عندما يكبر، لأن الذي يكبر
على تذوق عسل القراءة، يصعب عليه أن
يهجرها، عندئذ يرتقي به السلوك القرائي
لتصبح القراءة جزءاً أساسياً من حياته،
يمارس معها هواه، وهوايته المحببة،
وفسحته، ولا يكتفي بالاستمتاع بها من
خلال اغتنام أوقات الفراغ، بل يخصص
لها جزءاً ثميناً من وقته كسائر مقومات
حياته اليومية.

لم يكن الأمر ميسراً في البداية، بيد
أن المحاولات تتالت حتى تكللت بالنجاح،
وأصبح أدب الأطفال فتحاً جديداً مبيناً من
الفتوحات الأدبية.

في مراحل نموه.

لقد اغتنت مائدة أدب الطفل بعيون الكتابات الطفلية من مختلف أجناس وألوان الآداب والفنون في بقاع الأرض كلها، ولدى جميع شعوب العالم. وهي كتابات تقف على درجة متقدمة من الأهمية، وقد ترعرعت وتربت عليها أجيال الإنسانية، ولبثت تراثاً أدبياً تتزود منه الأجيال.

قدمت المكتبة الطفلية الكثير من المعارف والمواظظ للطفل، ووجهته بطرق أدبية غير مباشرة إلى سبل الصلاح، والتفوق، والقيم، والأخلاق، والعمل، والمساواة، والمحبة.

واليوم فإن طِفْلاً يقرأ هو متقدم على طفل لا يقرأ، وأب يقرأ هو أب متقدم على أب لا يقرأ، وأم تقرأ هي أم متقدمة على أم لا تقرأ، ومجتمع يقرأ هو مجتمع متقدم على مجتمع لا يقرأ.

يقول هارون بن علي بن يحيى المنجم:

أرى ابني تشابه من علي

ومن يحيى وذاك به خليك

وان يشبهها خلقاً وخلقاً

فقد تسرى إلى الشبه العروق

ويقول الحسن بن زيد العلوي:

قالوا عقيم ولم يولد له ولد

والمرء يخلفه من بعده الولد

فقلت من علقت بالحرب همته

عاف النساء ولم يكثر له عدد

في قصيدته «الجدة» يقول أحمد شوقي

على لسان الطفل:

لي جدّة ترأف بي

أحنى عليّ من أبي

وكل شيء سرنى

تذهب فيه مذهبي

إن غضب الأهل علي

كلهم لم تغضب

مشى أبي يوماً إليّ

مشية المؤدب

غضبان قد هدد بالضرب

وان لم يضرب

فلم أجد لي منه

غير جدتي من مهرب

فجعلتني خلفها أنجو بها وأختبي

وهي تقول لأبي

بلهجة المؤدّب

ويحّ له ويح لهذا

الولد المُعذّب!

ألم تكن تصنع ما

يصنع إذ أنت صبي؟!

يصوّر غراهام غرين كيف أن

الطفل يحمل إلينا معه رائحة وطيف

المستقبل في قوله: «لحظة سعيدة في الطفولة، عندما يفتح الباب، ويدخل منه المستقبل».

تلبث أنوار مشكاة الفطرة ساطعة في روح الإنسان حتى اليوم الأخير من عمره، هذه الأنوار التي تجعله يمتلئ بهالة إشراقة الحيوية كلما ألقى نظرة إلى بهاء الطبيعة، كلما وقع منه بصر على جميل، كلما قرأ كتاباً نفيساً، كلما مضى في شارع جديد.

هذه الأنوار التي تبثه بنضارة التجدد، وتشحن حواسه بطاقة الاندفاع شطر رحابة زهو الحياة، والإبداع، والاستمتاع بمباهج قيم الأخلاق، والعفاف، والنقاء.

لولا سطوع نور الطفولة في فطرته لأخفق الإنسان كثيراً في مسعاه كي يستمتع بضحك عميق، لأخفق في مسعاه كي يقدم عملاً جاداً، لأخفق كثيراً كي ينعم بسكينة الليل وهو يستلقي في دفء الفراش.

عندما يهب الإنسان بسخاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من مساحة مبدأ الطفولة. عندما يعفو الإنسان عن كثير، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من معالم قيم الطفولة.

عندما يحب الإنسان بوفاء، فإن ذلك يعني بأنه انطلق من رحابة صفاء

الطفولة.

ثمّة أناس استطاعوا أن يجردوا أنفسهم من غرسة الطفولة المباركة، استطاعوا أن يقلعوا هذه الغرسة من فطرتهم، فغدوا يعيشون دون مرجع الطفولة، يعيشون دون أن تسطع وجوههم بنورانية الطفولة.

ترى وجوههم قاتمة، مظفأة الأنوار، ترى قاماتهم تتحرك كأنما هي أشباح.

هؤلاء يمكنهم ببساطة شديدة ارتكاب قول الزور، ومواراة الحقيقة، يمكنهم أن يكونوا قساة وطغاة لأبعد حد.

قست قلوبهم فمارسوا الطغيان، دون أن يهتزوا خفقة قلب.

إنّ ما نعرفه بـ (الضمير)، إنما هو قبس من أنوار الطفولة.

الذي لا ينعم بطفولة حية، يصعب عليه أن ينعم بضمير حي.

الضمير هو مرآة فطرة الإنسان، لأن الإنسان بحكم فطرته يجنح شطر مواطن التسامح، أكثر مما يجنح شطر مواطن العقاب، يجنح شطر المحبة، أكثر مما يجنح شطر البغضاء، ولا يستوطن الغل إلا في قلوب خلت بظلماتها من بركات الطفولة.

على هذه الدروب الوعرة التي اتخذوها تتعزز في نفوسهم رذات فعل غير طبيعية

تدفع بهم إلى شذوذ السلوك كشيء مما يمكن تسميته بسعي للنيل من صفحة طفولة الإنسان الناصعة، كونهم سقطوا فعلياً في خشونة اللطفولة التي تساوي خشونة اللابراءة، خشونة اللاصفح، خشونة اللا تواجد.

إنهم في هذه المرحلة المتدنية من منارات السلوك الإنساني يسعون للاعتداء على الأطفال كحالة من الطفولة العامة، يعتقدون بكل ما يملكون من أشكال مخزية تثبت مجدداً انحدار نفوسهم إلى الدرك الأسفل من التلوث الروحي.

إنهم يسعون إلى اغتصاب غصن الطفولة، إلى انتهاك حرمة الطفولة، إلى الإساءة إلى فطيرة الإنسان.

لذلك ينطفئ نور الإنسان من وجوههم، تنطفئ لمسة نضارة الكائن البشري من سحناتهم.

من الضفة الأخرى، يمكنني أن أرى عقاب الطفولة لهؤلاء، عقاب الطفولة البريء الذي يكمن في هجرانها لهؤلاء، وتركهم يتخبطون كالعمى في ظلمة الروح.

لا يضحكون ضحكاً طبيعياً،

لا ينامون نوماً طبيعياً.

لا يجلسون جلوساً طبيعياً.

لا ينظرون نظراً طبيعياً.

لا يسمعون سمعاً طبيعياً.

لا يتحدثون حديثاً طبيعياً.

لا يصادقون صداقة طبيعية.

لا يحبون حباً طبيعياً.

ذلك أنهم يعيشون على هامش من فطرة الطفولة.

ليس بوسع الإنسان أن يعتدي على أخيه الإنسان، قبل أن يعتدي على الطفل الكامن في داخله أولاً.

إن فطرة الطفولة لسوف تنهت عن ذلك ولو عند حافة اللحظة الأخيرة.

إن من علامات عافية الطفل لدى الكبير، عطف الكبير على الصغير،

حنين الكبير إلى الحارة التي نمت فيها طفولته، مؤازرة الآخرين، العطاء بسخاء، عقد صداقات حميمة، المواظبة على القراءة، ممارسة الهوايات، العفاف في الحب، إتقان الحرفة.

يقول أيمرسون: «عندما تغتبط بسعادة الأطفال وجمالهم، تشعر بأن قلبك أكبر من جسدك».

يحتاج الإنسان إلى سماع صوت الطفل الذي كأنه، يحتاج إلى العودة إليه، التحاور معه، وكلما كان الكبير قريباً من عالم طفولته، أحسن تربية أطفاله، وكان لهم خير رفيق.

نفحات

إنَّ ما خسرناه هو مروع، ولكن ما بقي لدينا هو غاية في الأهمية كي نحافظ عليه لأنه هو المستقبل، ما بقي لدينا هو الشمس التي ستشرق صباح الغد، وذلك المولود الذي سيفتح عينيه على حياة جديدة، وعلينا أن نفعل ما باستطاعتنا كي يتشكل سمعه على هديل الحمام، وقرقة العصافير، أن نقدم له غذاءً جيداً كي يستطيع أن يحملنا عندما لم نعد قادرين على المشي.

إنَّ العناد في هذا السبيل لن يكون بوسعه سوى أن يفاقم في شروخ الهوة التي صنعناها ووضعنا أنفسنا في عمق تيهها، وفي النهاية لن يكون بوسعنا إلا أن نكتشف أنه ليس لنا سوى أنفسنا وليس لنا من أقرباء وأحباء، ونحن يتامى ضعفاء لا أحد لنا سوى بعضنا البعض.

ليس بالضرورة أن تعيش في مكان تلقى فيه الاحتفاء اللائق بك، الأهم من ذلك أن تعيش في مكان تشعر فيه بقوة الانتماء إلى ذلك المكان. كثيرون يعيشون في أماكن يلقون فيها احتفاءً أكثر مما يليق بهم، بيد أنهم يشعرون حالة عزلة روحية مروعة لأنهم يحترقون بنار اللانتماء إلى المكان الذي يعيشون فيه.



يبقى الأمل هو حبل الصرة بين الإنسان والحياة، إن كل ما تركه أهل الأدب والفكر والبلاغة والفن، هي محاولات مستمرة من أجل تعزيز طاقة الأمل لدى الإنسان. يأتي الإنسان حاملاً حزنه ومعاناته على أكتافه إنه حمال الأحزان.. كل ذرة تراب.. كل ورقه شجرة.. كل منخفض.. كل فصل لهو شاهد على معاناته.

عندما يولد، يقال له أول ما يقال: تذكر أيها الإنسان بأنك فان، لكنه يصر على الحياة ويقبل العيش فيها، لأن الحياة أفضل من العدم. ليس هناك من يتذوق لذة الطرب أكثر من ذاك الصوت المعذب الذي يشدو من شدة الألم، يبلغ بروحه الشدو باباً يفقد فيه أي إحساس بحجم ذاك الألم، وفي ذات اللحظة تهب على روحه نسمات نشوة غامرة لم تهب على مخلوق من قبله. إنَّ أولئك الذين لا تحترق حواسهم في جحيم المعاناة، لا تبلغ أنامل أرواحهم البتة أوتار النشوة الكبرى لتعزف عليها، تلك النشوة التي تدفق بكل قوتها موازية لقوة النيران التي يحترقون بها.



إنَّ أنقى اللحظات الروحية التي يمكن للمرء أن يعيشها، تكمن في ثايا تلك اللحظات المجيدة التي يكون فيها عاشقاً.



الرجل من دون المرأة، هو كائن يمشي
على قدم واحدة، ويرى بعين واحدة، ويسمع
بأذن واحدة، ويشم بفتحة أنف واحدة.
والمرأة مع الرجل، تمشي على قدم
واحدة، وترى بعين واحدة، وتسمع بأذن
واحدة، وتشم بفتحة أنف واحدة.



وفق جل المقاييس الإنسانية، لا يحق
لإنسان أن يهتف: الله أكبر، وهو يقتل
إنساناً، أو يهدم بيتاً على ساكنيه. يحق له
أن يهتف: الله أكبر، عندما يحيي إنساناً، أو
يشيد بيتاً لإنسان بلا مسكن. إن ذاك الذي
يعلم إنساناً كيف يعزف على آلة موسيقية،
هو خير من ذاك الذي يعلم إنساناً كيف
يقتل إنساناً بآلة قتلية.

إن أعظم حالات الحب إشراقاً، يمكن لها
أن تتبثق من أعماق أعظم مراحل العمر المأ.



إذا كانت الأم تتجرب ابنها وتصطبّر
عليه وهنا على وهن حتى تجعله رجلاً،
فإن الزوجة تتزوّج وتصبّر عليه وهنا
على وهن حتى تجعله أباً وتغدو أمّاً
لأولاده، لذا فإن الأم لا تشعر بطمأنينة
على ابنها مهما كبر، ومهما علا شأنه،
إلا عندما يتزوّج، لأنها عند ذاك فقط
تشعر بأنها أودعته إلى المرأة التي سوف
تستكمل معه مسيرة العناية بابنها.



المصادر والمراجع:

- ١- الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة بن الحسن الأصفهاني، تحقيق عبد المجيد. قطامش، دار المعارف، القاهرة.
- ٢- التمثيل والمحاضرة، أبو منصور الثعالبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتاب العربية، القاهرة (١٩٦١م).
- ٣- المنجد في الأمثال والحكم والفرائد اللغوية، جوزف نعوم حجار عربي، فرنسي، فرنسي-عربي، دار المشرق- بيروت، (١٩٨٣م).
- ٤- الأمثال في القرآن الكريم، ابن قيم الجوزية، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب، دار المعرفة، بيروت، (١٩٨١م).
- ٥- من المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين أبي الفتح محمد بن أحمد الأبشهي، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق (٢٠٠٤م).
- ٦- لسان العرب: ٢٢/١٣، مادة مثل.
- ٧- القاموس المحيط: ٤٩/٤، مادة مثل.
- ٨- كتاب التيجان، وهب بن منبه، وفيه يذكر بأنه: قرأت في حكمة لقمان أكثر من عشرة آلاف باب.
- ٩- كتاب عيون الأخبار، لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينوري، تحقيق د. محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، بيروت.
- ١٠- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، منشورات دار الفكر، بيروت.

الفكر الإنساني عند ندره اليازجي



موسى ديب الخوري



نال المفكر ندره اليازجي جائزة الدولة التقديرية لعام ٢٠١٥م في مجال النقد والدراسات والترجمة. وقد جاءت هذه الجائزة تقديراً وعرفاناً لما حققه خلال مسيرته الفكرية الطويلة والغنية من كتابات ودراسات وترجمات تركت بصمة مميزة في الثقافة العربية المعاصرة.

ندره اليازجي من مواليد مرمريتا في محافظة حمص السورية عام (١٩٣٢م). نال شهادة الماجستير بالعلوم الاقتصادية والسياسية من لبنان، وتفرغ للكتابة والبحث

✻ باحث ومترجم ونائب رئيس الجمعية الكونية السورية.

نظرية الخلق والتكوين وغيرها، «جعلتني أبحث عن مثيلات لها أو موازيات أو مقاربات لها في الأساطير». وفيما يلي ما يقوله اليازجي عن رحلته العقلية هذه في بحثه عن الحقيقة:

«إذ كنت أسعى دائماً إلى معرفة الحقيقة، وأبحث عن سرّ الوجود والسرّ الأزلي في الكون والطبيعة والإنسان، علمت أن دراستي، وبحثي وشمولية عقلي لا تكتمل إلا بدراسة الفلسفة العلمية، والفيزياء والبيولوجيا منها على نحو خاص، وكل ما يمتّ بصلة إلى علم التطور وعلم الفلك.

لم تكن رحلتي العقلية والنفسية، والعلمية والروحية الطويلة إلا تعبيراً عن حادثة أساسية في حياتي. ففي الخامسة عشرة من عمري، بدأت مرحلة جديدة في حياتي تمثلت بمرحلة الشكّ المعرفي والبحث عن حقيقة إله المحبّة. كنت قبلاً قد عاهدت الله، أي الإله الشخصي الذي عبده واعتقدت بأنه يستجيب لمن يحبه من عابديه المؤمنين، أن يبقى على حياة أختي مقابل تكريس حياتي له. ولقد ساعدتني تجربة الشكّ المعرفي على معرفة الألوهة الحقيقية والثبات في الإيمان القوي والعميق الذي لا يعتريه الشكّ بمعنى الرفض أو الإنكار.

الفكري والتدريس، واهتم بشكل خاص بالفلسفة الأخلاقية خلال مرحلة دراسته الجامعية. وقد قادته دراسته للفلسفة الأخلاقية إلى دراسة الفلسفة على نحو عام، وقاده ذلك إلى نطاق علم النفس. ويقول إنه تجاوز في هذه المرحلة علم نفس الإدراك «إلى علم نفس الأعماق أي علم النفس التكاملي وأدت بي هذه الدراسة إلى ولوج الأديان والأساطير وأنواع الحكمة^(١)». ويوجز ندره اليازجي الأسباب التي قادته إلى التعمق في هذه الدراسات بما يلي:

«أولاً: لأنني كنت، منذ صغري، أسعى جاهداً لتحقيق عقلانية حرّة ومنفتحة وروحانية سامية.

ثانياً: لأنني أردت أن أتعرف إلى الجوانب الإنسانية والروحية في هذه الأديان، بحيث تساعدني على مقاربتها في أعماقي، ومحبّة جميع المبادئ والاعتراف بجميع التنوّعات الإنسانية.

ثالثاً: لأنني أردت أن أستغرق في عمق التجربة الروحية التي أحقق فيها المقدّس في داخلي وخارجي^(٢)».

قادته دراسة الأديان، في مضامينها، إلى التعمّق في البحوث والدراسات الجارية حول الأسطورة. هذا، لأن القصص التي تتحدّث، على سبيل المثال، عن الطوفان أو

تعمّقت في دراسة الفلسفات باحثاً عن الحقيقة. ووجدت نفسي تائهاً في صحراء تعدّد المدارس الفلسفية، الأمر الذي دعاني للعودة إلى الاستغراق في كياني. تعمّقت في دراسة علم النفس ساعياً إلى فهم حقيقة نفسي، وهادفاً إلى بلوغ التوازن والتكامل في داخلي. تعمّقت في دراسة الأديان لأجد الحكمة المنطوية فيها، وأعني سرّ الحقيقة السامية والمطلقة. وفي هذه الدراسة، تجاوزت حدود الشريعة الوضعية المكتوبة بالحرف لأبلغ مستوى الناموس الإلهي الذي نُحت في قلبي وعقلي وروحي. تعمّقت في دراسة الأساطير لأفهم حقيقة العقل السابق للعقل الفلسفي، ولأعلم إن كانت الأساطير تنطوي في لاوعي جمعيّ يحدثنا عن الأنماط الأولية البدئية للوجود الإنساني، وتهيئ السبيل لمغامرة العقل. ولقد علمت أنها تطرح على بساط البحث المقولات العقلية والروحية، على نحو رمزي أو غير مباشر وعلى صعيد مختلف. تعمّقت في دراسة العلوم العامة والفيزياء خاصة لأفهم حقيقة القوانين الطبيعية منها والكونية، وأدرك حقيقة السرّ الكامن في جوهر الوجود. شئت أن أوحّد هذه القوانين، تماماً كما يحدثنا بعض العلماء، في قانون واحد يشمل كلّ القوانين وينبث في كلّ

كيان حيّ. أردت بدراساتي لفلسفة العلوم أن أصعد مراتب سلسلة الوجود الكبرى، وأسمو بحياتي المادية إلى حياتي الروحية.

أردت أن أعرف السرّ الكوني الإلهي في الوجود. أردت أن أعرف كيف يتحقّق هذا السرّ في الإنسان في تجربة داخلية عميقة. أردت أن أشاهد ببصيرتي وأعين بعقلي الفوقي وروحي الناقّة إلى مصدرها، الحقيقة السامية الإلهية في الإنسان، والطبيعة والوجود في وحدة كليّة شاملة تتكامل في جوهرها، وتتألق في تنوّعات الحقائق، والقوانين، والمعادلات والتعارضات الثنائية. في هذا الوسط الشمولي، الكلّي والواحد، اتّسعت معرفتي على نحو أفقي في الطبيعة والكون وعلى نحو عمودي في كياني. هكذا، ثبت إيماني في الألوهة التي أدعوها الحقيقة السامية^(٢).

يشير هذا السرد لسيرة ذاتية وفكرية إلى العمق الذي انطلق منه ندره اليازجي في فلسفته وبناء منظوره الفكري والحياتي. لقد بدأ بنشر المقالات والدراسات منذ فترة مبكرة من شبابه، وكانت بعض كتاباته الأولى تعكس بوضوح التوق الكبير الذي يعتل فيه للمعرفة. يقول في الفصل الخامس من كتابه «بحوث فلسفية»: «كثيراً ما حاولت أن أمزّق الصفحات التي أكتبها، لأنني أجدها

وهكذا، مثل كل مفكر تطرّح المواضيع التي يكتب حولها تساؤلات عميقة، فتثير خلافاً أو قبولاً أو نقاشاً، كذلك يمثل فكر اليازجي إطاراً غنياً للنقاش. من هنا، فإن قراءة فكر ندره اليازجي تحرّض لدى القارئ، أكان على وفاق مع أفكاره أم لا، الدافع للاستزادة من المعرفة والبحث، الأمر الذي يبعث على طرح الأسئلة باستمرار ويدفع لمحاولة الإجابة عليها. ولا بد من القول هنا إن التوافق مع فكر اليازجي أو عدمه لم يكن هو المهم في مسيرة كثيرين ممن عرفوه، لأن اللقاء به كان يعني دائماً الوقوف أمام شخص كرّس نفسه للبحث عن الحقيقة، ومعرفة الذات، وتطبيق المبادئ السامية. ويعترف اليازجي نفسه بأنه عمل دائماً على تطوير أفكاره، فهي مسائل تظل خاضعة للحوار في النهاية، في حين أن المبادئ الإنسانية السامية لم تتغير عنده، ولم يتغير تطبيقه لها، فصارت إرثاً ومدرسة ومثالاً جديراً بأن يُتبع.

يقول ندره اليازجي في مقالة نشرت له على موقع «معايير» الإلكتروني^(٥):

«يتلخص موقفني الفكري - وهو مجرد مشروع نظريّ يتمثل في وجهة نظر فلسفية وعلمية وأخلاقية، سعيّت، ومازلت أسعى، إلى تحقيقها في المبادئ التالية:

غامضة ينقصها الوضوح، وكثيراً ما حاولت أن أتوقّف عن الكلام لأنني غير قادر على التعبير الصحيح؛... وفي المرحلة المبكرة من شبابي استسلمت للألم مراراً لأن اللغة قيّدت طاقتي، وحدّتها في إطار الفصاحة البيانية التي هي مجرد سفسطائية^(٦)» لكن فكره سرعان ما تطوّر ونضج، وبات أقدر على نشر دراساته وأبحاثه وطباعة مؤلفاته بروح المعرفة التي اكتسبها وبالقدرة على حثّ القارئ على متابعة بحثه عن الحقيقة. والحق إن المعاناة التي واجهها اليازجي مع اللغة هي معاناة كل باحث عن الحقيقة، وكل مبدع أراد سكب الجمال الذي يشعر به ويراه في كلمات أو أنغام أو خطوط وألوان أو نظريات ورموز. وشيئاً فشيئاً، استطاع تجاوز إشكالية اللغة وقصرها عن اللحاق بالمعنى كما يشير في أكثر من مناسبة، ليبني من اللغة نفسها عبر التدقيق في مصطلحاتها وتمييز السويات اللغوية للمعاني ومطابقتها، بناءً تتناسق فيه الخبرة الروحية والفكرية والنفسية والاجتماعية، وتتّضح عبر طبقاته وتقسيماته المراحل التي يمرّ بها الإنسان في بحثه عن المعرفة، وفي تحقيقه لمبادئه الإنسانية، وفي تجاوزه لإشراطات هذا العالم إلى حرّية الوعي وإشراق الفضيلة.

وإلى تألف العقل الخاص مع العقل العام في قاعدة واحدة مشتركة بين العقول الفردية.

٩- تأسيس بنية عقلية منفتحة ومكوّنة تصلح لإجراء حوار بين بنات وأبناء الإنسان لقبول الآخر والاعتراف به وتتجاوز الأطر المحدودة والمناهج أحادية البعد.

١٠- الإعلان العالمي لهوثيقة واجبات الإنسان» التي تشتمل على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وتدعو إلى تربية إنسانية تجعل من الواجب أمراً أخلاقياً وروحياً ملزماً.

١١- المثالية بوصفها تطويراً للواقع كما يجب أن يكون، أي التحول من الوجود إلى الوجود.

١٢- السعي المثابر والهادف إلى تحقيق العدالة الاجتماعية الملازمة لكرامة الإنسان وحرية المائلتين في الوعي.

١٣- توطيد التفكير المنطقي الرامي إلى بلوغ محاكمة سليمة تحرر العقل من قيود الإشارات العديدة التي تحول دون تطويره».

يرتكز فكر ندره اليازجي بالتالي على أساس إنساني. فهو يعمل على بلورة معنى وجود الإنسان من خلال فهم ومعرفة موقع الإنسان في الوجود وذلك عبر العمل على طاقاته الكامنة وتفتح الوعي والإبداع لديه.

١- محبة الإنسانية جمعاء، بغض النظر عن الجنس واللون والعنصر والمعتقد.

٢- توحيد نطاقات الفكر الإنساني ووجهات النظر العديدة في دراسة مقارنة ترمي إلى القيام بوحدة تأليفية بين الدين بمفهومه الروحي، والفلسفة بمفهوما الإنساني والمثالي، والعلم بمفهومه النظري والطبيعي والكوني.

٣- تعمق وتوسع في دراسة القوانين الطبيعية والإنسانية-الاجتماعية بهدف الولوج إلى القوانين الكونية التي تشملها.

٤- الشعور الكامل بالوجود، أي المعرفة التي تشير إلى وجود وعي كوني يشمل جميع المبادئ والقوانين.

٥- التجربة النفسية أو الروحية المختبرة التي تنتهي إلى عرفان يتجلى في تحقيق الشعور الأسمى بتكامل الوجود الإنساني والطبيعي والكوني.

٦- واقع الحضارات والثقافات والإنجازات الرائعة مقولة تؤكد وجود تنوع ظاهري وحقيقة باطنية جوهرية واحدة وعقل إنساني جمعي شامل.

٧- تمثل العالم والكون في نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة.

٨- العقل المنفتح والقلب المنفتح سبيل إلى لقاء الحضارات والثقافات وتفاعلها

وهذا التحقيق الروحي للمبادئ في عالم المادة يتطلب العمل على مستويات عدّة، اجتماعية ونفسية وعقلية. لقد توصل اليازجي عبر تعليمه وخبرته إلى وضع منهجية راسخة لتأسيس تربية غير انفعالية، تربية تقوم على احترام الذات والآخر، وعلى العمل على الذات بالدرجة الأولى، وعلى بذل كل الجهود الطيبة والواعية من أجل الارتقاء بالوعي الإنساني.

«إنّ الإنسان الذي يضحي، الإنسان الذي يعمل لأجل هدف نبيل وعظيم، الإنسان الذي يخدم الآخرين، والذي يحيا نفسه ولغيره، الإنسان الذي يحقق الإنسانية الكائنة فيه، الإنسان الذي يعلم أنه غاية الوجود، ويعمل لأجل الحقّ والحريّة، ويتعلّم لأجل العلم والمعرفة^(٦)» هو المثال الذي يعمل المربي ندره اليازجي على زرع ورعايته في المجتمع عبر كتاباته ومحاضراته ولقاءاته وأحاديثه. وكيف يمكن أن يتحقق هذا المثال بغير تفتح طاقة الوعي. إنّ مثالية اليازجي هي في الواقع مثالية تطبيقية، وليست مثالية حاملة، وإن كان قد أكّد في كتاباته كافة على الرؤية العرفانية للعالم، وعلى ضرورة محبة العالم وفهم أسرار العميقة، لكنه شدّد دائماً أن هذه المحبة وهذا الفهم لا يأخذان كامل المعنى الخاص

بهما إلا من خلال تطبيقهما مباشرة في حياتنا اليومية. «تلك هي البصيرة التي تسعى الحكمة صوفياً إلى إلهامنا على نحو دائم»، كما جاء في خاتمة كتابه «هندسة الروح أو أشكال صوفيا».

ترتكز منهجية ندره اليازجي التربوية إن صحّ التعبير على وضع الخبرة المعرفية موضع التطبيق. وبعبارة أخرى، فهو يسعى دائماً إلى جعل المبادئ قوّة فاعلة من خلال تطبيقها في الحياة اليومية. ولا يكون ذلك إلا بتهديب القوى النفسية والعقلية، وتوجيه الإنسان إلى ما هو سام. فهكذا يتحقّق الخلق والإبداع الحقيقيان. وما لم يبدع الإنسان فإنه مائت^(٧).

ينطلق ندره اليازجي من الواقع، ليعالج الأسباب العميقة التي تجعل الإنسان سلعة في عصر الاستهلاك، وتشوش عليه قيمه النبيلة. وهو يخلص إلى أن الصفات التي تتسم بها مدينتنا الحالية هي نتيجة ابتعاد الإنسان عن المثل وعن تطبيق المبادئ الكونية والقانون الطبيعي. فظاهرة العنف مثلاً هي انحراف الإنسان عن الغاية السامية التي وُجد من أجلها. يقول: «إن حضارتنا تحمل طابع العنف، لذلك هي مهدّدة بالانفجار. إنها تتفجّر كلّ دقيقة لأنها لم تستطع أن تحقّق الغاية السامية

التي وجد من أجلها الإنسان^(٨). وهو يُرجع السبب العميق للعنف إلى مرض متفشٍ في حضارتنا هو «العقائدية» التي «تقضي على الحرّية لأنها تعمل على تقويض المبادئ الأخرى، وتقضي على العدالة لأنها تحاكم الغير^(٩)». ولهذا فإنه يتبنى مع كثير من الحكماء مبدأ اللاعنف وينادي مع غاندي قائلاً: «أريد أن تهبّ على نافذتي رياح العالم كلها. لكنني لا أريد أن تحطّم نافذتي واحدة منها^(١٠)».

«إنّ التأمّل والمعرفة والحرّية هي عالم الحقّ والمثال^(١١)». بهذه الكلمات البسيطة والموجزة يدعو اليازجي إلى تحقيق معنى وجودنا. فالمعرفة حرّية، وبالتالي هي فضيلة كما قال سقراط. «كلّما ازدادنا معرفة ازدادنا فضيلة، ولا يمكن أن توجد معرفة حقّة إن لم تؤدّ إلى فضيلة». والمعرفة تتحقّق بالتأمّل والبحث والتمييز.

لهذا سعى اليازجي دائماً إلى تكامل الفكر الإنساني وتلاقي ثقافته لا إلى تجزئته وتباعده. يقول: «أدركتُ أن ثقافات العالم وحضاراته تلتقي، التقاءً مباشراً أو غير مباشر، لتشكل مركزاً تتكامل فيه الوقائع الظاهرية والحقائق^(١٢)»، وهو يوضح هذه الفكرة بقوله: «يمكن لي أن أشبه العقل الواحد والتنوع الثقافي بدائرة تصدر عنها

وتعود إليها إشعاعاتٌ عديدة هي التنوعات العديدة للروح الإنسانية. فإذا كانت الحياة، في ظاهراتها، واحدة، والعقل، في جوهره، واحداً، والحكمة، في تجليّاتها، واحدة، والعلم، في منظوراته، واحداً، والروح، في كيانها، واحدة، فإنها تتبث وتشتت عبر إشعاعاتها المتنوعة، لتعود إلى التآلف في دائرة الحقيقة الواحدة. وبالمثل، أستطيع أن أشبه العقل الواحد والتنوع الثقافي والفكري بالضوء الذي يتشتت إلى قوس قزح: فالحق إن ألوان قوس قزح تمثل الضوء الذي تبدّد أو تشعّب إلى تنوعاته. فإذا استطعتُ أن أعيد هذه الألوان من خلال الموشور، الذي يشتت الضوء عبره إلى تنوعات ألوانه، أجدها تعود إلى ما كانت عليه من اتحاد: إنها تعود إلى الضوء الذي جمع أنواع ألوانه في وحدة لا تتفصم هي حقيقة واحدة لا تناقض فيها. في هذا النطاق التوحيدي، أستطيع أن أشبه العقل المنفتح بحديقة واسعة تُزرع فيها زهور العالم ووروده كلها^(١٣)».

يؤكد اليازجي على المعرفة، لأنها مفتاح رقيّ الإنسان. «فهذه الحضارة البائسة لا يمكن أن نملاً فراغها إلا بالمعرفة». لا يمكن التغلّب على الفراغ، ومرض حضارتنا إلا بالتعلّل

وبهذه القوة الذاتية المؤسسة على المحبة والمعرفة إنما ينادي الفيلسوف المربي اليازجي قائلاً:

«يجب أن يكون الشباب هادفاً، صاحب غاية رفيعة. يجب أن يترفع الشباب عن كل المظاهر الخادعة. يجب أن يعمل الناس لأجل خلودهم في عالم الحقيقة. يجب أن يتعلم الإنسان أن هناك عالماً أفضل في هذا العالم الذي نحيا فيه ونعيش، عالم القيم والمثل، عالم تحقيق الكيان، عالم تحقيق المبادئ الطبيعية والأبدية. يجب أن يستيقظ الإنسان من سباته العميق^(١٧)».

إنه طريق بناء الحضارة وارتقائها، وبناء الأوطان، والمشاركة الإنسانية. يقول ندره اليازجي: «في هذه الرؤيا، تحافظ الأمة أو الأمم على مشعلها الحضاري - على إبداعها الثقافي والعلمي وعلى عمق خصوصيتها وقدرتها على الامتداد إلى الآخر^(١٨)».

إن هذا الفكر الذي يبدو نظرياً أكثر منه تطبيقياً هو الذي يريد ندره اليازجي أن يحققه ويطبقه في المجتمع. فلا معنى للمثاليات بلا تطبيق. «إن الفضيلة والمعرفة والوعي والمحبة والغاية النبيلة والحرية والفاعلية هي بذور نزرعها في الحقل الاجتماعي. هذا لأن المجتمع هو النطاق الذي يحقق فيه الإنسان إنسانيته

والفهم والإدراك. «فليهدب الشباب إحساسهم وشعورهم وليهدبوا أنفسهم بالتأمل الشخصي. وليهدبوا عقولهم بالمران... بممارسة التفكير الجدّي... فيبصرون^(١٩)». تلكم هي دعوة اليازجي إلى شباب عالمنا لينبذوا تقوقعهم في صيغ ناجزة وليتحرروا من القيود المتركمة في مفاهيمنا وعاداتنا وأعرافنا وعقائدنا، لينطلقوا في سماء معرفة غير مشروطة وغير محدودة إلا بالمحبة.

لا يستطيع اليازجي السكوت أمام ما يراه من تراجع للقيمة الإنسانية ولجوهر حياة الإنسان على كوكب الأرض. فتراجع القيمة الحضارية بسبب الطمع والأنانية والجهل لا يمكن أن يُعدّل إلا بالخدمة والتضحية: «من أراد أن يكون رئيساً فليكن خادماً»، أي بالعمل على الذات وتربية الذات. «إن الحضارة تكمن في قلب الإنسان الشجاع الذي تتمثل فيه الحكمة وتبرز فيه الفضائل. إنها تكمن في الإنسان الذي يخدم مجتمعه بوسيلة حقّة: الخدمة التي لا مقابل لها^(٢٠)». ولهذا، فإن التربية تنطلق في نظره من مبدأ الإخلاص للحق. «لا يمكن لمن يرى أن يصمت. ومن يصمت عن الحقيقة يقترف الشرّ، لأن النور لا يخفي الأشياء بل يظهرها^(٢١)».

وكونيته في أن واحد^(١٩)». وعلى هذا الأساس يدعو ندره اليازجي كل إنسان إلى تطبيق مضامين المبادئ والقواعد الحياتية في الحياة الاجتماعية، لكي تكون خدمة الإنسان ومحبة الآخر والقبول به الغاية القصوى التي يتجلى فيها معنى وقيمة وجودنا. إنها دعوة صريحة إلى ممارسة إنسانيتنا في المجتمع وفي الواقع. وهي في الصميم دعوة إلى التعمق أكثر فأكثر في معرفة النفس. وهي نوع من الصوفيّة (الحكمة) إن صحَّ القول، صوفية عقلية كما يسمّيها اليازجي، وليس صوفية انغزالية تُبعد الباحث عن المجتمع بل وعن نفسه، «فالصوفية العقلية تجعل مني طاقة طبيعية وكونية فاعلة في المجتمع^(٢٠)» كما يقول. ونفهم ذلك بوضوح أكبر في ربطه لمعنى المعرفة الصوفية أو العقلية بالمحبة، ووحدة الإنسانية في قوله: «لذا كانت المحبة تعني أن شمولها العالمي، الإنساني والجامع، إنما ينطوي في مبدئها الأعظم بأن جميع الناس، على اختلاف أعراقهم وألوانهم وأمهم، يؤلفون جسماً واحداً: إنَّ مبدأ عالمية الإنسان مبدأ يحثنا على احترامه وإعلاء شأنه: فلا يحق للإنسان أن يعتدي على إنسانيته أو إنسانية

غيره، ولا يحق له أن يستغله أو يحقد عليه أو يكرهه أو يردله^(٢١)».

ولا شك أن تطبيق المثال في الواقع أمر في غاية الصعوبة. وهنا تبرز دقة مفاهيم اليازجي في فهم المصطلحات التي تعكس طريقة فهمنا لحياتنا ووجودنا. فالصعوبة هي الحقل الذي يتطوّر العقل البشري من خلاله، لكن الصعوبة ليست مصيبة. فندره اليازجي يرفض وجود مصائب في الحياة. فالمصيبة هي حصيلة عدم تغلّبنا على الصعوبة. ولهذا فإنه يدعونا إلى اختبار تجاوز الصعوبة. والاختبار هنا يعني إعمال العقل والبصيرة وليس التجربة الآلية التكرارية. والاختبار هو الذي يكسبنا القدرة على طرح التساؤل والأفكار والنقد والبحث مما يؤدّي إلى الإبداع والقيمة والمعنى والوعي والغبطة^(٢٢)..

أمّا كيف نتغلّب على الصعوبة، فإن المشوار يبدأ بخطوات صغيرة لكنها فعّالة وقوية.

وأهم هذه الخطوات يتمثل في مفهوم الصداقة. فاليازجي يجد في الصداقة، أي التواصل مع الآخر، فلسفة حياتية كاملة تعكس فهمنا وتواصلنا مع أنفسنا. و«ترتكز الصداقة الحقيقية على مبادئ أساسية هي: قول الحقّ، والتحمل والتسامح والتجاوز

إلى الآخرين، في حين أن الفردية مغلقة وكارهة وتقع في ظلام الأنا. وفي حين تبني الشخصية محاكمة عادلة ومتزنة لأمر الحياة كافة، فإن الفردية تتفعل وتطيح بمبادئ المحاكمة لأنها لا ترى غير نفسها وترفض وجودها الأرضي وتكر الغاية النبيلة له. وبناء الشخصية هو الذي يعطي الواقع ألماً حقيقياً. وهكذا يدعون ندره اليازجي إلى «رفع مفهوم العيش إلى مفهوم الحياة، ومفهوم الواقع إلى مفهوم المثال، ومفهوم الفردية إلى مفهوم الشخصية، ومفهوم الرغبة إلى مفهوم الدافع»^(٢٥).

لقد تناول اليازجي في كتاباته وأحاديثه المواضيع التي تتعلق بالإنسان وحياته. فأعطى هذه المواضيع باستمرار أفقاً أوسع من خلال محاكمته التي بناها دائماً على نظرة شمولية وتكاملية. هكذا فهم علاقة الإنسان بالإنسان من خلال الصداقة، وفهم علاقة الزواج، وفهم المساواة بين الرجل والمرأة، بما هما يمثلان كائناً واحداً في الجوهر.

في فلسفة اليازجي ليس ثمة مكان لليأس. ففي تأمل الإنسان للكون يدرك انسجامه ووحدته معه، ولا يولد اليأس إلا عندما نرفض هذا التآغم مع الكون.

والاحترام، والمحبة والتضحية، وصداقة جميع الناس، وصداقة النفس^(٢٣).

إن تحقيق الصداقة الحقيقية هو مسيرة طويلة من المجاهدة. تبدأ الصداقة في تمييز مفاهيم أساسية في حياتنا مما يؤدي إلى قدرتنا على استخلاص الجانب الإيجابي دائماً من الصعوبات التي نمر بها. فالألم مثلاً هو ألم سلبي وألم إيجابي. الألم السلبي ينتج عن اللذة العابرة وعن الانفعال وانحراف الدافع أو العاطفة. أما الألم الإيجابي فهو ناتج عن الشعور بالواجب والتضحية والعطاء والإبداع والخدمة. هكذا يكون علينا أن نعمل للتخلص من فرديتنا المرتبطة بلذاتنا العابرة إلى بناء شخصية قوية ثابتة في المحبة والسعادة. إن هذه المسيرة تقودنا إلى التخلص من عقدة النقص، والعمل على تعويض إيجابي يعدل باستمرار حياتنا الداخلية كما والاجتماعية، ويدخلنا في كل يوم وكل لحظة في صداقة متجددة مع الذات ومع الآخرين، وهذا «التجدد هو امتلاء شخصيتنا»^(٢٤).

تقود هذه الصيرورة في الواقع إلى بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة. ويميز ندره اليازجي الشخصية عن الفردية. فالشخصية منفتحة ومحبة وتتجاوز الأنا

عن معرفة نفسه هي صلاة تحقّق ووعي، على عكس صلاة الإنسان الغارق في جهله وتمسّكه بأنانيته المحدودة والذي لا تتعدّى صلاته الطلب والخوف. وهكذا يصبح الدخول إلى هيكل الذات هو التجربة الروحية التي لا يمكن تحقيقها في الهياكل الحجرية^(٢٨).

يسعى اليازجي في حياته كما وفي فكره إلى تحقيق ملء كيان الإنسان. إنه يريد أن يرى المحبّة المتفتّحة فيه وقد بلغت قمماً من النور الخالص. وهو لا يابّه لكون فلسفته فلسفة مثالية كما يتّهمه بعضهم أو صوفية. إنما هو يعمل على تأسيس فكر فلسفي يبني ويحرّر ويصل بالإنسان إلى معنى الخلود والغبطة. وهو في فكره هذا إنما يصرّح باستمرار أن المعرفة هي العمل.

لا أستطيع أخيراً إلا أن أشير إلى وجود محاور أخرى هامة جداً في فكر ندره اليازجي، تتمثّل في دراسته للعلوم الحديثة وإدراكه لأهمية العلم في العودة إلى أصالة الحكمة القديمة. كما وفي فهمه العميق للأسرار الروحية وللتجارب الروحية التي تمثّلت في خبرات الشعوب والحضارات القديمة، وبشكل خاص دراسته للمسيحية العرفانية وفصله للمسيحية عن اليهودية. إنها مواضيع تستحق دراسات مستقلة.

«إنّ انفعال الإنسان يُردّ إلى إحساسه بالانفصال عن كلّية الوجود. أما إذا أدرك الإنسان أنه والوجود حقيقة واحدة، فإنه يعمل على تحقيق الانسجام في كيانه أولاً، وتحقيق الانسجام مع الكون ثانياً، وتحقيق الاتصالية ثالثاً، وتحقيق الكلّ المركّز في الجزء رابعاً. وعندئذ تتضاءل أو تختفي مفاهيم العيب واللّاجدوى والتفاهة والسأم والعدم إلخ. وينتهي اليأس^(٢٦)».

لا يطرح اليازجي قضايا الإنسان على نحو شريعة أو ناموس أو حتى نصيحة. بل هو يسعى إلى جعل الإنسان يعيد التفكير والنظر والتأمّل ليكون سيّد مصيره. فإذا استغرق في تأمّله فإنه يبلغ نهاية المطاف، وغاية البحث ليبلغ شريعته الداخلية الفاعلة المعبر عنها بالحرية^(٢٧). إن هذه الشريعة غير المكتوبة هي القانون الكلّي، أي الوعي الكوني، أي الحقيقة السامية نفسها المكتوبة في كيان الإنسان والتي تشير إلى الحرية الكامنة في أعماقه. ومن هنا فإن المعنى التأملي في حياة الإنسان يصبح أوسع وأغنى وأعمق. ف«الصلاة التأملية تحلّ محلّ صلاة الترداد، وتصبح صلاة الإنسان الباحث

الهوامش

- ١- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م).
- ٢- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م)، ص ٣٩-٤٠.
- ٣- المحبة والوعي، حوار مع ندره اليازجي، حاوره موسى الخوري، دار تساؤلات، دمشق (٢٠١٠م)، ص ٤٠-٤٢.
- ٤- ندره اليازجي، بحوث فلسفية، المجلد الرابع من الأعمال الكاملة، ص ١٣٠، دار الغريال، دمشق (٢٠٠٠م).
- 5- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
- ٦- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، الرسائل الإنسانية، رسائل في حضارة البؤس، الرسالة الثانية، المحبة والنزعة الفردية، ص ١٥، دار الغريال، دمشق (١٩٩٨م).
- ٧- المرجع السابق، ص ١٥.
- ٨- المرجع السابق، الرسالة الحادية عشرة، ظاهرة العنف، ص ٦٢.
- ٩- المرجع السابق، الرسالة الثانية عشرة، فلسفة اللاعنف، ص ٦٥.
- ١٠- المرجع السابق، ص ٦٦.
- ١١- المرجع السابق، الرسالة السادسة عشرة، فلسفة الحرية، ص ٨٩.
- 12- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm.
- 13- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm.
- ١٤- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، الرسائل الإنسانية، رسائل في حضارة البؤس، الرسالة الخامسة عشرة، ضياع الشباب، ص ٨٤، دار الغريال، دمشق (١٩٩٨م).
- ١٥- المرجع السابق، الرسالة العاشرة، الخدمة والتضحية، ص ٥٦.
- ١٦- المرجع السابق، الرسالة الرابعة، مفهوم التربية، ص ٢١.
- ١٧- المرجع السابق، الرسالة السادسة، المظاهر الاجتماعية، ص ٣٥.
- 18- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
- ١٩- رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الأولى، المبادئ قيمة إنسانية وكونية، ص ٩٧.
- ٢٠- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الرابع، دراسات حضارية، أخلاقية، معرفية، الفصل الرابع، التصوف العقلي، ص ١١٧، دار الغريال، دمشق (٢٠٠٠م).
- 21- http://www.maaber.org/issue_december08/perenial_ethics1.htm
- ٢٢- ندره اليازجي، الأعمال الكاملة، المجلد الأول، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثانية، فلسفة الصعوبة، ص ١٠٥، دار الغريال، دمشق (١٩٩٨م).
- ٢٣- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الرابعة، فلسفة الصداقة، ص ١١١.
- ٢٤- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الخامسة، السعادة واللذة، ص ١١٩.
- ٢٥- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة السابعة، المحاكمة والشخصية، ص ١٥٥.
- ٢٦- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة العاشرة، اليأس، ص ١٧١.
- ٢٧- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثانية عشرة، الحرية والوعي، ص ١٨٥.
- ٢٨- المرجع السابق، رسائل في مبادئ الحياة، الرسالة الثالثة عشرة، فلسفة التأمل والهيكل، ص ٢١٤.

المراجع / مؤلفات ندره اليازجي

- ١- ندره اليازجي، رسائل في حضارة اليوس (١٩٦١م).
- ٢- ندره اليازجي، الاشتراكية ومفهوم العدالة (١٩٦٣م).
- ٣- ندره اليازجي، النقد الفلسفي للماركسية (١٩٦٥م).
- ٤- ندره اليازجي، بحوث فلسفية (١٩٦٧م).
- ٥- ندره اليازجي، رد على التوراة (١٩٦٩م).
- ٦- ندره اليازجي، رد على اليهودية واليهودية-المسيحية (١٩٧١م).
- ٧- ندره اليازجي، مقالة في العقل والنفس والروح (١٩٧٣م).
- ٨- ندره اليازجي، دراسات في فلسفة المادة والروح (١٩٨٠م).
- ٩- ندره اليازجي، دراسات في المثالية الإنسانية (١٩٨١م).
- ١٠- ندره اليازجي، تنوع الحضارات ووحدة الفكر الإنساني، (١٩٨٥م).
- ١١- ندره اليازجي، تأملات في الحياة النفسية والاجتماعية، (١٩٨٨م).
- ١٢- ندره اليازجي، فلسفة الإنسان التأثير (١٩٨٨م).
- ١٣- ندره اليازجي، رسائل في مبادئ الحياة (١٩٩١م).
- ١٤- ندره اليازجي، المبدأ الكلي: لقاء الحكمة القديمة والعلم الحديث، (١٩٩٥م).
- ١٥- ندره اليازجي، الطريق إلى الحوار (٢٠٠٣م).
- ١٦- ندره اليازجي، هندسة الروح: أشكال صوفيا (٢٠٠٥م).



«محاولات التشكيك بجابر بن حيان»



إبراهيم محمود الصغير



دأب معظم المستشرقين الغربيين، منذ ظهور الاستشراق، وظهور النزعة الاستعمارية للدول الغربية، دأبوا على تشويه صورة الحضارة العربية الإسلامية الرائعة، والنيل من العلماء العرب المسلمين الأفاضل بكل الطرق المستهجنة واللاأخلاقية بشكل سافر.

فهم حيناً، يقولون إن الحضارة العربية الإسلامية قامت على أيدي علماء أكثرهم من غير العرب، والقليل جداً منهم من العرب. متناسين دور اللغة والبيئة والثقافة والحضارة والدين التي هي عربية صرفة كلها.

✻ أديب وناقد من فلسطين.

وفي ذلك يقول الدكتور أحمد شوكت الشطي في كتابه (الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي): «الواقع إنها حضارة عربية أسهم بها جماعات من أجناس مختلفة، وشعوب عديدة ولكنهم جميعاً تتقنوا بثقافة عربية، ووضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية، لغة دينهم، فعزّت عليهم أكثر من لغة الأم الأصلية، أو الأمة التي ينتسبون إليها. وليس من المبالغ فيه الادعاء بأنه لم يُؤلف منهم بغير اللغة العربية إلا النزر اليسير». ومن المؤسف أن بعض العرب قديماً، ذهبوا، بدوافع شعوبية إلى مثل ما ذهب إليه هؤلاء المستشرقون. وعند ابن تيمية تثبت العروبة باللغة والنسب والوطن، فمن تكلم العربية فهو عربي، ومن انتسب لأب عربي فهو عربي، ومن سكن أرض العرب فهو عربي. ويدعم هذا القول ما ردّ به النبي، (صلى الله عليه وسلم)، على رجل أنكر على سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، بأن يكونوا عرباً، حيث قال في المسجد: «يا أيها الناس، إن الرب واحد، والأب واحد، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما هي اللسان. فمن تكلم العربية فهو عربي». طبعاً العربية هنا ليست اللغة حصراً وإنما يدخل فيها عوامل مجتمعه أو غير مجتمعه وهي الدين، والبيئة والثقافة

والحضارة والتاريخ. ويدعم هذا الكلام، شاهد من أهلهم، وهو المستشرق (برنارد لويس)، الذي يقول: «لقد أصبح لكلمة العرب اليوم معنىً جديداً، هو اعتبار الشعوب المتكلمة باللغة العربية شعباً واحداً، أو مجموعة من الشعوب يوحدّها اشتراكها في الموطن واللغة والثقافة والحضارة».

ويزعم هؤلاء المستشرقون، حيناً آخر، أن الحضارة العربية الإسلامية قامت على ترجمات علوم وآداب الأقوام الآخرين كالليونان والهنود والفرس وغيرهم، وأنهم أي العرب، كانوا نقلة لهذه العلوم والآداب لا أكثر، وأنهم لم يضيفوا عليها جديداً ولم يبدعوا من عندهم إلا في مجال اللغة والأدب، بل حتى المترجمين كانوا من غير العرب. وقد يعجب المرء، إذا كان كلامهم صحيحاً فلماذا يتسابقون، إذن، في الحصول على المخطوطات والكتب والبحوث، التي ألفها علماء عرب مسلمون في شتى ميادين العلوم والآداب والفنون بل ويلجؤون، في كثير من الأحيان إلى سرقتها والاستيلاء عليها بشتى الطرق المشروعة وغير المشروعة، حتى لقد امتلأت مكتباتهم ومتاحفهم بها؟ ولماذا، أيضاً، ظلت جامعاتهم ومعاهدهم العليا تدّرس كتباً ألفها علماء عرب في الرياضيات والكيمياء والعلوم وغيرها حتى القرن الثامن

عشر؟ بل لماذا ينسبون كثيراً من مكتشفات وأبحاث ونظريات بعض العلماء العرب إلى علمائهم هم، كما نسبوا، مثلاً اكتشاف الدورة الدموية الصغرى لابن النفيس إلى هارفي؟ ولماذا تجد في لغاتهم وقواميسهم الكثير من المصطلحات والألفاظ العربية العلمية والمتداولة لديهم حتى الآن؟

والأغرب من ذلك كله أن بعضهم ينكر وجود بعض العلماء العرب الأفاضل ويجردهم من مؤلفاتهم ومكتشفاتهم كما فعلوا، مثلاً، بجابر بن حيان، العالم العربي الفذ الذي كانت له الريادة والسبق في مجال اكتشاف منهج البحث العلمي، والذي سيكون موضوع دراستنا في هذه المقالة. فكما تعرضت كبار الشخصيات العالمية للشك في وجودها، حيث اعتُبرَ (هوميروس) قديماً أنه أسطورة من صنع الخيال، واعتُبرَ (شكسبير) شخصية غير حقيقية من صنع الفكر الأوروبي في طور الفتوة والتتوير الحديث، كذلك اعتبر بعض المستشرقين الأوروبيين جابر بن حيان أسطورة لا حقيقة لها في التاريخ. مستكثرين على الفكر العربي الإسلامي أن يأتي في هذا الزمن المبكر بمثل هذه العبقرية الفريدة والفذة في مجالها العلمي التجريبي. ويؤيد هذا الكلام، كما ذكرنا سابقاً، بعض الشعوبيين، حيث يذكر (ابن

النديم) في كتابه (الفهرست) وذلك بقوله: «تقول عنه جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين أنه لا أصل له ولا حقيقة. وقال بعضهم إنَّه حتى إن كانت له حقيقة تاريخية، فهو لم يصنف هذه الكتب الكثيرة التي قيل إنَّه مصنفها، واستثنوا كتاباً واحداً من كتبه نسبوه إليه هو (كتاب الرحمة). وأما بقية مصنفاته فقد صنفها غيره، ثم نحلوه إياها». ولا يتردد (ابن النديم) في رفض هذه الدعوى، معترفاً بوجوده قائلاً: «إنَّ أمره أظهر وأشهر من أن يخفى، وتصنيفاته أعظم وأكثر من أن ينكر وجود صاحبها». كما نجد أحد العلماء الغربيين الأمانء وهو (كارادي فو) يوافق (ابن النديم) فيما ذهب إليه، ويرفض الرواية التي تزعم أنه أسطورة ويقول: «إنها رواية نرفضها بغير تردد».

وصدَّف أن وجدت بعض كتب جابر بن حيان مترجمة إلى اللاتينية، والتي قيل أنها أحسن ما صنعت يد الإنسان في الآداب الكيماوية القديمة. ومن هذه الكتب: (الجامع الأعظم، كتاب الاستتمام، كتاب التناير) ولم تكتشف بعد هذه الكتب في اللغة العربية. ولذا سارع بعض المستشرقين يشكون في نسبتها إلى جابر، ويقولون إنها من تأليف علماء غربيين من عندهم، لم يضعوا أسماءهم عليها لأسباب مجهولة،

ولكنهم نحلوها باسم جابر بن حيان. إلا أن بعض العلماء الغربيين الشرفاء يقولون إنهم متأكدون إنها لجابر على الرغم مما غير فيها المترجمون والمؤلفون، وهذا ما ذكره (شريف النشاشيبي) في إحدى مقالاته.

وكان كثير من علماء الغرب يذهبون إلى أن علم جابر، أي الكيمياء القديمة أو السيمياء، من الأباطيل التي دانت لها علماء العرب والغرب في القرون الوسطى. غير أن كثيراً من العلماء في هذا العصر دحضوا آراء القائلين ببطلان الكيمياء القديمة، وأثبتوا بأن علم الكيمياء الحديث والاكتشافات التي اكتشفت فيه، لم تهدم أسس الكيمياء القديمة، وخاصة التي أسسها جابر بن حيان.

والعجيب أن عالماً مثل (الدومالي) والذي توفر على دراسة جابر ينكر بوقاحة أعمال جابر كلها بقوله: «لقد عينا بالكتب التي تسبها الرواية المتناقلة إلى من يدعى جابر بن حيان، وليست هذه الكتب في نظرنا إلا عملاً مجهول النسب لأشياء من طائفة الإسماعيلية، يرجع تاريخه إلى القرن الثامن».

ومثله، أيضاً، العالم (برتللو) الذي يراوده الشك في بعض رسائل جابر الكيماوية وينكرها. إلا أن عبارات (ابن النديم) تردده

إلى الصواب، حيث يقول ابن النديم: «إن رجلاً فاضلاً يجلس ويتعب، فيصنف كتاباً يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثم ينحله لغيره، إما موجوداً أو معدوماً ضرب من الجهل، وإن ذلك لا يدخل تحته من تحلى ساعة واحدة بالعلم، وأي فائدة من هذا أو أي عائدة؟». لذلك نجد (برتللو) ينتهي إلى تأكيد مكانة جابر من علم الكيمياء، حيث يقول عن اسم جابر: «إنه ينزل في تاريخ الكيمياء منزلة اسم (أرسطو) في تاريخ المنطق». حيث إن جابر أول من وضع لعلم الكيمياء قواعد علمية تقتزن باسمه، كما كان أرسطو أول من وضع لعلم المنطق قواعده وأصوله.

ويتبين لنا مما قدمناه، أن دراسة بعض علماء الغرب لجابر بن حيان قد وجهتهم إلى الادعاء بأن جابر بن حيان شخصية موهومة منتحلة لا وجود لها. على أن تأريخ حياة جابر بن حيان من قبل عدد كبير من مؤرخي العرب المعاصرين له، يحتم علينا القول إن جابر بن حيان شخصية حقيقية قد وجدت وتحلت بعبقريّة فذة، وإن نُسجت حولها بعض الأقوال المتباينة. وقد وضعت بعض المؤلفات ونسبت إليه، مع أنها ليست من تأليفه، كما وقع لابن سيرين وكثير غيره من علماء العرب والإسلام.

غيره من الإغريق. كما قرأ فرافريوس، ودرس أفلاطون وجالينوس وإقليدس وبطليموس. ودرس نظريات أرخميدس. وليس في كتب الحضارة الإسلامية عن الكيمياء كتب مثل كتب جابر، تكشف عن المعرفة الواسعة بتصانيف القدماء، تمتاز بهذه الإحاطة الموسوعية». وتقول (زيفريد هونكة): «وكان العرب أول من أوجد طرق المراقبة المنظمة.. فخلقوا بذلك علم الكيمياء التجريبي في مفهومه العلمي، وأوصلوه إلى قمة رفيعة، أصبحت بموجبها اكتشافات علمي الكيمياء العضوية والكيمياء غير العضوية الحديثين من الضرورات الماسة لإرجاع الكيمياء التجريبية إلى المستوى الذي أوصلها إليه العرب». وهذا ما دعا المؤرخ الإنكليزي (كاستم) إلى القول بأنه قد وفق العرب إلى اكتشافات حقيقية علمية في علم الكيمياء، وكشف تركيبات كيميائية جديدة بدل محاولتهم معرفة حجر الفلاسفة الذي يحول المعادن إلى ذهب. أمّا (باكون) الفيلسوف الإنكليزي فقد سماه، أي جابر، (معلم المعلمين). وكان (بيرهاف) الطبيب الكيماوي الفلمنكي يقرن اسم جابر بالإجلال والإكرام على ما اكتشف من المكتشفات الضرورية للطب والكيمياء. وقد لقبه العلماء (واضع علم

وبقدر ما تجنّى على جابر بن حيان كثير من المستشرقين والعلماء الغربيين، فقد قيض الله له، أيضاً، من يدافع عنه ويشهد له بمكانته العلمية البارزة وريادته لعلم الكيمياء، ووضعه لمنهج البحث العلمي. منهم علماء غربيون ومنهم علماء عرب. فهذا (برتراند راسل) الذي ترجم بعض أعماله إلى الإنكليزية يقول عنه: «أشهر علماء العرب وفلاسفتهم». ويقول عنه (القفطي): «كان متقدماً في العلوم الطبيعية، بارعاً منها في صناعة الكيمياء، وله فيها تأليف كثيرة، ومصنفاته مشهورة». ويشير إليه (الرازي) في كتبه الكيماوية بقوله: «قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان». وذكره (حاجي خليفة) في كتابه (كشف الظنون) بأنه أول من يستحق لقب (الكيموي) من المسلمين. وقال عنه (برتللو) مرغماً، كما ذكرنا سابقاً: «إن لجابر بن حيان في الكيمياء ما لأرسطو في المنطق، حيث أضاف إلى الفكر الإنساني عنصراً جديداً افتقر إليه اليونان ذلك هو اعتماده على التجربة والبرهان الحسي، وعدم الاكتفاء بالفروض والتحليلات الفكرية الغامضة التي كانت محور المعرفة عند اليونان». كما يقول عنه (بول كراوس) في (دائرة المعارف الإسلامية): «درس جابر تراث أرسطو وعلوم

الكيمياء). ويقول عنه (ج. لوبون): «تألف من كتب جابر موسوعة علمية تحتوي على خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء عند العرب في عصره. وقد اشتملت كتبه على بيان مركبات كيماوية كانت مجهولة قبله. وهو أول من وصف أعمال التقطير والتبلور والتذويب والتحويل... إلخ».

ويتضح لنا من هذه الشهادات العلمية كلها لبعض العلماء المشهورين في الشرق والغرب أن جابراً يُعتبر عبقرية عربية إسلامية أصيلة، ليس بفضل كثرة مؤلفاته العلمية في مختلف المعارف الإنسانية فحسب، بل لريادته وإسهامه الجذري في تكوين منهج البحث العلمي بالمعنى الحديث. فلقد ساهم هو وعبقریات عربية أخرى كالرازي وابن الهيثم والبيروني، في تكوين المنهج العلمي ووضع مبادئه وتأسيس أصوله. وإذا كان الغربيون يفتخرون بتحقيق مثل هذه الانتصارات العلمية استناداً إلى انتهاجهم لمنهج البحث العلمي الحديثة، والتي يرون أن أسلافهم من العلماء مثل (جون ستوارت مل، وروجر بيكون وفرنسيس بيكون) قد توصلوا إلى مبادئها وأسسها، فحق لنا كعرب وكمسلمين أن نفخر بأسلافنا من العلماء كجابر بن حيان وابن الهيثم والرازي والبيروني وكثيرين غيرهم،

بوصفهم قد حققوا الريادة والسبق في هذا المضمار. ولنا في مؤلفاتهم ورسائلهم الدليل والبرهان على صحة دعوانا. ولا أحد يستطيع أن ينكر ريادة جابر للعلم التجريبي، وذلك حين يقول في المقالة الأولى من كتابه (الخواص الكبير): «يجب أن تعلم أننا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه بعد أن امتحناه وجربناه، فما صح عندنا أوردناه، وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضاً وقاييناه على أقوال هؤلاء القوم». ومعنى هذا أن الملاحظة الحسية وحدها وسيلة كسب الحقائق العلمية، ومصدرها المعرفة الصحيحة، وأن شهادة غيرهم مرفوضة مالم تؤيدها مشاهدات الباحث وملاحظاته الدقيقة. وهذا هو المحك الصحيح في المعرفة عند العلماء المسلمين عامة وعند جابر بن حيان خاصة.

وليس هذا فحسب، بل إن جابراً هو صاحب نظرية (الاتحاد الكيماوي) والتي تشبه النظرية الذرية، التي تحدث عنها العالم الأوروبي (والتن) بعد جابر بعشرة قرون، والتي تقول أن الاتحاد الكيماوي يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض، وكان جابر قد أجرى تجربته على الرثيق والكبريت ووصف عملية تحويلهما

الثلاث، التصعيد، والتكثيف، والترشيح، وإعادة اكتشاف ماء الفضة وأملاح النشادر». ويعتبر جابر، كذلك، أول من صنف المعادن الذائعة وصفاً مدققاً. وتكلم عن ماء الفضة والماء الملكي وكيفية تأثير ماء الفضة على المعادن، وتأثير الماء الملكي على الذهب والفضة والكبريت. وفي كتاب جابر كلام جيد في وصف كثير من المركبات الكيميائية المستعملة في المعامل الصناعية وفي الصيدليات مثل كلامه عن حجر جهنم المستعمل في الجراحة وهو المعروف بنترات الفضة. وتكلم أيضاً عن زهر الكبريت، وملح الطرطر، والزاج، وروح النشادر، وحجر الشب، والشاب اليماني. كما يصف جابر طرقاً لصبغ الأقمشة والجلود وصبغ الشعر. وهو أول من استخرج حامض الكبريتيك وسماه زيت الزاج. وكذلك أول من اكتشف الصودا الكاوية، وأول من استحضر ماء الذهب. وينسب إليه استحضار مركبات أخرى مثل كربونات البوتاسيوم، وكربونات الصوديوم. وقد درس خصائص مركبات الزئبق واستحضرها. كما استعمل ثاني أكسيد المغنسيوم في صنع الزجاج. وكان لأبحاثه في السموم ودفع مضارها أهمية كبرى، لما بين الطب والكيمياء من صلة وثيقة. ولجابر مكتشفات وأبحاث كثيرة لا نستطيع إيرادها كلها في مثل هذه

إلى (كبريتور الزئبق). وكان (أرسطو) يقول: «إنَّ الفلزات نشأت في باطن الأرض من تفاعل الدخان والقوام المائي». ولكن جابر اعترض على رأي (أرسطو) بعد دراسة وتجربة وقال إنَّ الفلزات لا تتكون بهذه الصورة، وإنَّ عنصرين جديدين يتكونان في باطن الأرض هما الزئبق والكبريت، وباتحادهما تتكون الفلزات. وبقيت نظرية جابر هذه سائدة في دراسة علم الكيمياء في أوروبا كلها، بعد ترجمة المؤلفات العربية، حتى القرن الثامن عشر، وكانت هذه النظرية نواة لنظرية جديدة أخرى، هي نظرية (الفلوجستين) القائلة: إنَّ كل المواد القابلة للاحتراق، والفلزات القابلة للتأكسد تتكون من أصول زئبقية وكبريتية وملحية.

إضافة إلى ذلك، سيتوصل جابر بعد ذلك إلى الأوزان النوعية للمواد الكيماوية وللمعادن، متوصلاً إلى ذلك بما أطلق عليه اسم (الميزان). ولذلك أدرك الغربيون مكانة جابر ومنزلته العلمية. وكان من اكتشافاته التقطير والتصعيد، وقال جابر: «إذا حمي (الزنجفر) يتصعد ويتطاير، ومتى جمع هذا المتصعد وبرد يتحول إلى زئبق. ومن اكتشافاته، أيضاً، الحوامض القوية وترشيح السوائل وتصفيتها. وهو مكتشف حجر جهنم والسليمان، وطريقة تحميض الذهب والفضة، وطرق التقطير

المقالة القصيرة. ولكي نزداد معرفة بجابر بن حيان سوف نستعرض سيرة حياته بما توفر لنا من معلومات ممكنة عنه.

هو أبو عبد الله جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي، وكان يعرف بالصوفي. وتذكر مصادر أخرى أنه أبو موسى جابر بن حيان. ويرجح أحد الباحثين بأنه قد يكون مصدر الخلاف أن له ولدين بهذين الاسمين.

ويلقب جابر بالكوفي على ما يذكر (ابن النديم) لطول إقامته فيها، حيث فرّ هارباً إليها من خطر أهدق به بسبب البرامكة في عهد هارون الرشيد، بعد أن طاردهم هذا الخليفة وقتلهم شرقتلة. وقد كان جابر على صلة حميمة بهؤلاء البرامكة، الذين اعتقد هارون الرشيد أنهم بسبيلهم إلى نقل الخلافة إلى العلويين. فهرب جابر إلى الكوفة خوفاً على حياته، حيث ظل مختبئاً حتى أيام المأمون فظهر بعد احتجاجه. وتذكر بعض المصادر أن جابراً ينتمي إلى قبيلة (الأزد) العربية، التي نزحت من اليمن واستوطنت العراق. وكان أبوه حيان قد اتخذ له دكاناً في مدينة الكوفة يبيع فيها أنواع الطيب والعطور. ويبدو أنه كان معادياً للأمويين، ويدعو للتخلص منهم. وكان ينتقل بين البلاد داعياً للثورة على الأمويين، إلى أن وصل به المطاف إلى مدينة (طوس) في

بلاد خراسان، وهي مسقط رأس (الفردوسي) صاحب ملحمة (الشاهنامة) المعروفة. وهناك ولد جابر. لذلك يعتقد بعضهم أنه فارسي الأصل. وهناك رواية تقول إنه من (طرسوس) وأخرى تجعله صابئاً من (حران) في العراق. ولا يعرف لجابر ميلاد معروف على وجه اليقين. إلا أن بعضهم يرجح أنه ولد في عام (١٢٠هـ) الموافق (٧٣٧م). ويجمع الكل أن حياته امتدت خلال الشطر الأكبر من القرن الثامن الميلادي. وقد قتل أبوه بيد الأمويين أخيراً. فعاش جابر يتيم الأب. وتعلم جابر القراءة والكتابة، واطلع على جوانب الثقافة العربية الإسلامية السائدة آنذاك. ويقال إنه اتصل برجل من الأسرة الأموية هو (خالد بن يزيد بن معاوية) والذي كان مهتماً بالعلم ولاسيما الكيمياء. وهكذا تعرّف جابر على علم الكيمياء بملازمته لخالد بن يزيد وقراءته لما صنفه خالد، وقد جاء عنه في كتاب (البرهان في أسرار علم الميزان: «الأستاذ الكبير جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي مولداً، السديّ قبيلة، الطوسي منشأ، الصوفي مذهباً. أخذ عن (جرمي الحميريّ اليمني) الذي كان من المعمرين. توفي وله من العمر نيف وتسعين سنة».

وعندما انتقلت الخلافة إلى العباسيين عام (١٣٢ هـ) رجع إلى الكوفة والتقى

علم الكيمياء. ويقول (ابن النديم) إنه كان له مختبر كبير في الكوفة أجرى فيه أبحاثه وتجاربه الكثيرة. ويقال أنه في هذه الفترة كتب ثمانين كتاباً من الكتب الكيميائية القيمة. وأصبح علم الكيمياء على يدي جابر بن حيان علماً مكتمل العناصر، واضح الحدود، والتحصيل النظري فيه يجب أن يسبق التجربة والتطبيق. وقد بين جابر الصفات الخلقية التي يجب أن يتحلّى بها الباحث العلمي في نظره كالصبر والمثابرة والتكتم والسرية على أسرار العلم إلا لأهله. ولجابر بن حيان تصانيف كثيرة قيل إن عددها (٢٣٢) كتاباً وقيل أيضاً إنها بلغت (٥٠٠) كتابٍ ضاع أكثرها. وترجم بعض ما تبقى منها إلى اللاتينية. ومعظم كتبه المتبقية متوزعة في المكتبات والمتاحف الغربية والشرقية. وبعضها ما زال مجهولاً حتى الآن، وقد تظهر في يوم ما.

وفي الحقيقة أن غموض حياة جابر في أوائل القرن الرابع للهجرة، هو الذي أتاح المجال لاختلاف الروايات حول بعض الجوانب من حياته كما ذكرنا. ولكننا في النهاية نقرأ ونعترف بعبقريّة جابر بن حيان وبفقرده في إيجاد المنهج البحثي العلمي في الكيمياء. هذا وقد توفي جابر بن حيان في مدينة (طوس) عام (٢٠٠هـ) الموافق (٨١٥ م).

بالإمام (جعفر الصادق) الذي كان إلى جانب كونه عالم دين، مولعاً بعلم الفلك والكيمياء، فلزمه جابر، وأخذ عنه أصول هذا العلم. وهنا يختلف بعض الرواة، فمنهم من يقول إنه كان تلميذ (جعفر الصادق)، ومنهم من قال إنه لم يكن تلميذاً له. ولذلك نسبت أبوة الكتب الكيماوية له ولم تنسب (لجعفر). ولو كان في رأيهم تلميذاً لجعفر لنسبت إليه أبوة الكيمياء. ويؤيد هذا الكلام (خير الدين الزركلي) في كتابه (الأعلام).

واتصل جابر كذلك بالبرامكة في بغداد، ويذكر ذلك (الجلدكي) أن جابراً كان على اتصال مع البرامكة ويذكر في كتابه الخاص أنه شفى بنتاً أسيرة تخص (يحيى بن برمك). ويدل ذلك على أنه لم يكن كيماوياً فحسب، بل كان طبيباً وفيلسوفاً وطبيعياً، وهذا أكسبه مكانة رفيعة عند البرامكة. ويتبع جابر في فلسفته العامة خطوات الفيلسوف الكبير (أرسطو)، إلا أنه تقدم عليه وبزه في علم الكيمياء. وفي كتابه الكبير نجد مئات من التجارب التي أجراها بنفسه.

وعندما نكل الرشيد بالبرامكة، كما ذكرنا، هرب جابر، وأخذ ينتقل بين البلدان. وكان أكثر مكوثه في الكوفة. وعندما استلم الخليفة المأمون الحكم، ظهر جابر بعد احتجابه، وعكف على تجاربه وكتابات في

المصادر والمراجع

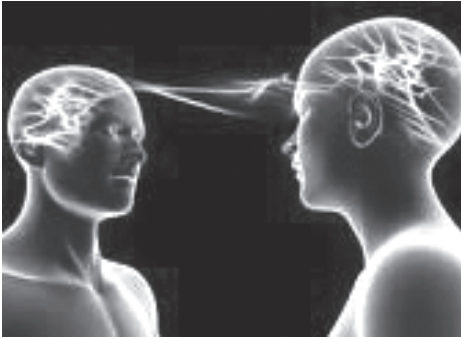
- ١- جابر بن حيان، زكي نجيب محمود، مؤسسة البلاغ، بيروت، (١٩٨٧م).
- ٢- رائد الكيمياء العربية، حكمت نجيب، دار المتنبي للطباعة والنشر، أبو ظبي، (١٩٩٠م).
- ٣- تاريخ العلوم الطبيعية في الحضارة العربية الإسلامية، أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، (١٩٦٤م).
- ٤- الحضارة العربية الإسلامية والمجتمع العربي، أحمد شوكت الشطي، مطبعة جامعة دمشق، (١٩٦٣م).
- ٥- الأعلام، ج٢، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، (١٩٩٢م).
- ٦- جابر بن حيان: رائد منهج البحث العلمي، بركات محمود مراد، مجلة عالم الفكر الكويتية، المجلد السابع عشر، العدد الرابع، (١٩٨٧م).
- ٧- جابر بن حيان، محمد كمال، دار الربيع، حلب، (١٩٩٣م).
- ٨- جابر بن حيان، زهير الكتبي، دار طلاس، دمشق، (١٩٩٦م).



«البارابسيكولوجيا» والعلم التجريبي



ترجمة وإعداد: وثام الجراد



أولاً: ماهي «البارابسيكولوجيا»؟

«البارابسيكولوجيا هي الدراسة العلمية والمتعمقة ومتعددة التخصصات للوقائع التي ليس لها حالياً أي تفسير منطقي، كما

«البارابسيكولوجيا»، هي فرع حديث بدأ في عام (١٨٨٢م)، عندما تم إنشاء مؤسسة الأبحاث النفسية الكندية ودخل في مخبر أبحاث المؤسسة في عام (١٩٣٠م).

تغطي «البارابسيكولوجيا» مجموعة من الأحادي العلمية يعودتها إلى الظواهر النادرة والمدهشة، حيث تشكل الظواهر الماورائية فرعاً منها.

وحتى الآن لم يتم الإجماع المطلق على الخصوصية التي تتمتع بها «البارابسيكولوجيا»، ولكن يمكننا تقديم التعريف العام التالي:

✽ كاتبة ومترجمة سورية.

- القياس النفسي: وهي طريقة للاستبصار تتم من خلال غرض معين.

- الاستبصار الذاتي: وهو عرض استبصاري يتم من داخل جسد الشخص.

- الاستبصار عن بعد: حيث يتمكن فيه الشخص من وصف أحد الأمكنة كما لو كان يتنقل ضمنه.

- القدرة على التكلم (أو فهم) لغة معينة، من دون أن يكون هناك أي سابقة تعلم لها.

إضافة لطرق تكهن أخرى، أي القيام بالاستبصار بمساعدة وسائل مختلفة (كرة كريستالية، بطاقات تاروت... إلخ).

- التحريك العقلي: وهو تأثير العقل المباشر على المادة، من دون أي احتكاك مباشر أو وجود أي وسائل مادية مساعدة.

- الوجود: وهو الظهور المستمر لأشخاص، وحيوانات وكائنات وأشياء في مكان معين، في حين أن حضورهم بهذا المكان مستحيل من الناحية المنطقية، (مثل ظهور السيدة مريم العذراء، وأشخاص متوفين (أشباح)، ودوائر مضيئة...).

- الوسواس: هي ظواهر ترتبط بمكان معين (غالباً قصور أو منازل قديمة) تظهر فيها أشياء وماورائيات بشكل متكرر.

أنها تدرس الوقائع النفسية وتفاعلاتها مع البيئة المحيطة».

وفي البداية، اقترح تشارلز ريشه تسمية «ميتافيزيقيا» للدلالة على دراسة الظواهر الآلية والنفسية الناتجة عن قوى تبدو بظواهرها خفية في العقل البشري.

ثانياً: الظواهر التي تدرسها «البارابسيكولوجيا»

مع أنه تم اقتراح عدة أنماط، بشكل تاريخي، إلا أنه يمكننا القول حالياً أن الظواهر التي تقوم «البارابسيكولوجيا» بدراستها تنقسم لنمطين اثنين: الملاحظات الحسية غير الاعتيادية والملاحظات العقلية.

- الملاحظات الحسية غير الاعتيادية: وتعني هذه العبارة المعارف التي يمكن اكتسابها خارج نطاق الاحتكاكات الحسية المعتادة.

- التخاطر: هو التواصل المباشر من روح إلى روح أخرى أو «تبادل الخواطر والأفكار».

- الاستبصار: هو المعرفة المسبقة والمباشرة بحدث ما، أو شيء ما، خارج نطاق الاحتكاكات المعتادة.

وهناك ظواهر مختلفة يمكننا ربطها مع علم الاستبصار:

عديدة (مثل المرور ضمن نفق، واتباع نور معين...).

تترك هذه التجربة تغيرات نفسية عميقة ودائمة لدى الشخص المعني.

- التنويم المغناطيسي (Hypnose):

هي حالة ذات إحياءات عالية جداً، تنتج عنها ظواهر عديدة (كالاستبصار، التخدير...).

- التزامن: وهو التوافق الزمني بين حدثين أو أكثر، ماديين أو نفسيين، من دون أن يكونا مرتبطين ببعضهما من الناحية السببية.

- قراءة الحظ، الحدس: ويتم ذلك من خلال الكواكب، أو الأحجار التي تقوم على أساس التزامن، ويمكننا ملاحظة أن كل سياق تاريخي، ونفسي واجتماعي يجلب ظواهره الخاصة به، حيث يكون العامل المشترك هو العلاقة غير العادية بين الفكر والمادة.

ثالثاً: التجارب غير العادية لأقارب

المتوفين:

كتب لويس لاغرانج:

«يعيش جميع الناس تجربة أحداث غير عادية تغير من مجرى حياتهم، وقد يتم إعطاء هذه التجارب عدّة أسماء: مصادفات، لقاءات سعيدة، غرائب، أحداث رهيبة، تدخلات إلهية، أو فرصة بسيطة ونقية. وتحدث هذه الظواهر غالباً عندما

- استحضار الأرواح: ويتم ذلك من خلال وسيط روحي، يتجلى ب(رفع الأشياء، ضربات قوية، اكتساب معلومات ما وراءية...).

(Transcommunication Instrumental)-TCI:

وهو تسجيل سمع-بصري لصور ووسائل وأصوات ماورائية لأرواح المتوفين.

- تحريك الأغراض: يتم من خلاله رفع أغراض ثقيلة أو حتى أجساد بشرية (عند الصوفيين غالباً).

- الخوارق النفسية: كالسير على النار، وظهور ندبات غير طبيعية على الجسد، أو حالات البقاء على قيد الحياة من دون تناول الطعام إطلاقاً، والتحنيط، أي حفظ الجسد بعد الموت.

- تجربة الانفصال عن الجسد

(Out Of Body Experience): في

هذه الحالة يتمكن الشخص من اكتساب معلومات ماورائية من خلال شعوره بانفصال وعيه عن جسده المادي الذي يتمكن من مشاهدته عن بعد.

- تجربة الاقتراب من الموت

(Near Death Experiment): وهي

تحدث بشكل أساسي في حالة الموت الوشيك، ويعيش الشخص من خلالها تجربة «الانفصال عن الجسد» التي تحدثنا عنها أعلاه، ثم يمر بتجارب أخرى

يتوجب علينا مواجهة التغيرات التي يفرضها موت شخص عزيز أو حالة طلاق أو فقدان من نوع معين. فلكل حالة وقعها الكبير على سير الأمور، وهذه أحد التجارب:

- عزلت نفسي منذ وفاة والدي، وقد عشت عدة تجارب غير اعتيادية ساعدتني على تجاوز أزمة فقداني له، مثلاً: في العام الماضي. وفي الذكرى الأولى لوفاته، وضعنا أنا وأمي زهوراً ذات أغصان طويلة على قبره. بعد عدة أيام، اشتقت لوالدي كثيراً، فطلبت منه أن يقوم بإعطائي إشارة إذا كان كل شيء يسير على مايرام بالنسبة له، وإن كان كل شيء سيكون كذلك بالنسبة لي أيضاً، وتحديدًا، طلبت منه أن تبقى الورد ندية عندما أعود لزيارة قبره في المرة القادمة، لذا، تعمدت عدم القيام بهذه الزيارة فقد كنت أعتقد أن هذه الزيارة قد تحمل لي خيبة أمل.

لحسن حظي، فإن أُمِّي قد قامت بزيارة المقبرة بعد ١٨ يوماً. اتصلت بي في عملي لتخبرني أن الزهور ما تزال ندية، بهذه اللحظة فقط أخبرتها أنني طلبت من والدي الراحل القيام بهذه الإشارة... هل لكم أن تتخيلوا أن الأزهار ذات الأغصان الطويلة ما تزال تحافظ على شكلها في شهر تشرين الثاني ١٩٩٩!

نعم، لا يمكنكم تخيل درجة اشتياقي له، ولكنني أعتقد حقاً أنه يعيش معنا، وتحديدًا، من أجل مساعدتي على دعم أُمِّي. أنا أعتقد أن مثل هذه التجارب هي بمثابة هدية إلهية طويلة الأمد، ومن دون أدنى شك، هي الهدية الأعلى ثمنًا في حياتنا.

يتابع لاغرانج: «إنَّ ظواهر التجارب الخارقة، والتي تدعى أحياناً ب(تواصل مابعد الموت)، قد ظهرت منذ فجر الإنسانية، وهي أحداث شخصية جداً ولكنها تحمل في طياتها الراحة والسكينة، والأهم من ذلك، فإنها تضيف قيمة على حياة أقارب الموتى، وقد تمتد هذه الأحداث إلى أشهر أو حتى أعوام بعد وفاة القريب».

«مع أن العلماء يصنفون هذه الملاحظات عموماً تحت مسميات عديدة كالأوهام، أو الهلوسات، أو المصادفات، فإن المعنيين الأساسيين بهذا الموضوع لهم وجهة نظر مختلفة تماماً. فهم مقتنعون بشكل شبه كلي أنهم تلقوا التأكيد من قبل الشخص المتوفى أو من قبل «كائن أعظم»، على أن الأموات يعيشون حياة أخرى، سعداء ويرغبون بمساعدة أقاربهم على التأقلم مع المتغيرات التي فرضتها عليهم ظروف فقدان...».

«هناك سمتان مشتركتان للتجارب الخارقة أولاهما العفوية، وأما الثانية

الرحلات التنويمية في القرن التاسع

عشر... الحالة الغريبة لـ«الكسي ديديه»
(١٨٢٦-١٨٨٦م):

أعتقد أنه يجب علينا بدايةً التأكيد على فكرة أن «الرحلات العقلية» التي سنتحدث عنها لا يمكن تسجيلها في سجل علم الأمراض (Pathology)، أو على الأقل، ليس بطريقة واضحة جداً، فالموضوع لا يتعلق بأشخاص لديهم سجل طبي واضح، وإنما تجارب لأبحاث إرادية ذات غايات استكشافية علمية.. أليكسي ديديه الذي سنتحدث عنه لا يعاني من أي مرض معين في الوقت الذي كان يمارس فيه «موهبتة». لم يكن مصطلح «التنويم المغناطيسي»، أو حتى عبارة «الوعي المغناطيسي» معروفين عندئذ. ولكن في القرن التاسع عشر، كانت هذه التعابير تشكل جزءاً من لغة الحياة اليومية، كما أنها أثارت جدلاً واسعاً بين الأوساط الثقافية، وأدت إلى انقسام الآراء.

في عام (١٨٤٠م)، كان الشخص المنوم مغناطيسياً هو الشخص الذي يدخل ضمن حالة من الوعي الخاص، وتتميز حالته بتغير وامتداد للإدراك، في حين أن عبارة «الوعي المغناطيسي» كانت تعني مجموعة من قدرات الإدراك التي تتم خارج نطاق

فإنها تبدو قادمة من مصدر خارجي، وخصوصاً أنه لا يتم استدعاء الموتى (على الرغم من أن بعض المعالجين يدّعون أنه بإمكانهم جمع الشروط اللازمة لتدخل الظواهر الخارجية من خلال استغلال فكرة الحزن المرتبط بالموت)، وهذا ليس له أي علاقة باستدعاء الأرواح. وما زالت هذه الظاهرة متواجدة بأشكال مختلفة وفي جميع أنحاء العالم».

«خلال الخمس والعشرين سنة الماضية، وعند لقاءاتي المتكررة مع أقارب الموتى وأحاديثي مع المعالجين، قمت بوضع تصنيف للتجارب التي تحدث في أثناء فترة الحداد، وتبين لي أن بعضهما مرئي وظاهر بشكل غير اعتيادي، في حين أن بعضهما الآخر خفي على نحو غير اعتيادي».

أهمية استخدام التجارب غير

الاعتيادية؛

إنَّ غالبية أقارب وأهل الميت هم بحاجة ماسة لشخص يمكنهم الوثوق به والتكلم معه عن الضيق العميق والخوف الذي يواجهونه... وبالتالي يتمكن هذا الشخص من مساعدتهم لتجاوز هذه المحنة من خلال مشاركتهم تلك التجارب.

الحواس والتي تتفتح لدى هؤلاء الأشخاص الخاضعين لعملية التتويم المغناطيسي.

ومن بين الأشخاص الذين مارسوا «التتويم المغناطيسي»، كان الكسي ديديه الأشهر والأكثر إدهاشاً لمن حوله، عاش الكسي في القرن التاسع عشر، وترعرع ضمن عائلة عمّال متواضعة، اكتسب شهرة عابرة للحدود وأذهل ببراهينه الملوك والأمراء في أنحاء أوروبا كافة، كرّس حياته لهذا المجال، فقد كان يرى أنه يمتلك مهمة خاصة، هي البرهنة على وجود الروح، عن طريق الوسائل التجريبية المتواضعة في عصر يتسم بالمادية. لقد أعطى الكثير لهذه المهمة التي استنزفت بنيته الضعيفة وأنهكت قواه الجسدية، فتوفي في عام (١٨٨٦م).

كان الكسي بحاجة لتطوير «وعيه الذاتي»، للدخول بحالة وعي مختلفة، وعندما كان يدخل بحالة الوعي هذه، تحدث معه ارتعاشات عضلية وتوتر عصبي خفيف اهتزاز بالذراع ويقوم بتحريك عينيه بشكل دائري، ومع ذلك كان يحاول البقاء حاضراً ومستعداً لإظهار القدرة على التمازج مع الأشخاص الآخرين وحتى المزاح معهم، كما لو كان رجلاً مستيقظاً تماماً، وما إن يتمكن من امتلاك وسائله الخاصة، حتى يبدأ بقراءة أفكار مستشيريه أو بكتاب مغلق، كأن يتمكن

من الذهاب إلى مكان غير معروف والقيام بإحضار معلومات دقيقة جداً وتوقع أحداث مستقبلية والنظر من خلال عصابة العين. تمكن الكسي من إعطاء أسماء الأشياء وعناوينها واختراق متاهة الأقدار الفردية بدقة تقطع أنفاس مستشيريه.

- تم توثيق تجارب الكسي المغناطيسية بمئات القصص التي يحكيها المجتمع الراقي وخصوصاً الطبقة الأرستقراطية، فالوعي الذي كان الكسي يدّعي الوصول إليه مدهش لدرجة أن العقل يشعر بالاهتزاز لمجرد قراءة التقارير، والتفسير الوحيد الذي كان سائداً عندئذ هو أنهم كانوا يتعاملون مع ساحر استثنائي. ولمواجهة هذه الفرضية، كان من المفترض مناشدة الساحر الأول في القرن الماضي، روبرت هودين، الأكثر إدهاشاً في كل العصور.

- التقى روبرت هودين بالكسي مرتين، وشهد أن الظواهر التي يختبرها الكسي بعيدة كل البعد عن كونها مجرد شعوضة.

وبالتوازي، فإن السؤال الوحيد الذي يطرح نفسه في هذا المجال، هل «البارابسيكولوجيا» هي علم «طبيعي»؟!

قد يكون علماء «البارابسيكولوجيا» إلى وقتنا هذا «مهمشين»، في حين أن المتشككين بهذا العلم هم من يدعون أنهم

«العلماء الحقيقيون»، ولكن ماذا لو تم إثبات العكس؟

في محاضراته التي أقيمت في ٢٨ كانون الثاني (٢٠٠٥م)، قال بيير لاجرانج:

«بالنسبة - للمتشككين - بعلم «البارابسيكولوجيا»، فقد تم منعه من أن يكون علماً حقيقياً وطبيعياً بسبب الحواجز التي وضعوها له، فعندما يدلي النقاد بتصريحات سلبية تجاه هذا العلم، فهم لا يعطون في الوقت ذاته أي دلائل منطقية لادعاءاتهم تلك، عندها فقط يمكنهم أن يطلقوا على أنفسهم تسمية «المتشككين الحقيقيين»، إذ إنهم يشددون على (الاحتمالية) أكثر من (البرهان التجريبي)، وهذا لا يسمح لهم بدحض الفرضية بشكل نهائي، فإذا ما أكد أحد النقاد على أن النتيجة نابعة من حادث معين، هنا، يلقي على عاتقه بالوقت ذاته مهمة البرهنة على صحة مايقول.

مثلاً، دافع لومبروسو عن فكرة استحضر الأرواح والتي تحدث عنها بالاديون، وذلك عندما قدم مثلاً على ذلك، فوجود الشعر المستعار لا يبطل وجود الشعر الحقيقي.

هنا، علينا أن نتذكر جميعاً أن العلم بإمكانه إخبارنا بما هو (غير محتمل) تجريبياً، ولكن ليس ما هو (مستحيل) تجريبياً. فالبرهان العلمي هو مسألة

نسبية ولم، ولن تكون أبداً، نابعة عن الاستنتاجات المطلقة.

وأخيراً، فإن النقاد كما هم الأنصار، بحاجة لتعلم أن يجعلوا من الحكم العلمي شيئاً مماثلاً لما يتم تقديمه في قاعات العدالة.. فالحقيقة المطلقة، هي مثل العدالة المطلقة، من النادر الوصول إليها، ولكن لا يمكننا إلا أن نبذل قصارى جهدنا للاقترب منها.

رابعاً: تطبيقات «البارابسيكولوجيا» في العصر الحديث:

نشطت التطبيقات الحديثة والمعاصرة «للبارابسيكولوجيا» عبر تطور عدد من التصورات والمذاهب، منها مثلاً:

- مذهب الإيزوتيريزم (مذهب التعاليم الباطنية):

يعود هذا التيار إلى الجماعات السرية التي يفترض فيها المحافظة على المعارف التقليدية، والتي تهتم على وجه الخصوص بالمعارف الغامضة، وباستخدام الأعمال الخيمائية والأحجار والطلاسم.. إلخ.

كانت انطلاقة هذا التيار الاجتماعي تندرج تحت هدف أساسي هو البحث عن السلطة والنخبوية. ومن أجل الاهتمام بالأشياء المخفية.

البرهان للمؤمنين على أن ديانته لا يمكن إلا أن تكون صحيحة).

إذا كانت الروحانية، وبجزء كبير منها، السبب الرئيس أن العلماء بدؤوا بالعمل على الميتافيزيقيا، فإن هذه الأخيرة تميزت بشكل تدريجي عن المقاربة الروحانية، رافضة الاعتراف بأن فرضية الحياة بعد الموت هي فرضية علمية قابلة للتجربة، كما أنها فضلت محورة أبحاثها على القدرات الكبيرة التي يمتاز بها علم النفس الإنساني.

فضل بعض الباحثين، مثل رين (Rhin)، وضع فرضية الروحانية جانباً، معتقداً أنها ستعود حتماً إلى الواجهة عندما يتقدم الباحث ببحثه. وبالمقابل، فإن الروحانيين ليس لديهم ذلك الاهتمام الكبير بالبحث العلمي، فهم قبل كل شيء ملتزمين بعقيدة دينية معينة، بكل ما تنطوي عليه من مناسك وفاعلية نفسية قادرة على إضفاء الراحة على أقارب المتوفين.

ومع ذلك، فإنه، وللأسف، تجري الجلسات الروحانية في ظروف يصعب السيطرة عليها، ولأن المعالجين الروحانيين مستعجلين وحريصين جداً على إظهار المقاربة الروحانية بالمظهر المميز، فإنهم بذلك قد أفرغوا هذا السياق من مضمونه كلياً.

وبقيت الخطوة العلمية (بالمعنى الحالي للعبارة) غائبة عن هذه الممارسات التقليدية، فهي بالأحرى ترتبط بالخطوة الفردية للبحث الاستهلاكي (البدائي) الذي يقوم على المعارف الموروثة من جيل إلى آخر.

- مذهب الروحانية (Spiritism):

انطلقت هذه الحركة عام (١٨٤٨م)، من قبل الأخوين فوكس، وتقوم على «استدعاء أرواح الأموات» من أجل الحصول على ظواهر بانورامية عن طريق (الضجيج الخاص، انتقال الأغراض من مكان لآخر، رفع الطاولة...) والرسائل (من خلال وسيط روحاني، ضربات قاضية...).

لم يلبث هذا التيار أن أصبح نوعاً من الدين الجديد، يقوم بتعريف الناس أن الروح تبقى على قيد الحياة بعد موت الجسد المادي، ومن جهة أخرى، يسمح بالأموات بالاحتكاك مع الأحياء.

يشرح أيضاً هذا التيار ظواهر «الوساوس»، وما يعطي هذا المذهب مظهراً مثيراً للدهشة هو أن الرسائل تبدو وكأنها «البراهين» القاطعة والمنطقية الدافعة للإيمان، وخصوصاً، عندما تتضمن هذه الرسائل معلومات لا يمكن أن تكون معروفة إلا من خلال الشخص المتوفى نفسه، بالطريقة نفسها التي تقدم فيها «المعجزة»

بوجود هذه الظواهر، والتساؤل الدائم عن حقيقتها... فالتصديقات الموضوعية نادرة أو حتى تائهة بمقابلات مع شخصيات غير موثوقة، حيث إن وسائل الإعلام غالباً ما تستخدم نتائج «البارابسيكولوجيا» العلمية من أجل بناء موضوعات «حسية». ولهذا السبب فإن الأشخاص الراغبين بالحصول على رأي منطقي موضوعي حول «البارابسيكولوجيا» لا يمكنهم أبداً اللجوء للبرامج التلفزيونية أو الصحف ذات الانتشار الواسع بين الناس لبناء رأي موضوعي مستقل.

فمن أجل الحصول على المعرفة الصحيحة، ما عليهم إلا قراءة أعمال ومقالات الباحثين أنفسهم، إضافة إلى ما ينسب إلى «المتشككين».

مجال الطب والعلاج:

ما زال كثير من الناس في عصرنا هذا، يعانون من الأمراض الجسدية من دون أن يلقوا إجابات واضحة لدى الطب. عندما يصل هؤلاء المرضى إلى مرحلة اليأس، قد يلجؤون في نهاية المطاف إلى الطب البديل لإيجاد الحلول لأمراضهم (كالعلاج بالوخز بالإبر، والمعالجات بالمغناطيس وغيرها من أنماط العلاج الأخرى).

وإذا كانت الروحانية تمثل نشاطاً مثيراً للاهتمام، ونوعاً من «لعبة» جديدة مثيرة بالنسبة للشباب، فإنها بالمقابل تسمح بإضفاء الراحة على الأشخاص الذين يعيشون حالات الحداد على موتاهم.

ومع ذلك، فإن كل مظاهر العقيدة الروحانية لا يمكنها أن تعد كعلم مطلق، إذ إنها في النهاية تقوم على مسلمة أساسية غير مدعومة من الناحية العلمية.

«البارابسيكولوجيا» ووسائل الإعلام،

والسينما والخيال العلمي:

تستوحي السينما وأفلام الخيال العلمي والمسلسلات التلفزيونية موضوعاتها من الظواهر العلمية، مشوهةً بذلك صورتها الكلية إذ إنها تتطرق دائماً من منطلق العدائية والعنف، فأصبحت بذلك القدرات النفسية قابلة للسيطرة واعتيادية ودائماً حاضرة ومهيأة في كل مكان وزمان. حيث تختلط «السيناريوهات» (النصوص السينمائية) بقصص لحالات «بارابسيكولوجية» ذات كيانات شيطانية ووحوش ومصاصي دماء ومخلوقات فضائية.. إلخ. فتبقى الظواهر النفسية هي المصدر شبه الأوحى لاستيحاء قصص الخيال العلمي والأدبي والفني والسينمائي.

ففي فرنسا، تنوس وسائل الإعلام دائماً بين مستوى التصديق أو عدم التصديق

يستخدم الممارسون عادةً في الواجهة «تقنيات واضحة»، ولكن في الواقع يتم الشفاء بطريقة ما ورائية أي غير مفهومة وغير مشروحة من الناحية العلمية.

وعلى وجه العموم، يريد المعالجون التوصل لتفعيل ممارساتهم عن طريق العلم، إلا أنه من الضروري بالنسبة للشخص المعالج أن يكون محافظاً على إيمانه بالماورائيات لكي يحصل على فاعلية علاجية، وعلى الرغم من وجود «المكتب الصحي في لورد» في فرنسا، إلا أن القليلين يتحفزون لدراسة عقلانية لهذا النمط من العلاج «الإعجازي». وبالمقابل، فإنه في الولايات المتحدة الأمريكية، مايزال الطب البديل يتطور بشكل مستمر وقائم على أسس علمية ومهمة جداً.

نظرية العصر الجديد (New-Age):

إنَّ أيدولوجيا العصر الجديد، والمتفائلة بشكل واضح، تترك مجالاً كبيراً أمام القدرات «البارابسيكولوجية»، كونها تعلن عن تبدل جذري بالكائن البشري الذي يشهد حالياً زيادة في الوعي وسيطرة بالروحانية. وتدرج الموضوعات الأساسية

لهذه الحركة الاجتماعية الثقافية ضمن إطار «الألفية الجديدة». كما أنها تشهد حالياً اعترافاً للعلم بمكانة الفكر والروح.

لقد تطورت نظرية «العصر الجديد» بشكل كبير في كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا، إلا أن موقف المؤمنين بأيدولوجيا العصر الجديد بالنسبة للعلم يتسم بالتناقض، فمن جهة، هناك رفض شديد لهذه الأيدولوجيا، حيث تتساوى المادية وتتعادل مع المجتمع الاستهلاكي، ومن جهة أخرى، هناك افتتان شبه صوفي ب«النظريات الجديدة» والتي تترك الباب موارباً أمام تدخل الوعي في العالم المادي، إذ إن معتققي حركة العصر الجديد، لا يمتلكون بغالبيتهم العظمى، قوة علمية، فهم بالأحرى مؤمنون براغماتيون، يلجؤون لاستخدام نتائج البحث بعلم النفس من أجل دعم نظرياتهم بشأن تحول الإنسان أو التواصل العالمي بين الكائنات.

طالما أن الإشباع مهم بالنسبة لعلم الاجتماع، فإن هذه الحركة الثقافية تعد رد فعل طبيعي على ضياع القيم الأخلاقية، وعلى المادية السائدة في عصرنا الحالي..

المصدر

- عن موقع: www.paranormal.org.

الطيبة: مدن خلدتها التاريخ



د. خليل المقداد



طيبة / الطيبة:

وارتباطها الحميم مع الآثار السورية وتأثرها بها، ومن ثم التأثير والتأثير المتبادل بين كلا الطرفين، وقد ذكرت في أبحاثٍ سابقة

نتطرق في هذا البحث إلى مجموعة من المواقع الأثرية سواء في سورية أم في مصر أم في بلاد اليونان نظراً لأهميتها

بأمّة في الآنـ.

المصريون على المدينة باسم Ouaset الأقصر فذلك يعني أنها المدينة ذات السلطة الملكية والسيادة والتفوق Ouas والتي كانت تشمل كامل المناطق التابعة لها لاحقاً كما أن هذه المدينة العاصمة كانت في بداية أمرها عبارة عن ضيعة صغيرة، أما المدينة الكبرى فقد امتدت لاحقاً على حساب مناطق أخرى بعد أن تمت عملية اندماج موحد للعديد من القرى الصغيرة والضواحي القريب بعضها من بعض ومنها الكرنك Oper-Souet والأقصر Ouaset في الوجه القبلي على الضفة اليمنى من النيل.

ومن المؤكد أن المدينة بلغت أوسع امتداد جغرافي لها Medamoud في تلك الفترة في الجهة الشمالية من مدينة طيبة حيث شيد هناك معبد يعرف باسم معبد مونتو Montou في زمن الإمبراطورية الوسطى وفي عهد الفرعون سيزوتريس الثاني Sésotris II في الموقع الذي تم الكشف فيه عن بقايا أثرية عثر عليها ضمن تأسيسات المعبد الذي يعود إلى العهد البطلمي. وكذلك إيرمانت Ermant في الجنوب وعلى الحافة اليسرى من النيل حيث كان يوجد أيضاً معبد كرّس لكل من الآلهة مونتو Montou وتود Tod.

أنه من المستوجب على الباحث حتى يفهم التاريخ والحضارة في العالم فعليه فهم الحضارة في بلاد الشام لما لأهل الشام من دورٍ فاعل في تأسيس وتطوير الحضارة ومنها الحضارة في منطقة حوض النيل وبلاد اليونان .

ولدينا في هذا الخصوص ثلاثة مواقع تأخذ التسمية نفسها ولها ترابط تاريخي حميم أحدها في سورية والآخر في مصر والثالث في بلاد اليونان، والسبب في ذلك تسهيل عملية فهم التوئمة والتكامل المعرفي والتاريخي والأثري والتخصصي.

مدينة طيبة في مصر Thèbes؛

أطلق الإغريق قديماً تسمية طيبة على المدينة التي توجد في منطقة مصر العليا والتي استمرت نحو ألف عام تقريباً؛ أي في الفترة الواقعة بين (٢٠٨٠-١٠٨٠ ق.م). وكانت المدينة في تلك الفترة عاصمة مصر وفي قمة حضارتها التاريخية خاصة عندما هيمنت على كامل مناطق حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقية، يضاف لذلك أنها حافظت لأكثر من ألف عام على نفوذها ومجدها البراق واللامع قديماً.

إلا أن معرفتنا بمدينة طيبة القديمة قليلة جداً، ولذلك فإن الاسم الذي أطلقه

أو السورية. أما الموقع المقابل من الجهة الأخرى من نهر النيل فخصص ليكون مقبرة لمدينة طبية مع دير البحري ودير المدينة، ومدينة حابو Habou أو مدينة الملوك من الأسرة الرمسية Ramesseum، إضافةً إلى وادي الملوك والملكات الذي كان يعرف باسم الواسط Ouaset أو الوسط الغربي حيث نجد هناك الدليل الأقدم عن أهمية مدينة طبية كموقع رئيسي ومركز ولاية .

وفي هذه المقبرة أي في موقع ذراع أبو النجا Draha - Aboul - Negga بالقرب من Assassif الأساسيف تم العثور على بعض القبور لهؤلاء الأجداد Nomarques الذين يعودون إلى الألف الثالث قبل الميلاد والذين يعرفون باسم الأنثيف Antif الذين سجلوا مجد طبية. بعد ذلك تم توحيد مصر من قبل الفرعون أمنحوتب Mentouhotep نحو عام (٢٠٨٠ ق.م) حيث أصبحت مدينة طبية عاصمة الدولة الجديدة في زمن الإمبراطورية الوسطى. وبفضل هؤلاء الملوك الذين ينتمون إلى العائلات اللاحقة بعد القرن الثاني عشر أصبح آمون الإله الرئيسي لمدينة طبية ومن ثم أصبح الإله الرئيسي للدولة.

وفي الزمن الذي كانت فيه طبية عاصمة الولاية كان الملوك الهكسوس هم

وفوق الشاطئ المقابل وفي المواجهة أيضاً مازالت آثار وبقايا معبد يعود إلى عهد الإمبراطورية الوسطى باقيةً حيث شهد توسعاً وتجميلاً في زمن ملوك البطالمة، وكان هذا الموقع يشكل ضيقة ومن ثم ضاحية للعاصمة. وقد تشكل من جميع هذه الضواحي إضافةً إلى مدينة طبية مركزاً كبيراً اتخذ ليكون عاصمة مصر القديمة .

أما التسميات المصرية الأخرى والتي أطلقت على مدينة طبية مثل Het - Amon حيث آمون أي مدينة الإله آمون وهو الاسم القديم الذي ذكر في كتاب العهد القديم فمصدره يعود بلا شك إلى اللغة العربية ذات اللهجة الآرامية والعبرية لمدينة طبية والذي تكرر ذكره في العديد من المواقع السورية مثل موقع الطيبة في حوران في منتصف الطريق بين مدينتي درعا وبصرى، وكذلك قرية الطيبة وموقع الطيبة جنوب دمشق بحوالى (١٠ كم) وإلى الجنوب الغربي من مدينة الكسوة بنحو (٣ كم)، وكذلك موقع طيبة الإمام إلى الغرب من مدينة حماة. ثم هناك موقع الطيبة في بلاد اليونان بالقرب من مدينة أثينا والتي تأسست من قبل الفينيقيين السوريين.

وجميع هذه المواقع تذكر بالإنجليزية الأعظم للمدينة والإمبراطورية العربية المصرية

أمرء وأسياد طيبة وهم الذين أسسوا الوحدة المصرية وبناء مجد وعظمة المدينة التي تطورت وتوسعت على امتداد فترة عهد السلالة الثامنة والعشرين وذلك لأسباب إستراتيجية. ثم جاءت أسرة الملوك الذين ينتمون لأسرة رمسيس من السلالة التاسعة والعشرين، وهذه السلالة هي التي أسست أماكن إقامتها في منطقة الدلتا ووحدت البلاد.

أما مدينة الكرنك Karnak :

فتقع على الضفة اليمنى من نهر النيل وإلى الشمال من مدينة الأقصر، وتسمى حالياً باسم الكرنك. وكانت في التاريخ المصري القديم عبارة عن قصبة أو ضيعة صغيرة على شكل بلدة متواضعة تطلق عليها تسمية قبط الجنوبية Opet – Isout ثم اندمجت لاحقاً مع مجموعة من البلدات وشكلت مدينة طيبة الكبرى. وجاءت شهرة هذا الموقع الذي يتبع مصر العليا بفضل وجود المعبد المركزي للإله آمون الإله الرئيسي للعائلة المالكة في طيبة والأكثر شهرةً. ويظهر المعبد حتى اليوم كمكانٍ للعبادة الأكثر شهرةً واتساعاً وضخامةً، كما يعتبر في الوقت الحاضر حقلاً فسيحاً للآثار المصرية التي لم يبقَ منها إلا القليل من

الأشياء التي كانت تتبع المعبد الذي يرجع في بنائه إلى زمن الإمبراطورية الوسطى. وتم لاحقاً توظيف معظم المتبقيات التابعة للأبنية القديمة ومزجها مع الأبنية اللاحقة، إلا أنها لا تُظهر أي شيء عن شكل وهندسة مبنى المعبد الذي يعود إلى الفترة الزمنية الأولى التي كانت تتوسط مرحلتين تاريخيتين تم التعرف عليهما وفهماهما من خلال نص كتابي فقط. ومع ظهور الإمبراطورية الحديثة برزت الشواهد والمعطيات التي كانت تتبع للأبنية الحقيقية التي استمرت صامدة وقاومت العديد من العوامل الطبيعية وغيرها، والسبب في ذلك أنها كانت تعتبر كملحقات وإضافات استمرت حتى العهد الروماني.

وزود المعبد بست بوابات تجميلية ضخمة ومتتالية أُتبعَت جميعها إلى معبد الإله آمون، كما استخدمت جميعها كمداخل تتبع لفسحات وصلات معمّدة؛ فالبوابة الأولى من هذه المداخل تقع حالياً فوق الأرضية التي تعود إلى المعبد الذي يتبع بدوره للعهد البطلمي حيث بلغ عرض هذا المعبد (١١٣م) وارتفاعه (٤٣،٥٠م) وسماكة الجدران (١٥م). أما الصالة الكبرى والشهيرة في المعبد فقد بنيت على شكل قاعة معمّدة يتم الدخول إليها من خلال

ذات المقاييس والأحجام المختلفة ومنها معبد رمسيس الثالث الملتصق بالتجاور مع الساحة الكبرى، إضافةً لذلك هناك معبد خُصّص للإله خونسو Khonsou الذي كان يمثل القمر الذي كانت تقام له شعائر التقديس في هذا المعبد بعيداً عن معبد الكرنك في فترةٍ زمنيةٍ قديمةٍ جداً، ومن ثم اندمج مع معبد الإله آمون والإلهة موت من أجل تكوين آلهة ثلاثية مقدسة. وضمن هذه الثلاثية كان الإله خونسو فهو يعتبر ابن الإله آمون والإلهة موت. وقد تم العمل والبحث الأثري في معبد خوسو من قبل الآثاريين التابعين إلى معهد الآثار الشرقي في مدينة شيكاغو .

ويعدّ المعبد في الوقت الحاضر الأحسن محافظة على بنائه من بين معابد الكرنك، كما تم التأكد بأن بناء المعبد جاء في زمن الفرعون رمسيس الثالث أي في بداية القرن الثاني عشر (ق.م)، ثم تتابع العمل خلال عهد الفراعنة اللاحقين من أسرة رمسيس وبعض أحفادهم مثل الفراعنة حيرحور Hérihor وبنيجيم الأول Pinedjem I وبنيجيم الثاني ونختنبو الثاني Néctanébo II وبطليموس الثاني.

أمّا معبد الإلهة موت التي ظهرت على شكل النسر المجنح فتم بناؤه في موقع

البهو الكبير والبوابة التزينية الثانية Pylône. وبلغت مقاييسها (١٠٣×٥٢م)، ويرتكز سقفها فوق (١٣٤) عموداً نصبت على شكل ستة عشر صفّاً منتظماً. ويلاحظ أن أعمدة الجناح المركزي فيها بلغ ارتفاع كل واحد منها (٢٤م)، أما أعمدة الأجنحة الجانبية فيبلغ ارتفاع كل واحد (١٤م).

ويعود تاريخ البناء الأقدم لهذا المعبد إلى الفرعون تحوتمس الأول Touhotmosis I أي نحو عام (١٥٣٠ ق.م). ثم أكملت عملية البناء زمن الملكة حتشبسوت Hatshepsout، وبعد ذلك أخذ كل فرعون من الفراعنة العظام اللاحقين في السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة في إدخال التزيين والتوسيع والتجميل في البناء بدءاً من الفرعون تحوتمس الثالث، وبشكل خاص أيضاً الفرعون ستي الأول Séthi I ومن ثم الفرعون رمسيس الثاني. وقد حول جميع هؤلاء الفراعنة الصالة الكبرى ذات الأعمدة لبناءٍ مبهر وعظيم حافظ على عظمته وبهائه حتى الوقت الحاضر، ولهذا يُكنّى الجميع لهذا البناء ولمن قام ببنائه كل تقدير.

أمّا السور الخارجي المضلع والفسيح فجاء بناؤه محيطاً بالمعبد بشكلٍ كامل وعلى شكل شبه منحرفٍ ليحتضن في داخله بحيرة مقدسة كبيرة، إضافةً إلى العديد من الأبنية

والرفعة، فقد نفذ الفرعون أمنوفيس الثالث في هذا المعبد عملاً جيداً ثم اكتمل بناؤه تدريجياً في مراحل لاحقة وخاصةً في زمن الفرعون نختنبو الأول Nectanébo I .

موقع الأقصر مع المعبد El Aqsar / Louxor ،

وكذلك الأمر بالنسبة إلى موقع الأقصر فكان في بداية الأمر عبارة عن ضيعة عربية مصرية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر النيل، وتعني في اللغة العربية مجموعة من القصور، وتشكل في مجموعها حالياً واحدة من المجموعات الأثرية الهامة والأكثر محافظة والتي مازالت باقية في منطقة طبية القديمة. كما يطلق على هذا الموقع في التقليد المصري القديم اسم قبط Opet أو قبط ريزت Opet reset أي قبط المنضدة «الحرم الجنوبي» وحسب المعبد الذي مازالت الآثار المتبقية فيه قائمة؛ فيعتبر هذا المكان على أنه حرم آمون، ولذلك كان يقام في المعبد في كل عام وقبل موسم فيضان النيل أجمل عيد قبطي. وخلال هذا الحفل يخرج الإله آمون من معبده في الكرنيك للقيام بزيارة إلى الأقصر وإلى المكان الذي تنتصب فيه معمدانية التعميد وتعرف باسم عين آمون Amon - Min .

أشيرون Achéron بالقرب من الكرنيك، وقد عرفت الإلهة موت في التقليد اللاهوتي المصري وفي مدينة طيبة على أنها زوجة الإله آمون، كما جاء ذلك في المفهوم التولوجي Théologie، ولهذا فقد احتل معبدها القسم الجنوبي من مجموع المعابد في الكرنيك، كما أن سور المعبد يضم في داخله أيضاً معابد الفراعنة أمنوفيس الثالث Aménophis III ورمسيس الثالث، وبذلك ارتبطت مع المعبد المكرس للإله آمون من خلال الرواق الذي بني على شكل سرادق محاط بركائز يعود تاريخها إلى الفرعون Horemheb حور محب الملك الأخير من الأسرة الثامنة عشرة نحو (١٣٣٠ ق.م).

وأما المعبد الأخير الذي يتبع هذه المجموعة فهو معبد مونتو؛ وهو إله يتبع مجموعة الآلهة الفلكية التي تعود في جذورها إلى آلهة الدلتا. ويظهر على شكل رجل ذي بأسٍ شديد برأسٍ صقر. وقد اتخذهُ ملوك طيبة التابعين للأسرة الحادية عشرة كإله يتبع الآلهة الحامية والحافظة في المدينة، ولذلك يظهر هذا المعبد في بنائه بهالة من الفخامة والازدهار في مدينة طيبة ومنطقتها أيضاً. وعلى الرغم من تربع الإله آمون في المرتبة الأولى في النصر

الاحتفالات تلك التي تمت في زمن سلالة رمسيس. أمّا عودة الآلهة إلى الكرنك فتتم تقريباً بالمنهج والتنظيم والظروف نفسها التي تمت فيها في حالة الذهاب. وفي هذه المناسبة تقدم الأضاحي بحيث تدبح الثيران ذات القرون الجميلة والمزينة بالزهور والأوراد.

وقد تم بناء المعبد في زمن الفرعون أمنوفيس الثالث في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد. إلا أنه لم يبقَ من البناء لاحقاً سوى القليل من التحولات وعدد من الأبنية التي تمت في عهد رمسيس الثاني الذي أضافها على مقدمة المعبد على شكل بوابة تزيينية ضخمة Pylône، كما أضاف الفرعون أمنوفيس الثالث ساحة داخلية كبرى محاطة بمنهج وعميد وبوابة تزيينية أخرى مزينة بمسلتين من الغرانيت تتقدمان البوابة. وكانت واحدة منهما قد تم نقلها في عام (١٨٣٦م) إلى مدينة باريس وتمّ نصبها في ساحة الكونكورد بالقرب من القصر الرئاسي في مقدمة شارع الشانزليزيه.

وقد أظهر الفنانون فوق هذه المسلة إبداعاتهم النحتية حيث عرض الفرعون رمسيس مشاهد المعركة التي انتصر فيها في معركة قادش في سورية. وفي العهد

وكان الملك يشارك بدوره في هذه المناسبة ويحضر شخصياً. وبعد العديد من الاحتفالات المتنوعة والمتعددة في معبد الكرنك تتم قيادة سفن ومراكب تحمل فوقها كهنة الإله آمون وهم يحملون على الأكتاف تماثيل الآلهة آمون وزوجته موت Mout وابنهم خونسو Khonso. ويسير الموكب إلى النهر، وفي المكان الذي ترسو فيه المراكب الكبرى وخلال هذا المشهد تتشد الأناشيد وينطلق دخان البخور، كما ترتفع أصوات المنشدين والمغنين بالغناء والإنشاد والموشحات على وقع قرع الطبول والدفوف وعزف الموسيقى والمزامير، وتنتشر الأناشيد والأوراد. وخلال هذا المشهد يتجمع الحجاج برفقة الآلهة الذين يرفعون الاحتفالات ويتابعون المسير والصعود فوق النيل متجهين إلى الأقصر.

وبعد ذلك يخرج الموكب المقدس من النهر للذهاب إلى المعبد حيث يقدم الجميع الأضاحي والتقدمات والهدايا والهبات، ثم تتحر الأضاحي وتعرض الهبات والهدايا في أجنحة المعبد المقدس والمصفوفة على امتداد الأروقة والحرم المقدس.

وبعد هذه الاحتفالات المركزية كانت تقام احتفالات مشابهة في معبد الأقصر تستمر لمدة (٢٧) يوماً، وكانت أشهر هذه

وأمون وابنهما الإله خونسو. وقد عرضت هذه المراكب من جهةٍ وأخرى داخل الصالة المعمدة ذات الأعمدة الثمانية. كما أظهرت الحفريات الأثرية الحديثة في الموقع وجود كنيسة بيزنطية داخل صالة المعبد، إضافةً إلى العديد من الوثائق، كما تم الكشف عن كنيسة بيزنطية أخرى بنيت أمام بوابة المعبد.

مدينة طبية في اليونان Thèbes

كان لهذه المدينة مكانٌ هام في التاريخ والحضارة اليونانية، وكانت تتبع منطقة Béatie الإغريقية الواقعة على سفح منعزل يشرف من خلال الأكروبول على المنطقة في القرن الخامس قبل الميلاد، كما كانت في فترةٍ زمنية تشكل جزءاً من عدة مدن شكلت حلفاً ضد مدينة أثينا. كما تقع المدينة على بعد (٥٥ كم) تقريباً كخط نظر إلى الشمال الغربي من مدينة أثينا في بلاد اليونان. وكان تأسيسها في فترةٍ زمنية تعود لما قبل الميلاد ولكن غير معروفة بدقة، إلا أن الشيء المؤكد أن التأسيس الأول جاء من قبل قدموس الفينيقي السوري المؤسس القديم لهذه المدينة ومدن أخرى في بلاد اليونان، والمعروف تاريخياً باسم Kadmea/ cadmée – Kadmos.

البطلمي تم إجراء بعض الإصلاحات والتحسينات الداخلية الصغيرة. ويظهر المعبد بمجموعه كوحدة معمارية مترابطة ومكونة من كتلتين معماريتين مقسومتين بحيث تظهر المجموعة الأقدم منهما مكونة من معبدتين كبيرتين يختلف كل منهما عن الآخر؛ ففي جهة الجنوب نجد معبد الإله أمون بالمعنى الحقيقي، وبالطبع كان هذا المكان محجوباً عن عامة الناس ويمنع الدخول إليه إلا للخاصة.

ويتكون هذا المعبد من قدس الأقداس وصالة معمّدة Hypostyle ومحاطة بصالتين صغيرتين وصالة معمّدة أخرى بشكلٍ عرضاني، وعلى هذه الصالة تفتتح الصالات الثلاث الأول، ونحو الشمال أيضاً نجد أربع صالات معمّدة ومحاطة بشكلٍ مزدوج ومحيطة بمذبح المعبد الشعبي الكبير المخصص للمركب والصالة المعمّدة التي تتقدمه.

ويتم الدخول إلى هذه الصالة الأخيرة من خلال صالة ذات ثمانية أعمدة تتقدمها صالة كبرى معمّدة ومزودة بـ (٣٢) عموداً ذات منهج معد للكتابة كما هي حال أوراق البردي. وهذه الصالة تفتح على الساحة الكبرى والمعروفة باسم ساحة أمنوفيس الثالث. وهناك تعرض مراكب الآلهة موت

لوكتريه Leuctres في عام (٣٧١ ق.م)، إلا أن نهاية المدينة جاءت على أثر معركة ماننتينية Mantinée في عام (٣٦٢ ق.م)، ولذلك أخذت المدينة في التقهقر والتراجع التدريجي. ثم قام الإسكندر الأكبر بسحق المدينة وطمسها كلياً في عام (٣٣٥ ق.م)، ثم أعيد بناؤها في عام (٣١٦ ق.م). ثم بقيت حتى الاحتلال الروماني وعند ذلك ثارت المدينة. إلا أنها دمرت من جديد من قبل القائد موميوس Mummius في عام (١٤٦ ق.م) ثم سلبت ونهبت من قبل القائد سولا Sulla. إلا أنه لم يبقَ من آثار المدينة وأبنيتها التي كانت تعبر عن عظمتها وازدهارها الماضي إلا القليل، أما المدينة الحديثة والتي تعرف باسم ثيفا فقد بنيت على حساب الموقع القديم، ولذلك تصبح الحفريات الأثرية صعبة في المدينة. وتم الكشف حديثاً عن بعض الأسوار والأبواب التي تعود إلى القرن الرابع ق.م. وفوق مدينة كادمية/قدموس تم لاحقاً بناء المعبد الأخير على النمط الدوري المعمّد بأبعاد (١٢×٦م) وبمقاييس (٢٥، ٤٦×٨٠، ٢٢م)، كما تمتلك مدينة قدموس مقدس برونائوس Pronao، أما الساحة العامة الأقورة فتقع إلى الشرق من مدينة كادمية/قدموس وملاصقة لمعبد أرتميس وأوكليا

وقد فرضت المدينة مع مدينة إيبانيوس سيطرتها على بلاد اليونان في الفترة الواقعة بين (٣٧١ - ٣٦٢ ق.م). وقد أظهرت الحفريات الأثرية الحديثة أن المدينة كانت محتلة في الألف الثالث ق.م، وقد تم الكشف سابقاً عن قصرين يعودان للعهد الميسيني (١٤٥٠-١٣٥٠ ق.م) أي الفترة الهلينية الثانية (Helladique)، كما تم العثور على أختام إسطوانية بابلية تعود إلى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد.

ويبدو أن البناء الأكثر جمالية والأكثر قدماً في المدينة هو منزل قدموس الذي تم تدميره لاحقاً. وقد أصبحت مدينة طيبة مركزاً لتحالف المدن في القرن السابع ق.م، ومن ثم أعلنت المدينة منذ القرن السادس ق.م العداء على مدينة أثينا بتحالفها مع الفرس في عام (٤٨٠ ق.م)، إلا أنها هُزمت من قبل الأثينيين في عام (٤٥٧ ق.م). وعندما عززت موقعها وقوتها تحالفت مع مدينة أثينا ضد مدينة إسبارطة Sparte، إلا أنها تغلبت على مدينة كورنيه Cronée ثانية في عام (٣٩٤ ق.م).

كما أن مدينة نيابولس حليفتها السابقة نجحت في التغلب على مدينة إسبارطة Sparte ودحر الإسبارطيون في معركة

موقع الطببة في سورية:

وهو موقع أثري ذو تقليد نطوفي في حوران جنوب سورية بالقرب من مدينة درعا، ويقع إلى الغرب من مدينة بصرى نحو (٢٠ كم)، وعلى الحافة اليسرى من وادي الزبيدي حيث تنهض العديد من التلال البازلتية المترابكة والكتل الحجرية التي تتكوم فوق صفين من الأبنية على شكل أسوار طولانية تحصر في داخلها حيزاً مكانياً حراً بعرض نحو عشرة أمتار.

وفوق هذا النطاق المركزي تم الكشف في عام (١٩٦٢م) عن موقع يعود إلى فترات زمنية ترجع إلى ما قبل التاريخ. كما تم العثور في هذا الموقع على العديد من اللقى الأثرية ومنها أدوات تعود لعصور ما قبل التاريخ مثل البلطات والفؤوس والمناكير وأدوات صوانية ومكاشط ومحكات وغيرها، كما تم العثور على أدوات تعود لفترة مطلع التاريخ.

كما تم الكشف عن مصاطب واضحة بينت حالة المرتفعات والأبنية الأحدث التي جاءت فوقها، ومنها كتل حجرية وظفت على بعد عدة أمتار لتكون قبوراً من النموذج البرجي (التومولي) وهذه الدلائل الحجرية تعطي مدلولاً جغرافياً للموقع الذي يعود لفترة ما قبل التاريخ.

Euklia ، وفي الجهة الشمالية الشرقية يوجد المسرح الأثري الذي بني من قبل سولا، وأما ما تبقى من الأروقة فتتبع جميعها مباني الجيمناز Gymnase (الستاد).

وفي الجنوب من مدينة كادمية/قدموس يوجد معبد هيراقلس ومبنى جيمناز أيضاً، وفي الشمال وفوق هضبة كاستيلي Kastelli تم الكشف حديثاً عن قبر يعود للعهد الميسيني مع ملحقين من النمط الهندسي دروم Dromoi بينما كانت الجدران جميعها بما فيها السقف مزينة من الداخل برسومات تزيينية مختلفة.

أما القبر الذي يسمى أمفيون وزيتوس Amphon et Zethos فقد بني على نموذج التومولوس Tumulus، ويوجد في داخله ناووس حجري صغير منحوت بشكل دقيق وضع في قبر التومولوس المبنى من حجر البريك/القرميد الجيد الذي يبلغ قطره (٢٠ م)، وفي فترة سابقة تم الكشف عن مبنى هرمي من النموذج نفسه، وتم الكشف عن مجوهرات ذهبية، كما يوجد في محيط وضواحي المدينة العديد من المعابد الكبرى، والمعبد الفريد الذي بقي من بينها هو المعبد الكبير Kabirion على بعد (٨ كم) إلى الغرب من الموقع الذي تمت فيه الحفريات.

مبتورة وصفائح مهذبة ذات مقبض. أما الأدوات الميكروليتية فتكون على شكل صفائح مروّسة أو بصفائح ذات مسطحات دائماً مروّسة وممتدة كثيراً وصفائح ذات تحزيزات وتهذيبات.

وتتميز الموقع بكثرة الأدوات على أشكال إزميلية أو مناكيش حجرية ومحكات وأدوات ذات مقابض متعددة النماذج بأشكال مروّسة بتحدبات أو مروّسة بمسطحات ذات تهذيبات دقيقة، وقطع أخرى ذات مثاقب وأدوات ذات فرضات ومسننات تعطي كلية وشمولية في الاستعمالات.

كما تم العثور على مناجل ذات شفرات صفيحية ملمّعة وبعض الأجزاء ذات تهذيب مسطح بمسطحات متباينة ومنها شوكات ثلاثية السطوح وثلاثية الزوايا أو مسننات متنوعة. إضافة إلى مناقير ذات مثقب مزيل ومناجل ثلاثية الوجوه مسننة بانحراف. كما تم العثور على أجزاء من أدوات مهذبة بشكل مسطح، ومعكوسة أو مكسوة أو محضونة تنتمي بدورها على الأرجح إلى نوع من أنواع النشاب.

كما وجدت قطع ذات تهذيب كاسح بترويس مشطوب مع فرضة مثقب وترويس ذي قاعدة مكورة وتهذيب بمسطح معكوس وقطع ذات أجزاء من أدوات النشابات المهذبة بحمالة.

وعلى عمق (٤٥سم) تحت الأبنية البازلتيّة القائمة فوق الأرض تم الكشف عن سرير بازلتي أكثر انتظاماً ومبنياً من حجارة بازلتية أكثر دقةً ومنهجية، ويحدد هذا السرير أيضاً طبقة رمادية مائلة للسمرة بسماكة (٤٠ إلى ٥٥ سم). وكانت هذه الطبقة غنية جداً باللقى الأثرية لكونها طبقة أثرية بحد ذاتها أيضاً. وتموضعت هذه الطبقة بدورها فوق طبقة ترابية من الصلصال الأحمر الذي شهد نوعاً من التصنيع في قسمة العلوي.

وقد أظهرت هذه المكتشفات النهضة الصناعية التي شهدها الموقع وخاصةً في السبر المركزي والرئيسي، ومن هذه المكتشفات أجران ومطاحن على شكل رحي بازلتية، إضافةً إلى عدد كبير من الأدوات الصوانية ذات اللون الأسمر القاتم والمُسَمَّر كلون الشوكولاتة.

كما تم العثور على مئة قطعة أثرية معظمها من الصخور البركانية (ميكروتيك) مع القليل من المكاشط والمحكات من نماذج المناكيش والأزاميل، إضافةً إلى الحجارة ذات المنشأ البركاني بنماذج هندسية منها نماذج ثلاثية الزوايا والعديد منها يكون مروّساً أو بروّوس مصفحة وصفائح ذات وجوه محدبة أو مقعرة أو مستطيلة وصفائح

حياة ومهن مורست بأدوات متطورة ومصنعة ومهذبة بشكل حساس ولا مع. ويدل الكم الهائل لهذه اللقى على وجود مجتمع يشكل جزءاً من المجتمع ذي الحضارة النطوفية والذي استعمل أدوات كانت نادرة الوجود في الحضارات المعاصرة لها ومنها المحكات والمسننات والمناجل. ولهذا يكون من المؤكد تثبيت هذه القرينة المؤكدة بوجود المناجل المسننة وبعض النشاطات المحمولة.

ومن جهة أخرى نجد أن بعض الأدوات الملتقطة من السطح مثل المرؤسات من نموذج بيبولوس ومن مناجل مسننة ومبتورة، دليل أكيد على ما تقدّم ذكره. وبالطبع فهذه الأدوات دليل أكيد أيضاً على هذا التطور الأكثر تقدماً والذي سبق فترة استعمال الفخار في الألف السابع ق.م وأن هذا المجتمع كان من الجماعات التي كان لها بعد حضاري والتي أسست الحضارة النطوفية منذ وقت مبكر. كما لا بد من لفت النظر إلى أن الأدوات الزراعية ذات النماذج المتحولة والتي تم الكشف عنها ومنها المناجل وغيرها لم تُعرف عند المجتمعات الأخرى سوى في الألف التاسع ق.م وفي نهاية العصر النطوفي وخاصة في منطقة المريبط وفي الخيام.

وكذلك النشاطات الكاملة التي تنتمي إلى نموذج نشاطات بيبولوس المرؤسة.

وبالنتيجة يبدو أن موقع الطبية المهيم على السهل المحاذي للوادي قدم دليلاً من خلال ازدواجية الأسوار الحجرية المحيطة على وجود مجتمع زراعي وصناعي متطور في فترة زمنية قديمة أو الأقدم من مواقع التاريخ في منطقة الشرق الأوسط تعمقت في قدمها في التوصل إلى مرتبة المجتمع الرعوي ومن ثم المجتمع الزراعي الصناعي ذي النماذج المبكرة.

وما هذا الكم الهائل من المكتشفات الأثرية إلا دليل أكيد على ذلك، كما تم تدعيم ذلك من خلال الدراسة التي تمت من قبل الباحث ب. دوكوس الذي كشف عن مجتمع مارس الصيد بشكل واسع وخاصة صيد الغزلان والثيران والحيوانات المجترة الصغيرة والخيول. ونحن بدورنا هنا لم نقدم سوى أفكار عامة قام بها بعض الباحثين ومنهم ماري كلير كوفان عن الطبائع العامة للصناعة على أمل انتظار الدراسة الشاملة والمفصلة في المستقبل.

وقد أكدت دراسة التوضعات الطبقيّة العليا والسفلى عن وجود طبائع تظهر خصوصيات قوية وأنماط معيشة ووسائل

النموذج المثالي للحضارة النطوفية في حوران وكما هي موضحة وتظهر هنا في هذا العرض.

وأخيراً تقدم مدينة الطيبة هنا إلى جانب مواقع يبرود وقرنة فارا والمربيط شواهد حية وأكيدة على الحضارة النطوفية التي انتشرت على كامل الأراضي السورية والتي تعمقت في فلسطين وتتم دراستها بعمق في الوقت الحاضر وذلك بفضل هؤلاء النطوفيين في حوران.

وكنا نلاحظ أحياناً أجزاءً من أدوات زراعية مهذبة تعود إلى نهاية الألف التاسع كانت متشابهة مع الأدوات الأخرى جاءت من السوية الثالثة في الحفريات. وهذا يعني الغنى الكبير والأهمية اللافتة للنظر للمستوى السطحي الذي تمت الإشارة إليه. وكذلك الأعداد الهائلة وغير المنتهية بالمقارنة بالأدوات المصنعة في المستويات والسويات المختلفة والتي تظهر لنا أنها لم تتبدل مطلقاً والتي تعطي

المصادر والمراجع

- ماري كلير كوفان. الحوليات الأثرية السورية رقم (٢٢) عام (١٩٧٣م).
- j.von Beckerath Tais, und Theben. Glückstdt (1951).
- P. Berguet le temple D. Amon-Rê à Karnak Le Caire (1962).
- F, Bisson de la Roque Tôd Le Caire, (1937), AOTS, (2135-).
- H. T. Bossert Zur Geschichte von Karkamis RSO I (1952) pp – 67.
- p. Cloche Thèbes de Bèotie Paris (1952).
- A Dieter J Assmann et alii Grabung im Asasif 1963-1970. (6 vol).
- E. Drioton et alii, Rapport sur fouilles de Médamoud (2vol) Le Caire (1927- 1929).
- A.Gayet le Temple de Louxor, Paris 1894.
- H. G. Güterbock «Carchemish» JNES (13), (1954) pp (102- 114).
- J. D. Hawkins, «Building Inscription of C» AS (22). (1972) pp (87- 114).
- D. G. Hogarth. C. L Woolley et R. D. Barnett, Carchemish, I, Introductory. Londres 1914; II, The Town Defense, 1921 ; III, The Excavation in the Inner Town, 1952.
- J. Kamil, Luxor, A Guide to Ancient Thebes m, Londres, 1973.
- P. Lacau, MAI, 43,2. Vandier, Manuel, II,2843 sq. 3.
- E. Lefébure et alii, Les Hypogées royaux de Thèbes (3) vol. Paris 1882 -1883.
- G. Le grain, Les temples de K, Bruxelles, 1929.

- M. E. L. Mallowan, « Carchemish, Reflection on the chronology of the sculpture» AS, 22. 1972. pp 63 – 85.
- G.Maspéro. De Carchemis oppidi situ et historia antiquissima, Paris. 1872.
- Mayence – Le Caire, 1972 – 1977.
- Porter et Moss, II, 98 -100.
- Porer et Moss. I et II (The Theban necropolis et Theban Temples).
- Guy Rachet. dictionnaire de l'archéologie. Paris. 1983. pp 681- 682.
- C. Robichon et A. Varille, Description sommaire du temple primitive de Médamoud, Le Caire,1940.
- G. Steindorff et Wolf, Die thebanische Gräberwelt, Leipzig, 1936. (fouilles de Drah – Aboul – Nagga)
- S. Symeonoglov, Kadmeia I. Mycenaean Finds from Thébes,Göteborg, 1973.
- D.Ussishkin «Observation on some monument from C», JNES, 26 . 1967, pp 8792-.
- A.Varille, C.Robichon, L,A. Christophe et alii. Karnak,, I-IV. B.I.F.A.O., 19,22,23,25 (1943...); Karnak, V (Centre franco – égyptien d, étude des temples de Karnak).6, Paris, 1982.
- F. Vian, Les origins de Thébes, Cadmos et les Spartes, Paris, 1963. «Chroniques des fouilles» BCH, (1964), 775- 779 ; (1966), 848- 853; 1968, 856- 862.
- E.F. Wente et alii, The temple of Khonsu, I : Scenes of King Herihor in the Court,Chicago, 1979.
- H. E Wnlock, The Rise and Fall of the s Middle Kingdom in Thebes, New – York, 1947.
- W. Wolf, Das schöne fest von opet, Leipzig 1931.



المجمع الجنائزي في تل أم المرا الأثري



د. محمود حمود



شكل التل شبه دائري طول قطره (٥٠٠م)،
وتبلغ مساحته نحو (٢٥) هكتاراً، إحدائياته
(36° 8' 2.86.N 37° 41' 35.12E)
ويتألف من تل مركزي في الوسط

يقع تل أم المرا شرقي حلب ويبعد
عنها نحو ٣٥ كم، على يمين الطريق
المؤدي إلى الرقة، وجنوبي بلدة دير حافر
في منتصف المسافة بين الفرات وحلب.

✻ بامك وأثاري ومدير آثار ريف دمشق.

في نصوص إيبلا العائدة للآلاف الثالث وتم كتابتها بصيغة «دوب Dob»، كما ذكرت في نصوص أخرى من بينها: نصوص ماري، العائدة للآلاف الثاني، وكذلك حاتوشا «بوغاز كوي»، والآلاف الطبقة السابعة «VII»، حيث وردت بصيغة «توبا Tuba»، لكن التنقيبات في الموقع لم تكشف عن دليل حاسم لهذا الموضوع حتى الآن. «Curvers and Schwartez 1997: 204»، و«SCHWARTZ. 2007 b. p. 512».

بدأت بعثة بلجيكية يرأسها رولان تيفنان Ronald Tefnin أعمال التنقيب في تل أم المرّا بالتوازي مع عملها في تل أبو ضنة (بين سنتي ١٩٧٦ و ١٩٨١م)، الواقع في المنطقة نفسها غربي نهر الذهب. ثم تابعت بعثة مشتركة هولندية أمريكية أعمالها في الموقع بدءاً من سنة (١٩٩٤م) وحتى سنة (٢٠١٠م)، بإدارة كل من هانس كورفيرس Hans Curvers «جامعة أمستردام، هولندا» وغلين شوارتز Glenn Schwartz «جامعة جون هوبكنز: الولايات المتحدة».

أعمال البعثة البلجيكية:

أجرت البعثة مسحاً أثرياً ورفعاً طبوغرافياً للموقع ونفذت مجموعة من الأسبار ظهر من خلالها أن بداية

ارتفاعه لا يزيد عن (٩م)، ويحيط به بقية الموقع الأقل ارتفاعاً، وهو محاط بتحصينات وسور خارجي يصل طوله نحو (٢كم)، تتخلله ثلاث، وربما أربع بوابات. (كونه، ١٩٨٣م، ص ٥٩).

يُعدُّ التل من أكبر مواقع عصور البرونز في منطقة الجبول الخصبة، وهو أهم مركز على طريق التجارة القديم بين الميناء الفراتي إيمار ومدينة حلب «يمحاد القديمة»، والذي يصل بين بلاد الرافدين والبحر المتوسط. كما أنه يشمل منطقة تواصل الأراضي الزراعية الخصبة، غربي سهل الجبول، بالأراضي الرعوية الجافة شرقيها، وهذا ما جعل من الموقع بوابة مهمة للنشاط الاقتصادي والتفاعل الاجتماعي بين هاتين المنطقتين.

المعلومات الأولى عن الموقع جاءت من خلال المسح الأثري لسهل الجبول الذي أجراه البريطاني ماكسويل هيسلوب Maxwell Hyslop عام (١٩٣٩م) ونشر نتائجه عام (١٩٤٣م). لكن المعلومات التي جاءت من أرشيف ماري وإيبلا عن منطقة الجبول، خلال العصور البرونزية، زادت من معرفة الباحثين واهتمامهم بالموقع، الذي يعتقد أنه يضم في طياته مدينة «توبا» tuba القديمة التي جاء ذكرها عدة مرات

مشابه لفخار حماء G، وتل مردوخ III، وأبو ضنة VI. «كونه، ١٩٨٣، ص ٦٠».

وفي الطبقة الرابعة IV عثرت البعثة على فخار من النوع البسيط غير الملون، وفخار يحمل زخارف على شكل حروز نفذت بطريقة التمشيط المشابه لفخار حماء GI، إضافة لوجود أوان كروية الشكل و دمي فخارية تشبه فخار العمق «I-O». كما عُثر على قطعة من حجر السيتاتيت لتسريحة شعر تتركب فوق رأس التمثال وهي تشبه بطريقتها ومادتها القطعة المكتشفة في قصر تل مردوخ مما يدل على أن تاريخ الطبقة IV يتطابق مع الطبقة IIB و Ia في تل مردوخ. كما تم الكشف قرب البوابة الشمالية الشرقية للموقع عن جزء من سور كبير مشيد بالحجارة يعود إلى مرحلتين زمنيتين تعودان إلى العصر البرونزي المبكر والوسيط.

وتوصلت البعثة بعد هذه الدراسات إلى أن الطبقة IV تماثل بمحتوياتها طبقة «مردوخ IIB و IB»، وبأن الموقع كان خلال هذه المرحلة عاصمة إقليمية تتبع لمملكة إيبلا ومركزاً أساسياً لحماية القوافل القادمة من حلب إلى الفرات، ومحطة تجارية مهمة في منطقة بحيرة الجبول.

سكن الموقع تعود إلى العصر البرونزي المبكر «نحو ٢٨٠٠ ق.م»، واستمر حتى نهاية عصر البرونز المتأخر «١٢٠٠ ق.م»، كما شهد الموقع إشغالاً بسيطاً خلال عصور متأخرة «فارسية - هلنستية - رومانية».

وقد عثرت البعثة في مرتفع التل، وضمن الطبقة الأثرية الثانية II، على بناء عام كبير تعرض لحريق هائل أدى لدماره. وفي إحدى الغرف عثر على مجموعة من الأواني الفخارية لحفظ المؤونة تماثل فخار حماء (G) وعلى ختم أسطواني مزجج يشبه نماذج الصناعة الميتانية «أختام كركوك». كما عثر على جزء من بناء آخر ربما كان قصراً. «كونه، ص ٦٠» كما تم العثور على دمييتين صغيرتين من الحجر إحداهما من البازلت وتمثل امرأة جالسة واضعة يديها على صدرها. «تفنان، ١٩٨٣، ص ٢٦١» ويعود تاريخ البناءين مع اللقى إلى منتصف الألف الثاني ق.م.

في الطبقة الأثرية الثالثة III تم العثور على بيوت سكنية وقبور لأطفال ضمن جرار فخارية، تحيط بها كسرات من تماثيل وعربات، مصنوعة من الطين المشوي، وتعود إلى العصر البرونزي الوسيط. «تفنان ١٩٨٣ ص ٢٦١». وقد كان فخار الطبقة III

أعمال البعثة الأمريكية الهولندية المشتركة:

تركزت أعمال البعثة الأمريكية الهولندية على دراسة نشأة المجتمعات العمرانية وتطورها في منطقة الجبول، حيث تمكنت من التعرف على حالة التمدن والعمران المبكر التي شهدتها الشمال السوري خلال تلك الفترة، ودور النخب الاجتماعية فيها. «Yukich, 2013, p.7». كما أعادت البعثة دراسة وتصنيف الطبقات الأثرية في الموقع، وقد تبين أن تل أم المرّا كان ومنذ بداية الألف الثالث وحتى منتصفه مركزاً إقليمياً صغيراً تحت سيطرة إيبلا. وقد أظهرت التنقيبات في طبقات هذا العصر، مجمعاً عمرانياً كبيراً أحيط بتحصينات وأسوار وبوابات، فضلاً عن مجمع جنائزي، هو أهم ما تم اكتشافه في الموقع حتى الآن، ويتضمن قبور الشخصيات المهمة في المدينة كما تضمنت هذه الطبقات منشآت معمارية ذات مستوى متوسط، رقيقة الجدران مبنية من اللبن على أساسات حجرية، وهي تقنية معمارية استمرت في أم المرّا على امتداد العصور البرونزية «الألف الثالث والثاني ق.م».

وفي طبقات أخرى، تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث ق.م ظهرت عمارة

محلية ذات حجم صغير إلى الشرق والشمال من مرتفع التل «الأكروبوليس»، في حين وجدت إلى الغرب منه مشاغل حرفية لتصنيع الأواني الفخارية والأدوات المعدنية. «SCHWARTZ 2007 b, p.513»، و«كرفرس. ه، و شوارتز، غ، ٢٠٠٥، ص ٢٤». وإلى عصر البرونز الباكر «٤.أ» تعود مجموعة أبنية ذات جدران سمكية وعمارة حجرية دائرية الشكل كانت مليئة بالرماد فسرت على أنها حواصل لتخزين الحبوب. «شوارتز، غ، وكرفرس. ه، ٢٠١٢، ص ٣٧٢». أما السور الذي يحيط بالموقع فقد تم الكشف عن جزء منه في الجهة الغربية من التل، وهو يدل على أن الموقع كان مدينة محصنة كبيرة خلال الثلث الأخير من الألفية الثالثة ق.م. قبل أن يتضاءل السكن فيه بحدود نهاية هذه الألفية، لأسباب غير معروفة، وربما كانت التغيرات البيئية جزءاً منها. «SCHWARTZ, 2007 b, p.513»

بعد فترة الجمود والانكماش هذه، شهد الموقع انبعاثاً جديداً للنشاط فيه وظل مزدهراً طيلة العصر البرونزي الوسيط «أم المرّا III. D» و«أم المرّا III. AG» وربما كان هذا الانبعاث مقترناً بانضمام المدينة إلى مملكة يمحاد «حلب» القوية والقريبة من الموقع.

كيرفرس، (٢٠١٢م)، ص ٣٧٠، وطريق مرصوف بالحجارة المتوسطة الحجم، كما عثر على رقيم طيني مسماري هو الأول من نوعه حتى الآن في منطقة الجبول، وقد كتب بالخط المسماري واللغة الأكادية، ويتضمن معلومات اقتصادية، تتعلق بمنحة مقدمة لعدد من الأشخاص، بحضور الملك الميتاني شوتارنا الثاني Shuttarna II نحو (٤٠٠ ق.م). والرقيم يحمل طبعة ختم أسطواني يخص سلف شوتارنا واسمه شاوشتاتار Sauastatar والختم يشابه اختتاماً مماثلة وجدت في تل براك ونوزي. «Curvers H.Schwartz G, 2002, P. 81».

المجمع الجنائزي:

يتموضع هذا المجمع وسط التل المرتفع «الأكروبوليس»، ويؤرخ لفترة العصر البرونزي المبكر (٢٥٠٠-٢٢٠٠ ق.م). وهو أهم ما تم الكشف عنه حتى الآن في الموقع، أبعاده (١٥٠×١٥٠م)، عثر عليه سنة (٢٠٠٠م)، وتم حتى (٢٠١٠م) اكتشاف أحد عشر مدفنًا، أهمها مدفن الأميرتين (رقم ١)، وهو الأصغر حجماً والأكثر حفظاً، حيث تألف من ثلاث طبقات من الهياكل، في الأعلى هناك امرأتان شابتان (١٥-٢٠ سنة) تواجه إحداهما الأخرى، ودفن مع كل منهما

وقد أظهرت التتقيات جزءاً من العمارة التي أعيد تشييدها في هذا العصر ومنها، بعض التحصينات المحيطة بالموقع، وتتضمن الأسوار والأبراج البارزة. والبيوت السكنية، التي احتوت على فخار وأدوات تصنيع الطعام صنعت محلياً. «كرفرس. ه، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص ٣٠».

لكن أهم ما تم الكشف عنه في الطبقة العائدة لهذا العصر، منشأة «الصرح ١» التي تمت إشادتها فوق المدافن العائدة إلى الألف الثالث ق.م، وتتمثل برصيف دائري كبير، قطره ٤٠ متراً وهي تشبه البناء «٣ب» في إيبلا، «على الرغم من أن هذا الأخير مستطيل الشكل وأكبر حجماً». كما تم إشادة سور يحيط بالمرتفع المركزي للتل «الأكروبول». «شوارتز. غ، وكيرفرس. هانس، ٢٠١٢، ص ٣٧٠».

خلال العصر البرونزي الحديث (١٦٠٠-١٢٠٠ ق.م)، مرت سورية بمرحلة تعاقب فيها نفوذ المملكة المصرية، والحثية، ثم الميتانية التي أصبح الموقع جزءاً منها، مع وجود دلائل على عمارة محلية مستقرة، بيد أنه ليس هناك أي دليل على أبنية عامة كبيرة الحجم ولا على وجود تحصينات، وكل ما تم الكشف عنه هو بعض الحواصل لتخزين الحبوب، «غليسن. شوارتز، وهانس.

من الحجر البازلتي رُكِّبَتْ إحداهما فوق الأخرى ربما استعملتا لطحن مستحضرات التجميل. ومن اللقى أيضاً زوج من العيون الحجرية وجد ضمن حفرة مربعة الشكل في الزاوية الشمالية الغربية من المدفن. «Schwartz, 2007.a, p.41» وقد تكون هاتان العينان جزءاً من تمثال مركب من أكثر من مادة قابلة للتلف.

في الطبقة الأعلى من المدفن وجدت ثلاثة هياكل، لذكر بالغ، ولولد، وامرأة. ومن المرفقات بعض الدبابيس الذهبية ولقى مصنوعة من الفضة، منها عصابات للرأس وطوق للعنق. «Schwartz, 2007.a, p.41» وهناك سبع أوان فضية ذات أشكال متنوعة تشتمل على أوان وصحن فنجان وقدر وأنية صغيرة لها مثعب. ووجد بالقرب من المجموعة مجموعة من الخرز المصنوع من اللازورد والعقيق الأحمر والذهب وغيره من المواد، وهناك قطع من صدفيات وقشور بيض النعام ربما كانت مستخدمة للتطعيم. ووجدت أيضاً أربعة أختام أسطوانية صغيرة من الصلصال مثقوبة على امتداد طولها «بطاقات التعليق على الأواني» نقش عليها رموز كتابية لم يعرف معناها حتى الآن. وقد تميز المدفن بوجود الأقحاح المموجة الطويلة و«القوارير السورية»، التي عادة

طفل رضيع تم وضعه عند الركبة، وترافقهما تجهيزات من ذهب وفضة ولازورد. وقد وضعت جرة مليئة بالصدف قرب رأس إحداهما، كانت تحتوي على الكحل، مما يعني أنه كان مع المرأة في قبرها كامل عُدّة التجميل الخاصة بها. الطبقة الوسطى ضمت هيكلين لذكورين بالغين ربما دفنا سوياً «مع الشابتين والطفلين»، اقتصر الأثاث الجنائزي المرافق لهما على القليل من اللقى المصنوعة من الفضة والبرونز ومنها خنجر ورأس رمح. وفي الطبقة الأدنى يوجد هيكل لشخص بالغ، لم يعرف جنسه بشكل دقيق، يرافقه كأس ودبابيس فضية. «Schwartz, 2007.a, p.41».

وتميز المدفن (رقم ٤) بأرضيته المجصصة بالكلس، وبوجود جدران ومنصة عالية من اللبن، وهي تجهيزات ربما كانت مخصصة لتقديم القرابين من أجل أرواح الأسلاف المدفونين فيه «كرفرس. ه، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص ٢٦». وقد تموضعت محتويات المدفن ضمن طبقتين، في الدنيا وجدت ثلاثة هياكل عظمية لبالغين، من بينها أنثى تم دفنها بشكل ثانوي مع مجوهراتها المصنوعة من الذهب والفضة والعاج، إضافة لأثاث مطعم بقشر بيض النعام. كما عثر على طاولتين صغيرتين

وبالتالي وجود صدع أو قطع أيديولوجي وربما سياسي مع الماضي. وقد يكون هذا القطع مترافقاً مع سقوط إيبلا والمدن التابعة لها والهجوم الأكادي على المنطقة نحو ٢٢٠٠ ق.م. «كفرس.ه، وشوارتز.غ، ٢٠٠٥، ص ٢٦». «Schwartz, 2007.a, p.41». «٢٦»، ٢٠٠٥، ص ٢٦. بني المدفن (رقم ١١)، من الحجر واللبن ويتألف من غرفتين متصلتين بممر، وجدت بداخلهما بقايا هياكل عظمية، وأوان فخارية وحلي ذهبية، قطعتان منها على شكل وردة، وشريط ربما كانتا جزءاً من سوار. «شوارتز.غ، وكيرفرس.ه، ٢٠١٢، ص ٣٦٦».

عثر في المجمع الجنائزي أيضاً على منشآت تحت الأرض احتوت على هياكل عظمية لحيوانات، خصوصاً من فصيلة خيول الإكويديس equids. فقد وجد جنوب المدفن ١، بناء مربع الشكل من اللبن أطلق عليه البناء (B)؛ وكان فيه هيكلان عظميان من دون رأسيهما لحيوان من فصيلة الحمار، ووضعت جمجمتهما على مرتفع إلى جانب إناء له فوهة صغيرة. وهناك مجموعتان من الهياكل لثلاثة كلاب صغيرة (جاء) وطفل آدمي رضيع. ويوجد تحت المدفن ١، هيكل عظمي من دون رأس لحيوان من فصيلة الحمار.

ماكانت تستخدم للعطور والزيت والمرام، ويعود تاريخها إلى نحو ٢٣٥٠ ق.م. «كفرس.ه، وشوارتز.غ، ٢٠٠٥، ص ٢٦». بنيت جدران المدفن (رقم ٥) من الحجارة في جزئها الأسفل، ومن اللبن في الأعلى، واحتوى على بقايا هيكلين لذكريين أحدهما بالغ والآخر طفل، «Schwartz, 2007.a, p.41» رافقهما أوان فخارية، من بينها ما يعرف باسم أنية الشمبانيا العائدة لعصر البرونز المبكر ٣ (نحو ٢٥٠٠ ق.م)، وهي تدل على وجود طقس الوليمة الجنائزية «كيسبو»، تشابه تلك التي وجدت في تل جرابلس تحتاني في المدفن ٣٠٢ «Schwartz, 2007.a, p.49».

يُعد المدفن (رقم ٦)، أكبر المدافن المكتشفة، أبعاده نحو (٩٦٠ × ٤٨٠ سم)، وعثر فيه على هيكلين لذكريين بالغين وبقايا تابوت خشبي، ودبابيس مصنوعة من الذهب والفضة، وخرز من اللازورد والذهب والعقيق الأحمر وخنجرين من البرونز. «Schwartz, 2007.a, p.41».

أمّا المدفن (رقم ٧)، فيتألف من حجرتي دفن وُجد في إحدهما هيكل عظمي لولد يافع. وقد تم حفرة في مكان مدفن قديم، وهو ما قد يشير لعدم احترام للقبور القديمة

وفي جنوب المدفن ١، هناك البناء (D)، وهو حوض من اللبن احتوى بداخله أربعة هياكل عظمية مقطوعة الرأس وأربعة جماجم لحيوان من فصيلة الحمار، وأيضاً إناء بفوهة صغيرة وعظام طفل آدمي رضيع. وعثر في المخلفات الموضوعة فوق هذا الحوض على جمجمتين لحيوان من فصيلة الحمار أيضاً وإناء آخر ذي فوهة صغيرة، وجثة طفل آدمي رضيع مدفون في إناء. واحتوى البناء (A)، شمال المدفن ١، على أربعة هياكل عظمية لحيوان من فصيلة الحمار. «كرفرس. ه، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص ٢٧».

إن وجود هياكل بشرية في هذا المكان ربما كان يشير إلى أنها قتلت لأسباب طقسية «قرايين بشرية» ويقوي هذا الرأي تداخل هذا البناء مع المدافن والذي لا يوجد له تفسير إلا لأنشطة طقسية. «Sarah Yukich, 2013, p.8».

وقد أظهر تحليل عظام الحيوانات أنها تخص نوعاً مهجنًا من الحمير العادية والحُمُر الوحشية الآسيوية «الأوناغر» onagers. وتأتي أهمية الاكتشاف من كون النصوص المكتشفة والعائدة للألف الثالث ق.م، ومنها نصوص إيبلا، كانت قد أشارت إلى نوع محيّر من الخيول من

فصيلة الإكويد و يسمّى بالكнга kunga، وورد ذكره بصيغة «أنسه. بار. أن». وهي نوع من الخيول التي كان لها قيمة كبيرة جداً عند أرستقراطية سورية وبلاد ما بين النهرين، لأنها كانت تُستخدم في جر عربات النخبة، وتستخدم في مجالات أخرى لهم. وقد أشار العلماء الدارسون للنصوص المكتوبة بأن حيوان الكнга kunga كان هجيناً من الحمار العادي، والحمار الوحشي أوناغر onager. وهكذا فإن الحيوانات الهجينة في أم المرأ ربما تكون أول برهان أثري على وجود حيوان الكнга. كما أن وجود هذه الحيوانات في المجمع الجنائزي أمر كان له علاقة بالوجاهة الاجتماعية المرافقة للصفوة وعجالاتها الحربية. «كرفرس. ه، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص ٢٧».

إن دفن هذه الحيوانات في المجمع الجنائزي نوع من الوجاهة الاجتماعية التي كان يتباهى بها أفراد الطبقة العليا من المجتمع، نظراً لارتفاع ثمنها، كما يمكن أن يكون لها دور آخر، في القبر وهي نقل روح الميت إلى العالم السفلي.

«Sarah Yukich, 2013, p.8».

تشير نصوص إيبلا إلى أن توبا «تل أم المرأ»، كان يحكمها ملك وملكة، لهما

فترة زمنية تبلغ قرنين أو ثلاثة قرون، كل هذا يدل على المكانة الاجتماعية الرفيعة للشخصيات المدفونة، وربما كانوا من أفراد الأسر المحلية الحاكمة. كما أن وجود الأواني الفخارية ذات الأغراض المتنوعة سواء التي تستخدم للتقدمات أو للتخزين أو للاستخدام اليومي في الطعام والشراب، ومنها أواني السكب (الماء وغيره) ذات الفوهات الصغيرة، يشير لممارسة طقوس احتفالية وإقامة وليمة الكيسبو kispum المعروفة جيداً في بلاد الرافدين وسورية من أجل راحة الأسلاف الراحلين وخاصة الملوك منهم، «Schwartz, 2007.a, p.49» وهي ترتبط أيضاً بعبادة الأسلاف، المعروفة في المنطقة منذ وقت مبكر.

ويعزز ذلك أيضاً إشادة (الصرح ١)، في عصر لاحق «البرونز الوسيط»، فوق مدافن الألف الثالث. والصرح بناء مخصص لأغراض احتفالية طقسية، ويشير بناؤه في هذا المكان، إلى إعادة الاعتبار لهذه المدافن واستمرارية عبادة الأسلاف في الموقع وإحياء لذكراهم، خلال العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، وذلك بعد فترة من الأزمات والانقطاع وعدم الاستقرار سادت نهاية العصر البرونزي المبكر. «كرفرس. ه، وشوارتز. غ، ٢٠٠٥، ص ٢٧».

نفوذ محلي صغير ومحدود، وهي بالطبع ليست على مستوى وأهمية المراكز الكبرى نفسها مثل إيبلا وماري. وهذا ما تعكسه تجهيزات المدافن، التي وعلى الرغم من قيمتها الثمينة، إلا أنها لم تكن بمستوى تلك التي وجدت في مدافن إيبلا، أو في مدافن أور الملكية جنوب بلاد الرافدين والتي تعود لمنتصف الألف الثالث، أو مدفن قطنة «تل المشرفة» العائد للألف الثاني. فلا تزيد كمية اللقى الذهبية التي ترافق الميت في مدافن أم المرا عن (٢٠٠ غرام) من الذهب، وهو أقل بكثير من المصنوعات الذهبية التي رافقت مدافن الصفوة في إيبلا. وقد أوردت النصوص أن أحد الراحلين تلقى ما مجموعه (١٠٠٠ وحتى ٢٠٠٠ غرام) من اللقى الذهبية من بين هدايا التقدمات. «Schwartz, 2007.a, p.43».

إنّ تموضع هذه المجمع الجنائزي في مكان مميز من الموقع وسط المرتفع المركزي «الأكروبوليس»، حيث يمكن أن يشاهد من كل قاطني المدينة، وكذلك خصائص هذه المدافن، وبناء جزء منها فوق مستوى الأرض ومجاورتها لبعضها بشكل منظم إلى حد بعيد ومحتوياتها الثمينة، والدور الكبير الذي لعبته في حياة السكان والذي دام لفترة طويلة، واستمرت على مدى

ويرتبط مع هذا الرصيف(الصرح(١)،
بئر عُثْرَ فيه على ١٢ جثة بشرية لرجال
ونساء وأطفال قتلوا بضربة قوية على
الرأس، وفوقها عشر طبقات من عظام
الحيوانات. وما زال يتعين تحديد ما إذا
كانوا ضحايا لكارثة عسكرية «الهجوم
الحتي» أو أنهم أعدموا، أو أنهم قدموا
على سبيل التضحية. كما أنه لم يحسم
بعد فيما إذا كان هذا البئر بناء طقسي
له علاقة بتقديم القرابين للآلهة
والمرور عبره للعالم السفلي وبالتالي
ارتباطه بعبادة الأسلاف، بشكل مشابه
لبناء تل موزان المعروف بالـ «آبي» *Abi*،
وهو على شكل بئر أرضي كبير مبني من
الحجر يضم في طبقاته ودائع طقسية.
«شوارتز. غ، وكيرفرس. هـ، ٢٠١٢،
ص ٣٦٨، ٣٧٣».

كل هذا يؤشر إلى أن المجمع الجنائزي
كان مركزاً لعبادة الأسلاف، بشكل
مشابه لبعض مواقع الفرات مثل جرابلس
التحتاني وتل البنات وتل البيعة وتل
أحمر، والتي كانت مدافنها أيضاً ظاهرة
بشكل واضح ومتوضعة في صدارة مراكز
التجمع السكاني. لكن الأبنية الجنائزية
في أم المراء تختلف عن هذه المواقع
من حيث حجمها الكبير والإنشاءات

المرتبطة بالتضحيات والطول النسبي
لتتابع مدافنها. ويمكن افتراض أن هذا
التتابع الخاص بالمدافن كان مستخدماً
باستمرار من قبل العائلات والأسر
الحاكمة المهمة. «كيرفرس. هـ، وشوارتز.
غ، ٢٠٠٥، ص ٢٧»

في الحقيقة، لا يتسع المجال للحديث
عن المكتشفات، الثابتة والمنقولة، التي
جاءت من أم المراء، لهذا تم التركيز في
هذا البحث على المدافن لأنها ساهمت
في تعريفنا بالجانب الروحي لديانة
السوريين القديمة، منذ منتصف الألف
الثالث قبل الميلاد، وقدمت الكثير من
الأفكار الجديدة، ومنها فكرة مرافقة
المقربين من الشخصيات الملكية، لاسيما
الحراس والخدم، لأسيادهم الراحلين،
كما في مدافن أور الملكية «جنوبي بلاد
الرافدين»، وهي الفرضية التي يقول بها
رئيس البعثة، غلين شوارتز، مع شيء
من التحفظ، لأن التحقق من هذا الأمر
يحتاج إلى براهين أكثر وضوحاً، مثلما
يحتاج التحقق من اسم الموقع «توبا» إلى
براهين حاسمة. ولكن كل هذا يشير في
النهاية إلى أهمية هذا الموقع الواعد،
وإلى ثراء وتنوع الثقافة السورية وثقلها،
منذ فجر التاريخ.

المراجع

- تفتان. رولان، الحفريات البلجيكية في تلال أبو ضنة وأم المرة، تعريب حسن كمال، «الحواليات الأثرية السورية، العدد ٣٣، ج ٢»، دمشق، (١٩٨٣م)، ص (٢٥٩-٢٦٢).
- شوارتز. غ، وكيرفرس. ه، تقرير موسم (٢٠١٠م) الخاص بحفريات البعثة الأمريكية الهولندية العاملة في تل أم المرأ، محافظة حلب، «مجلة الوقائع الأثرية في سورية، العدد السادس»، دمشق (٢٠١٢م)، ص (٣٦٥-٣٧٣).
- كُرفرس. هانس، وشوارتز. غلين، أم المرأ (١٩٩٤ - ٢٠٠٤م)، ترجمة حسين عبد البصير (الحواليات الأثرية السورية، العدد ٤٧/٤٨)، دمشق (٢٠٠٥م)، ص (٢٣-٣٣).
- كونه. هارتموت، مواقع التتقيب الأثري في سورية، تعريب قاسم طوير وأسعد محمود، دمشق، (١٩٨٣م).
- Schwartz, Glenn(a) «Status, Ideology, and Memory in Third-Millennium Syria: Royal Tombs at Umm El-Marra». Performing Death Social Analyses of Funerary Traditions in The Ancient Near East and Mediterranean, Chicago, 2007, pp 39 -68).
- Schwartz, Glenn(b) «The Early- Middle Bronze Transition Evidence From Umm El-Marra and Western Syria», Accademia Nazionale Dei Linci, ANNO CDIV-Roma, 2007, pp 510- 529).
- Curvers, Hans, and Schwartz, Gleen, «Umm El-Marra, a bronze age urban center in the Jabbul plain, western Syria», American Journal of Archaeology, 101, 1997, PP201- 227.
- R.Tefnin. «Apersu sur 9 campagnes de fouilles belges aux Tell Abou Danna et Oum el-Marra» AAAS 33.2(1983) pp.141- 152.
- Sarah Yukich, Spatial Dimensions of social complexity: environment, economy, and settlement in the Jabbul plain, 3000-550 BC, Maryland, 2013.
- Curvers H, Schwartz G, Urban origins, collapse and regeneration in the Jabbul plain, (AAAS, Vol.45- 46), Damas, 2002/ 2003, p. 75- 83.



اشكالية الكتابة التاريخية في القرنين الأول والثاني الهجريين



عبد الله السليمان



المرحلة التي سبقت الإسلام:

ضُمنت في أشعارهم وأخبارهم، واشتهر
البدو منهم بهذا الأسلوب.

عمل العرب قبل الإسلام -شأنهم شأن
الأمم الأخرى- على استذكار تاريخهم ونقله
من جيل إلى جيل عبر الرواية الشفهية التي

وكان الفكر التاريخي عندهم يسير في
مسارين أساسيين: الأنساب وأيام العرب،

بإمعة في التاريخ.

وبوسعنا أن نتلمس منها الأهمية التاريخية لبعض المنجزات السياسية والإدارية. أمّا القصص ذات الطابع التاريخي التي رواها القصاصون الجوالون عن ملوك اليمن وعن بطولاتهم وأعمالهم، تعبّر عن مدى وعي عرب الجنوب بفكرة التاريخ. وبحكم أن عرب الجنوب عرفوا نُظماً سياسية واجتماعية متقدمة نسبياً عن تلك التي عرفها عرب الشمال، ولعبوا دوراً بارزاً في التجارة الدولية آنذاك. لذلك أتت الروايات التاريخية منسجمة مع ذلك الوضع، فقد اهتم القصاصون بأخبار الملوك ومآثرهم ومنجزاتهم، وبالممالك التي كانت على علاقة باليمن وأخبارها. لكن وعيهم بالتاريخ ظل غير ناضج لعدة أسباب، أهمها أن هذه القصص لم تعتمد على توقيت زمني يربط بينها، مما يدل على أن الوعي بالزمن باعتباره قاعدة للحدث التاريخي كان بعيداً عن هذا النمط من الكتابة التاريخية في تلك العصور. ولم تكن هذه القصص ذات الطابع الملحمي تهدف إلى الحقيقة التاريخية. وغالباً ما يختلط فيها التاريخ بالأسطورة^(٢) وهي على حد قول ابن خلدون: «بعيدة عن الصحة عريقة في الوهم واللغظ وأشبه بأحاديث القصص الموضوعة»^(٤).

وكانت الأنساب وسيلةً لتتَبَّتِ القبيلة من هويتها، وتأكيد ذاتها من خلال شجرة النسب، أي الوعي بالذات، وفكرة التأريخ عند أي جماعة إنسانية تنطلق من وعيها بذاتها. وما يميز الخبر التاريخي في التراث العربي قبل الإسلام بأنه حدث بشري لا علاقة للآلهة فيه، كما هو الحال عند الإغريق. وإن لعب الخيال دوراً كبيراً في تضخيم وقائعه وأصدائها. مع الأخذ بعين الاعتبار التنافس بين القبائل العربية وسعي كل قبيلة إلى تمجيد نفسها والظهور بالمظهر المثالي، لذلك لم يكن رواة أيام العرب يعنيه الحدث التاريخي إلا بقدر ما يشيد بمآثر أسلافهم وبطولات قبيلتهم، إمّا وفق تصوراتهم أو أمانيتهم. وهكذا حل هذا التمجيد محل الحقيقة التاريخية^(١).

أمّا العرب المتحضرة سكان اليمن، فإنهم فضلاً عن القصص التاريخية أو شبه التاريخية التي تناقلوها، دونوا أخبارهم نقشاً وبالحرف المسند، على جدران قصورهم ومعابدهم ورووا فيها أحوالهم. وهي توثق للمرحلة الممتدة بين القرن العاشر قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي^(٢). وكانت هذه النقوش تتضمن أسماء الآلهة، وأنواع القرابين، وأسماء القبائل والأفراد، وبعض القوانين التي تحكم علاقات الناس بالأفراد،

ودون أهل الحيرة أخبارهم وأنسابهم. ويروى أن النعمان ملك الحيرة أمر بنسخ أشعار العرب، فدونت له في الطنوج (الكراريس) ثم دفنها في قصره الأبيض، وقد نبشت أيام ثورة المختار بن أبي عبيد الثقفي^(٥). وقد دونت بعض النقوش في الإمارات الحدودية في جنوب بلاد الشام، ولا تزال موجودة، كالنقش الجنائزي المؤرخ سنة ٣٢٨م والذي وجد في منطقة النمارة في إحدى الإمارات السورية الحدودية، وهو يحيي ذكرى «امرئ القيس ابن عمر، ملك كل العرب، الذي ارتدى الإكليل وأخضع قبائل أسد ونزار وملوكها». انتهت هذه الميثية بالادعاء أن ما ناله امرؤ القيس لم ينله أي ملك حتى هذا الوقت. ونقش «شراحيل» المؤرخ ب ٥٦٨م.

البدء بالتدوين:

لما جاء الإسلام بدأ تدوين أولي لبعض الأمور والأحداث منذ عهد النبي، كان أهمها الإحصاء الذي جرى في عهده عليه الصلاة والسلام. خلال العصر الراشدي لما اتسعت الفتوحات الإسلامية وكثرت الغنائم أشار بعض الصحابة على عمر بن الخطاب بضرورة إنشاء ديوان لتسجيل أسماء الجند وأعطيتهم، وديوان للجباية لمعرفة ما يرد

لبيت مال المسلمين من أموال، وكان لهذه الخطوة أهميتها التاريخية بقدر أهميتها الاقتصادية. وبدأ المسلمون بتدوين بعض أقوال النبي عليه الصلاة والسلام وبعض أخباره لمنفعة دينية خاصة، أي إن الصحابة قاموا بالأمر لأنفسهم، وكانوا عند تدوين كل قول يسجلون المناسبة التي قيل فيها والأسباب التي دعت للقول، وكان هذا جمعاً غير مباشر لأخبار رسول الله وتاريخ حياته^(٦). وكان يرى عبد الله بن عباس «ومعه ألواحاً يكتب عليها عن أبي رافع شيئاً من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٧).

تنسب مرحلة بواكير تدوين التاريخ إلى كعب الأحبار وهو من يهود اليمن، أسلم زمن أبي بكر الصديق، وقدم المدينة زمن عمر بن الخطاب، وأخذ عنه المسلمون أخبار اليمن والأمم الغابرة، توفي في حمص عام (٣٢هـ/ سنة ٦٥٦م). ولد عبيد بن شربة أحد حكماء الجاهلية، الذي أدرك رسول الله وأسلم، كتب عن تاريخ اليمن بناء على طلب معاوية بن أبي سفيان، الذي كان شغوفاً بالتاريخ يخصص شطراً من الليل لسماع أخبار الملوك والحروب والمكائد السياسية. ومن أشهر مؤلفات ابن شربة «أخبار عبيد بن شربة في اليمن وأشعارها وأنسابها» و«كتاب

يتعاملون عليه، وتصير أوقاتهم مضبوطة فيها يتعاطونه في معاملاتهم. وبذلك قدّم للتأريخ العربي عموداً أساسياً من أعمدة بنيانه، ونشأ ما يسمى بـ«التقويم الهجري» المعتمد على التقويم القمري وحده، واعتبر أول محرم بداية للسنة الهجرية الموافق ١٥ تموز ٦٢٢م^(١١).

نشأة التأريخ الإسلامي:

مع الاعتراف مبدئياً بوجود مثل ذلك التدوين الأولي، يمكننا القول إن نشأة الوعي التاريخي عند العرب المسلمين بدأت بالقرآن الكريم الذي أورد العديد من قصص الأمم البائدة كعاد وثمرود وقصص الأنبياء والصالحين كقصة أهل الكهف، وقصة يوسف... إلخ. ويبيّن القرآن الكريم أن هذه القصص للعبرة، يقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾^(١٢). ومن هنا كان التأريخ لدراسة العبرة والاستفادة من تجارب الأمم الغابرة وأخبارها. وأكثر ما يتجلى البناء الدراماتيكي، الذي يمكن أن نسجله للأحداث التاريخية في القرآن الكريم، في قصة النبي يوسف عليه السلام، فشخصيات القصة هم من يحرك الأحداث،

الملوك وأخبار الماضيين»، وقد توفي في عصر عبد الملك بن مروان، واقتصر عمله على الجمع ولم يخرج عن الطابع القصصي. ووهب بن منبه (ت ١١٤هـ) صاحب كتابي «قصص الأنبياء» و«قصص الأخبار» وأصله فارسي وأمه من حمير، عاش في اليمن كان يهودياً واعتنق الإسلام وعمل قاضياً على صنعاء^(٨)، وكان يجيد أكثر من لغة كالسريانية واليونانية والحميرية.

التقويم الإسلامي:

كانت العرب قبل الإسلام يوقتون بالنجوم، وينسئون الشهور، أي يكسبون السنين القمرية، أو يزيدون في أشهر لإلحاقها بالسنة الشمسية، وكانوا يوقتون بالليالي من دون الأيام بخلاف ما كان يفعله الفرس واليونان^(٩)، وكانوا يؤرخون بالحوادث العظام في تأريخهم فأرخ العدنانيون بعام نزول إسماعيل في مكة وعام تفرق ولد معد، وعام الفيل (غزو أبرهة الحبشي لمكة) وهو العام الذي ولد فيه رسول الله، وبناء الكعبة، ويوم ذي قار وغيرها كثير^(١٠).

ولما كانت خلافة عمر بن الخطاب، اتخذ عام هجرة رسول الله من مكة المكرمة إلى يثرب بداية للتأريخ الإسلامي، فقد روي أنه قال: «اصنعوا للناس تاريخاً

وليس العكس، وكل شخصية لها كيانه وأفكارها وأبعادها النفسية الذاتية. لكن ليس بوسعنا أن نعتبر القرآن كتاباً تاريخياً إذ ينقص أخباره التحديد الزماني والمكاني. ومن حيث المنهج حث القرآن الكريم على التثبت والتحقق من الأخبار، من خلال نقد الراوي وخبره معاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(١٣).

ويمكننا القول إن نشأة التدوين التاريخي عند العرب-المسلمين تمت تحت تأثير علم الحديث والإسناد وتقصي الحقيقة^(١٤). وكانت البداية مع عروة بن الزبير (ت ٩٢هـ)، وأبان بن عثمان (ت ١٠٢هـ)، فقد كتب كلاهما كتاباً في «الحديث»^(١٥) وبعمليهما هذا تكون البداية الأولى للتدوين التأليفي للتاريخ العربي الإسلامي في العصر الأموي. وقد روى إبان بن عثمان أخباراً متفرقة عن حياة الرسول. ولم يكتب في المغازي^(١٦). وتعتبر كتب المغازي والسيرة من أقدم الكتب التاريخية التي تجمع بين التاريخ والحديث وتمثل أول شكل للكتابة التاريخية عند العرب المسلمين^(١٧) وتتألى تدوين الحديث فقد كلف الخليفة عمر بن عبد العزيز

أو هشام بن عبد الملك، محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (٥٠-١٢٤هـ) بتدوين ما جمع من أحاديث. وقد قام هذا بتدوينها فعلاً، ووضعت في دار قراطيس الخلافة، لكنها فقدت في ما بعد^(١٨). ولم يكتف المسلمون بتدوين الحديث وإنما دققوا في ما يروى من أحاديث رسول الله، ولا سيما بعدما تزايد وضع الأحاديث على لسان النبي زوراً وبهتاناً، وهكذا أوجد علماء الحديث تدريجياً، أصولاً نقدية للتمييز بين الصحيح والموضوع من الأحاديث، ولتصنيفها بحسب قربها من الحقيقة. واتبع المؤرخون العرب تلك الأصول للتحقق من «صحة الخبر» أيضاً. فقد طبق النقاد من الحفاظ والمؤرخين، الذين نقدوا الروايات التاريخية، المنهج نفسه في نقد الحديث، على مستوى الأسانيد والمتون معاً، من دون أن يفرقوا بين نقد الإسناد والمتن، ولا بين الخبر الشرعي والخبر البشري من حيث طريقة النقد وجوانبه. والأسلوب النقدي الذي ساروا عليه، كان «التجريح والتعديل»، أي إنهم كانوا يتابعون «الرواة» الذين أسندت لهم الأخبار، ويعملون على دراسة شخصياتهم دراسة تفصيلية من حيث: تاريخ ميلادهم، ووفاتهم، وسيرة، حياتهم، وسلامة حواسهم الجسدية وقواهم العقلية،

وخلفياتهم الدينية أو العرقية أو المذهبية أو السياسية ومقدار الأخلاق التي يتحلون بها، وهذا ما يسمى: «التجريح». أي بذكر عيوبه الشخصية التي تجرده من صفة العدالة (الثقة والاستقامة)، وعلى هذا الأساس يوجه الطعن له، كأن يقال ضعيف، أو ساقط الحديث، أو لا يحتج به، أو كذاب. أو بتعديل بعضهم الآخر، أي بيان الصفات الشخصية للراوي، التي تثبت أنه «إنسان عدل»، أي موضع للتصديق والثقة، ككونه عالمًا، نقي النفس، سليم السريرة، تقياً، ورعاً، ومستقيماً في أخلاقه وسلوكه فيقال عنه بأنه ثقة أو ثبت أو حجة إلى غير ذلك من الصفات.^(١٩)

وقد لخص الإمام مالك بن أنس (ت ١٧٩هـ) ذلك بقوله: «لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سوى ذلك: لا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس، وإن كان لا يتهم على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة، إذا كان لا يعرف ما يحدث به».

وكما اشتغل الزهري في جمع الحديث فقد اشتغل في كتابة التاريخ. وكان أول من تحررت كتاباته من الطابع القصصي، وتمثل كتاباته المرحلة الأولى من التدوين

التاريخي، ويعتبر من مؤسسي علم التاريخ عند العرب-المسلمين. وأخذت الكتابة التاريخية على يديه طابعاً أكثر منهجية، ولم يقتصر عمله على الجمع فقط، وإنما لجأ إلى ترتيب مادته وتبويبها^(٢٠). مورداً تفاصيل كثيرة عن البعثة النبوية وبداياتها والهجرة إلى الحبشة وأسبابها، وهجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة المنورة، والمغازي، ورسائل النبي إلى القبائل العربية وملوك العصر، والفترة الأخيرة من حياة الرسول، كما تحدث عن حروب الردة وفتوح الشام^(٢١). وشكل الحديث مصدره الأساسي وكان يتنقل بين مشايخ الحديث حتى توفرت له هذه المادة العلمية الغزيرة. فقد أخذ عن عبد الله بن عباس وعن إبان بن عثمان وعروة بن الزبير وآخرين، ممن يمكن أن نعتبرهم مؤرخي القرن الأول الهجري، وقد انصب اهتمام معظمهم على السيرة والمغازي انطلاقاً من معاصرتهم للنبي وقربهم من الأحداث السياسية.^(٢٢)

وكان محمد بن سعد (ت ١١٣هـ)، صاحب كتاب (طبقات الصحابة)، مؤسس علم الطبقات في التاريخ الإسلامي، وهو علم يبحث في تراجم الأشخاص التي لعبت دوراً هاماً في تاريخ الأمة، ويتبع أسلوب الترتيب الزمني أو المكاني أو الفئوي أو كل ما سبق،

فالمؤرخ ابن سعد في كتابه طبقات الصحابة سار في تصنيفه مراعيًا عنصرَي الزمان والمكان، فذكر الصحابة والتابعين بحسب أسبقيتهم في الإسلام، مستمداً أسلوبه من الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان عندما يوزع العطاء يعتمد القدم، ورتَّبهم حسب المكان على أساس المقيمين في الكوفة أو في مكة أو في المدينة أو في البصرة... إلخ. والتقسيم الفئوي أي عدم وضع كل الشخصيات بمختلف اختصاصاتها ومهنها في بوتقة واحدة بل تصنيفهم إلى طبقات بحسب طبيعة عمل كل منها مثلاً: الأطباء، الأدباء، الفلاسفة، الشعراء، الفقهاء. ويعتبر عمله إبداعاً جديداً في الفن التاريخي عند العرب المسلمين. وأشهر من كتب في هذا الفن بعده محمد بن سلام الجمحي البصري (١٥٠-٢٣٧هـ).^(٣٣)

وهكذا فإن نشأة التاريخ عند العرب- المسلمين علماء مدوناً ومجموعاً من مصادره الشفوية والمدونة بجاهليته وإسلامه، ترجع إلى القرن الثاني للهجرة، الثامن الميلادي، وكان في نشأته عربياً أصيلاً، وجديداً بفكره، وبتقويمه الزمني، وبأهدافه، أي أن المسلمين لم يقلدوا فيه غيرهم من الأمم. وهكذا فإن القرن الثاني الهجري أرسى قواعد علم التاريخ العربي

الإسلامي، ورسم أطره من حيث التطور المنهجي الهام الذي طرأ عليه كعلم بدأ يأخذ استقلاليته عن علم الحديث، ولكن من دون إهمال السند الذي أعطى للروايات التاريخية في ذلك الوقت الكثير من الثقة التي اتخذها الحديث، ولا سيما أن معظم المؤرخين في هذا القرن كتبوا في التاريخ انطلاقاً من الاهتمام بالحديث، جمعاً أو كتابةً، بحيث ظهر تداخل واضح بين العلمين، وقد ظل هذا التداخل وثيقاً لعدة قرون، استطاع التاريخ بعدها الخروج من دائرة علم الحديث والاستقلال عنه.^(٣٤)

وإضافة لفضل علم الحديث على التاريخ كان للفتوحات الإسلامية فضل لا ينكر، وإذا كان للحديث الدور الأبرز والحضور الأقوى في المدرسة الحجازية فإن فضل الفتوحات الإسلامية لم يقتصر على قطر من دون آخر، فاختلط المسلمين بالشعوب المختلفة دفعهم للتعرف على عاداتهم ودياناتهم وتاريخهم وحضارتهم. وكان المسلمون بحاجة إلى التعرف على تاريخ الفتوحات الإسلامية، رغبةً ثقافيةً ودينيةً في المقام الأول، ولتنظيم شؤون الدولة وللفضل في بعض القضايا الإدارية والمالية التي واجهتهم. كالتمييز بين ما فتح من تلك البلاد صلحاً وما فتح عنوة. وكان

في كتابه «السيرة» الذي دَوَّنَه كما يقال بناءً على طلب الخليفة العباسي المنصور. فقد قسم كتابه إلى ثلاثة أقسام، هي:

المبتدأ: ويبحث في تاريخ العرب قبل الإسلام منذ بدء الخليقة ويعتمد في هذا القسم على أخبار التوراة وروايات وهب بن منبه.

والمبعث: ويبحث في حياة النبي في مكة، والهجرة.

والمغازي: ويضم تاريخ الرسول في المدينة حتى وفاته، وركز على حروب النبي مع القبائل المشركة^(٢٩). وقد ضمَّ ابن إسحاق كتابه قصص رواة الخبر وأيام العرب والكثير من الأشعار. ويوجه النقد له لإهماله التدقيق في السند، وتعامله على الدولة الأموية، وتأثره بواقعة الحرة، وروايته للكثير من الأمور اللاعقلانية، وبعض الأحاديث الموضوعة، حتى إن بعضهم نعتَه بالكذب وقال بأنه مشهور بالتدليس عن الضعفاء والمجهولين^(٣٠)، على أية حال لم يصلنا كتابه، وإنما وصلتنا منه فقرات عن طريق تلخيص المؤرخين له وتلقيحهم. ولاسيما عن طريق عبد الملك بن هشام (ت ٢١٨هـ) في كتابه المشهور «السيرة» والذي يطلق عليه عادة اسم «سيرة ابن هشام»^(٣١).

للاحتكاك مع شعوب البلدان المفتوحة دورٌ بارزٌ في دفع المسلمين للترجمة عن لغاتهم الأعجمية، كالفارسية، والسريانية، واليونانية، مما أثرى علم التاريخ، فقد بدأت هذه الحركة في إطار مادة التاريخ بترجمة ابن المقفع لكتاب «خداينامة» عن الفارسية عام (١٤٠هـ) في تاريخ الفرس وأحوالهم تحت عنوان «سيرة الملوك»^(٣٥). وكان لتأسيس أول معمل للورق في بغداد سنة (١٧٨هـ / ٧٩٤م)، دور كبير في انتشار كتابة التاريخ، فبعد توافر المادة الورقية اللازمة للتدوين ازدادت المؤلفات، ومن بغداد انتشرت صناعة الورق في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وكان الورق يصنع من الخرق البالية، ومن ألياف الحشيش ومن القنب والكتان^(٣٦).

المدرسة الحجازية:

يعتبر الزهري مؤسس مدرسة التاريخ الحجازية، ومن وضع خطوط كتابة تاريخ السيرة النبوية^(٣٧). وقد تتلمذ على يديه كل من موسى بن عُقبة (ت ١٤١هـ)، الذي كتب في المغازي^(٣٨)، ومحمد بن إسحاق بن يسار الفارسي (ت ١٥١هـ) الذي لم يقتصر بتاريخه على سيرة رسول الله وإنما قدم تاريخ الدعوة الإسلامية.

وكان عاصم بن عمر بن قتادة (ت ١٢٠هـ) وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت ١٢٠هـ) من معاصري الزهري. وأبو معشر السندي (ت ١٧٠هـ) الذي عاش رداً من حياته في المدينة وآخر في بغداد، واهتم بالسيرة النبوية وبالمغازي. وهؤلاء العلماء هم من أرسى قواعد علم التاريخ. وعلى الرغم من اهتمامهم بالسيرة بصورة رئيسية إلا أن أخبارهم تنوعت في السيرة، والمغازي، والمواقع، والأنساب، والمثالب، والإدارة، والقضاء، وأخبار الخلفاء، والولاء، والقضاة.^(٣٢)

وإذا انتقلنا إلى المنهج فإنه تأثر شأن الموضوع، بالمناخ الاجتماعي الفكري السائد حينذاك في المدينة، التي ظلت نحو قرنين من الزمن مرجع المسلمين في شؤونهم الدينية، ومقر محدثيهم وفقهائهم الكبار وأئمتهم من أمثال عبد الله بن عباس، والحسن بن علي، والحسين بن علي، والباقر، والصادق. وكان من الطبيعي أن ينعكس المنهج «الحديثي» على أعمال سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وأبان بن عثمان، وشرحبيل بن سعد، والزهري، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وحتى مالك بن أنس. فقد طغت لدى بعضهم صفة المحدث والفقهاء على صفة المؤرخ مثل سعيد بن المسيب، وأبان بن عثمان، وقد جاءت أعمال مدرسة

الحجاز مختلفة عن أعمال المدرسة العراقية.^(٣٣)

كان للمدرسة الحجازية ظرفها ومعطياتها الخاصة فضلاً عن مؤثراتها الاجتماعية والسياسية المختلفة، فقد كانت المدينة بشكل عام، في منتصف المسافة بين دمشق والكوفة، أو بين السلطة والمعارضة، مما جعل مؤرخيها على الرغم من معارضتهم الضمنية للحكم الأموي، أقل تحاملاً عليها من مؤرخي الكوفة، ولا سيما أن السلطة فيها كانت شبة مباشرة، بعد تولي بني العاص مسؤوليتها طوال العهد السفلياني. ومن ناحية أخرى فإن الوضع الاجتماعي وغياب المواقف الحاسمة عن رموزها وقبولها أن تبقى على المسافة نفسها من الحكم والمعارضة، هذه العوامل كلها أسهمت في تكوين فكرها المحافظ، وتفايدي الوقوع في خندق المواجهة أو التحزب العلني. ولا شك أن هناك علاقة بين رواد هذه المدرسة والموضوعات التي ألفوا بها، حيث تمحورت في الغالب حول سيرة رسول الله ومغازية وأخبار الخلفاء الأوائل، وغير ذلك مما شهدته المدينة على أرضها^(٣٤). ولم يشذ عن هذا النهج إلا الواقدي، وهو: ومحمد بن عمر بن واقد السهمي والمعروف بالواقدي (ت ٢٠٧هـ)

والذي قاد حركة الخوارج في عهدها الأول، انصب اهتمامه على أخبار الفتنة وواقعة الجمل بصورة خاصة من النظرة العراقية وربما التميمية^(٣٨)، لذلك ليس بوسعنا أن نعتد أخباره. بينما كتب نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ) كتاب بعنوان «وقعة صفين». إلا أن علماء الجرح والتعديل قالوا فيه: بأنه كثير الخطأ، مضطرب الحديث، ليس بثقة ولا بمأمون لذلك هو متروك.^(٣٩)

إن دراسة هذه الكتب تاريخية المظهر سياسية النزعة والمضمون، يظهر بجلاء درجة الميول السياسية -التي يصعب الخروج عنها- لهؤلاء المؤرخين. ومن الناحية المنهجية تسامحوا في قضية الإسناد مما جعلهم عرضة لنقد الفقهاء الذين التزموا بقضية الإسناد بشكل دقيق. بينما برز منهم من اهتم بالنقد التاريخي الذي سار عليه علي بن محمد المدائني (ت ٢٢٥ هـ). وعرف بهذا الاسم نسبة إلى عيشه في المدائن، على الرغم من نشأته في البصرة وقضاء الشطر الأخير من حياته في بغداد، حيث نال موقعاً بارزاً في حياتها الثقافية والاجتماعية. كتب أخبار النبي وقريش والمنافقين والخلفاء وتحدث عن الردة والفتوحات والجمل وصفين والخوارج والأنساب^(٤٠). وكان

والذي نسبت له عدة كتب في طليعتها كتاب «المغازي»، وهو ليس بثقة، متهم بالكذب والتحريف والتدليس، ومعروف برواية المناكير عن المجهولين، وكان حاطب ليل في مؤلفاته، خلط فيها الغث والسمين، والخرز بالدر الثمين، لذا طرحه العلماء ولم يحتجوا به، حتى قال الشافعي عن مؤلفاته: «كتب الواقدي كذب».^(٤١)

المدرسة العراقية:

يأتي في مقدمة هذه المدرسة مؤرخو الكوفة (أهل الرأي)، ويأتي في مقدمتهم لوط بن يحيى الأزدي والمشهور بـ أبو مخنف (ت ١٥٧ هـ) ولد وعاش في الكوفة. نسب له أكثر من ثلاثين كتاباً في شتى المواضيع، ولا سيما ما يتصل بتاريخ العراق حتى سقوط الدولة الأموية. كتب في الردة والفتوحات الإسلامية وأخبار الشورى وصفين^(٤٢). وما يؤخذ عليه أن يروي عن المجهولين والكذابين وكان متحاملاً في كتاباته على الأمويين بشدة. ووصف بالكذب لذلك هو متروك.^(٤٣)

وعلى النقيض من أبو مخنف كان في الكوفة مؤرخ آخر هو عوانة بن الحكم الكلبي (ت ١٤٧ هـ) الذي سعى لإنصاف بني أمية. أمّا سيف بن عمر التميمي الكوفي (ت ١٣٠ هـ)

عالمًا بأيام الناس، وأخبار العرب وأنسابهم ورواية الشعر، وكان مهتمًا بتاريخ خراسان والهند وفارس. وقد مثل المدائني مرحلة مهمة في تطور المنهج التاريخي متأثرًا بالأسلوب النقدي للمحدثين، ووصف بأنه الأكثر دقةً والأكثر موضوعيةً، وكان ثقةً إذا حدث عن الثقات.^(٤١)

وروى هشام بن محمد بن سائب الكلبى (ت ٢٠٤هـ) في عدة موضوعات: كالأحلاف والألقاب والمثالب وأخبار اليمن وأخبار الخلفاء والأمصار والبلدان والأنساب ولاسيما في كتابه الشهير «جمهرة النسب». ونسب له ابن النديم في كتابه «الفهرست» أكثر من ١٤٠ كتاباً لم يصلنا منها إلا ثلاثة. وما يؤخذ عليه أنه يروي الأخبار الموضوعة، وقد وصف بالكذب.^(٤٢)

وهكذا فإن أبرز سمات المدرسة العراقية في القرن الثاني الهجري هي التنوع في المضمون الذي اتسعت دائرته لتشمل تفاصيل واسعة عن تاريخ العرب قبل الإسلام، وعن بلدانهم وأمصارهم وأحوالهم وأنسابهم بعده، فضلاً عن أخبار النبي والخلفاء والفتوحات والصراعات السياسية التي دارت في العهد الأموي، واتسمت هذه المرحلة بظهور الخلفية السياسية للمؤرخ الذي كان أكثر تأثراً بأجواء الصراعات الحادة بين الأمويين وخصومهم. لذلك ينبغي التدقيق في أخبار هذه المرحلة التي لم تخل أخبارها من التعاطف مع هذا الاتجاه السياسي أو ذاك، ولاسيما الاتجاه المناوئ للدولة الأموية.^(٤٣)

الهوامش

- ١- قاسم عبده قاسم، تطور منهج البحث في الدراسات التاريخية، عين للدراسات والبحوث الاجتماعية، القاهرة (٢٠٠٠)، ص ١١١.
- ٢- ليلي الصباغ، دراسة في منهجية البحث التاريخي، ط ١٣، منشورات جامعة دمشق، (٢٠٠٨م)، ص ٢٧.
- ٣- قاسم عبده، المرجع السابق، ص ١١٨.
- ٤- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، ط ١، دار الكتب العلمية، (١٩٩٣م)، ص ٢٢٤.
- ٥- ليلي الصباغ، المرجع السابق، ص ٢٧.
- ٦- عبد العزيز العمري، الولاية على البلدان في عصر الخلفاء الراشدين، ط ١، الرياض (١٤٠٩هـ)، ص ١٥٨.
- ٧- إبراهيم بيضون، مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية حتى نهاية القرن الثالث الهجري، مجلة الفكر العربي العدد ٥٨ سنة العاشرة، بيروت (١٩٨٩م)، ص ١٠. نقلاً عن ابن سعد، الطبقات الكبرى، ج ٢، ص ٧٣١.

- ٨- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٠.
- ٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٣٦.
- ١٠- قاسم يزبك، التاريخ ومناهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، ط ١، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٠.
- ١١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٣٦.
- ١٢- القرآن الكريم، سورة يوسف، الآية الثالثة.
- ١٣- القرآن الكريم، سورة الحجرات، الآية السادسة.
- ١٤- ليلى الصباغ المرجع السابق، ص ٣٩.
- ١٥- وقد اختلفوا في تاريخ وفاته فمنهم من قال توفي سنة (١٠٥هـ) ومنهم من قال توفي سنة (٨٥هـ)، وقد حقق المسألة محقق تهذيب الكمال، وخلص إلى القول إن أبان بن عثمان سنة (١٠٢هـ) في خلافة يزيد بن عبد الملك. يجب عدم الخلط بين أبان بن عثمان بن عفان، وأبان بن عثمان بن يحيى الأحمر صاحب كتاب «المغازي» المتوفى نحو (٢٠٠هـ / ٨١٥م). انظر: عبد الباري محمد الطاهر، أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنهما الأمير العام، مجلة دراسات تاريخية، العددان ٧٥-٧٦، دمشق (٢٠٠١م)، ص ٩٥.
- ١٦- عبد الباري محمد الطاهر، المرجع السابق، ص ١٣٥.
- ١٧- فريد بن سليمان، مدخل إلى دراسة التاريخ، مركز النشر الجامعي، تونس ٢٠٠٠م، ص ٩٥.
- ١٨- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٣.
- ١٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٣.
- ٢٠- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٠.
- ٢١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٥٩.
- ٢٢- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٠.
- ٢٣- فرانز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة صالح أحمد العلي، بغداد (١٩٦٣م)، ص ١٣٣-١٣٤.
- ٢٤- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٤.
- ٢٥- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٥-٤٦.
- ٢٦- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٨.
- ٢٧- فريد بن سليمان، المرجع السابق، ص ٩٥.
- ٢٨- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١١.
- ٢٩- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٤.
- ٣٠- ابن الجوزي: الضعفاء والمتروكين، حققه عبد الله القاضي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، (١٤٠٦هـ)، ج ٣، ص ٤١. وانظر ابن حجر، طبقات المدلسين، ط ١، مكتبة المنار، عمان، ج ١، ص ٥١.

- ٣١- ليلى الصباغ، المرجع السابق، ص ٤٤.
- ٣٢- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٣.
- ٣٣- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٤.
- ٣٤- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٣.
- ٣٥- الذهبي، محمد بن أحمد- سير أعلام النبلاء، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م، ج ٩، ص ٤٦٩.
- ٣٦- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١١.
- ٣٧- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٧، ص ٣٢٠.
- ٣٨- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١١.
- ٣٩- العقيلي، الضعفاء، ج ٤، ص ٣٠٠.
- ٤٠- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٢.
- ٤١- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، دار إحياء التراث العربي، (٢٠٠٠م)، ج ٢٢، ص ٢٩.
- ٤٢- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ١٠، ص ١٠١، ١٠٢.
- ٤٣- إبراهيم بيضون، المرجع السابق، ص ١٢.



البحث العلمي في مسيرة البناء والتطور



د. ميخائيل معطي

الحياة الكريمة، ونلحق بركب الأمم المتقدمة، علينا بالبحث العلمي». وقد أولى نهرو هذا الموضوع جلّ اهتمامه، وأمدّه بدعم مادي متميز من ميزانية الدولة، على الرغم من احتياجات الهند المادية الملحة في العديد من القطاعات الأخرى. فجاءت النهضة العلمية والتكنولوجية التي أعطت الهند اليوم مكانتها السيادية المرموقة بين الأمم. البحث العلمي هو الأساس الذي لا غنى عنه في أي مسعى تتشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرقى. هو العنصر الرئيس في

من المسلمات أن الحياة كفاح، مع الطبيعة للبقاء، وأن التقدم كفاح، لتحقيق الأفضل، وأن القوة الحقيقية في هذا الكفاح هي قدرة الإنسان واستعداده على البحث والإبداع.

عندما تولى جواهر لال نهرو، زعامة الهند، توجّه إلى الأمة الهندية في خطابه الأول بالعبارات التالية: «يحتل البحث العلمي المكان الأول في حياة الأمم وفي تقدمها وتطور قدراتها في مجالاتها الحياتية كافة. فلكي نبني مجتمعنا على أسس سليمة تؤمن لنا

✽ بامك وعضو لجان تحكيمية علمية جامعية عالمية، وأستاذ جامعي.

الجامعة عن هذه المهمة أصبحت مدرسة ثانوية عليا. وعلى الإدارة الجامعية أن تهيئ الأسباب كافة لدعم البحث العلمي في كلياتها، وأن توفر المتطلبات الضرورية لهذه الغاية. فالعمل في البحث العلمي يتطلب دعماً قوياً كي يؤدي دوره في التنمية والتطور.

دعائم العمل في البحث العلمي:

يرتكز العمل في البحث العلمي على دعائم أساسية هامة هي: الباحث؛ مستلزمات البحث وخطة واضحة تشرف على تنفيذها إدارة خبيرة.

الباحث:

إن أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة هم العلميون المعتمدون للقيام بالبحوث العلمية إلى جانب مهامهم التدريسية. والأساتذة في جامعات الدول المتقدمة يعتبرون البحث العلمي جزءاً أساسياً من طبيعة عملهم الأكاديمي، إلى جانب القيام تلقائياً بمهامهم التدريسية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشروط المادية الحياتية لهؤلاء العلماء متميزة ومؤمنة بشكل يليق بمكانتهم العلمية الرفيعة.

منذ وقت قريب، تظاهر الموظفون في ألمانيا مطالبين بزيادة رواتبهم أسوة

بالتطور، وهو القوة المعتمدة في سيادة الأمة واستقلالها، وهو الحصن الذي يحميها من سيطرة الأمم المتقدمة في هذا الميدان. وما الصراع الدولي القائم حالياً، والذي نشهد مظاهره في المجالات الحياتية كافة، الاقتصادية والعسكرية، سوى صراع المنافسة في ميادين البحوث العلمية. وما الحروب التي تشنها الدول المتقدمة علمياً على دول العالم الثالث، مباشرة أو مداورة، إلاّ للحيلولة من دون وصول هذه الدول إلى امتلاك المعرفة التي تمكنها من تحقيق أي تقدم في مجال البحث العلمي، وبالتالي امتلاك القدرة على تقرير مصيرها وتحقيق السيادة على مقدراتها. فالمعرفة قوة، وقوة الأمة بعلمائها. وإن ما جرى من اغتيلات للعلماء في العراق الشقيق، وما يجري الآن للعلماء في إيران وفي سواها من دول العالم الثالث، فهو الدليل على الأسباب الرئيسة لهذه الحروب الرهيبة التي تشنها الدول الاستعمارية. بهدف تحطيم مسيرة البحث العلمي التي يقودها هؤلاء العلماء.

الجامعة والبحث العلمي:

من المعروف أن الجامعات هي مراكز للبحث العلمي بالدرجة الأولى، قبل أن تكون للتدريس ونقل المعرفة. فإذا تخلت

بوضعها هيئة متخصصة تتضمن الأمور التالية:

- رسم السياسة الوطنية الشاملة للبحث العلمي.

- التنسيق بين الهيئات العلمية البحثية لتحقيق أغراضها، وبصورة خاصة تعزيز الموازنة الداعمة للبحث العلمي.

- التعاون في مجال البحث العلمي مع الجامعات ومراكز البحوث العلمية العالمية.

جهاز إداري للبحث العلمي:

الإدارة هي ركن محوري وقاعدة أساسية في تنفيذ الخطة الموضوعية للبحث العلمي. يتولاها عادة أشخاص من ذوي الخبرة بشؤون البحث العلمي، ممارسة وإدارة، ولهم معرفة واسعة بدور البحث العلمي وأهميته في تقدم البلد وتطوره نحو الأفضل، يقومون بتحضير برامج تطوير البحث العلمي، ويشرفون على تنفيذها وتنظيم شؤونها والارتقاء بالمستوى العلمي والتقني للباحثين، وتقويم أدائهم، ووضع الأسس والقواعد اللازمة لتشجيع الباحثين وتحفيزهم مادياً ومعنوياً والإشراف على مشاريع البحوث الجارية وتقويم مسارها سعياً للوصول بها إلى المستويات العالمية. قام الجنرال ديغول عندما كان رئيساً للجمهورية الفرنسية بتكليف المجمع

بالرواتب العالية التي يتقاضاها الأساتذة والمعلمون. وعندما قابلوا رئيسة الدولة السيدة ميركل لهذا الغرض، قالت لهم: «كيف لي أن أساوي رواتبكم مع رواتب الذين علموكم؟»

مستلزمات البحث العلمي:

من الأهمية بمكان تأمين المستلزمات المادية للبحث العلمي، فمن دونها لا تقوم له قائمة. وأهم هذه المستلزمات هي:

أولاً: تزويد المخابر في الكليات العلمية بالأجهزة الضرورية للبحث العلمي.

ثانياً: تأمين صيانة الأجهزة المخبرية بصورة مستمرة كي تظل جاهزة للعمل. وتعمل الجامعات والمراكز العلمية في البلدان المتقدمة على التعاقد مع شركات متخصصة لصيانة الأجهزة المخبرية، وتأمين جاهزيتها للعمل بصورة دائمة.

ثالثاً: تزويد الأقسام العلمية بمكتبة خاصة تضم الكتب والدوريات العلمية العالمية، وقاعدة بيانات أو بنوك معلومات تؤمّن للباحثين الاطلاع على مستجدات البحوث والاكتشافات العلمية.

خطة البحث العلمي:

يتوقف نجاح العمل في مجال البحث العلمي على خطة واضحة المعالم شاملة لكل المسائل المتعلقة بالبحث العلمي، تقوم

«يجب أن يكون البحث العلمي في طليعة الأولويات». وأضاف أيضاً: «إنَّ مسألة البحث العلمي يجب أن تكون ركيزة أساسية في كل جامعة إلى جانب التعليم، وعلى الحكومة توفير مستلزمات تحقيق هذه المهمة».

بعد هذا التوجيه التاريخي، نتساءل عما تحقق في مجال البحث العلمي في جامعات الجمهورية العربية السورية وفي المؤسسات العلمية في سورية.

إنَّ قطاع الإبداع والتطوير قوامه النقد الجدي للمعطيات والوقائع والشك حتى في البديهيات، وصولاً إلى الحقائق العلمية المجردة. ولا بد في هذا المجال، من الإضاءة على القطاعات المعنية بهذا الشأن، وفي مقدمتها الجامعة بالدرجة الأولى.

تقويم البحث العلمي:

نظرة فاحصة على واقع البحث العلمي في الجامعات السورية، يتبين من خلالها حالة متواضعة لواقع ضعيف القدرة، مقارنة بما هو قائم في العالم، واقع تبينه بوضوح التقارير الإحصائية لمنظمة اليونسكو. والتي تنشر سنوياً عن نشاطات البحث العلمي في العالم. وتحمل الجامعات السورية القسط الأكبر عن الأسباب التي أدت إلى ذلك.

الكبير إدغار فور وضع خطة لتطوير برامج التعليم العالي في فرنسا. وتصدرت الصفحات الأولى من الصحف الفرنسية في اليوم التالي على هذا التكليف صور المجمع إدغار فور كمرشح لمنصب وزارة التعليم العالي في تشكيلة الوزارة المرتقبة. وقد حظيت الخطة التي وضعها إدغار فور بالإعجاب الكبير من قبل الجنرال ديغول ومن المجمعين الفرنسيين. وعندما صدرت بعدها التشكيلة الوزارية، لم يكن إدغار فور وزيراً للتعليم العالي فيها. وعندما سئل الجنرال ديغول عن السبب أجاب: إنَّ فرنسا مدينة لإدغار فور بهذا الإنجاز العظيم الذي قدمه للأجيال الفرنسية الصاعدة. إنما الحرص على نجاح هذا الإنجاز العظيم يقتضي أن نولي أمر تنفيذه إلى إداري خبير رفيع المستوى. وقد وقع اختياري على من هو جدير بهذه المهمة الكبيرة فعينه وزيراً للتعليم العالي.

واقع البحث العلمي في الجامعات السورية:

في خطابه التاريخي الشهير إلى الأمة، وجّه الرئيس السوري حافظ الأسد نحو البحث العلمي بالعبارات التالية: «إذا لم نمسك بناصية البحث العلمي ونسبر أغواره فلن نملك التقدم الذي نشد». وأضاف:

صحيح أن جامعاتنا تقوم بدورها المطلوب في القطاع الخدماتي في مجالاته المختلفة، ولكنها مقصرة إلى حد بعيد في قطاع البحث العلمي، قطاع الإبداع والتطور الذي تشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرفقي، حيث لا تقدم أو رقي من دونه. فيقتضي الواجب أن يولى البحث العلمي في الجامعة قسطاً كبيراً من الرعاية والاهتمام. والجامعات كما هو معروف، هي مراكز للبحث العلمي بالدرجة الأولى، قبل أن تكون للتدريس ونقل المعرفة.

البحث العلمي تعريفاً هو السعي إلى كشف جديد يحظى باعتراف مصادر علمية ثقة، ومعروفة على الصعيد العلمي، وذلك من خلال نتائجه المنشورة في مجلات علمية متخصصة ومعتمدة، وذات مستوى رفيع.

يتم تقييم واقع البحث العلمي في بلد ما من خلال البحوث التي يقوم بها الباحثون في الجامعات ومراكز البحوث العلمية، والتي يتم نشرها في المجلات العلمية المتخصصة المحلية والعالمية.

يصدر عن المراكز العلمية كما هو معروف مجلات متخصصة تنشر البحوث العلمية التي يقوم بها الباحثون. وهذه المجلات العلمية هي عنوان النشاط العلمي في هذه المراكز. وتكتسب المجلة

العلمية أهميتها من خلال قيمة وأهمية البحوث العلمية التي تقوم بنشرها. وترجع هذه الأهمية بالدرجة الأولى، إلى المستوى العلمي للمحكمين الذين يوكل إليهم تقويم البحوث المقدمة للنشر في المجلة. ويتم اختيار هؤلاء المحكمين من الذين لهم باع كبير في البحث العلمي. وتتنافس المجلات العلمية فيما بينها من خلال سويات المحكمين الذين تختارهم لتقييم البحوث التي تعتزم نشرها. ومن البديهي، في غياب المحكمين الأكفاء، أن تضعف الثقة بأهمية البحوث المنشورة في هذه المجلات، وبالتالي بالدور الذي تؤديه في خدمة التطوير المنشود.

يصدر عن الجامعات السورية مجلات علمية تنشر العديد من البحوث في مختلف الاختصاصات. وبعيداً عن تقويم المستوى العلمي لهذه المجلات العلمية، وعن أهمية البحوث المنشورة فيها، نعتقد بأنها تفتقر إلى العديد من المحكمين الأكفاء الذين لهم مكانة علمية مرموقة مدعمة ببحوث علمية منشورة في مجلات علمية مشهورة. وللوصول بمجلاتنا العلمية إلى المستوى المطلوب لا بد من توافر محكمين أكفاء يعملون على تقويم البحوث العلمية المقدمة للنشر فيها. وإذا تعذر وجود محكمين

محليين، يمكن اللجوء عندئذ إلى محكمين من الخارج، عرباً كانوا أم أجنب، على غرار ما تقوم به أرقى المجلات العلمية في العالم. ففي غياب المحكمين الأكفاء، لن يكون لمجلاتنا العلمية إسهام في ما يتوق إليه الوطن من نهضة علمية تمهد أمامه طريق التطور والتقدم، ولو تكدست لدى هذه المجلات كميات كبيرة من بحوث قد لا تمت للبحث العلمي بصلة.

على هذا الأساس، ينبغي تقويم واقع البحث العلمي في بلدنا من خلال مجلاتنا العلمية والبحوث المنشورة فيها، وعلى الأخص تلك التي يقوم بإعدادها أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية الذين يتحملون مسؤولية كبرى في هذا المجال.

أعضاء هيئة التدريس والبحث العلمي:

تضم الجامعات السورية عدداً كبيراً من الأساتذة حملة شهادة الدكتوراه في مختلف الاختصاصات، ولكنها ما تزال تفتقر مع الأسف الشديد إلى الأساتذة الباحثين، لأن معظمهم لم يمارس البحث العلمي بعد حصوله على شهادة الدكتوراه. وحامل شهادة الدكتوراه، كما هو معروف بصورة عامة، هو من تعلم البحث العلمي بمساعدة

أستاذ مشرف وتوجيهاته المتتابعة. ولكنه لن يصبح باحثاً بعد حصوله على شهادة الدكتوراه، ما لم يقيم ببحوث علمية في مضامير علمية رفيعة المستوى تثبت قدرته على البحث العلمي. مثله في ذلك كمثل من يتعلم السباحة بمساعدة مدرب، ولكنه لن يصبح سباحاً ما لم يمارس السباحة منفرداً ويثبت قدرته في السباقات الطويلة.

العلم في تطور مستمر، والمعرفة العلمية في تجدد واتساع دائمين، وأساليب البحث ووسائله وطرائقه تتطور بسرعة، ولا بد للعاملين في البحث في الجامعات من مواكبة ذلك. وهناك سبيلان لتحقيق هذا الغرض: أولهما الإيفاد إلى الخارج، وثانيهما استقدام الخبراء إلى الوطن.

من الأهمية بمكان اعتماد مبدأ استمرار التأهيل العلمي لأعضاء الهيئة التدريسية من خلال الزيارات الاطلاعية للجامعات ومراكز الدراسات والبحوث العلمية، وتشجيع تبادل الباحثين واستقدام الخبرات في البحث العلمي لإرساء دعائم هذا البحث في الوطن.

إنَّ اكتساب مهارة البحث العلمي ليست من مسؤولية أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة وحدهم، وإنما تتحمل الجامعة أيضاً القسط الأكبر من المسؤولية في هذا

والوزارات والهيئات والمؤسسات المستفيدة، وخاصة المنتجة منها، كوزارات النفط والثروة المعدنية، والزراعة، والصناعة، والري.... وعلى هذه الوزارات أن تدعم البحوث العلمية الخاصة بها، حتى التي لا حاجة لها بصورة مباشرة، ففائدة النتائج الحاصلة من تلك البحوث ستصب في خزائنها، إن لم يكن عاجلاً فأجلاً.

٢- نقص في التجهيزات المخبرية وإهمال في صيانتها:

يشكو العديد من المخابر في كليات الجامعة من نقص في الأجهزة المخبرية الضرورية للبحث العلمي. وكثيرة هي الأجهزة العاطلة عن العمل في عدد من المخابر الجامعية بسبب الإهمال أو إنعدام الصيانة. فالخبرات الفنية لصيانة الأجهزة المخبرية تكاد تكون معدومة، أو هي معدومة في الواقع. وقد يكون من الأجدى التعاقد مع شركات متخصصة لصيانة الأجهزة المخبرية، وتأمين جاهزيتها للعمل بصورة دائمة، على نحو ما هو قائم في الجامعات والمراكز العلمية في البلدان المتقدمة.

قد لا تسمح الإمكانيات المادية الحالية تأمين بعض التجهيزات المخبرية المعقدة التي يقوم على تشغيلها وصيانتها فنيون ذوو خبرة عالية. ويمكن في هذه الحالة،

المجال، إذ عليها أن تهيئ للأساتذة كامل الأسباب الضرورية لتنمية قدراتهم على البحث العلمي وتوفير المتطلبات الضرورية لهذه الغاية. وهذا هو السبب باعتقادنا في ندرة الباحثين العلميين في الجامعات السورية. فالإنسان السوري مشهود له بالإبداع، وقد برهن منذ فجر التاريخ عن قدراته الإبداعية في بناء الحضارة الإنسانية. وتشهد له بذلك حالياً جامعات ومراكز بحوث علمية أجنبية عالمية يعمل فيها باحثون سوريون في جو تتوافر فيه المستلزمات الضرورية للبحث العلمي.

معوقات العمل في البحث العلمي:

أسباب عديدة تعيق العمل في البحث العلمي، من أهمها:

١- نقص في الميزانية المخصصة

المال هو العصب المحرك لكل نشاط. ومن الصعب تصور بحوث علمية تجري من دون نفقات مالية. إن تخصيص المال اللازم للبحث العلمي يشكل خطوة لا بد منها لبدء هذا البحث ويؤكد جدية العمل من أجله. كما أنه لا بد لتأمين نفقات البحث العلمي، وهي في بعض الأحيان باهظة، من أن تسهم فيها الجهات المستفيدة منه. وهذا يؤكد ضرورة التمويل المشترك للبحوث من الجامعات

الوصول إلى استخدام هذه الأجهزة من خلال اتفاقيات التعاون العلمي مع الجامعات في البلدان المتقدمة، وإيفاد الباحثين السوريين إلى هذه الجامعات لتطوير البحوث التي يقومون بها.

٣- نقص في التواصل العلمي مع

المراكز العلمية العالمية:

الأقسام العلمية تكاد تكون خالية من مكتبة خاصة تضم الكتب والدوريات العلمية العالمية، ومن قاعدة بيانات أو بنك معلومات تؤمن للباحثين الاطلاع على مستجدات البحوث والاكتشافات العلمية. وتنعكس نتائج هذا النقص على المستوى التدريسي الذي يبدو متخلفاً عن أمثاله في بعض الجامعات الأخرى.

ما تزال تدرس في جامعاتنا حتى الآن معلومات دحضتها الحقائق العلمية منذ أكثر من ربع قرن وبعضها منذ أكثر من نصف قرن!... قد يكون بعض السبب عدم وجود الدوريات العلمية في مكتبة الكلية أو مكتبة الجامعة، والتي تحمل المكتشفات المستجدة في البحوث العلمية الحديثة.

على سبيل المثال، يتعلم الطلاب اليوم في جامعاتنا أن الألماس منتشر بكثرة وبكميات كبيرة في عدد من الأماكن في سورية، في جوبات الحافة الشرقية من

جبال السلسلة الساحلية وفي الجبال المحيطة بمنطقة الزبداني تحديداً. ويتعلم الطلاب في جامعاتنا اليوم أيضاً، أن صخور الكربوناتيت المعروفة بغناها الكبير بعنصر اليورانيوم، منتشرة بكثرة في المنطقة الجنوبية من البلاد. أقوال أمثالها الكثير، تزرخ بها بعض الكتب الجامعية. ومن سوء حظنا أن هذا الادعاء غير صحيح، ومن حسن حظنا أن الآخرين لم يصدقوه.

٤- تحفيز الباحثين ومكافأتهم مادياً ومعنوياً:

وفي جامعاتنا، يهدف مرسوم تفرغ أعضاء الهيئة التدريسية المنصوص عنه في قانون تنظيم الجامعات إلى دعم البحث العلمي في هذه الجامعات بالدرجة الأولى. وقد أريد بهذا القانون تحفيز أعضاء الهيئة التدريسية على القيام بالبحث العلمي لقاء تعويض مادي محدد. وكان مطلباً ملحاً من قبل أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعة في الستينيات من القرن الماضي. وهذا الدعم المادي المتميز لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية هو خطوة هامة على الطريق في دعم الجامعة وتطويرها كي تؤدي الغاية المنشودة منها في دعم مؤسسات الدولة، وخاصة دفع مسيرة البحث العلمي إلى الأمام.

بمزيد من التقدير، ما هو قائم في هيئة الطاقة الذرية منذ الثمانينيات من القرن الماضي، حيث يمنح الباحث مكافأة مادية قيمة عن كل بحث يتم نشره في مجلة علمية أجنبية محكمة، وليس في مجلة الهيئة التي تقتصر على نشر ترجمات تلك البحوث.

لا بد من إيجاد الحوافز المناسبة لتشجيع أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات على القيام بالبحث العلمي. وإن وجود الرغبة لدى بعضهم للقيام بالبحث العلمي غير كاف بحد ذاته، إذا لم ترعَ هذه الرغبة وتشجع حتى تتحول إلى عمل جاد ومثمر.

لا بد أن نقدم هنا تحية الإكبار والتقدير للباحثين في الجامعات السورية الذين قاموا بجهود فردية جبارة، وبوسائلهم الخاصة، ببحوث علمية تصدرت أمهات المجلات العلمية العالمية، وهم مع ذلك مغيبون عن المكافأة وعن الجوائز التقديرية المادية والمعنوية التي تمنحها الدولة ذات اليمين وذات الشمال.

٥- افتقار كليات العلوم إلى الطلاب

المبرزين:

من المفيد أن نشير إلى أن البحث العلمي في جامعاتنا شبه مقصور على البحوث التي يجريها طلاب الماجستير والدكتوراه

غير أن هذا الدعم المادي المتميز لأعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات السورية، قد لا يؤدي هدفه إذا لم يقرن بمكافأة البحوث المنجزة. فمن الأهمية بمكان مكافأة الإنتاج العلمي. فما من تأثير كالمكافأة، مادية كانت أو معنوية، على شعور الباحث بالتقدير على عمله، وبتشجيعه على الاستمرار في العمل لتقديم الأفضل. وهذا واجب على الجهات المسؤولة تحقيقه، إذ ليس من العدل أن يستوي الذين يعملون والذين لا يعملون.

إن مكافأة الباحث هي تقدير للنجاح الذي حققه، وهي محرض للقيام بتقديم المزيد من العطاء العلمي. وهي من أهم العوامل في دفع مسيرة البحث العلمي إلى الأمام. فيها تتطلق هذه المسيرة بصورة حثيثة، ومن دونها لا تتقدم خطوة واحدة. وهي بمثابة تعويض عن الجهد المبذول من جهة، وتقدير معنوي للنجاح الذي تحقق. ويدفع الباحث إلى المزيد من المثابرة في التقدم والنجاح. وإذا لم تكافأ البحوث العلمية المنجزة فكل الجهود والنفقات المبذولة في تقدم مسيرة البحث العلمي هي جهود ضائعة غير ذات جدوى.

إن مكافأة الباحث أمر غير معمول به في جامعاتنا مع الأسف الشديد. ونسجل هنا،

الدراسات العليا والبحث العلمي. وقد تكون الحوافز المادية هي الأسرع مردوداً في هذا المجال.

البحث العلمي والتنمية:

يعتبر البعض أن القيام بالبحث العلمي لمجرد البحث هو ترف علمي، وأن على البحوث العلمية أن تكون موجهة. ومع اعتقادنا بإطلاق الحرية الكاملة للقيام بالبحث العلمي، نرى من الواجب أن يكون الاهتمام كبيراً بالبحوث العلمية اللازمة للتنمية، وخاصة لزيادة قدرة البلد الدفاعية.

إن ربط البحث العلمي بالتنمية على درجة كبيرة من الأهمية. وهو بطبيعته الأساس في التنمية والتطوير، إذ من المفيد جداً أن يساهم البحث العلمي في حل المسائل التي تواجه قطاعات الإنتاج في الصناعة والزراعة.. وأن يقدم لهذه القطاعات ثمار إبداعه في تطويرها. إلا أن العمل في تنفيذ هذا التوجه ينبغي أن يتم في إطار من التمعن والدقة في التخطيط، فالارتجال هنا قد يسبب هدر الطاقة وتعطيل مفعولها.

على هذا الأساس، ينبغي دعم البحوث ذات العلاقة الملحة بمشاريع

تحت إشراف أعضاء الهيئة التدريسية. وأن المشكلات التي تعاني منها الدراسات العليا والصعوبات التي تعترضها يتعلق معظمها بالتطبيق العملي أكثر من تعلقه بالنصوص القانونية. وأن العقوبات التي تواجه التطبيق هي في معظمها عقوبات مادية وإدارية.

من هذه العقوبات هو إقبال الطلاب الكبير على متابعة دراستهم في الكليات ذات الطابع المهني مثل كليات الهندسة والطب... الأمر الذي أدى إلى استقطاب هذه الكليات للطلاب ذوي معدلات التحصيل الدراسي العالية، بحيث أضحت كليات العلوم وقفاً على الطلاب ذوي معدلات التحصيل الدراسي المنخفضة.

إن افتقار كليات العلوم إلى الطلاب المبرزين في دراستهم، يعني تعثر سير الدراسة في هذه الكليات، وعدم نجاح الدراسات العليا فيها، وبالتالي عدم إمكان إعداد الأطر العلمية اللازمة في اختصاصات العلوم التي تشكل القاعدة العلمية الأساسية التي لا غنى عنها للتقدم العلمي في سورية.

لذلك لا بد من إيجاد الحوافز التي تضمن إقبال الطلاب المبرزين على متابعة الدراسة في كليات العلوم، لتهيئة القاعدة اللازمة لتأمين الأطر العلمية للمتابعة في

التنمية القائمة، وذلك على غرار ما هو منصوص عليه في مرسوم إحداث الهيئة العليا للبحث العلمي القائمة حالياً في الجمهورية العربية السورية.

وعلى أهمية الدور المناط بالهيئة لدعم الجامعات كي تأخذ دورها في مجال البحث والاكتشاف، ينبغي أن لا يقتصر هذا الدور على التنسيق الذي من دونه يصبح البحث العلمي عرضةً للفوضى ومصدراً للهدر المالي وإضاعة الجهد البشري، بل يتجاوز ذلك إلى التوجيه وترتيب الأولويات وتوزيع المهمات والمسؤوليات.

كما أن العلاقة بين الجامعة وقطاعات الإنتاج ينبغي أن تكون مبنية على أسس تتحقق بموجبها الفائدة المرجوة. فليس على الجامعة مثلاً تحديد احتياجات قطاعات الإنتاج من البحث العلمي، فالمسؤولون عن تلك القطاعات الذين هم أدري باحتياجاتهم من سواهم، هم الذين باستطاعتهم تحديد البحوث العلمية التي يحتاجونها من الجامعة وليس العكس. فالحاجات الملحة في التنمية تحددها الجهات المسؤولة عن قطاعات التنمية دون سواها. وعلى الجامعة أن تعمل قدر المستطاع على تلبية حاجة تلك القطاعات من خلال البحوث العلمية التي تقوم بها.

ويجدر التنويه هنا إلى أنه ينبغي ألا يقتصر عمل أساتذة الجامعة في البحث العلمي بالكامل على المشاريع ذات العلاقة المباشرة بحاجات المجتمع، وذلك لأكثر من سبب:

- لا يجوز التمييز بين مشاريع البحوث العلمية من حيث أهميتها في التنمية. فمشاريع البحوث تؤدي كلها، عاجلاً أم آجلاً، إلى التنمية.

- لا يجوز التمييز والمفاضلة بين مشاريع البحوث العلمية من حيث أهميتها العلمية والعملية، فهذه كلها على سوية واحدة من حيث الأهمية. وما من أحد يستطيع التنبؤ بأفضلية النتائج المتوقعة، أو أن يفاضل بين بحث في الرياضيات وآخر في البيولوجيا أو الكيمياء.. فربّ معادلة مبتكرة في الرياضيات تكون ذات تأثير فعال في تطوير الصناعات الميكانيكية، أو ربّ تفاعل كيميائي جديد ذي فائدة كبيرة في الصناعات الغذائية والدوائية، أو ربّ اكتشاف مستحاثات مجهرية توجه عمليات التنقيب عن مكامن نفطية هامة جداً.

لقد تم رفع شعار: «الجامعة في خدمة المجتمع». وهذا قول حق. والخدمات التي تقدمها جامعاتنا للمجتمع كبيرة جداً. إلا أن من المفيد في هذه المرحلة من النمو

العلمي، ولكي يصبح هذا الشعار واقعاً فاعلاً ومنتجاً، ينبغي أن يقترن به شعار: «والمجتمع في خدمة الجامعة»، يقدم لها الدعم المادي والمعنوي حتى يبلغ البحث العلمي فيها سن الرشد، ويشهد عوده، ويصبح قادراً على تقديم خدماته للمجتمع، ويدعم بجدارة مسيرة التطور والبناء.

التعاون في البحث العلمي:

- على الصعيد العربي:

لا حاجة للتحدث عن أهمية التعاون بين الجامعات ومراكز البحوث العلمية العربية في مجال البحث العلمي، وقد كتب الكثير عن ذلك من قبل اللجان التي أقامتها مؤتمرات الجامعة العربية، والتي لم تبلغ أهدافها مع الأسف الشديد. كما لم تفلح الاجتماعات شبه الدورية لرؤساء الجامعات في الأقطار العربية في تفعيل التعاون فيما بينها على صعيد البحث العلمي.

إن الوسائل المتاحة لدى الجامعات ومراكز البحوث العربية، من كواد علمية وتجهيزات مخبرية ومكتبات حديثة وبنوك معلومات متطورة، تجعل التعاون بين الباحثين العرب يسيراً إذا ما تولى أمره هيئات البحث العلمي حصراً، على نحو ما هو قائم في الدول المتقدمة.

ولما كانت للعلميين العرب مصادر ثقافية علمية متنوعة، فإن الثقافة التي تجمعهم هي العربية. وهنا تبرز الحاجة في تبادل المعلومات وتسهيل التواصل العلمي فيما بينهم، إلى ضرورة العمل الجاد في توحيد المصطلحات العلمية العربية، وهو ما تقوم به حالياً مجامع اللغة العربية، وفي مقدمتها مجمع اللغة العربية في دمشق.

- على الصعيد الأجنبي:

الجامعات ومراكز البحوث العالمية تستقبل بصدر مفتوح الباحثين من مختلف بلدان العالم. وما أكثر الباحثين العرب الذين يعملون في تلك الجامعات والمراكز العلمية. ومن المؤسف أن تكون اتصالات جامعاتنا مع هؤلاء الباحثين معدومة أو شبه معدومة.

إنما علينا أن نعرف أن لاستقبال الباحثين الأجانب في هذه الجامعات خطوطاً حمراً لا يسمح بتجاوزها بالنسبة للاختصاصات العلمية التي تحمل صفة السرية، وتخضع بصرامة لرقابة السلطة. وتعمل الدول الاستعمارية على تحريم وصولها إلى دول العالم الثالث، وخاصة الدول العربية، حتى لو أن استخدامها للأغراض السلمية. وهذا ما حصل بالفعل مع حكومة الجزائر التي عقدت اتفاقية مع الأرجنتين لإقامة مفاعل

- رسم السياسة الوطنية الشاملة للبحث العلمي.

- وضع خطط وبرامج تطوير البحث العلمي.

- وضع موازنة خاصة تهيئ متطلبات العمل بالبحث العلمي.

- وضع نظام متكامل لتحفيز الباحثين مادياً ومعنوياً.

- وضع خطط وبرامج الارتقاء بالمستوى العلمي والتقني للباحثين.

- وضع أسس لتقويم البحوث العلمية تضمن الارتقاء بها إلى المستويات العالمية.

روي عن القائد الفرنسي ليوتي أن قال لبستانيه مرة : «اغرس شجرة غداً».

فقال البستاني: «إنها لن تثمر قبل مئة عام».

فقال ليوتي للبستاني: إذن فاغرسها عصر اليوم».

إنَّ حصاد غلال البحث العلمي وجني ثماره، يقتضينا أن لا يكون موعد التخطيط له غداً بل اليوم.

نووي، حيث نشط اللوبي الصهيوني ومارس الضغط على الولايات المتحدة الأمريكية التي عملت على إلغاء الاتفاقية. وهذا ما جرى أيضاً مع هيئة الطاقة الذرية السورية التي سعت إلى أن تحذو حذو الجزائر مع الأرجنتين، وقد حققت خطوات في هذا الاتجاه، ولكن سرعان ما أغلق الباب في وجهها للأسباب ذاتها.

إذا كنا نعلم أن الأرجنتين هي من الدول المتطورة جداً في مجال العلوم النووية، فإن الواجب القومي يدعونا إلى السعي في هذا المجال، باستقطاب الجالية السورية في الأرجنتين التي تعد أكثر من ثلاثة ملايين سوري مهاجر، تبوأ عدد منهم مراكز هامة في العلم والاقتصاد والسياسة، وبلغ أحدهم سدة الرئاسة في الأرجنتين منذ عهد قريب.

وفي الختام، لا بد من التأكيد على الأسس الكفيلة بدعم البحث العلمي الذي هو الأساس الذي لا غنى عنه في أي مسعى تتشده الأمم في مسيرتها نحو التقدم والرفق. وهذه الأسس هي:





سراج الأعمى



ساجدة الموسوي



خذْ قلبيّ علّقهُ على باب الخوف تميمةً
فإنّ استوحشتَ فأوقدهُ سراجاً
واقرا آيات الرحمن، ستهبط أجنحةُ الأمن عليك
ويزول الخوف
يا من سلبتكَ الحربُ قرارك
وبنفسجةً نشوى فوق قميص نهارك
مجنونٌ ذنّبُ الحرب

أدبية وشاعرة من العراق الشقيّة. ❁

فلا تطعمه صفارك
 لا تركب طوفان الهجرة، قد تغرق
 وامسك دارك
 ستعائبك الدار إذا تركت، وتحنُّ لرؤية أطفالك
 أو تنسى ما قالت أمك، «من يترك داره سيقبل مقداره»
 ستهيم من الخوف على وجهك
 وتضيع كالأعمى دربك
 أين.. وأين ستمضي
 وتشدُّ رحالك؟
 للغرب؟ ...
 وتُسمى أيًّا كنت «مهاجر»
 وستُملَى كل شروط التوطين عليك
 وإذا خالفت بقدر قلامة ظفرك
 سيكون قرار الحكم جلياً: «غادر»
 وإن استمرأت الغربة والوحشة والظرف القاهر
 ستموت وحيداً
 حتى قبرك تأكله الأمطار ويُمحي
 وسيُمحي ذكرك من كل سجل
 أو خاطر...
 أين تهاجر؟
 للغرب...
 وصفارك سوف تضيع هويتهم
 وسينسون اللغة الأم...
 ويضيع عليهم درب الخال ودرب العم
 بين الفهم وسوء الفهم
 سوف ترى ما يعجز عنه الوصف

من خوفٍ ليس من الحرب أو الموت
بل من أن تفقد في تيهور الغربة أبناءك
من هذي الساعة ففكر
واستبصر
لا تك أعمى
فيضيع عليك الدرب وتشقى
أين ستمضي
أجلس في دارك
واحفظ «مقدارك»
رب كلام في الغربة يطرق سمعك
فيكون كما الخنجر في قلبك
الوطن الأم نعيمٌ حتى لو جارَ عليك
والغربة لو كانت فردوساً
ستظل جحيماً يأخذ منك
ولا يعطيك



الجواد - لذكرى الرضوان عماداً وجهاداً -



محمد حمدان

وبكى الحصانُ عليَّ حين سقطتُ عن سرجِ الحصان
إِلْهانٍ منذ النخلة الأولى لى على درب الزمانِ
عَلِقْتُ بفتنته شباكي مثلما نهلِ افتناني
قلقٌ، عصيٌّ، جامحٌ أدرى بطقسي من بياني
فأنا الحصان إذا كبا وإذا كبوتُ غدا جَناني



كنا، وهل كنا سوى عطش الدواة إلى المعاني
فمتى سيغسل فجرنا تعبَ المراكب والمواني؟

✽ أديب وشاعر سوري.

في ذكرى استشهاد عماد مغنية.

ومستى سيغدو شعرنا
بحري سنبأله يداي
عقدأ على جيد الحسان؟
وضفتاه فراشتان



ومتى؟ أكاد أغص
فلقد قرأت بدمعك الحا
لكنني ما زلت ألمح
حين الردى يدنو سـ
قلبي شهيد العشيق،
تحتبس العبارة في لساني
ني على جرحي أواني
في شموخك عنفواني
تبقى محماتك ترجماني
بعض العشق يكتب باللسان



يا أهل! دمع الشهم يا
لي عندكم وطن؛ صهيـ
ولكم غدي، مسك الجها
سو ما شجاه وما شجاني
ل الأرض يعبق بالأمان
ت دمي، وعرشي غيمتان



أيضيغ من حملته قا
من هودج النجوى إلى
في كل ليل من ليا
سفر مطيته البراق
نهض الشغاف إلى أحبته
وعلى بساط من ربا الأ
فلة الصباح إلى العنان؟
أبد الشقائق مهرجاني
لي الشوق يسطع فرقدان
وروحه سبع المثاني
فرقت قمتان
حلام تورق نجمتان



خف شكاتك يقتضي
حسب الغزالة أن دمعك
جسر الصبابة أن نعاني
كان أول من رثاني

أَمْضِي وَفِي عَظْفِي ذَكَرِي صَهْوَةً، عُرْفِي، عِنَانِ
 فَاصْبِرْ عَلَى شَغْضِي إِلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ الْأَصْغَرَانِ
 وَارْمَحْ، فَلِيلُ الْجَمْرِ وَالْغَضَبُ الْمَجْنَحُ تَوْءَمَانِ
 غَضَبٌ نَبِيلُ الْهَمِّ أَسْبَقُ فِي الرِّهَانِ مِنَ الرِّهَانِ
 وَإِلَيْهِ تَوَاقِيْنَ يَزْدَلِفُونَ مَنْ قَاصٍ وَدَانِ
 يَا صَاحِبَ نَهْرِ الصَّمْتِ مَرَبِّدْ وَوَجْهَ الشَّمْسِ قَانِ
 مِنْ جَلَنَارِ الْوَعْدِ مَهْجُتُنَا، وَمِنْهَا الْأَسْمَرَانِ
 كُنْ يَا مَلِيكَ الرِّيحِ قَا فَيَتِي إِذَا افْتَقَدُوا طَعَانِي
 (هِيَهَاتَ مِنَّا الذَّل) يَا عَلِيَاءُ فِي الْحَرْبِ الْعَوَانِ
 هِيَ خَطْوَةٌ - وَيَعَانِقُونَ مَزَارَهُمْ - أَوْ خَطُوتَانِ
 وَأَعُودُ مِنْ سَفْزِي إِلَيْكَ مَوْشَحًا بِالْأَرْجَوَانِ



مَا مَاتَ مِنْ كَانَتْ إِمَار تَهُ مَكَانَكَ أَوْ مَكَانِي





قَطْع غيار لكبار السن



نجيب كيالي



ظَهَرُ أَبِي خلدون، رقبته، ركبته، كلُّها
تؤلِّمه في وقت واحد!

صار جسمه السبعيني آلةً موسيقية
ينطلق منها صوت واحد هو: آخ!

حالة قلبه هي الأسوأ، هذا المحترم
انسَدَّتْ أكثر شرايينه، انتفَخَ وتضخم
حتى بات أبو خلدون يتصوره تارةً بحجم
قرنبيطة، وتارةً كبالون طفل منفوخ أكثر من
اللازم.

أمام الوضع المتدهور أخذ الرجل
العجوز يتابع بعض البرامج الطبية في
التلفزيون، أدوية كالسحر ستنزّل قريباً إلى

✻ أديب وقاص سوري.

العمل الفني: الفنان علي الكفري.

بدأ الناس يتجمعون للفرجة على
المظاهرة، ومَنْ لم ينزل من بيته إلى الشارع
مدَّ رأسه ونصف جسمه من النافذة.

مع زيادة المتفرجين زادت حماسة
الشيوخ المتظاهرين، فأخذوا يهتفون بقوة
مؤكدين طلباتهم، ثم صمتوا ورفع أحدهم
صوته وكأنه يغني:

(طلّع.. طلّع في الختياز/ في عيونو مية حكاية
يا شب الزمن دواز/ بيرمي طيور معلاي)

وصل الموكب إلى الميدان الكبير في
المدينة، فأطلق الشيوخ من مناخيرهم وفي
لحظة واحدة صوت (خن.ن.ن) أي إنهم
بدووا ينفذون تهديداتهم.

بعد الخنخنة أرسلوا في الجو عنياناً
طويلاً، ثم وحّدوا حلوّهم في وصلة
سعال عجيبه جعلت الناس يمسكون
رؤوسهم!

ظهر عندئذ رجل وقور من متوسطي
الأعمار، تقدّم نحو المظاهرة وخلفه شاب
يحمل دفترًا، قال:

- مهلاً أيها الشيوخ الأعزاء.. أنا
مندوب أهل المدينة، جئت لأتفاوض
معكم. لا توجد في مستودعاتنا- مع
الأسف- قطع غيار كافية لكل ما ترغبون
في تبديله من أجسامكم، لكننا لن نردكم
خائبين سنعطي كلّ شيخ منكم قطعة غيار

الأسواق، عمليات جراحية مبتكرة ستعيد
الشيخ إلى صباه!

وذات ليلة بعد أن أخذ دواء القلب، وضع
رأسه على المخدة بجوار تلة من اللحم
والشحم هي زوجته، مرّ النوم على عينيه،
فراى في الحلم أمراً عجيباً..

كان مشتركاً في مظاهرة، كلّ مَنْ فيها
شيوخ من أمثاله، حدود أكثرهم ناشفة،
مُخفّسة، ملتصقة ببدايات أسنانهم! قاماتهم
مائلة كأغصان شجر مكسورة، واللهات من
كل حذب وصوب!

قام هؤلاء بمظاهرتهم بعد أن علموا
بأن الطب تقدّم إلى حد كبير في مدينتهم،
وتوافرت قطع غيار للبشر، لكنّ أحداً
لا يفكر في تقديمها إليهم.

فوق الرؤوس الشائبة والصلعاء ارتفعت
لافتات كثيرة، عليها عبارات متنوعة:

- ذهبّت صحتنا، لكننا أحياء.
- نريد عيوناً جديدة لنرى الطريق.
- نريد آذاناً جديدة لنسمع زقزقة
العصافير.

- اعطونا سيقاناً لنركض ونرقص مع
الصبايا.

- يا أهل بلدنا إذا لم تساعدونا سنجلس وراء
مكبرات الصوت نئن ونتأوه ونخنخن بأصواتنا
ونمط سعالنا حتى نحرمكم من الراحة.

واحدة يدبّر نفسه بها، عين جديدة مثلاً
أو عمود فقري أو ركة. هيا سجلوا ما
تريدونه عند الشاب الذي يحمل الدفتر
من ورائي.

تردد الشيوخ في قبول العرض لحظات
قليلة، تبادلوا خلالها النظرات، ثم وافقوا،
فبدأت عملية التسجيل.

كان الشاب الذي يقوم بذلك خفيف
الظل، فحين يتلقى الطلب من أحدهم يرفع
صوته وهو يكتبه على الدفتر..

(أنف لأبي سمير)

(رقة طويلة للعم يوسف)

(بطة ساق للخال محمود)

(شعر لصلعة السيد فؤاد)

وصل الدور إلى أبي خلدون، فسأله
الشاب:

- وأنت ماذا تريد يا عم؟ اطلب وتمنّ.
أشار أبو خلدون إلى صدره قائلاً:

- قلب. يلزمني قلب. هذا الذي في
صدري صار في حالة يرثى لها.

صاح الشاب وهو يسجل:

- قلب من أحسن نوع للعم أبي خلدون.
استدار أبو خلدون، مشى خطوة واحدة،
لكنه رجّع وعصفور القلق ينقر عينيه:

- اشطب.. اشطب أرجوك. أنا لا أريد
قلباً، لا أريد أي شيء.

طار حاجبا الشاب إلى فوق أو طيرهما
هو بأسلوبه الخفيف الظل، سأل:

- ما الحكاية يا عمنا؟ لماذا لم تعد
تريد القلب؟ هل تظن أننا- لا سمح الله-
سنعطيك قلباً له أذين واحد؟ أو قلباً سبق
استعماله من (البالة الطيبة)؟ والله لن
أشطب إلا إذا عرفت منك السبب.

بلغ الرجل الكبير ريقه، قال:

- قد لا تفهم ما سأقوله يا ولدي.. بيني
وبين قلبي القديم عشرة طويلة. صحيح أنه
تالف مهترئ، لكنه حنون حساس، يجعلني
مثلاً أسلطن على أغاني أيام زمان عند
محمد عبد المطلب وأم كلثوم، يجعلني
أملاً الأنف ولا أشبع برائحة حارتي على
الرغم من عيوبها وعيوب أهلها، والأهم
أنه يساعدني على تحمّل أكبر بلوة في
حياتي: زوجتي المصونة أم خلدون. آه لو
رأيت منظرها. إنها دبة حقيقية، ولسانها
ألعن من شكلها! بهذا القديم المهترئ
أصبر أيضاً على الأقرباء الأعداء.. أعني
أولادي وزوجاتهم. إنهم يسرقوني وعيوني
مفتحة، ولا يعجبهم أن أصرف ولو قرشاً
واحداً على نفسي! تصوّر أنهم ينزعجون
إذا ذهبْتُ إلى الطبيب أو اشتريت دواءً
للقلب الذي أحملهم به! لأن الدواء قد
يؤخر ما يتمنونه لي وهو أن يقوم السيد

عزرائيل بزيارتي، ومع هذا كلّه أَفْتَح باب
بيتي لهؤلاء، ويضحك سني لهم أحياناً. أيُّ
قلب جديد يفعل هذا؟ أيُّ قلب؟!

كرجت دمعاً من عين أبي خلدون،
والتصقت لحظة بقرنة أنفه، فأسرع الشاب
يقول:

- اطمئن يا عم.. لن تتغير ذرة من
مشاعرك مع القلب الجديد، فالعلم له
رأي قاطع في هذه المسألة: عواطف الناس
مكانها في رؤوسهم لا في قلوبهم.

لم يطمئن أبو خلدون، بل ابتعد واضعاً
يده على صدره، وكأنه يخاف أن يأخذوا
قلبه رغماً عنه، أخذ يركض ويلهث، ومع
لهائه انتفض واستيقظ.

ألقى نظرة على ما حوله، فرأى بجواره
تلة اللحم والشحم قد دفعته إلى طرف
السريـر حتى كاد يسقط على الأرض!
وسمعها تشخر شخيراً عجباً، فتمتم: رباه
ما أغبانني.. كان يجب أن أقبل بالقلب
الجديد لعله يريحني منها.





الوجه الآخر



باسم عبـدو



المرأة الوحيدة في البيت ثَبَّتْهَا منذ
عقدين فوق المغسلة وجهها يشبه وجهي
لكنَّ مساحتها أكبر.. الفرق بين وجهينا
أنها على شكل مربّع، أمّا وجهي فلم يتغير
منذ ولادتي، وحافظ على شكله البيضوي
القريب من شكل الأرض.

وعلى الرغم من الغبش الذي يتوزّع
على سطحها إلا أنها كانت صادقة، فهي
تُظهر لي عدد التجاعيد وبقايا ندب
الجذري، الموزّعة على كتفي خدّي وفوق
الغمازتين الهرمتين، وأنف متواضع في

✻ أديب وكاتب.

حجمه ونعومته يطلُّ عليهما من نافذتين صغيرتين.

كنت في كل صباح ومثل جميع الناس أراقب حالات الحزن والفرح، وكل التغيرات اليومية التي تظهر على البشرة السمراء، وأنا أحلق ذقني الكثيفة وشعرها الإبري القاسي، بشفرة جديدة، ساحرة، حادة، تركها والدي على رفّ المغسلة قبل أن يرحل..!

لم أكن بحاجة لمن يخبرني عمّا يجري في المدينة، فعندما أعود من عملي في المساء، وقبل أن أتناول الطعام، ألقى نظرة تأملية على سطح المرأة، فتظهر تضاريس وجهي بكهولته وبقايا ملامح شابة تختفي بين التجاعيد، وخريطة المدينة تهبط مثل مظلة من ذاكرتي على سطح المرأة، فتظهر الشوارع والأبنية والياфطات الملونة بالشعارات والبرلمان والوزارات والمؤسسات الحكومية والحدائق والفنادق المخمسة النجوم.

وتزدحم المرأة بالصور والكثير من التشوهات الحاصلة في تاريخ المدينة، وما بقي من اللافتات التي تركتها الرياح شواهد للأجيال، كي يعرفوا المزيّفين وجبرهم الفاسد وما في بطون أقلامهم.

يزداد عذاب روحي أكاد أختق أشعر أن رتقي التحمّتا وتحولتا إلى قطعة من حديد أتعذب وأنا أفكر بعمق وأبحث عن ما هو موجود وراء المرأة وكيف يأتي الفجر ويفتح نوره ممراً للنهار. أرى صورتي تمتلئ بالحفر والندب والتجاعيد تغطّيها بقايا دموع جففتها حرارة النسيان وكيف أن مسامات بشرتي أغلقت وتفحّم لون وجهي كل هذا يدعوني إلى الإحجام عن معرفة الحقيقة وتجاهل ما يجري من موبقات، وما يجري خارج هذا المكان حيث أنني لم أعد أهتمّ بوجوه الجيران وسكان الحي، بعد أن سقط ربما حجر عليها فتحطّمت وتناثرت نتفاً صغيرة، ولم أعد أرى وجهي منذ ذلك التاريخ، وغابت صورته وكأنّ وجهاً بديلاً حلّ مكانه..!

كانت التهمة لابن الجيران المشاغب في غير مكانها، لأنني وجدتُ شظية من قذيفة مثليّة الشكل لها أنياب حادة عندئذ بدأت أتلّمس وجهي ربما قَطّعت الشظية جزءاً منه وتضاحكت زوجتي من كثرة هوسي ووسواسي وحساباتي الخاطئة، ومن الخطأ الفاحش الذي ارتكبته الحاسة السادسة عندئذ أشارت زوجتي إلى صورتي في جوالها وبدا وجهي كما عرفته من قبل.

وعلى الرغم من تحذير الأطباء إلا أنني استمررتُ في فضح ما يجري على سطح المرأة وكشف ما يجري على سطح الوجه الآخر وتحت جلده.

لقد علّمتني المرأة دروساً كثيرة، لكنني حينما فقدت عيني رددتُ عبارتي المشهورة: (عين واحدة لا تكفي لرؤية العالم). أصبحتُ أغضب بسرعة وأثور بسرعة في وجه زوجتي التي تنسى أنني فقدت البصر من عيني، وعندما كانت تقف أمام عيني السليمة كحائط تمنع الأكسجين عني ولم أعد أرى أحداً!

كنت أقرأ بنهم أوراق نعي الأموات الملصقة على الجدران، وفي اللوحات المعلقة على مداخل وأبواب الجوامع والكنائس والمدارس وأراقب الابتسامات المموهة بحزن مغسول بالحياء، وملامح الفرج بادية بوضوح على وجوه تجار التوابيت والأكفان.

ظل وجه المرأة التي أحبها راسخاً في ذاكرتي، هي رفيقة مخلصّة طيلة سنوات القحط والخير، لكنها استشهدت بسبب شظية وما زلت حتى اليوم وفي كل صباح أستعيد من ذاكرتي تلك العلاقة التي توطدت بيننا لقد كانت خسارتي كبيرة انطفأ نور

الصور اليومية التي أراها بالعين المجردة في الساحات، وبقايا اللحم المتشبث بالجدران، والأيدي المقطوعة، والأحذية المتناثرة، وبقع دماء الضحايا، وجثث الأبرياء والرؤوس المفصولة عن أجساد أصحابها، وكيف تعضّ الأسنان على الألسنة، والأفواه الفاعرة، والبطون المبقورة والأمعاء المثقوبة.

لم تعد ذاكرتي تتسع لتخزين ما يجري في البلاد من مأس ورتائل، ومن تشوهات في الأعضاء والأفكار وعلى الرغم من تعدد المرايا التي تثبتّها على أربعة جدران صالحة لعكس ملامح وجهي، والوجه الآخر، الذي يخزن تحت جلده الموبقات والشرور والقاذورات المهرّبة، فالتهمتُ مكيال الصبر على الرغم من مضاعفة سعره مئة مرّة، وتجرّعتُ مأساة عدم الرؤية حينما فقدتُ عيني بشظية بحجم الدبوس.

ارتفعت نسبة العذاب وجفّ آخر نبع للدموع وتهدّمت عمارات وعشش النمل الطيّر في بيوت الفقراء وكثر الجراد الأشقر والأسمر وما يطلق عليه عشرات التسميات في ربوع البلاد.

ولم تعد أعصابي تتحمّل غليان الدماء، وتضاعف عدد نبضات قلبي،

ودماء متجمّدة وصور لأحباء سقطوا شهداء
أما ذاكرتي فلن تصاب بالوهن ظلت تجمع
خيوط الأخبار وتصنع منها تاريخاً مجيداً
وصفحات من الفرح والحزن والأمل وذاكرة
تحافظ على الطقوس والتراث وتبخر
للسمس..!

عيني وتحطمت صديقتي المرأة التي ورثتها
من أبي وبقيت عين وحيدة صامدة تحدّق
في هذا المكان وفي هذه المساحة الصغيرة
وقد تجمّعت في قاع ذاكرتي حكايات وتاريخ
يصرخ من شدة الألم طوال السنوات الخمس
قبل الرحيل وفي خزانها صديد جروح



هل كانت الموسيقى رابع العلوم الأساسية اللازمة لفهم الكون عند اليونان .. أم كانت، بالنتيجة، غايتها ومنتهاها؟

د. سعد الله آغا القلعة



في زمن الإغريق، اعتمد الفلاسفة علوماً أربعة أساسية، تشكل بتكاملها الخلفية المرجعية لأي فيلسوف، يسعى لتفسير الكون، ومظاهر الحياة، وفهم آلية تأثيرها على الإنسان. وقد لا يفاجأ أي منا إن عَلمَ بأن الحساب والهندسة والفلك، هي ثلاثة من تلك العلوم الأربعة، إلا أن العلم الرابع لا شك سيفاجئ الكثيرين، لأنه كان: الموسيقى!!

✽ باحث في الموسيقى وأستاذ جامعي ووزير سابق للسياحة.

وهنا قد تطرح الأسئلة التالية:

١- ما هو المُشترك بين العلوم الأساسية

الثلاثة الأولى؟ وما علاقتها بالموسيقى؟

٢- هل لهذه العلوم من ترتيب على

الفيلسوف اتباعه أثناء دراسته لها؟ وفي أي

مرحلة يدرس الفيلسوف الموسيقى؟

٣- ماذا عن فلاسفة العرب الذين

اعتمدوا الفلسفة الإغريقية، ومع أي

موسيقى تعاملوا؟

٤- هل بقي لهذه التوجهات من أساس

اليوم؟

ما هو المشترك بين العلوم الأساسية

الثلاثة الأولى؟ وما علاقتها بالموسيقى؟

تُبَيِّن نظرة سريعة إلى العلوم الثلاثة

الأولى: الحساب والهندسة والفلك، أنها

تتشترك في اعتمادها على الرياضيات،

المعتمدة على الأعداد في بنائها،

فالحساب، أي الرياضيات في المسمى

الشائع حالياً، هو العلم المجرد الأول،

ومنه يتم الانطلاق إلى فهم الهندسة،

وهي تجسيد مباشر للرياضيات

المجردة في الحياة المادية للبشر،

إذ يصمم المهندسون المنشآت وفقاً

لعلاقات رياضية.

أمّا علم الفلك، فهو التجسيد المباشر

للرياضيات والهندسة، في السعي لفهم

تصميم وهندسة الكون، كما أبدعه الخالق

عزّ وجل.

فلنأت الآن إلى الموسيقى: بماذا

تتشترك مع العلوم الأساسية؟ ولماذا ضُمت

إلى هذه الباقية؟ ما يقود إلى أسئلة أخرى:

ما هو تعريف الموسيقى؟ ما الذي يجعلنا

نقول على مجموعة معينة من الأصوات

المتلاحقة أنها موسيقى، بينما لا نُعرّف

مجموعة أخرى من الأصوات على أنها

كذلك؟ كيف تؤثر الموسيقى على مشاعرنا

وأفكارنا؟ ما الذي نقصده عندما نقول أن

مقطوعة موسيقية ما «حزينة» أو «فرحة»

أو «عاطفية»؟

في الواقع، لما كان الصوت عبارة عن

موجة اهتزازية تُعرّف بتردداتها، وبالتالي

فإن دراسة الموسيقى علمياً، هي دراسة

رياضية للعلاقات بين هذه الترددات التي

تصدرها الآلات الموسيقية، أساسها

الأعداد أيضاً. وإن استطعنا وضع تعريف

رياضي للعلاقة بين الأصوات المنسجمة أو

المريحة المشكّلة للألحان، أمام الأصوات

المزعجة والمنفرة، فإننا سنستطيع

معرفة كيف تكون هذه التراكيب مريحة

وملذة للأذن، ولكننا سنكون أيضاً قد

عَرَفْنَا، لماذا أدخل اليونانيون الموسيقى

في إطار العلوم الأربعة الأساسية اللازمة

لفهم الكون، خاصة إن فَهَمْنَا أن الفلاسفة نظروا، في حينه، إلى الكون نفسه، كما الموسيقى، على أنه مبني على علاقات رياضية وأعداد.

في الموسيقى

عرف الإنسان الموسيقى منذ زمن طويل، لكن النظرة العلمية للموسيقى، والعلاقة بين الأصوات الموسيقية، لم تأت إلا في مرحلة متأخرة. من المتوقع أن الأفكار الأولى، كانت تستند إلى الملاحظة المجردة، بأن الصوت الصادر عن النقر على الأوتار، كان يختلف عند اختلاف طول الوتر المصنوع من مادة متماثلة، أو عند اختلاف قوة شدة... وأن التطبيقات الأولى كانت تعتمد ضبط الأصوات المنسجمة في إطار ذوقي، ولكن التاريخ وثَّق لفيثاغورث أنه كان الأول في التعامل مع الموسيقى في أسلوب علمي خالص، ولاشك في أنه كانت لديه دواعيه لذلك.

فيثاغورث والموسيقى

كان فيثاغورث (٥٧٠ - ٤٩٥ ق.م)، قد اعتمد مبدأ أن الكون جميل ومنسجم، تحكم مكوناته الأعداد، ونسب منسجمة بينها، ووجد في الموسيقى، بما لها من تأثير طاغٍ

على الإنسان، التجسيد المباشر والملموس لنظريته. كانت البداية عندما استطاع وضع الأسس الأولى لدراسة الموسيقى بطريقة علمية، من خلال توصله إلى تحديد نسب أطوال الأوتار التي تُصدر بالنقر عليها أصواتاً منسجمة.

لاحظ فيثاغورث أن تقصير طول الوتر ينتج صوتاً جديداً مختلفاً عن الصوت الذي ينتج لدى النقر على الوتر ذاته حراً. وأنه كلما كانت نسبة تقصير الوتر نسبة بسيطة، كلما كان الصوت الجديد منسجماً مع الصوت الأصلي الناتج عن نقر الوتر بطوله الأصلي. وكلما تعقدت النسب كلما كانت الأصوات مزعجة وغير متألّفة مع الصوت الأصلي، وفيما بينها. وفي الواقع فإن نسب إصدار الأصوات الموسيقية الرئيسية للسلم الموسيقي السباعي ترتبط فقط بالنسبة $3/2$:

دو-١: (١) - ري: $(2/3)^2$ - مي: $(2/3)^3$ ؛
- فا: $(3/2)$ - صول: $(2/3)$ - لا: $(2/3)^2$
- سي: $(2/3)^0$ - دو-٢: ٢.

ما يعني أن الأصوات الموسيقية المرتصفة في جمل لحنية، والجمال الناجم عنها، هي نتيجة لنظام متجانس، أساسه نسبٌ لأطوال الأوتار، يعبر عنها بنسب بسيطة. بنى فيثاغورث نظريته

الأصوات الموسيقية السبعة والسلم

السباعي بين الشرق واليونان..

لا شك في أن الشرق عرف السلم السباعي قبل اليونانيين، إذ أثبتت لويحة أوغاريت، المكتشفة في رأس شمرا قرب اللاذقية في سورية، والتي تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد، أن منشأ كان شرقياً وأنه ولد في منطقة ما بين النهرين، بل إنني أرى أن الكثير من عناصر هذه الحزمة من الأفكار اليونانية، كانت معروفة عند السومريين والأكاديين والآراميين والبابليين والمصريين القدماء، سواء في ضبط الأصوات الموسيقية المنسجمة في إطار ذوقي، عبر شد الأوتار، أو محاولة ربط الأصوات بالنظام الستيني عند السومريين، أو في الدراسات الفلكية عند البابليين. ولكن اليونانيين اعتمدوا تقصير أطوال الأوتار بنسب عديدة محددة، لإصدار أصوات موسيقية منسجمة، ولاحظوا أن تلك النسب تكون بين أعداد بسيطة، ثم عمموا الفكرة لجعل الكون تتحرك كواكبه في مدارات تباعداتها نسب بسيطة أيضاً، وبالتالي تصدر موسيقى منسجمة. ما يجعل الإضافة اليونانية تتمثل في تشكيل حزمة متكاملة من العناصر التي تضم الكون

على هذا الأساس، ثم عممها على الكون. اهتم فيثاغورث بالموسيقى لأنها موجودة فيزيائياً أمامه، كمجسد للكون البعيد، وبعد أن توصل إلى استنتاج العلاقات الرياضية المجسدة للجمال الموسيقي، كما رأينا، فقد حاول تعميم مفهوم التناغم الموسيقي على الكون برمته. مشابهاً بين الموسيقى والكون. بالنسبة لفيثاغورث، الأرض مركز الكون، وتدور حولها الشمس والقمر والكواكب والنجوم، وفق مدارات، نسبة أقطارها، نسب بسيطة وجميلة، وتنتج بالتالي موسيقى كونية جميلة، لأن هذه النسب مماثلة للنسب الرياضية التي تحكم إنتاج الأصوات الموسيقية المنسجمة، وقد سمى التركيب الناتج: موسيقى الكواكب المنسجمة، مستفيداً من كون الأصوات الموسيقية في السلم الموسيقي سبعة، وأن الكواكب التي كانت معروفة في زمانه كانت أيضاً سبعة.. طبعاً هذه «الموسيقى» لا يمكن أن تكون مسموعة حرفياً، ولكن المقصود هو مفهوم التوافق والانسجام بين تلك الأصوات المتخيلة، على الرغم من فيثاغورث ادّعى بأنه كان يسمعها!

بمكوناته الفلكية والإنسانية، استناداً إلى علاقات رياضية تربط بين المكونات، وتجسد الجمال والانسجام.

كان هذا عملاً فكرياً يونانياً، لأن الأعداد عندهم كانت أكثر من مجرد وسائل مساعدة، لقد كانت في نظرهم الأساس الذي قام عليه الكون ما جعلها أساس دراستهم في شتى المجالات. ولما كانت الموسيقى هي المجال الوحيد الذي كان له تطبيق جمالي ملموس لتلك العلاقات الرياضية المجسدة للجمال والانسجام، فقد كان لابد من أن تُضم الموسيقى إلى العلوم الأساسية الأربعة، إن لم تكن قد أصبحت بالنسبة لهم الأهم بينها، لأنها كانت التجسيد الأهم والمباشر والملموس للجمال من جهة، والكون، من جهة أخرى.

هل لهذه العلوم الأربعة من ترتيب كان على الفيلسوف اتباعه أثناء دراسته لها؟ وفي أي مرحلة يدرس الفيلسوف الموسيقى؟

أعتقد أن هناك ترتيباً خفياً لدراسة العلوم الأربعة الأساسية، ألمحت إليه فيما كتبت أعلاه، فالحساب يأتي أولاً، ثم الهندسة، فالفلك. فمتى تأتي مرحلة دراسة الموسيقى؟ في رأيي: أتت دراسة

الموسيقى بعد دراسة الفلك دراسة غير مكتملة، لصعوبة تلمس تفاصيله عن بعد، ومن هنا أتت المشابهة بين الكون والموسيقى لتحل المعضلة، ولتجعل الموسيقى التطبيق الملموس للكون. كما رأينا، ثم كانت بعد ذلك عودة إلى الفلك، لدراسة الكون والعلاقة بين كواكبه دراسة أعمق، ثم كان لابد من العودة إلى الموسيقى لفهم تأثيرها العميق على الإنسان، ومنذ اللحظات الأولى لولادته. فهي مجردة، لا ترتبط بكلمة أو بمادة ملموسة، كما هو حال الهندسة والفلك، كما أنها تتفرد، أيضاً، ومن خلال تأثيرها على المزاج الإنساني، بارتباطها بالزمن، أي بحركة الكون، ويجعل من الضروري أن يبدأ الفيلسوف دراسته للفلك، ثم ينتقل إلى الدراسة الرياضية للموسيقى، ليعود إلى دراسة الكون وحركته في هذا الإطار مجدداً، ليعود أخيراً للسعي لإسقاط كل هذا على المزاج الإنساني. ما يقوده إلى ضرورة أن يدرس الموسيقى بعد أن يتقن العلوم الثلاثة الأساسية الأولى. ثم أن يعود إليها. في تمثيلها للكون. رياضياً. وللمزاج الإنساني. على الأرض.

طبعاً. اليونانيون تطرقوا لاحقاً إلى تأثيرات الموسيقى المختلفة على

الإنسان، من دون أن يربطوا بينها وبين العلاقات الرياضية المستنتجة بوضوح، على الرغم من وجود علاقة بينهما في رأيي، فأنت عندما تستمع إلى صوت واحد، تتلقى طاقة يستقبلها الدماغ برد فعل معين واستجابة إيجابية، فإذا أتبع الصوت بصوت آخر منسجم معه، فالطاقة الجديدة ستعمق الاستجابة وتهدئ الأعصاب، بانتظار الصوت التالي، لكي تبدأ الاستجابة في تفرعات فرحة أو حزينة أو عاطفية، حسب العلاقة بين الأصوات الموسيقية، والنسب الجمالية الفرعية التي تحكم تتاليها، فيما يسمى المقامات الموسيقية، خاصة إن ترافقت بإيقاع ملائم، أما إن كان الصوت ناشزاً، ناجماً عن نسب رياضية معقدة، فإنه يصدر طاقة سلبية، ستؤثر سلباً على الاستجابة في الدماغ. وقد تثير الأعصاب وتسبب الضيق، مثلما تضيق النفس لدى الاستماع إلى نبضات إيقاعية غير منتظمة. إذن. يبقى الانتظام أساس الاستجابة الإيجابية، والانتظام أساسه الأعداد والنسب فيما بينها. ما يجعل المبدأ الذي قامت عليه أفكار القدماء صالحاً حتى اليوم.

ماذا عن فلاسفة العرب الذين اعتمدوا الفلسفة الإغريقية، ومع أي موسيقى تعاملوا؟

درس علماء العرب الفلسفة الإغريقية، انطلقوا منها، وشرحوها، ثم طوروها، وأضافوا كثيراً في الحساب والفلك والهندسة.. ولكن مشكلتهم، لدى مواجهة الموسيقى، كانت في أنهم لا يستطيعون فعل الشيء ذاته معها. فالحساب والهندسة والفلك، علوم لا تختلف باختلاف الشعوب. أساسياتها واحدة، وبالتالي كان الانطلاق من أساسيات إغريقية أو حتى بابلية أو هندية، ومن ثم شرحها وتطويرها، ممكناً.

أما في الموسيقى، فكل شعب موسيقاه ومزاجه. من هنا كانت دراسات الفلاسفة العرب في الموسيقى العربية، أصيلة بالكامل، صحيح أنها استندت إلى دراسات الإغريق في الموسيقى، التي تُرجمت وُشُرحَت، ولكن مسارات التطوير اتجهت، وبعد امتلاك الفلاسفة العرب، لأدوات العلوم الأساسية الثلاثة الأولى، إلى دراسة أساسيات الموسيقى العربية ذاتها، لحناً وإيقاعاً ومقامات وآلات موسيقية، باستخدام الأدوات المعرفية المحققة، من خلال دراستهم

لأساسيات الموسيقى الإغريقية، ومن ثم السعي لفهم ارتباط عناصر الموسيقى العربية الهندسية، المختلفة عن العناصر اليونانية، بالعلوم الثلاثة الأولى، وخاصة الفلك، في علاقة جدلية جديدة، بين الفلك والموسيقى، غير متطابقة مع النظرة اليونانية، فكانت تلك أول مواجهة علمية حقيقية بينهم، وبين واقعهم العربي، من جهة، وأول فراق بينهم والفلسفة اليونانية.

وأخيراً

رأينا أن العلاقة بين الموسيقى، كما الشعر، الذي أسسه موسيقى اللغة، من جهة، والهندسة والفلك، وفق ما عرّفتهما أعلاه، على أنهما التجسيد المباشر للرياضيات المجردة في الحياة المادية للبشر، وفي فهم تصميم الكون، من جهة أخرى، وثيقة جداً، فالموسيقى، كما الشعر، كما الهندسة والفلك، تستند إلى علاقات رياضية، يكسوها المبدعون بالإحساس والجمال..

في الموسيقى والشعر، تبنى العلاقات بين الأصوات أو الإيقاعات أو الجمل الموسيقية أو الشعرية، وفق نسب جمالية صوتية وإيقاعية، لها بناء هندسي، يشبه

البناء الهندسي للمباني الجميلة، التي تجذب اهتمام الناس، والبناء الكوني للأبعاد بين الكواكب والمجرات. في العمارة تدعى تلك النسب بالنسب الذهبية، وفي الموسيقى، تدعى بالأجناس والمقامات والإيقاعات والأشكال اللحنية. وفي الشعر، تدعى بالبحور والقوافي وفنون الشعر. هي نسب متشابهة في الطبيعة، ولكنها غير متطابقة. فلأذن نسبها. وللعين نسبها المختلفة.

من هنا، أستطيع أن أقول، أولاً، بأن الشعر والموسيقى هندسة صوتية، والهندسة المعمارية، هندسة بصرية إنسانية، والفلك، هندسة بصرية كونية، ولاشك في أن لها، جميعها، ما يجمعها، وهو الأعداد والنسب الرياضية، وثانياً، أن الموسيقى ضُمت إلى العلوم الأساسية الثلاثة الأولى، لأنها أيضاً تستند إلى الرياضيات، ولأنها مثلت، في الفكر اليوناني، تجسيد الكون على الأرض، ولكن الحاجة إلى دراستها، أتت أيضاً، من كونها تختلف عن تلك العلوم الثلاثة، بأنها لا تختص بالماديات، بل بالإنسان المتأثر بها، وبحركة الكون. وبالنتيجة، يمكن في رأيي، تصنيف العلوم الأساسية الأربعة عند اليونان في مسارين: علما

أساسيان قابلان للفهم الإنساني هما الحساب والهندسة، وعِلمان مفتوحان على المجهول، هما الفلك والموسيقى، الأول يمثل الكون بمجاهله البعيدة اللامتناهية، والثاني، يمثل الإنسان، بخفائيه القريبة، ولكن اللامتناهية أيضاً.

ولكن حقيقة أن الإنسان موجود أمام الفلاسفة، بقيت طاغية، ما جعل الموسيقى، في رأيي، تتجاوز في أهميتها الفلك، من الناحية التطبيقية، إذ أدرك هؤلاء الفلاسفة، أنه من دونها لا يفهم الإنسان، أولاً، ولا الكون، تالياً، ما جعلها، من الناحية العملية، وعلى المدى المتوسط بالنسبة لهم على الأقل، غاية تلك العلوم الأربعة.. ومنتهاها.



الرمزية في فكر جلال الدين الرومي



د. سيف الدين القصير



سنٌ مبكرة، ارتحل جلال الدين برفقة والده وأسرتَه متجهاً غرباً نحو العراق والشام بعد انقلاب التقادير ضد والده. ومراًً بنيسابور حيث التقى الفيلسوف والصوفي الشهير

برز جلال الدين الرومي، أو محمد ابن الحسين، كما يُسمى نفسه، كعالم كبير وشاعر مفوه وصوفي جليل في النصف الأول من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في القسم الشرقي من أراضي الخلافة العباسية. وكان جده، الحسين بن أحمد الخطيبي، من أفاضل عصره وأعلام زمانه وعالماً تتلمذ على يديه العديد من فقهاء القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، وأشهر هؤلاء رضي الدين النيسابوري المتوفى سنة (٥٩٨هـ^(١))، وفي

✽ أديب وباحث ومترجم.

«من دون مقدمات، فقد نشأ جلال الدين في بيت تصوف، وأخذ عن شيوخ الصوفية، ودل شعره على استعداد وميل إليها...»^(٤)

تعلق جلال الدين بشمس الدين التبريزي وأخذ يسايره في المنتزهات ويخلو به لدرجة جعلت تلاميذ جلال الدين يحقدون على الضيف ويضمرون له الشر لأنهم رأوا أنه استبدَّ بأستاذهم وصرفه عن سبيلهم وعن سنن العلماء فهاجموه وثاروا عليه. فغادر شمس الدين قونية إلى دمشق وحزن جلال الدين لهذا الفراق ونظم الكثير من الأشعار الوجدانية المعبرة عن ألمه ومعاناته. فما كان من ابن جلال الدين إلا أن سافر إلى دمشق وعاد بشمس الدين إلى قونية مرة أخرى. لكن ثورة حدثت في قونية نحو منتصف القرن السابع الهجري ذهب شمس الدين ضحية لأحداثها فقتل على يد بعض تلاميذ جلال الدين. وعاد الحزن ليستبد بجلال الدين الذي تألم لفقد صاحبه وصديقه فانصرف إلى الرياضة وسماع الموسيقى ونظم الأشعار التي رددت اسم شمس الدين وعبرت عن الوفاق الروحي القائم بين الرجلين. وتمخض هذا النشاط الفكري عن ديوان رائع من الغزل الصوفي أسماه جلال الدين «ديوان شمس تبريز»^(٥) وأنشأ جلال الدين الطريقة الصوفية

فريد الدين العطار. ويُقال إن فريد الدين أخذ جلال الدين الرومي بين ذراعيه وقال لوالده إن مستقبلاً عظيماً ينتظر هذا الغلام، ثم أهداه بعض كتبه ومنها كتابه المشهور، «إلهي-نامه»^(٦). ثم عَبَرَت العائلة بغداد متجهة إلى مكة المكرمة بقصد الحج، ومن هناك عادت إلى الشام ومنها إلى الأناضول حيث حطت الرحال في قونية. ولقيت العائلة ترحيباً من السلطان السلجوقي علاء الدين كيقيباد الذي كلف والد جلال الدين بمهام الوعظ والتدريس في مدارس قونية.

عمد جلال الدين، عَقَب وفاة والده سنة (٦٢٨هـ) إلى التوسع في معارفه وعلومه عبر رحلة قام بها إلى حلب حيث التقى كمال الدين بن العديم، وإلى دمشق حيث كان يعيش الصوفي والعارف بالله الكبير محي الدين بن عربي. لكن الحدث الأهم في حياة شاعرنا كان اللقاء الذي جمعه بالشاعر والصوفي الكبير شمس الدين التبريزي، المشهور بشمس تبريز^(٧) ويعد هذا اللقاء الذي حدث سنة (٦٤٢هـ). نقطة تحوّل كبيرة في حياة الرومي حيث عزف عن التدريس والوعظ لينصرف إلى ممارسة التصوف والذكر والعبادة والتأمل. ولا يرى مولوي أن هذا التحول حدث فجأة

كلها، فإن الوصف المناسب للسر الإلهي ليس سوى الصمت. إنه من غير الممكن وصف سر الكائن الإلهي الذي هو مختلف بالكلية عن المخلوقات كلها.

أمّا الكائن الإنساني الذي يكتشف هذا السر والحقيقة النهائية، فإن عليه ألا يكشف ذلك. وكما أصرّ الرومي جازماً وشدد على قوله، فإنه من المستحيل الاقتراب من الشمس. لأن نور الشمس ونارها سيصرعان حالاً أي شخص يحاول النظر إليهما من غير حجاب. ولذلك، فإن المتصوفة الذين يختبرون هذه الرؤية بنشوة يستخدمون الرموز لوصف هذه الحالة. إنهم يقومون بذلك إما لعرض صورة عن الحقيقة النهائية أو لحجب نار هذه الحقيقة التي لا ترحم بستارة ملونة. وأعمال الرومي مشبعة بمثل هذه الرموز. وليس ثمة من شاعر متصوف آخر لا في الشرق ولا في الغرب يعادل الرومي في استخدام مثل تلك الرموز الثرية والزاهية.^(٧)

شمس أزلية - شمس الدين

الرمز الأكثر أهمية الذي استخدمه الرومي كان رمز الشمس. وهذا ليس بالشيء المستغرب لأن معلمه المعشوق الأول والأصيل كان شمس الدين. لقد شاهد

المعروفة بالطريقة المولوية إحياء لذكرى صديقه الروحي، وجعل قباء شمس الدين التبريزي شعاراً لاتباع هذه الطريقة يرتدونه فيتميزون به عن غيرهم.

فإذا ما استعرضنا أشعار الرومي في «ديوان شمس تبريز» وفي «المنثوي» رأيناها تزخر بالمعاني الجميلة والكنائيات اللطيفة والرمزية الرائعة إضافة إلى موسيقاها المرددة لألحان الناي الحزينة المثيرة للشوق والحنين. وتعتبر الرمزية أسلوباً من أساليب التعبير عن حقائق الأشياء بوساطة رموز وكنائيات ليست سوى مظهر خارجي لهذه الحقائق يدل عليها ويشير إليها. فعندما أراد أحدهم^(٨) إخبارنا عن عظمة الله، على سبيل المثال، وصف لنا هذه الذات وشبهها بجبل عظيم تنتهي قمته في ظلمة أزلية غير مرئية. وإن جزءاً صغيراً جداً من هذا الجبل هو في مرمى البصر. ونحن نرى هذا الرأس الدقيق جداً عبر سديم هذا العالم ودخانته ونعتبره بمثابة النهاية. وكلما رأينا مظهراً إلهياً، سعينا إلى إيداعه في الذاكرة مستخدمين الكلمات أو الكنائيات. غير أن كل كلمة نعثر عليها أو كل رمز نستخدمه لإبداع المظهر هو غير حقيقي في أحد معانيه. لذلك، وانسجاماً مع ما تقول به الأديان

وتكتسب أصغر الأشياء في يدي الرومي، سواء أكانت فراشة أم قطرة ماء، الشفافية تكشف عن نور السر الإلهي. فمن واجب الإنسان الذوبان ضمن المحيط الهائل لله مثل قطرة الماء، لأن الإنسان هو كموجة صغيرة أو بقعة من زبد ذلك المحيط. والنعم التي يُنعم بها الله تندفع طافية على سطح ذلك المحيط لملاقاة شواطئ الحياة الإنسانية. لكن الوقائع التي تقع في زماننا ومكاننا هي، بالنسبة للحكيم، لشيء سوى انعكاسات لمد وجزر النعم وخيبات الأمل التي تحدث على سطح ذلك المحيط والتي تقع خارج مجالي الزمان والمكان. وكل من يواجه الذوبان على سطح ذلك المحيط يتحول حالاً إلى الدرة الأم الموحدة للمحيط. فالهجران المطلق لا بد وأن ينتج كسباً مطلقاً.

إن إحدى خصائص فكر الرومي هي أن الرموز التي استخدمها لم تحمل معنى واحداً فقط، وإنما كانت مليئة بمعانٍ مختلفة. كما يمكن اعتبار أن لهذه الرموز معنىً إيجابياً أو سلبياً. فالنار، على سبيل المثال، يمكن اعتبارها على أنها تعني نار جهنم، التي يمكن إطفائها إما بماء الرحمة أو بنور الجود والكرم؛ أو حتى يمكن اعتبارها أنها تعني نار خيبات الأمل التي

انعكاسات الشمس الأزلية وأشعتها، أو وجه المعشوق، في كل مكان. إذ لا أزهار ستمو ولا فاكهة ستنضج في غياب هذه الشمس. إنَّ الشمس تتوج أشواك الأدغال بالأزاهير وتحول الحجارة الخشنة إلى ياقوت أحمر عبر عملية تستمر قروناً. وبطريقة مشابهة، فإن المعشوق الإلهي يمنح حياة جديدة وجماً خالداً لكل العشاق الذين يعشقون ويكابدون وينتظرون وهم يتحرقون شوقاً. لكن لا أحد يستطيع دخول هذه الشمس لأن روعة بهائها تحرق الجميع.

وتُعد الشمس رمزاً جميلاً جداً وملائماً للتلميح إلى جمال الله وجلاله. غير أن رمزاً واحداً ووحيداً لا يمكن أن يكون كافياً، مهما كان عميقاً وذو معنى، لفهم الجوانب المتنوعة للحقيقة الإلهية. لقد كان الرومي يبحث دائماً عن رموزه ويجدها في الطبيعة. فالبساتين والحدائق، والطيور والأزهار هي التي روت حكاية العاشق والمعشوق. وصار الطير رمزاً للروح، وهو الرمز الذي استخدم منذ زمن المصريين القدماء وحتى يومنا هذا.^(٨)

إنَّ حكاية الوردة والعنديل الرمزية، أو البطلة التي تتجو إلى البحر إنما تلمح كلها إلى الحقيقة المركزية القائلة بأن الروح ترغب بالعودة إلى مجالها الأصلي.

تقوم بتطهير القلوب. وأينما استُخدمت خيبة الأمل كرمز للعشق الإلهي، فإنها يجب أن تكون نار العشق.^(٩)

في جميع الأديان، ثمة رموز بعينها تلمح إلى الحقائق الدينية وإلى علاقة الله بمخلوقاته. وتلمح معظم هذه الرموز إلى الشعائر القديمة والعادات البدائية. وأحد أكثر الأمثلة شهرة لهذه الرموز هو الخمر. ويرسم الرومي مقارنة بين النشوة التي لا توصف والناجحة عن الوجد وتلك التي تنتج عن الخمر. وفي دار البقاء، في (اليوم الآخر)، فإن الله سيناول، وهو في هيئة حامل الكأس، خمرة العشق إلى الرجل الباكي البعيد عن موطنه، يحن إلى رائحة هذه الكأس، وهو يشير لمخلوقاته بذلك إلى مجاله الأصلي أو الدرب إلى معشوقه. إن هذا العالم هو كالكأس الفارغة؛ وما إن يرى العاشق الكأس حتى يصبح مُنتشياً. لأنه إذا ما أصبح جمال حامل الكأس ظاهراً، وإذا كان ثمة من فرصة للعاشق كي يرشف العشق من شفاه المعشوق، فإن العاشق سيهلك تحت وطأة جلال المعشوق. وحامل الكأس هو صانع موسيقى أيضاً. إنه يعزف على المزمار والناي والقيثارة. والألحان التي تخرج من هذه الآلات هي دائماً ألحان الشوق والحنين.

إنَّ الإنسان هو كالقيثارة في يدي معشوقه يعزف عليها أنغام الأسى والحزن؛ أو إنه كالناي في شفتي معشوقه، يستقضي خلود الحنين.^(١٠)

أمَّا المزمار، الذي استُخدم كرمز في العديد من الأديان منذ أيام البابليين القدماء، فقد كان الرمز الأكثر تفضيلاً عند الرومي. وطبقاً له، فإن سقف وأبواب بيت العشق قد صُنعت بكاملها من الأغاني والأشعار. والعاشق القادر على فهم صوت المزمار يستجيب لألحانه وينضم في السماء وهو يطير متألقاً حول النور الخالد للمعشوق الإلهي، ككوكب أو نجم حول الشمس. إننا نجد أعماق المعاني في سماء الرومي وفي الرموز كلها ذات الصلة بالسماء. لأن العاشق المتصوف يطير متألقاً إلى الأبد حول مركز واحد فقط؛ إنه يرغب بالاقتراب من هدف واحد فقط ويحاول تقديم سره باستخدام رموز جديدة. وأخيراً يفهم العاشق المتصوف عقم مساعيه الشعرية ويستأنف صمته، وبامتنان صامت يطير متألقاً حول جمال وجلال الله كذرة حول الشمس. إنه يصغي إلى ما يصل إليه (من الله)، ويدوب تماماً في حالة حيث لا ذكر فيها ولا متكلم ولا مستمع. وفي ظلمة النور، ينساب العاشق المتصوف إلى حالة

من التحلل وسط الرموز كلها من ألوان وأشكال مختلفة^(١١). فالرمزية، إذن، خاصية هامة من خصائص الفكر والممارسة التي اشتهر بها المتصوفون عبر التاريخ. وهي ممارسة عابرة للأديان والمذاهب لأنها ذات أبعاد فردية وذاتية يقوم بها الفرد تلقائياً من دون إلزام كي يصل إلى درجات الكشف ويختبر تلك العلاقة المباشرة بين الصانع والمصنوع التي تتجاوز الوصف بالكلمات. وكان «مولانا جلال الدين الرومي»، صاحب الطريقة المولوية في الصوفية خير من جسّد هذا النموذج من الفكر والممارسة بحيث أصبح علماً من أعلام الصوفية في العصور الوسطى وما تلاها وحتى يومنا هذا.

الهوامش

- ١- انظر محمدي، محمد، الأدب الفارسي في أهم أدواره وأشهر أعلامه (طهران، ١٩٦٥م)، ص(٢٦٢). وردت عند مولوي، مراد، التربية الاجتماعية عند جلال الدين الرومي (دمشق، ٢٠٠٣م)، ص (١٦٠).
- ٢- غالب، مصطفى، جلال الدين الرومي (بيروت، ١٩٨٢م)، ص(١٣).
- ٣- محمدي، المصدر السابق، ص(٢٦٨).
- ٤- ذكر مراد مولوي أن جلال الدين كان يعتبر رسالته استمراراً لرسالة أسلافه من شعراء التصوف البارزين حين قال: «كان العطار وجهاً وسنائي عينيّه ونحن جنّنا في إثر سنائي والعطار».
- ٥- انظر مولوي، المصدر السابق، ص(١٦٤).
- ٦- انظر شيميل، أنيماري، «الرومي والرموز التي يستخدمها في أشعاره»، مجلة علم، المجلد (٧)، العدد (٣)، كانون الأول (١٩٨١م) - شباط (١٩٨٢م)؛ الصفحات (٢٩ - ٣١).
- ٧- المصدر السابق.
- ٨- المصدر السابق.
- ٩- المصدر السابق.
- ١٠- المصدر السابق.
- ١١- المصدر السابق.



الشعر التعليمي فنٌ يُمخر عباب بحر العلوم



د. كارين صادر

حفظ المعلومات عن طريق تضمينها في أبيات شعرية تتضوي تحت عنوان الشعر التعليمي، وسار بعده في مجراه وعلى خطاه شعراء كثير.

والشعر التعليمي هو في الغالب شعر يزخر بالمعارف، ويفتقر إلى العاطفة والخيال كونه يخاطب العقل، ويتميز بطول النفس الشعري، واعتماده بحر الرجز، وتنوع القوافي في القصيدة الواحدة.

وأبان بن عبد الحميد بن لاحق، هو مولى بني رقاش، وكذا كان أبو جده «عفير»

هو فنٌ أدبي طرّقه بعض شعراء العصر العباسي الذي كان يضجّ بمختلف العلوم حتى تشابكت المعارف في الذهن، وبات من الصعب حفظها. فكان أن وُجد هذا الغرض الشعري لحاجة طلاب العلم إليه بغية تسهيل حفظ العلوم والمعارف عليهم، ولأسيما بعد الإقبال الشديد على التعلّم المتعدد المناحي والاتجاهات، والرغبة القوية في طلب المعرفة في ذاك العصر الذهبي.

فكان أن أوجد الشاعر أبان بن عبد الحميد (ق ٢هـ) طريقة تسهّل عملية

✽ أديبة وبامئة في التراث العربي من لبنات الشقيّة.

من الموالى. وقد نشأ نشأة شعرية حيث كان جدّه، وأبوه، وابنه، وحفيده، جميعهم من الشعراء المقلّين.

تفتّحت شاعرية أبان في سن مبكرة، فاتّجه بداية في شعره ناحية شعر الهجاء إذ اصطدم بالشاعر المعدّل بن غيلان، فتهاجيا واستفحل بينهما الهجاء، فاتّهمه المعدّل في هجائه بالزندقة، والمانوية، وبقيت هذه التهمة عالقة فيه بعدها جاء الجاحظ وأثبت أنه كان زنديقاً ومانوياً، كونه عاش أول حياته مع المجرّان والخليعين في البصرة، حيث كان صديقاً لمجموعة من شعراء المجون، أمثال: حمّاد الراوية، وحمّاد عجرد، ومطيع بن إياس.

أتىح لشاعرنا فرصة الاطلاع على ثقافات عصره المختلفة في البصرة من: دينية، وأدبية، ولغوية، وتاريخية، فكان يحضر الحلقات التي تعقد في مساجد البصرة، وخاصة في المسجد الكبير الذي كان مركزاً للثقافة الدينية، والعلمية، والأدبية. وكان من جملة أساتذته فيه: يونس بن حبيب النحوي، والحسن بن علي الجوهري، والمرزباني.

وكان أبان يعيش الشعر سماعاً وإنشاداً وحفظاً، فدأب على الوفود على سوق المريد، وهو سوق من الأسواق القديمة في البصرة،

ويبعد عنها ثلاثة أميال، وكان قديماً سوقاً للإبل تحبس فيه، ولذلك سمّي بالمريد، ثم غدا مقصداً للشعراء في القرن الثاني الهجري، إذ راحوا يقصدونه ليسمعوا الشعر ويأخذوا بأحسنه عن الأعراب، وفيه كانت تقام مبارزات في الشعر بين الفرزدق وجريّر عُرِفَتْ بـ«شعر النقائص».

ولمّا شبّ، ترك البصرة إلى بغداد، قاصداً آل برمك الذين كانوا فرساً مثله، فأحسنوا استقباله، وقصّروا حياته على مدحهم، ونظم الكتب وترجمتها لهم. ويقول واصفاً ذاته:

أنا من بغية الأمير وكُنز
من كنوز الأمير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب بليغ
ناصح زائد على النصّاح
شاعر مُفْلِق أخف من الريد
شبه مما يكون تحت الجناح
ثم أروي من ابن هرمة لنا
س بشعر مُحَبَّر الإيضاح
ثم أروي من ابن سيرين للعد

ثم يقول مُنَوِّراً الإفصاح
ومما روته المصادر في أمر اتصاله
بالبرامكة: «خرج أبان بن عبد الحميد من البصرة طالباً الاتصال بالبرامكة، لأن البرامكة أصلهم فارسي، وهو كذلك حيث

ولم يقدر أحد من الناس أن يعلّق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه، وكان حسن السيرة حافظاً للقرآن، وعالمًا بالفقه.

فأعطاه يحيى بن خالد عشرة آلاف دينار، وأعطاه الفضل بن خالد البرمكي خمسة آلاف دينار، وقال له جعفر بن يحيى البرمكي: - ألا ترضى أن أكون راويك لها؟! ولم يعطه شيئاً. وقيل: فتصدّق بثلث المال الذي أخذه من البرامكة. وفيما بعد، أوصله البرامكة إلى الخليفة الرشيد، فمدحه، ورضي عنه الأخير، وأجزل له الصلات، وأصبح من شعراء البلاط العباسي، فأشاد بالعباسيين، ودافع عن حقهم بالخلافة. وكان هجاءً للشعراء، فهجاه أبو نؤاس وغيره، وكان مقللاً في غرض الغزل، وعرف واشتهر بالمزدوج والمسمط.

ولمّا توفي خلف وراءه ديواناً شعرياً، وعدداً من الكتب نذكر منها: السندباد وسيره، أردشير وسيره، وسيرة أنوشروان، وسيرة مازذك وتعاليمه وفلسفته، وبلوهر، وبوداشف، وكتاب الصيام والزكاة وأسماء «الفهرست في الصيام والاعتكاف». وتصدّى لنظم ملحمة عالج فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا أسمائها «ذات الحل»، وتنسب خطأ إلى أبي العتاهية. وليس لهذه الملحمة ذكر

أنه كان من الموالي في البصرة من أصل فارسي، وكان الفضل بن يحيى غائباً، فقصد، فأقام ببابه مدّة مديدة لا يصل إليه، فتوسّل إلى من وصل له شعراً إليه، وقيل: إنه توسّل إلى بعض بني هاشم ممّن شخص مع الفضل. وبعدها أكثر من مدحهم، كما كانت تقدّم إليه المدائح ليقدر جوائزها. وقد خصّ بالمدح الفضل بن يحيى، الذي قلّده ديوان الشعر. وإليه نظم شاعرنا كتاب «كليلة ودمنة» شعراً، وكان قد أحبّ يحيى بن خالد البرمكي أن يحفظه، فاشتد عليه ذلك، فقال له أبان بن عبد الحميد اللاحقي:

- أنا أعمله شعراً ليخفّ على الوزير حفظه.

فنقله إلى قصيدة عملها مزدوجة، عدد أبياتها أربعة عشر ألف بيت، في ثلاثة أشهر وقيل أربعة. وقد قال في أولها:

هذا كتاب أدب ومحنة

وهو الذي يدعى كليلة ودمنه

فيه احتمالات وفيه رشد

وهو كتاب وضعته الهند

وكان أبان شاعراً كثيراً وأديباً وعالمًا ظريفاً، ومنطقياً، ومطبوعاً على الشعر، ومقتدراً عليه. وقد نقل كتاب «كليلة ودمنة» شعراً بالألفاظ الحسنة العجيبة.

في كتب الأدب التي بين أيدينا، كما ألف كتاب «حكم الهند»، و«مجموعة رسائل». وكتبه مفقوده كلها.

وقال عند وفاته: «أنا أرجو الله وأسأله رحمته ما مضت علي ليلة قطّ لم أصل فيها تطوُّعاً كثيراً».

وسلك ابنه حمدان من بعده هذا المسلك، ونظم مزدوجة في وصف الحب وأهله:

يا أيها الناس افعلوا

وصيأتي واستمعوا

ففي صفاتي عجبٌ

وفي كتابي أدب

وفي علم الحيوان نظم بشر بن المعتمر قصيدة، وفي تاريخ الطب نظم ابن إسحاق قصيدة، وفي الملل نظم أبو العباس الناشئ قصيدة ذكر فيها الملل وعقائدها، وفي علم الفلك نظم محمد بن إبراهيم الفزاري قصيدة، قال فيها:

الحمد لله العلي الأعظم ذي

الفضل والمجد الكبير الأكرم

الواحد الفرد الجواد المنعم

الخالق السبع العلي طباقا

والشمس يجلو ضوءها الإغساقا

والبدريملاً نوره الأفاقا

وبعدها شارك الشعراء في تدوين

التاريخ شعراً، ولعلّ أحداً لم يسبق علي

بن الجهم في هذا المضمار، فقد نظم مزدوجة في أكثر من ثلاثمئة بيت تناول فيها بدء الخليقة وتاريخ الأنبياء، كما حكى تاريخ الإسلام منذ بعثة الرسول إلى خلافة المستعين:

ثم أزال الظلمة الضياء

وعاودت جدتها الأشياء

وفي السياق ذاته تناول أبو العتاهية أيضاً

المواعظ والحكم، والإرشادات والتهديب في

أرجوزة ذات الأمثال، قال فيها:

لكل مايؤدي وإن قل ألم

ما أطول الليل على من لم ينم

ما انتفع المرء بمثل عقله

وخير ذخر المرء حسن فعله

وكثر هذا اللون من النظم في العصر

العباسي، وكان يتمتع بأسلوب سهل ميسور،

لأنّ التعلّم آنذاك كان يعتمد كثيراً على حفظ

القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف،

والمتون اللغوية، والقصائد الشعرية، ولم

يتجاوز الغاية التعليمية، ولم يتطور في

اتجاه آخر.

وظلّ الشعر التعليمي قائماً وزاد

الإقبال على نظمه بمرور الأيام حتى

أصبحنا نرى في العصور اللاحقة كثيراً

من المنظومات في الفقه، والطب،

والخط، والبلاغة، وغيرها.

بالجر والتنوين والندا وال**ومسند للاسم تمييز حصل**

وقد حظيت بقبول واسع لدى دارسي النحو العربي، فسعوا إلى حفظها وشرحها أكثر من غيرها من المتون النحوية، وذلك لما تميّزت به من التنظيم، والسهولة في الألفاظ، والإحاطة بالقواعد النحوية والصرفية في إيجاز، مع ترتيب محكم لموضوعات النحو، واستشهاد دقيق لكل واحد من هذه المواضيع.

ومن نحو ذلك ألفية ابن مالك (٦٠٠هـ)، هي متن يضمّ قواعد النحو والصرف العربي في منظومة شعرية يبلغ عدد أبياتها تسعمئة وثمان وثمانون بيتاً، على وزن بحر الرجز أو مشطوره.

ومنها:

كلامنا لفظ مفيد كاستقم

واسم وفعل ثم حرف الكلم

واحده كلمة والقول عم

وكلمة بها كلام قد يؤم



وعلى كل عاقل أن يحاول قيادة عربة الحياة على الرغم من كل الظروف وفي كل مكان وأي زمان.

وقد يحالفه التوفيق وقد يصاب بالفشل ولكن عليه المحاولة من أجل شيء هام مثل الحياة حتى يستحق الإنسان شرف المحاولة.

فجواد العقل يفكر ويخطط ويعمل ويقرأ ما بين السطور لأن لديه واجب يرتكز على الواقع.

أمّا الجواد الجامح وهو الشعور فيجب محاولة كبح جماحه قدر المستطاع على الرغم من صعوبة السيطرة عليه.

وهنا تظهر قدرة جواد العقل فتارة يتحالف مع جواد الشعور الثاني وتارة يقاوم جواد الشعور المدمر وهذا الأخير يدعى عصاب القلق وهو مزيج من الخوف والأوهام.

الخوف من المستقبل، الشعور بالإحباط، الحب، أحلام الهجرة، الخطف وأخيراً الخوف من الموت.

وحتى أسمى المشاعر، وهي الحب الذي يملك عدة درجات ومسميات فما زاد عن الحب يدعى العشق ثم هناك الشغف ويعني ملازمة الحب شغاف القلب وعند هذه الدرجة من درجات الحب تبقى الأمور تحت سيطرة جواد العقل.

أمّا باقي التسميات من أسماء الحب وهي التيم والتبل والهيام فهذه الأشكال من الحب تتراوح بين المرض والجنون فهي درجات صعبة العلاج ومن الصعب على جواد العقل أن يسيطر عليها.

وفي مسرحيات شكسبير أمثلة عديدة عن الإفراط في العواطف وهذا الإفراط ظهر تحت اسم الجنون.

أمّا المبالغة في الاعتداد في النفس فهي تقود إلى مرض عقلي يدعى الهوس وما أكثر المصابين بهذا الداء في هذه الأيام وهو شكل خارج عن سيطرة جواد العقل.

فكل هذه المشاعر هي مشاعر مدمرة للنفس البشرية لأنها أصبحت من الأمراض المزمنة التي تحتاج إلى علاج.

وخير علاج لهذه الأمراض يكمن في الوقاية منها وهنا يبرز دور جواد العقل في محاولة تهدئة جواد الشعور المحبط حيث يزرع جواد العقل الأمل ويمد يد المساعدة بكل أشكالها المعنوية والمادية.

وبما أن رحلة الحياة مستمرة فلا بد أن يتابع كل عاقل الأحداث وأن يقاربها بصورة منطقية واقعية حتى الوصول إلى نهاية الرحلة بسلام.

أمّا غوته الكاتب والشاعر الألماني
الذائع السيط فقد قال:

«تحتاج الحياة لحقيقية أخذ وحقيقية
عطاء».

وهنا يجب أن نفهم بأن كل شيء نأخذه
أو أخذناه في هذه الحياة له ثمن.

قد يكون ثمن مادي أو على حساب عمرنا
وصحتنا وكل شيء نأخذه يحتاج لجهد وقلق
وأمل وعمل وكل شيء بحسابه.

أمّا العطاء فهو واجب ويجب على كل
إنسان يحمل هذه الصفة الإنسانية أن يفتح
حقيبة العطاء حين الطلب سواء كان هذا
العطاء بشكل مجاني أم عطاء له ثمن لأن
المهم أن يتمم الإنسان واجب العطاء.

وللعطاء أشكال وأشكال فهناك عطاء
مادي وهناك عطاء فكري يتمثل بالنصح
والإرشاد.

وبغض النظر عن النتائج يجب أن نفتح
حقيبة العطاء لمن يطلب ويجب أيضاً
عدم انتظار المكافأة لأن المجتمع في كل
الأزمان يحتوي على فئة تنكر العطاء وتنكر
المساعدة وتدعى الفئة الانتهازية.

وفي النهاية يجب أن يترافق الأخذ مع
الشكر لكل من أعطى ويجب على كل من
أعطى عدم انتظار المكافأة لأن في نهاية
المطاف لا يمكن لأحد مهما كانت صفته أو

وحيث تحتفظ الذاكرة بعدد أكبر من
الذكريات السعيدة يمكن القول بأن وصلنا
إلى نهاية الرحلة بسلام.

ومن أقوال شكسبير عن الحياة قول
هام (هكذا تمر الأيام من حيث لا نشعر بها
فالحياة هي ظل عابر).

وقد حاول فلاسفة الحضارة الإغريقية
إعطاء وصية للبشرية حين قال أحدهم:
«الذي يضبط نفسه هو الذي يعتدل في
أمنيته».

لأن الاعتدال أشبه بقلادة ذهبية ولأن العمل
هو كنز الإنسان فقد تقاطعت أفكار المفكر
الفرنسي جان جاك روسو إلى مثل يقول:
«الاعتدال والعمل هما أفضل أطباء
البشرية».

فالاعتدال في كل أنواع المشاعر هو
مطلب كل العقلاء وهو جزء من تربية
الأجيال القادمة.

والعمل بمختلف أشكاله الذي نأكل منه
خبزنا اليومي بشرف ومن دون حاجة يحتاج
لعلم وتفكير وتخطيط حتى الوصول إلى
مرحلة الإتقان وعندها يمكننا القول: بأن
تضافر جهود جواد العقل وجواد الشعور
وبمساعدة القدر والحظ ببعض المال
الضروري نتابع رحلة الحياة حتى الوصول
إلى بر الأمان.

ثروته أن يأخذ فقط أو يعطي فقط فالكل بحاجة للكل لأن هذا قانون الطبيعة ومن يجد بأنه غير محتاج لأحد الحقيبتين فهو واهم ومصير رحلته الفشل.

وفي فرنسا مثل عن الحياة يقول:

«تحتاج الحياة لحقيقية مال وحقيقية صبر وقليل من اللامبالاة».

وهنا أقول:

- المال دون صحة لا شيء.

- والصبر دون أمل هو لا شيء أبداً.

- وقلة اللامبالاة هي سلاح قد يكون مدمر وقد يكون مفيد.

وفي الهند قالوا:

- الحياة مدرسة أقساطها غالية.

ولكن بعد إتمام الدراسة في هذه المدرسة تظهر النتائج فهناك ناجح وهناك راسب والإنسان وحده هو من يقرر النجاح والرسوب حين يقتنع بما أنجز في حياته أو يتحسر على الماضي.

أمّا في إيطاليا فمثلاً يقول:

«تحتاج الحياة لجراً وقدرة وصمت».

فهم يطلبون المغامرة أولاً والقوة ثانياً وأخيراً يطلبون السرية.

وهنا أسأل:

ما هو شعور المغامر؟

وبقدر ما نحتاج لقوة نحتاج لحنان،

وبقدر ما نحتاج لجراً نحتاج لتبصر،
والصمت في بعض الأحيان هو نصف موافقة على رفض ما.

وبما أن الزمن هو الأكثر حكمة بين كل الناصحين وذلك لأنه يكشف الأسرار كلها ويبوح بها من دون طلب من أحد، فهو يغطي كل شيء ويكشف كل شيء ويعلمنا معنى الصبر فلا بد كما قال سيرفانتس فارس الدراما الإسبانية:

«يجب إعطاء وقت للوقت».

وهذا أيضاً يخضع لجواد العقل،
فالصبر مفتاح الفرج.

والزمن سيد كبير قادر على ترتيب كل الأشياء.

وهنا عند إضافة جواد الزمن وجواد المال وجواد الصبر إلى عربة أفلاطون تصبح الرحلة في هذه المرحلة أكثر متعة. ومع جواد المشاعر الجامح ومع الحب النبيل والطموح تصل عربة أفلاطون إلى بر الأمان.

وقد قال باسكال المفكر الفرنسي:

«الحياة تبدأ بالحب وتستمر بالطموح».

أما فلسفة نيتشيه فقد ظهرت بعد أن منحها القدر عقل راجح ومرض وراثي مجنون وسلب منه عائلته وحبيبته فقال:

«لا قوة في الحياة تفوق قوة الخير وقوة الشر».

وهو الذي قال:

«لقد تحتم عليّ أن أتفوق على نفسي».

ومن الأمثال العالمية عن الحياة وسرها:

«الحياة حلم.... مثل لا تيني».

«الحياة أمل.... الحياة كفاح...» (عند الإغريق).

«حياة الإنسان على الأرض تشبه حصان أبيض يقفز بالمنحدرات ويختفي فجأة...» (مثل صيني).

«الحياة تشبه قصة يهمنها مغزاها لا طولها...» (مثل لا تيني).

«الموت أقرب إلينا من حدقة العين...» (مثل عربي).

ولأن الوقت يذهب من دون عودة فيجب على كل عاقل أن يحفز جواد العقل وجواد المشاعر السامية من أجل متابعة حياته اليومية بكل أشكالها (الخدمية والعائلية والثقافية وحياة المتعة والهناء...).

وعند توفر الصدق والبساطة نحيا ونتمتع ونتقن فن العيش لأن الصدق هو نوع من أنواع المشاعر السامية وهو أحد أركان الحياة.

وإذا ابتعدنا عن عربة أفلاطون وعن أفكار الفلاسفة والمشاهير وعدنا إلى عالمنا الواقعي فهل نلاحظ أي اختلاف بين أفكار الحكماء ورأي العامة.

سأكتب بعض تعاريف الحياة باللغة المحكية العامة للضرورة ففي عالم الواقع هناك سيل من الإجابات عن الحياة وعن السؤال عن الأحوال تتدرج الإجابات بين كلمات بسيطة تحمل في معانيها فلسفة عميقة.

أمثلة:

عاشين.

عند العامة كلمة واحدة تعبر عن الحزن والحسرة.

وكلمة ماشي الحال..

وكلمة بعين الله..

ومن رضي عاش..

الله يديما نعمة..

وأختم بأجمل كلمات اللغة العامة: (الحياة حلوة بس نفهمها).

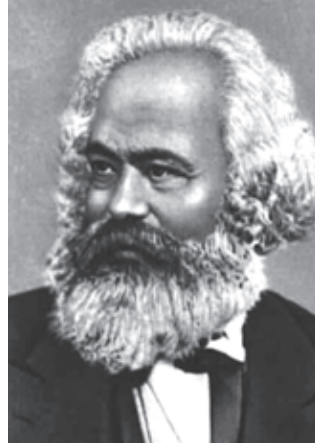
المراجع

- معجم الحكم والأمثال بالفرنسية.
- مسرحيات وليم شيكسبير.
- هكذا تكلم زراداشت.

هل يوجد طريق ثالث للفلسفة؟



مؤيد جواد الطلال



آنذاك ثانياً. ولذلك فقد سادت الفلسفات المثالية، وغرقت في حمى الأساطير الميثولوجية، معبرة بذلك عن مصلحة الطبقات المستغلة، ومبررة لواقع العلاقات

لم يكن انتصار الفلسفة المادية ممكناً في العصر الإغريقي القديم، نتيجة لطبيعة الإنتاج المادي السكوني في المرحلة العبودية أولاً، وعدم توافر معطيات علمية

❁ بامع من العراق الشقي.

للدين ولتعاليم الكنيسة (التي جهدت إلى تجاهل الطبيعة، وإعاقة تقدم العلوم، وسحق الأثر الضئيل للمبادئ المادية بإقامتها محاكم التفتيش الشهيرة. غير أن تطور القوى الإنتاجية، ومتطلبات الحياة اليومية وحاجات الناس الأساسية، قد بعثت في شرايين العلوم المتصلبة دماءً جديدةً. وبذلك قوضت تجربة الحياة والنشاط العملي، بعض قوانين المثالية والعقائد الكنسية- المصدر: ي-كليانيس (نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة) ترجمة حنا عبود - ص ٤٥ / ٥٠ - دار الطليعة- بيروت (١٩٧١).^(١)

حاجة البرجوازية الصاعدة إلى العلم

إن البرجوازية الصاعدة - برجوازية ما قبل عام ١٨٤٨م الثائرة على المجتمع الإقطاعي في مرحلة أفوله - بحاجة إلى العلم الذي يُساعدها في تسخير قوى الطبيعة، حيث إن المعرفة الصحيحة للطبيعة وقوانين تطور المجتمع لا تقوم إلا على علم مادي موضوعي. ومثل هذا العلم قد أخذ في الظهور: الفيزياء الميكانيكية، التشريح الفسيولوجي، الكيمياء.. إلخ أما وقد اختارت البرجوازية الصاعدة طريق العلم والتمرد على نمط وعلاقات الإنتاج

الاجتماعية والإنتاجية التي كانت سائدة آنذاك: كعلاقة العبد بسيده، مثلاً.

هذا لا يعني طبعاً، خلو الفلسفة الإغريقية من بذور حياة لأفكار جنينية مادية، سيكون لها تأثير بعيد المدى على الفلسفات اللاحقة حتى يومنا هذا.. وتلك البذور، هي نتيجة تصعيدٍ متسام لأفكار وأخلاق الفئة الديمقراطية التقدمية، إضافة إلى الطبقات المحرومة، طبقات أوسع قطاعات الشعب آنذاك (مثل طبقة العبيد الشغيلة على مستوى أعمال الخدمات العبودية والزراعية في وقت واحد): لأن الأفكار والمفاهيم هي بنت الواقع الموضوعي.

وقد كان صراع الفلسفات المادية والمثالية في العالم الإغريقي القديم، بمثابة انعكاس لواقع صراع الطبقات الاجتماعية. واستمر ذلك الصراع في مرحلة جديدة من تطور القوى المنتجة للحياة المادية، وعلاقة هذه القوى ببعضها في المرحلة التالية -مرحلة الإقطاع- فتحوّلت الأساطير الميثولوجية إلى أيديولوجية لاهوتية، وأحياناً صوفية، لتبرير الاستغلال الإقطاعي/ الكنسي لجمهرة الفلاحين: فكادت أن تتجج في إخضاع الفلسفة، وبعض مكونات نظرية المعرفة وعلوم ذلك الزمان البسيطة،

الثورة البرجوازية. وكان كل من (كانط وفيخته وشلنج وهيجل) أشهر ممثلي هذه المدرسة.

لقد أحدث هيجل (١٧٧٠-١٨٣١م) ثورة فكرية هائلة لا تضاهيها في القوة والتأثير إلا الثورة الكوبرنيكوسية، وصلت ذروتها الثورية العقلانية العلمية في الماركسية عبر اليسار الهيجلي: (الراдикаلية الليبرالية والاجتماعية مثل شتراوس، باور، فيورباخ، موسى هس.. إلخ).

ففي الوقت الذي بدأ الفكر الأوروبي ينظر إلى الهيجلية نظرة استخفاف وازدراء، معتبراً إياها فطيسة نتنة، أعلن ماركس في (رأس المال) دفاعه عنها وافتخاره بأستاذية (هيجل) له، وبين أهميتها التاريخية (باعتبارها أعظم نظرية للتطور في عمقها وغناها وشموليتها، وأثمن كنز في الفلسفة الألمانية. فقد درس هيجل قضايا المعرفة البشرية وأشكال التفكير البشري، وصاغ قوانين الديالكتيك الأساسية (وحدة التناقضات وصراعها، قانون التحولات ونفي النفي) واستنبط المراحل المتميزة في العمليات التاريخية وترابطها الداخلي، ونقد الفلسفة اللاأدرية.. إلخ).^(٢)

الإقطاعي، فقد جعل منها آنذاك طبقة تقدمية على حد تعبير ماركس.

لقد استمدت البرجوازية تقدميتها آنذاك ليس من محاربتها لذلك المجتمع الإقطاعي المتعفن ومبادئه المهترئة، أو من وضع حجر الأساس للعلوم الطبيعية والصناعية حسب، بل ومن دورها في تكوين مفاهيم ومبادئ فلسفة مادية كما هو الحال عند كل من (كوبرنيكوس- برونو- غاليلو- بيكون- هوبز- ديكارت- سبينوزا- جون لوك- ديدرو - هولباخ- هيلفيتيوس.. إلخ)؛ فأصبحت هذه المفاهيم والأفكار بمثابة النواة الأساسية للعقلانية العلمية والإنسانية المعاصرة.

وقد هيأت تلك المفاهيم والمبادئ، أيديولوجياً، الأرضية للثورة البرجوازية الفرنسية، ولعبت دوراً كبيراً في النضال ضد المثالية، وذلك من خلال تبريرها النظري للإلحاد ودعوته إلى تطوير العلوم الفيزيائية والنضال من أجل انتشار النظريات والأفكار الاشتراكية الطوباوية، كما هو الحال عند (سان سيمون، فورييه، أوين)؛ إذ تحتل الفلسفة المثالية الألمانية مكاناً مرموقاً في تاريخ الفلسفة. فقد عكست، بطريقتها الخاصة، الطبيعة المتناقضة لتطور ألمانيا عشية

من تفسير العالم إلى تغييره

بيد أن ماركس لم يتقبل أو يتبنّ البذرة الديالكتيكية الهيجلية في وضعها المثالي المقلوب، بل عمل على تنميتها ورفعها إلى أقصى أبعادها وإمكاناتها الحيوية، بعد أن أوقفها عند موضعها المادي الصحيح؛ (وذلك من أجل اكتشاف اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية.. فجميع الأسرار التي تقود الأيديولوجيا إلى الصوفية، تجد حلها العقلاني في الممارسة الإنسانية، وفي فهم هذه الممارسة؛ إذ لم يفعل الفلاسفة غير تفسير العالم، أما المهم فهو تغييره).

بهذا النقد الموجه إلى الفلسفة عامة، والجناح اليساري من فلسفة العقل الهيجلية، دفع ماركس بالفلسفة - كمعرفة مُستقلة - إلى الجحيم؛ من أجل تحقيقها عملياً وتحويلها من تجريد ذهني إلى واقع معاش. حيث إن الفلسفة/ المعرفة تنتقل من الوعي الذهني إلى البراكسيس العملي، فجذور الضياع الديني والفلسفي قائمة في الانقسام بين الحياة العامة والحياة الخاصة للإنسان، بين الفرد والكائن النوعي.. ففي الدين يخلع الإنسان إلى خارجه «كيانه الجوهري» ويضيّع نفسه في وهم عالم مُتعالٍ على حد تعبير ماركس. وهذا الضياع لا يزول إلا بزوال التناقضات الطبقيّة،

وتحرير البروليتاريا لجميع الطبقات من خلال تحريرها لذاتها.

هل هنالك طريق فلسفي ثالث؟؟

إنّ التيار الذي يقع على يمين الهيجلية هو الذي أعاد صياغتها لتتلاءم والردة الرجعية، ولتدافع عن تراث المثالية الميتافيزيقية والغيبّيّات الدينية، وذلك في عصر تحول البرجوازية الصاعدة إلى برجوازية استعمارية. فبعد إنجاز البرجوازية الصاعدة لمهامها ورسالتها التاريخية على الصعيد الداخلي: (تحويل الطبيعة واستغلال الثروات الوطنية مع النزوع نحو ليبرالية تحررية، توحيد الإمارات والممالك الصغيرة في جمهوريات برجوازية شبه ديمقراطية على أسس قومية، إضافة إلى سيادة مفاهيم هذه الطبقة التي تحتاج إلى العلم المادي.. إلخ) - بدأت تتفكك وتتواءم بحمل رسالة ذات طابع رجعي تتناسب وحاجتها إلى المزيد من الإفقار الداخلي/ المحلي للبروليتاريا، والمزيد من الأسواق الخارجية لتصريف بضائعها واكتشاف قارات جديدة غنية بمواردها الأولية الخام. إنّ هذه البرجوازية تتحول إلى عصر جديد: العصر الاستعماري، عصر التسويات الاجتماعية والقومية الخائفة.

العالم، سعت (في محاولات لا تستطيع أن تتحقق إلا على حساب خداع دوغمائي إلى رسم طريق ثالث للفلسفة، لتتمكن نظرية المعرفة البرجوازية من تجاوز المادية والمثالية في آن واحد).

وفي الحقيقة ليست المسألة إلا محاولات لتجديد المثالية الفلسفية، ببعث دماء جديدة في عروقها المتيبسة والمتشنجة لتكون سلاحاً في المعركة العقائدية المعلنة على الماركسية بعد إلباسها لباس الموضوعية الكاذبة، وتزيينها بأساطير جديدة تخفي مذهب (وحدوية الذات القديم) وتستر إفلاس المثالية الموضوعية على صعيد التطور التاريخي. غير أن هذا الطريق قد وجد في «لينين» خصماً عنيداً حين طرح القضية بشكلها النهائي: أولوية الوجود أم الوعي؟ وهل يوجد العالم الموضوعي/ المادي خارج وعينا الذاتي؟! وذلك في كتابه (المذهب المادي والنقد التجريبي).

موقع الوجودية من شجرة الفلسفة

المثالية الغربية

والفكر البرجوازي من خلال أزمته في البحث عن طريق ثالث، يبدو أنه قد عثر على صوفيته الخاصة ليس في علم النفس الكلاسيكي حسب -كما اعتقد

وفلسفة هذه المرحلة تشكل الانعكاس الدقيق للتسوية الاجتماعية على صعيد الفكر، حيث تتخلى عن طموحها القديم في تقديم أجوبة عقلانية على مسائل الفكر البالغة الأهمية. فنظرية المعرفة تتحول في هذه المرحلة، بعد أن استنفدت متطلباتها وموضوعاتها الداخلية، إلى فلسفة لا أدريه بلهاء تقوم بوظيفة (حارس حدود) وصمام أمان للنظام القائم. إن الفلسفة السائدة في هذا العصر هي فلسفة أساتذة، على حد تعبير لوكاتش، بعد أن أصبحت بنفسها «علماء متخصصاً» يقوم على ملامح كانطية جديدة وأسس وضعية، أو نزعات لتجديد المادية الميكانيكية القديمة (مالشوت- باشلار) مع روح تشاؤمية صوفية (شوبنهاور- نيتشه- كيير كيغار) في وقت واحد. (يراجع جورج لوكاتش: ماركسية أم وجودية؟ ترجمة جورج طرابيشي- دار اليقظة العربية في دمشق).^(٢)

ما يزال التخطيط الذي رسمه لوكاتش في عام (١٩٤٧م) لأزمة الفلسفة البرجوازية، وحقيقة الوجودية، محتفظاً بقوته النقدية وعمقه الفكري حتى الآن. فالبرجوازية في طورها الاستعماري الجديد وحاجتها الماسة لأسواق النهب الإمبريالي، مقابل تصاعد المد الاشتراكي والتقدمي في

لتحل محله تصورات ومناهج أكثر سحرية وأسطورية مثل الحدس اللاعقلي (دلثي - هوسرل - برغسون) باعتباره منهجاً فلسفياً يتجاوز المناهج المثالية والمادية ويعتمد التأمل الخالص والمحاييد للواقع، مع تعليق العالم المدروس بين قوسين كما تفعل (الأبوخية) في المعرفة الفينومولوجية.. إضافة إلى تعليق القضايا الإنسانية والحقائق الموضوعية باعتبارها مسائل (نسبية)، كما عند (ماخ، إيفانوروس).. إشاعة الفوضى العلمية في ميدان الفيزياء الحديثة، وإعلان نهاية المادة والحتمية العلمية وبزوغ عصر الحرية الذاتية حسب مفهوم (هيزنبرج) في الذرة: عدم إمكانية تحديد موضع وسرعة الإلكترون في وقت واحد.. إلخ. غير أن ذلك لا يعني نهاية العلم وحقائقه، بل يعني الانتقال من النظرة الميكانيكية (أرسطو - نيوتن - لاباس) إلى النظرة الديناميكية الديالكتيكية.

وما دام العقل قد اهتز عرشه باهتزاز مواقع الطبقة البرجوازية على صعيدي العلم والعمل، ودخول هذه الطبقة مرحلتها الأخيرة وأزمته العامة، ووقوفها على أعتاب حرب كونية شرسة تصفي حساباتها مع الغنيمة لتجد مخرجاً

جورج بوليتزر - بل وفي الوجودية أيضاً. فالوجودية، الملحدة والمؤمنة على حد سواء، تعكس أيديولوجياً السديم الروحي والأخلاقي لتناقضات العقل البرجوازي الراهن، حيث أن الوعي الوجودي، المجرد من كل منظور عيني وحقيقي، يقود إلى العدمية الفلسفية، وإلى خلق الأساطير، التي تعود إلى بقايا لاهوتية لم يعرف هذا الوعي السبيل إلى قهرها. فالوجودية إذن تحمل طابع العدمية التلقائية، شأنها شأن كل عقيدة برجوازية حديثة لا تستطيع أن تجتاز هذه الهوة إلا بفضل مذهب انتقائي معين، على حد تعبير لوكاتش. ولم يكن العقل الماركسي هو الوحيد الذي استطاع أن يلحظ ويكشف تلك البقايا اللاهوتية والصوفية فحسب، بل أن أحد مفكري التحليلية المنطقية (ألفرد جولز آير) قد أشار إلى كثرة التجاء الفيلسوف الوجودي إلى الميتافيزيقيا الغامضة لتبرير مفاهيمه من دون الالتفات إلى أساسها المنطقي (المصدر: مجلة الآداب البيروتية - العدد الخامس - أيار ١٩٦٥ - صفحة ٣٦).^(٤)

تنتقي فلسفة المرحلة الإمبريالية (المثالية الموضوعية) من نظرية المعرفة للمرحلة السابقة، وتطرح جانباً مبدأً اللاأدرية وحتى منهج الجدال الهيجلي،

(ما هو فوق العقلي) ليكون مصدر كل معرفة حقيقية (كذا..!!).

بيد أن هذه المعرفة مجردة من كل عنصر اجتماعي، ومن ثم واقعي، يمكن أن يُعارض وعي الفرد المعزول أو (العبقري) بالمفهوم الفلسفي الوجودي؛ لأنّ العالم الواقعي وقضاياه اليومية حسبها المنهج الفلسفي - ستكون معلقة بين قوسين. وللتأكد من صحة معطيات هذا المنهج ونتائج يمكن أن يعود القارئ الكريم إلى مراجعة أي كتاب في هذا الشأن من كتب فلاسفة هذا التيار، وخاصة كتاب هوسرل (تأملات ديكارتية أو المدخل إلى الفينومولوجيا) وكتاب سارتر (الوجود والعدم).. ومن كل هذا تستبين وتتضح الجذور الدينية/ الصوفية لهذا المنهج الذاتي الذي يذكرنا أيضاً بأفلاطون وعالميه الشهيرين: عالم الحقيقة مقابل عالم الوهم، أو الرغبة في الوصول إلى عالم المُثل المطلق!!

الأسطورية والتشاؤم كبديل عن الروح

العلمية

وهذا الطابع الأسطوري لا يقف عند حدود نيتشه ومغامراته الذهنية والروحية فحسب، بل يمتد ليغطي الوجه المأساوي من الفلسفة الوجودية المعاصرة برمتها.

لأزمتها؛ فإن الوجودية تضطلع بهذا الدور على الصعيد الفلسفي المتقدم، فيستعير (كارل ياسبرز) من (نيتشه) قدريته العمياء، ومن (هيدجر) مفهوم الكينونة من أجل الموت ليبشر ويعط بوجوه منطق على ذاته ومعزول عن كل حياة عامة، يقوم توازنه على تشاؤم كلي إزاء العالم الخارجي كما ظهر سابقاً عند (شوبنهاور).. والهدف الحقيقي لهذه النزعة هو (منع الاستياء الذي ولدته الأزمة في أن ينقلب ضد أسس المجتمع الرأسمالي، والعمل بحيث لا تقدر الأزمة على دفع الفئة المثقفة إلى التمرد ضد مجتمع الإمبريالية - لوكاتش/ مصدر مذكور سابقاً ص ٣١).

فما دام العلم، بالنسبة إلى فلسفة الإمبريالية، عاجزاً عن تقديم رؤية إجمالية شمولية؛ وأن العقل قد توقف - أو وصل إلى حدود ضيقة ومنيعة - فإنها تقدم لنا تصوراً أكثر كوزموبولوتية. وهذا التصور هو بمثابة إرهابات أولية للنزعة الفاشية نحو دولة عالمية، دولة عنصرية هرمية تحاول حل التناقضات البرجوازية الأوروبية، بقدر ما تقدم هذه الفلسفة الإمبريالية منظوراً أبعد من العقل المعروف ومناهجه البالية.. منظوراً يعتمد الحدس اللاعقلي الذي يمكن أن يستشف الواقع العلوي، أو

تصوراً يتلاءم وردة الفعل ضد تنامي الروح العلمية الموضوعية التي بشرت بها طلائع الطبقة الصاعدة (البروليتاريا)، ويعبر في الوقت عينه عن أزمة الفلسفة المثالية في مرحلتها الخائقة (المرحلة الإمبريالية). ولم يترك ذلك الطابع الأسطوري أثره العدمي والسلبى على تفكير نيتشه ورؤيته الكونية الزائفة فقط، بل ترك طابعه المفجع على قواه العقلية أيضاً. وبهذا نستطيع أن نعتبر فلسفة نيتشه من أكثر الفلسفات الذاتية تطرفاً؛ وهذا ما يفسر أيضاً عبارته الشهيرة (لقد كتبت كتبتي بدمي!!).

وقد لاحظ المفكر التقدمي الفرنسي (هنري ليفير) في معرض نقده للفكر الوجودي بأن الإنسان ليس فريسة للقوى الكونية مباشرة كما اعتقد نيتشه، أكثر مما هو منحصر في ذاته انحصاراً انعزالياً. ولذا فإن التهيج العصبي - كما هو حاصل في حالة نيتشه على وجه الخصوص - يؤدي بسهولة إلى حلول مزيفة، ميتافيزيقية، رمزية وخرافية. حيث إن التوسط التاريخي والاجتماعي بين الفرد (العصري) وبين (الكوني) لا يمكن إلغائه بمرسوم شعري فلسفي. وإذا خرج أحدهم من (الإنسان النظري) أو من الأشكال

فإذا كانت فكرة الأبدية (العود الأبدي) تشترك في أكثر من جانب مع فكرة (التكرار) الكيركيجوردية - كما لاحظ ريجس جوليفيه^(٥) - فإنها تترك أثرها الأسطوري واللاعقلاني على مفاهيم وجودية أكثر حداثة، مثل مفهوم (ياسبرز) حول ما أسماه باللحظة السرمدية، ومفهوم هيدجر حول (الكينونة من أجل الموت)، ومفهوم سارتر حول عزلة الإنسان الأبدية في عالم مُعطى وغريب (كثيف ولزج واحتمالي أيضاً.. إلخ)؛ وصوبة هذا الإنسان لأن يكون الله: (إنّ الإنسان هو الموجود الذي يشترع أن يكون الله!!).^(٦) وولع (كامو) في الفكر الميثولوجي والعدمي، وخاصة أسطورة «سيزيف».. إلخ.

موت الإله في فلسفة نيتشه: محاولة حل مشكلة الإنسان في الأرض من خلال التوجه صوب النظر إلى السماء.

إنّ النتيجة التي آل إليها موت الإله المسيحي المزعوم، والحقائق الأخلاقية والتشريعية التي تُبنى على ذلك الزعم أو ما يسميه نيتشه بأخلاق العبيد، اقتضت منه تصوراً أسطورياً جديداً للحياة والخلق والإنسان، تصوراً بعيداً عن المنطق والواقع العلمي الذي كان سائداً في الربع الأخير من القرن التاسع عشر..

منذ البداية على أنها البقية الباقية من فقدانه التام للإيمان بالمعتقدات المسيحية، أي بالشكل الإيماني (ص ٦٣ من كتاب ريجيس جوليفيه - مصدر مذكور في هامش رقم ٥).

وهكذا فإننا نستطيع أن نبني على شهادة (كارل ياسبرز) اتهامه لنيته بالإصلاحية العتيقة، وإعادة تصياغات أسطورية. أي جهده في إزالة التناقض بين شكل الأسطورة ومحتواها، ليس عن طريق الممارسة العملية التي تسعى إلى الكشف عن (اللب العقلاني داخل القشرة الصوفية)، وليس عن طريق تجاوز معطيات الواقع الذي تشكلت وترعرعت من خلاله الرؤية الأسطورية - بل عن طريق التأمل الخالص والنباح النظري المتعالي ضد سبل وأشكال التعبير الميثولوجي فقط، والنتائج القريبة التي تفضي إليها تلك السبل والأشكال. ولذا فقد جاءت رؤية نيته الكونية قريبة كل القرب من التصور المسيحي في جوهره العام، وخاصة جانبه المأساوي كموضوعة (الخطيئة الأصلية) .. رؤية قريبة أيضاً من الاستكانة ذات الطابع الأسطوري التي تؤمل الناس بانتظار البعث والنشور المسيحي مقابل فكرة (العود الأبدي) النيتشوية!!

الأسطورية، ولاسيما من إطار الشكل المسيحي وأخلاقيتهما (العبودية) على حد تعبير نيته ذاته، فإن خروجه لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة الخبرة الاجتماعية وسبل تميمتها وتطويرها من أجل تغيير تلك الأطر الأسطورية والعبودية، وتحويل الواقع تحويلاً ثورياً.

إلحاد نيته، إذن، هو الآخر أسطوري؛ لأن وعي الواقع الإيماني كان وعياً وهمياً وزائفاً. لذا جاء نقد ذلك الواقع جزءاً من نقد السماء بدل نقد الأرض، نقد للنتيجة الظاهرة بدل العلة الجوهرية.. نقد لشكل الأسطورة من دون محتواها!!

وكما لاحظ (جوليفيه) فإن فلسفة نيته كلها، من البداية إلى النهاية، مرتبطة بمشكلة الإله. فالإله هو الشخصية الرئيسة، أو هو بحق الشخصية الوحيدة في قصة نيته الدرامية، كما أن صليب المسيح يسيطر في جلاء على أفق نيته كله، وذلك على نحو يتحول فيه الإنكار بما ينطوي عليه من عنف إلى تأكيد. فتكون (لا) صورة من (نعم) .. وقد استخلص (ياسبرز) النتائج من هذا الإلحاد الكاذب، فاعتبر كفاح نيته ضد المسيحية ما هو إلا نتيجة لميول مسيحية - ونيته على علم بذلك - تجلت لديه

الوجودية كبديل للماركسية

هذا الإعراض عن العقل هو السبيل الوحيد أمام الفلسفة البرجوازية، التي لا تستطيع الاعتراف بإفلاسها وأزمتهما الحادة، والسبيل أيضاً لإخفاء النتائج الاجتماعية والتقدمية لمكاسب العلم، وجعل هذه النتائج مبهمة ونظرية في أن معاً.

هذا التيار اللاعقلي على صعيد الفلسفة، هو التمهيد لسيادة المناخ الروحي لمتقفي الطبقة البرجوازية: أي الوجودية؛ التي ستجهز على البقية الباقية من العقل والعلم والأمل في بناء عالم أفضل، لتحل محله الذات الراضية المتوحدة القلقة اليائسة في خضم وجودٍ منطوقٍ على ذاته كما هو الحال عند (ياسبرز)، عالم كثيف ولزج كما قرأنا في سطور (سارتر).. عالم أخرس وعبثي، لا جدوى فيه من الفعل الإنساني إزاء صمت العالم ولا عقلانيته كما تفيد أفكار (كامو).. والقائمة تطول من هذه التهويمات الإنشائية التي تطرح كبديل للفلسفة الماركسية، فلسفة الأمل والفعل الإنساني القادر على تغيير الواقع تغييراً ثورياً وجذرياً!!

بالطبع فإن هذا التيار، من تيارات الفكر البرجوازي المعاصر، لم يستطع أن يحل القضايا والأسئلة الملحة التي

طرحها وما يزال يطرحها الفكر البشري (علاقة الفكر بالواقع وأولوية أيهما، مثلاً)، بل زادت غموضاً (لتظهر تراجعاً واضحاً من نواح عديدة حتى بالنسبة إلى المرحلة الكلاسيكية؛ لأنها حين تجهد لحل هذه القضايا تلجأ إلى طرد المثالية من الباب لتعيد إرجاعها من النافذة، حيث أن الضرورة التاريخية للطريق الثالث المزعوم أثناء المرحلة الإمبريالية، هي هجر منهج المثالية، مع الحفاظ على نتائجها وأسسها -لوكاتشر - ص ٥٥/ مصدر مذكور).

إنّ تدمير العقل، على الصعيد الفلسفي، مستهدف منه أمران: الأول تحويل الواقع الموضوعي إلى معطى كثيف ولا عقلائي ليعلن هذا العقل عجزه عن سبر غوره، وبالتالي التصريح بزييف ولا جدوى أي فلسفة عقلانية تجهد إلى مثل هذه المعرفة أو السيطرة على هذا الواقع. أمّا الأمر الثاني فيقوم على إهمال الشروط الاجتماعية وقضايا الحياة الإنسانية، ومن ثم اعتبارها مجرد معطيات ثانوية؛ من أجل أن يبقى العالم كما هو على صعيد الممارسة العملية، وعدم الجدوى أو القدرة من تغييره.. إنه شكل من أشكال مكافحة الاشتراكية!!

الهوامش والمراجع

- ١- ي - كليانيش: نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة، ترجمة حنا عبود، دار الطليعة، بيروت (١٩٧١م).
- ٢ - يتضح دور هيجل التقدمي في كتاب أنجلز حول نهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، وفي دفاتر لينين عن الفلسفة والديالكتيك (تُراجع المصادر المذكورة ومؤلفات أوغست كورنو حول حياة ماركس وأنجلز وأعمالهما الفكرية).
- ٣ - جورج لوكاتش: ماركسية أم وجودية؟ ترجمة جورج طرابيشي، دار اليقظة في دمشق.
- ٤- تُراجع صفحة ٣٦ من مجلة الآداب البيروتية، العدد الخامس، أيار (١٩٦٥م).
- ٥- ريجيس جوليفيه: المذاهب الوجودية من (كبير كيجورد) إلى جان بول سارتر، ترجمة فؤاد كامل، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- ٦- جان بول سارتر: (الوجود والعدم ص ٨٩٣) ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الآداب، الطبعة الأولى (١٩٦٦م).



منتشئوس بعد مرور قرنين على وفاته: إنه أعظم الحكماء قاطبة، وشدة إكبار الصينيين لمكانته جعلهم يحيكون حول حياته الأساطير، ويعزون إليه أقوالاً لم تصدر عنه. وحملت الحكماء الصينيين وسائر أصحاب النحل والمذاهب الذين جاؤوا بعده، ونهجوا منهجه على أن يفسروا آراءهم في ضوء أفكاره، وينهجوا بمذهبه الأخلاقي الاتجاه الذي يلائم مذاهبهم الخاصة، وأفكارهم المستجدة، ليدعموا مكانتهم وتظفر تعاليمهم بالثقة المطلوبة، والتأييد المرجو. ومن أجل ذلك يجد المتخصصون في دراسة حكمة كونفوشيوس، وأحداث حياته أنهم في حاجة ماسة إلى إطالة التحقيق، وكثرة التحري.

وقد تعلق الصينيون بآراء كونفوشيوس الأخلاقية تعلقاً شديداً، ولم ينحرفوا عنها إلا في النادر، والملاحظ في تاريخ الأمم والحضارات أن فرط التعلق بمذهب من المذاهب، أو نظرية من النظريات قد يعوق حركة التقدم ولكن الميزة الواضحة في الكونفوشيوسية أنها كانت خلال القرون الماضية القوة التي جنبت الصين تفرق الشمل، وتصعد الوحدة، وحافظت على كيان الإمبراطورية الصينية.

وليس معنى ذلك أن الصين لم تتعرض في تاريخها لموجات من الاهتزازات العنيفة، والثورات المدمرة ولكن حياة الأمم والحضارات لا تخلو من النكسات، ونوبات التصاعد والسقوط، ومزية الكونفوشيوسية أنها كانت على الدوام تعين الصين في استعادة التماسك بعد تفرق الشمل، واسترداد الهدوء والاستقرار بعد التقلقل والاضطراب.

نشأته:

المعروف عن كونفوشيوس أنه ولد في عام (٥٥١ ق.م) في مدينة تشوفو وهي إحدى البلاد التي كانت وقتئذ إمارة (لو) والتي تدعى الآن بولاية شاندونغ اسمه الحقيقي كونج كيو. أما الاسم كونفوشيوس فهو شكل لاتيني من لقب كونج فوزي الصغير، ومعناه المعلم الكبير كونج، وكان والده أحد المجاهدين الشجعان والإداريين الأكفاء، وقد صار أبوه حاكماً في إحدى المدن ومديراً لإحدى مقاطعات ولاية (لو)، وكانت هذه الولاية تعد في هذه الفترة أرقى ولايات الصين حضارة وأكثرها تقدماً.

وكانت الوظائف الحكومية فيها وراثية وقد وُلِّي كثير من أسرة كونفوشيوس

عالمًا جليل الشأن ومدرساً موهوباً فقد رفع ذلك من قدر العلماء والمدرسين وجعلهم مناط الاحترام والتبجيل في تاريخ الثقافة الصينية.

فلسفته:

كثيراً ما وصف كونفوشيوس بأنه أحد مؤسسي الديانات، وهذا تعبير غير دقيق إن لم يكن خاطئاً فمذهبه ليس ديناً. فهو لا يتحدث عن الإله أو السماوات. وإنما مذهبه هو طريقة في الحياة الخاصة والسلوك الاجتماعي والسلوك السياسي. ومذهبه يقوم على الحب - حب الناس وحسن معاملتهم والرفقة في الحديث والأدب في الخطاب. ونظافة اليد واللسان. وأيضاً يقوم مذهبه على احترام الأكبر سناً والأكبر مقاماً، وعلى تقديس الأسرة وعلى طاعة الصغير للكبير وطاعة المرأة لزوجها. ولكنه في الوقت نفسه يكره الطغيان والاستبداد. وهو يؤمن بأن الحكومة إنما أنشئت لخدمة الشعب وليس العكس. وأن الحاكم يجب أن يكون عنده قيم أخلاقية ومثل عليا. ومن الحكم التي اتخذها كونفوشيوس قاعدة لسلوكه تلك الحكمة القديمة التي تقول: «أحب لغيرك ما تحبه لنفسك».

وظائف الحكومة جرياً على هذا النظام الذي كان سائداً، وقد تيتّم في باكورة حياته وظهر ميله الشديد إلى التحصيل منذ صغره، فلم يكد يبلغ الرابعة عشرة من عمره حتى كان قد وعى كل ما عند معلمه من ذخائر المعرفة، وفي الوقت نفسه كان لا يكف عن مباشرة التمرينات الرياضية وكان له ولع خاص بالموسيقى والعزف على القيثارة، كما عرف بحبه للشعر وباستقامة الأخلاق ورجاحة العقل ورباطة الجأش.

ولما بلغ أشده عُيّن في وظيفة حكومية متواضعة إذ وُكِّل إليه الإشراف على أحد الأمراء، وبعض الأراضي العامة التابعة للحكومة ولكي يزيد دخله القليل صار يعطي دروساً لبعض الطلبة، وأظهر تفوقاً ملحوظاً في التدريس مما جعل الطلبة من الأسر النبيلة يؤمنون داره لتلقي العلم وسرعان ما ذاعت شهرته، وأثبت أنه أغزر سكان الولاية علماً، وأوسعهم معرفة ويبدو أنه أول من احترف تدريس الموضوعات السامية التي كانت تعلو على المعلومات الدارجة المألوفة التي كان يتلقاها الطلبة قبل عهده. وقد قدم بذلك مثلاً يقتدى به وجرى الصينيون منذ ذلك العهد على اتباع مثاله واتخاذة قدوة ولما كان كونفوشيوس

يعتبر كونفوشيوس الفضيلتين الهامتين هما (جن) و(لي) والرجل المثالي يسير حياته طبقاً لهما. وقد ترجمت (جن) بالحب أو الاهتمام الحميم بإخواننا البشر، أما (لي) فهي تصف مجموعة من الأخلاق والطقوس والتقاليد والأتيكيت واللياقة والحشمة.

وكان كونفوشيوس محافظاً في نظريته إلى الحياة فهو يرى بأن العصر الذهبي للإنسانية كان وراءها - أي كان في الماضي. وهو لذلك كان يحن إلى الماضي ويدعو الناس إلى الحياة فيه، ولكن الحكام على زمانه لم يكونوا من رأيه ولذلك لقي بعض المعارضة.

وقد اشتدت هذه المعارضة بعد وفاته ببضع مئات من السنين، عندما ولي الصين ملوك أحرقوا كتبه وحرموا تعاليمه، ورأوا فيها نكسة مستمرة. لأن الشعوب يجب أن تنظر أمامها. بينما هو يدعو الناس إلى النظر إلى الوراء، ولكن ما لبثت تعاليم كونفوشيوس أن عادت أقوى مما كانت وانتشر تلاميذه وكهنته في كل مكان، واستمرت فلسفة كونفوشيوس تتحكم بالحياة الصينية قرابة عشرين قرناً أي من القرن الأول قبل الميلاد حتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

أما إيمان أهل الصين بفلسفة كونفوشيوس فيعود إلى سببين: أولاً أنه كان صادقاً مخلصاً. لاشك في ذلك. ثانياً أنه شخص معقول ومعتدل وعملي. وهذا يتفق تماماً مع المزاج الصيني. بل هذا هو السبب الأكبر في انتشار فلسفته في الصين. وهو بذلك كان قريباً منهم. فلم يطلب إليهم أن يغيروا حياتهم أو يثوروا عليها. وإنما هو أكد لهم كل ما يؤمنون به فوجدوا أنفسهم في تعاليمه.

ولذلك ظلت فلسفة كونفوشيوس صينية. ولم تتجاوزها إلا إلى اليابان وكوريا. ولكن هذه الفلسفة قد انحسرت تماماً عن الصين. بعد أن تحولت إلى الشيوعية واتجهت الصين إلى المستقبل وانتزعت نفسها من هذا المذهب في الحياة وذلك بالبعد عن الماضي ومسألة الناس في الداخل والخارج. ولكن تظل فلسفة كونفوشيوس هي التي حققت سلاماً وأمناً داخليين أكثر من عشرين قرناً للصين. وقد فشلت الكونفوشوسية أن تترك أثراً يذكر خارج الصين.

من حكم كونفوشيوس :

لو قال كل إنسان ما يفكر فيه بصدق فإن الحوار بين البشر يصبح قصيراً جداً.

سلح عقلك بالعلم خير من أن تزين جسدك بالجواهر. ليس من أغراك بالعسل حبيباً، بل من نصحك بالصدق عزيزاً. العقل كالمعدة المهم ما تهضمه لا ما تبتلعه.

مما قاله عن لسان المرأة «إنك مهما حذرت من لسان المرأة فسوف تلدغ منه عاجلاً أو آجلاً». إن تجاوز الهدف مثل عدم بلوغه. ليست العظمة في ألا تسقط أبداً بل في أن تسقط ثم تتهض من جديد.

تلقى كونفوشيوس علومه الفلسفية على يدي أستاذه الفيلسوف لوتس Laotse صاحب النحلة الطاوية، حيث كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كونفوشيوس خالفه فيما بعد داعياً إلى مقابلة السيئة بمثلها وذلك إحقاقاً للعدل.

- عندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسة لدراسة أصول الفلسفة، تكاثر تلاميذه حتى بلغوا ثلاثة آلاف تلميذ، بينهم نحو ثمانين شخصاً عليهم أمارات.

تنقل في عدد من الوظائف فقد عمل مستشاراً للأمراء والولاة، وعيّن قاضياً وحاكماً، ووزيراً للعمل، ووزيراً للعدل ورئيساً للوزراء في سنة (٤٩٦ ق.م) حيث أقدم حينها على إعدام بعض الوزراء السابقين وعدداً من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتى صارت مقاطعة (لو) نموذجية في

تطبيق الآراء والمبادئ الفلسفية المثالية التي ينادي بها.

رحل بعد ذلك وتقل بين كثير من البلدان، ينصح الحكام ويرشدهم ويتصل بالناس بيث بينهم تعاليمه يحثهم على الأخلاق القويمة.

أخيراً عاد إلى مقاطعة (لو) فتفرغ لتدريس أصدقائه ومحبيه منكباً على كتب الأقدمين يلخصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفكاره، وحدث أن مات وحيد الذي بلغ الخمسين من عمره، وفقد كذلك تلميذه المحب إليه هووي فبكى عليه بكاءً مرّاً.

صفاته الشخصية:

دمث، مرح، مؤدب، يحب النكتة، يتأثر لبكاء الآخرين، يبدو قاسياً وغلظاً في بعض الأحيان، طويل، دقيق في المأكل والملبس والمشرّب، مولع بالقراءة والبحث والتعلم والتعليم والمعرفة والآداب.

مغرم بالبحث عن منصب سياسي بغية تطبيق مبادئه السياسية والأخلاقية لتحقيق المدينة الفاضلة التي يدعو إليها. خطيب بارع، ومتكلم مفعوّه، لا يميل إلى الثثرة، وعباراته موجزة تجري مجرى الأمثال القصيرة والحكم البليغة.

لديه شعور ديني، يحترم الآلهة التي كانت معبودة في زمانه، ويدوم على تأدية

من القرن الأول قبل الميلاد وحتى نهاية القرن التاسع عشر بعد الميلاد، ومازالت الروح الكونفوشيوسية تحيا في المجتمع الصيني بشكل أو بآخر إلى الآن.

معبد كونفوشيوس:

كونفوشيوس «أبو الفلاسفة» ونظراً للمكانة التي مثلها كونفوشيوس في المجتمع الصيني تم إدراج معبده وغابته وقصره في مدينة تشوفو مسقط رأسه في قائمة التراث العالمي التي حددتها منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة.

قدم كونفوشيوس عدداً من الكتب تمثل فيها فكره فقدم الكتب الخمسة وهي الكتب التي قام كونفوشيوس بنقلها عن الأقدمين وهي كتاب الأغاني أو الشعر، كتاب التاريخ، كتاب التغيرات، كتاب الربيع والخريف كتاب الطقوس، كما توجد الكتب الأربعة وهي الكتب التي قام بتأليفها هو وأتباعه وهي كتاب الأخلاق والسياسة، كتاب الانسجام المركزي، كتاب المنتجات، كتاب منسيويس.

الكونفوشيوسية الحديثة.

كان الكونفوشيوسيون القدامى يشغلون أنفسهم باحتياجات المجتمع بصفة رئيسية. ومع ذلك، فإن تعاليم الفلسفة

الشعائر الدينية، يتوجه في عباداته إلى الإله الأعظم أو إله السماء، يصلي صامتاً، ويكره أن يرجو الإله النعمة أو الغفران إذ إن الصلاة لديه ليست إلا وسيلة لتنظيم سلوك الأفراد، والدين - في نظره - أداة لتحقيق التآلف بين الناس.

كان يغني، وينشد، ويعزف الموسيقى، وقد ترك كتاب الأغاني Book of Songs كما أنه كان مغرمًا بالحفلات والطقوس، إلى جانب اهتمامه بالرماية وقيادة العربات والقراءة والرياضة الحساب ودراسة التاريخ.

حرق كتبه:

على الرغم من قرب كونفوشيوس من أباطرة وحكام الصين، إلا أن تعاليمه تعرضت للمعارضة والاضطهاد من بعض الحكام، وزادت نبرة المعارضة له، وتم حرق كتبه وحرمت تعاليمه في عهد الإمبراطور «تشين شي هوانغ»، وكونفوشيوس على الرغم من وفاته إلا أن الشعب الصيني ظل متمسك بتعاليمه والتي ما لبثت أن عادت مرة أخرى وربما أكثر قوة، وانتشرت بين تلاميذه وكهنته، وظلت الفلسفة الكونفوشيوسية مسيطرة على الحياة الصينية قرابة العشرين قرناً

الجناح المنطقي. وأكد على دراسة النموذج الذي وراء العلاقات الإنسانية والطبيعية. أمّا الدارسون بقيادة وانج يانج منج (١٤٧٢-١٥٢٩م)، فقد وسّعوا الجناح البديهي للكونفوشية المحدثّة. وبحثوا عن التوفير عن طريق المزج بين التوسّط والعمل الأخلاقي.

واستمرت الكونفوشية تؤثر بقوة في الحياة الصينية إلى أن حدث الصراع بينها وبين الأفكار الغربية، خصوصاً الشيوعية، وذلك خلال سنوات القرن العشرين. وقد عارضت الحكومة الصينية الشيوعية، الكونفوشية لسنوات طويلة، لأن تلك الفلسفة تشجع الناس على النظر إلى الماضي أكثر من النظر إلى المستقبل. ومع ذلك، فقد انتهت معارضة الحكومة عام (١٩٧٧م) أن الكونفوشية ليست ديناً سماوياً معروفاً. وقد تتضمن بعض تعاليمها دعوة إلى خلق حميد أو رأي سليم أو سلوك قويم، ولكنها ليست مما يتقرب به إلى الله.

وقد كان المزج المحكم بين الفلسفة الخلقية والتعاليم الدينية على أتم وضوح في الكونفوشية وصاحبها كونفوشيوس الذي لم يكن رسولاً مبعوثاً ولا مدعيّاً لرسالة.

الطاووية وكذلك الفلسفات الأخرى، ساعدت على التركيز على جوانب أخرى من التجربة الإنسانية. فعلى سبيل المثال، كانت قدرة الشخص على أن يعيش في انسجام مع الطبيعة قضية ثانوية بالنسبة لكونفوشيوس، ولكنها أصبحت موضوعاً مهماً في الفكر الكونفوشي خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد.

واعتباراً من القرن الثالث الميلادي وحتى القرن السابع الميلادي، تناقص الاهتمام بالكونفوشية في الصين. وتحول كثير من الصينيين إلى البوذية والطاوية، تلك الفلسفات تناولت مشكلات كانت تعاليم الكونفوشية قد تجاهلتها تماماً، مثل معنى المعاناة والموت.

وفي القرن السابع الميلادي، بدأ إحياء الاهتمام بالفلسفة الكونفوشية. وفي خلال القرن الثامن الميلادي كان على المرشحين لوظائف حكومية أن يؤدوا امتحاناً للخدمة المدنية مبنياً على التعاليم الكونفوشية. كان الامتحان يُطبّق اعتقاد كونفوشيوس بأن الدولة القوية يجب أن تقوم على كفاءة مستشاري حكامها.

وأصبح ذو كسي (١١٣٠-١٢٠٠م) قائداً لحركة الكونفوشية المحدثّة. وقد أنشأ فرعاً من الكونفوشية المحدثّة يسمى

المراجع

- ١- الحوار، كونفوشيوس فيلسوف الصين الأكبر، ترجمة محمد مكي، المطبعة السلفية، القاهرة، (١٣٥٤هـ).
- ٢- كونفوشيوس، المعرفة، فؤاد محمد شبل، ص(٧٧، ٧٨) محمد أبو زهرة، ص(٨٠).
- ٣- كونفوشيوس: النبي الصيني، د. حسن شحاتة سعيان، مكتبة نهضة مصر.
- ٤- كونفوشيوس والصين الحديثة، علي أدهم، مجلة العربي، العدد (١٦٣) يونيو (١٩٧٢م).
- ٥- محاضرات في مقارنات الأديان، محمد أبو زهرة، مطبعة يوسف، مصر.
- ٦- الملل والنحل للشهرستاني، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت. انظر الذيل الذي هو من تأليف محمد سيد كيلاني صفحة (١٩).



ذاتي عميق، فكلاهما يعتمد على قدرة العبقري على الاستثارة المباشرة للانفعالات. وبسبب هذه الخاصية اللاعقلانية، فإن هاتين الظاهرتين لاتذعنان تماماً لتطبيق المنهج العلمي، ولذلك فإن نتائج البحوث حول الإستطيقا والكاريزما ذات طابع أولي ومؤقت. وكلا هذين الموضوعين من الحقول الجديدة التي يبحث فيها القياس التاريخي عن مبادئ ناموسية أو عامة.

الموسيقى الكلاسيكية:

لماذا تعلق بعض المقطوعات الموسيقية بأذهاننا، وتقوم بتصفيرها أثناء مشينا في الشارع، بينما تتلاشي مقطوعات أخرى من الذاكرة بسرعة بمجرد انتهاء النغمات الأخيرة منها؟

إنَّ القول بأن قابلية لحن معين للتذكر أكثر من غيره يعتمد على تكرار إذاعته على موجات الأثير أو عزفه في قاعات الموسيقى، هو من نوع المصادرة على المطلوب، ففي المقام الأول لماذا يجري عزف بعض المؤلفات أكثر من غيرها؟ ويفترض أن الإجابة تكمن في فارق الجمال، أو القوة الانفعالية المميزة للألحان المختلفة، فالألحان التي تمتلك أعظم أثر يجب أن يكون احتمال سماعها ومن ثم

تذكرها أكبر. والسؤال الذي ينبغي طرحه الآن هو: ماهي هذه الخصائص التي تجعل العمل الموسيقي جميلاً أو قوياً لاينسى؟ للإجابة عن هذا السؤال قام برلين (١٩٧١م) Berlyne وهو واحد من رواد الإستطيقا التجريبية، بتطوير نموذج «الاستثارة المثالية» Model Optimal Arousal. ووفقاً لهذا النموذج، فإن الخبرات الإستطيقية تستثير العقل، وترفع مستوى التعقيد Complexity والجدة Novelty والإدهاش Surprisingness والغموض Ambiguity وغير ذلك من الخصائص الإستطيقية المميزة. فالأعمال الفنية البسيطة جداً، والمبتذلة، أو العادية هي أعمال لاتثير الاهتمام.

أمَّا الأعمال الإستطيقية التي تمنع في التعقيدات وتسرف في المفاجآت غير المتوقعة ويبلغ من أصالتها أنها تتحدى فهم من يسعون لتذوقها فأغلب الظن أنها ستستثير رد فعل معاكس. والأمر المثالي، بالنسبة لأي عمل إستطيق كالمؤلف الموسيقي، هو أن يقع فيما بين هذين النقيضين.

لقد أيدت التجارب العملية بشكل عام بأن هذه الدراسات استخدمت منبهات مصطنعة لذلك، فإننا لانستطيع أن نعرف

اللحنية في كل ثيمة. فاستخدمت تحليل المضمون المحسوب لحساب احتمالات الانتقال بين نغمتين في كل لحن داخل في الذخيرة الكاملة من الألحان. ففي مقام C مثلاً كانت النقلتان من (C إلى C) ومن (C إلى G) شائعتين تماماً، بينما كانت النقلتان من (C إلى Dsharp) ومن (C إلى Gflat) أندر بكثير. وقد استطعت من خلال أخذ النغمات الست الأولى في كل ثيمة وحساب احتمالات الانتقال الخمس الممكنة بين كل نغمتين من هذه النغمات الست أن أحدد الأصالة اللحنية للثيمة في الذخيرة على أنها تتمثل في عدم احتمال ظهور الثيمة في سياق كل الألحان عالية الكروماتية Highly Chromatic Melodies المشتملة على نوتات عارضة Accidentals كثيرة أشد أصالة من تلك التي تلتزم بالنوتات السبع للسلم الموسيقي. كذلك فإن الألحان التي تقفز فيها النوتات المتتالية قفزات غير مألوفة أو غير عادية، هي أكثر أصالة من الألحان التي تتقدم بشكل ثلثي Thirds by، وعلى الرغم من أنه قد يبدو من المرغوب فيه النظر إلى نقلات من مستوى أعلى إلا أنه ظهر أن هذا غير ضروري، إذ وجدنا أن درجات الأصالة اللحنية التي قامت

بشكل يقيني ما إذا كان هذا النموذج ينطبق على المواقف الإستيطيقية في الحياة الواقعية أم لا. هذا على الرغم من أن واحداً من علماء الموسيقى قد طرح نظرية تتفق وهذا النموذج. وما يحتاجه هو فحص يعتمد على القياس التاريخي للمؤلفات الموسيقية الفعلية، وهو ما فعلته في دراسة حديثة (Simonton, 1980 d) وقد كانت وحدة التحليل هي اللحن الواحد أو الثيمة. وقد تم الحصول عليه من ذخائر الموسيقى الكلاسيكية التي تتردد في الحفلات الموسيقية. وتكونت العينة من ٦١٨، ١٥ ثيمة قَدِّمها ٤٧٩ مؤلفاً موسيقياً. ولم أستبعد أي مؤلف موسيقى كبير، ولا حتى أية مقطوعة موسيقية ابتذلت لكثرة تكرارها. وقمت من خلال استخدامي لكتب التذوق الموسيقي، وأدلة بيع الأسطوانات، ومجموعات المقتطفات الشائعة، وكتب التاريخ الثقافية العامة، والقواميس الثيمية، وأدلة المكتبات، قمت بتقدير الثيمات بشكل موضوعي عبر مقياس يتكون من ٣٢ نقطة يبدأ من أقلها إلى أكثرها. وقد أظهر مقياس «الشهرة الثيمية» هذا أنه يرتبط مع التكرار الفعلي لعزف هذه الألحان في الحفلات الموسيقية. كانت المهمة التالية هي تقدير الأصالة

المؤداة بوساطة الآلات تميل إلى أن تكون أشهر من الألحان المغناة -مثلاً- وبما أن مقطوعات الحفلات الموسيقية تميل إلى أن تكون أكثر شعبية من مقطوعات الغلافة Chamber والمسرح، أو الأعمال التي تعزف في الكنائس، فقد كان لابد من أخذ ذلك التفضيل المشار إليه ضمناً للموسيقى الأوركسترالية- في الحسبان.

الدراما

تعد «هاملت» و«أوديب ملكا» من روائع الأعمال المعترف بها، فهما كثيراً ما تقرأن، وتناقشان، وتقدمان للجمهور، ويستشهد بهما. ومع ذلك فإن كلاً من شكسبير وسوفوكليس، أنتج أيضاً أعمالاً درامية أقل مرتبة. فكم مرة قدمت «تايتس أندرونيكوس» Titus Andronicus للجمهور؟ ومن يقرأ «بنات تراخيس» الآن؟ من الواضح أن هناك شيئاً ما أكثر رهافة ومراوغة من اسم المؤلف الموجود على صفحة العنوان، هو الذي يجعلنا نَصِفُ مسرحيات معينة بأنها أعظم من غيرها ونودع مسرحيات أخرى في غياهب الإهمال. لقد تصدّيت لمسألة الأسباب التي تساهم في جعل مسرحية معينة من الروائع، فقامت بفحص ٨١

على الأصالة اللحنية التي تقوم على أساس النقلات بين نغمتين (ر = ٨١، ٠). والنوع الأخير من النقلات النغمية تكاليف حسابه أقل بكثير. وقد يتشكك امرؤ من إمكانية الحصول على معلومات كثيرة حول لحن ما من خلال نغماته الست حتى النغمات الأربع الأولى تكفي عادة لكشف أسلوب المؤلف الموسيقي (Paisley, 1964). فإذا كانت النغمات الأربع الأولى قادرة على الكشف عن هوية المؤلف الموسيقية، فإن النغمات الست الأولى لابد أن تكفي لتخبرنا بشيء عن البنية اللحنية لتلك الثيمة. يسمح لنا هذان المقياسان بتحديد العلاقة الوظيفية بين شهرة الثيمة وبين الأصالة اللحنية. فالشهرة دالة لها شكل حرف J (المعكوسة)، فمع تزايد الأصالة اللحنية يتزايد تكرار عزف الثيمة إلى الحد الأقصى، ثم ينخفض معدل تكراره وتميل أقل الثيمات شعبية إلى أن تكون أشدها أصالة، فجمهور المستمعين يفضل النغمات المبتذلة أو الشائعة على الألحان اللامقامية Atonal أو الجمل الموسيقية القائمة على النوتات المتسلسلة Serial وقد اكتشفت هذه العلاقة المنحنية بعد التحكم في مجموعة من العوامل الاصطناعية الممكنة. فيما أن الألحان

لمسرحية أبدعها خمسة من أشهر مؤلفي الدراما في العالم: منها ٧ مسرحيات لأيسخيلوس، و ٧ مسرحيات لسوفوكليس، و ١٩ ليوريبيدس و ١١ لأريستوفانيس، و ٢٧ لشكسبير. وهناك تحليل مضموني مفصّل لكل هذه المسرحيات موجود في كتاب (الكتب العظيمة في العالم الغربي) The Greol Westen Works (Hutchins. 1952 Books of the Westen حددت من هذا المرجع القيم الثمانيات الاثنتين والأربعين الكبرى لهذه الأعمال الدرامية الكلاسيكية وعرفت الثيمة الرئيسية بأنها موضوع ناقشه المؤلفون الخمسة في مسرحية واحدة على الأقل لكل منهم. وبشكل موضوع «الصراع بين الحب والواجب» مثلاً على ذلك. وقد قمت بحساب النسبة المكرسة لكل قضية في كل مسرحية، ثم قمت بعد ذلك بإجراء التحليل العاملي لدمج هذه القضايا في ١٩ قضية أساسية. واستخدمت هذه العوامل المضمونية أيضاً من أجل التحديد الإجرائي «لثراء القضايا» Issue Richness التي تثيرها كل مسرحية: أي عدد القضايا أو المشكلات الأساسية التي تتناولها كل مسرحية. وقمت، من أجل تقدير عظمة المسرحية، بالتحليل العاملي

لخمسة مقاييس للاستشهاد، من بينها: تكرار الظهور في المختارات، والملخصات الأدبية، وملخصات الحكايات وتواريخ الأدب. وكانت النتيجة مقياساً للعظمة الدرامية له درجة عالية من الموثوقية (معامل ألفا ٠,٨٢). وتم تقدير خصائص أخرى عديدة للمسرحيات، من بينها مدى قابلية المسرحية للاستشهاد بها، Play's Quotability وعدد أبيات المسرحية البارزة أو الجديرة بالذكر فيها. وقد وضعت في اعتباري أيضاً عُمُر المؤلف المسرحي عند تأليفه للمسرحية، وكذلك متغيرات عديدة تتعلق بالسياق السياسي المعاصر له، من أجل إلقاء الضوء على القاعدة التطورية والاجتماعية الثقافية للإبداع المسرحي. وأخيراً أدخلت العديد من متغيرات الضبط المناسبة. لقد تبين أن أشهر مسرحيات هؤلاء المؤلفين الدراميين الخمسة تشتمل على العديد من المقطوعات التي يكثر الاستشهاد بها (r=٠,٣٩) وأنها تحيط بعدد أكبر من القضايا الكبرى (r=٠,٢٦) من ذلك الذي تحيط به أعمالهم المسرحية الأقل شهرة وقد كشف تحليل المسار Path Analysis أن ثراء القضايا ليس له تأثير مباشر على النجاح المستمر للمسرحية، وبدلاً من ذلك، فإن

المحتوى. ولا شك أن بحوث المستقبل ستقربنا من اكتشاف الخصائص الإستيطيقية التي تنتج معاً ما نسميه بالعظمة.

القائد الكفاء

قليلة هي السمات الشخصية التي تضاهي الدراما في صعوبة التعريف الدقيق. فإن تكون كاريزمياً معناه أن تمتلك خاصية غامضة تزودك بالأساس القوي للتأثير الفذ، سواء أتم هذا في الصلات الشخصية الحميمة، أو أمام الحشود الهائلة من البشر. ومن الأسهل بكثير أن نقدم أمثلة موضحة لهذا الموقف من أن نعرفه إجرائياً بأي شكل من أشكال التعريف. لقد كان نابليون قائداً كاريزمياً بشكل واضح، وكذلك كان هتلر، ولكن ما الذي جعلهما كذلك؟ كان الباحث الوحيد الذي أحرز بعض التقدم في اتجاه تقدير المستويات المختلفة من الكاريزما التي أظهرها زعماء عديدون للدول هو تشارلز سل (١٩٧٤م) C. Ceil. فقد ابتكر، من خلال تركيزه على زعماء الدول الذكور، مقياساً يحتوي على مؤشرات وثيقة الصلة بالموضوع: فالقائد تتراكم عنه نقاط تجعله شخصاً كاريزمياً إذا ألصقت صورته الشخصية، أو وضعت بطريقة بارزة، في الأماكن العامة والمنازل،

هذه السمة المضمونية تجعل أثرها محسوساً من خلال أثرها على قابلية المسرحية لأن يستشهد بها. وكلما اتسع مدى القضايا الفلسفية الجوهرية التي طرحها المسرحية زاد تأثير ماتقدمه من أقوال مسرحية جديرة بالذكر والاستظهار. والشئ المثير للاهتمام أن المناظرات الفلسفية التي تتلاقفها الشخصيات في المسرحية لعلقة لها بنجاح المسرحية لدى المشاهدين، فالمسرحيات العظيمة لا يمكن تمييزها عن المغمورة على أساس الثيمات التي تتناولها. إذ لا يمكن لقصة حب مثلاً أن تتقذ مسرحية رديئة من الفشل أكثر مما يمكنها أن تتقذ فيلماً رديئاً.

إن عدد القضايا التي تعالجها المسرحية (أي ثراءها) هو ما ينبغي أن يوضع في الحسبان بشرط أن يتم التعبير عن هذه القضايا بلغة تعلق بالذاكرة. لم تقم هذه الدراسة التي استخدمت أسلوب تحليل المضمون بأكثر من خدش سطح السؤال التالي: ما الذي يجعل بعض المسرحيات من الروائع؟ ومع ذلك فإن هذا الاستقصاء التمهيدي قد قدّم لنا مثلاً موضحاً عن الكيفية التي يمكن من خلالها اختبار عظمة المبدعات الأدبية في ضوء خصائص

روزفلت وحصل على ٦ نقاط، جون كندي وحصل على ٤ نقاط.

إنَّ محاولة سل هذه لجعل مفهوم الكاريزما مفهوماً موضوعياً، هي محاولة غير عادية، فمعظم البحوث التي ترتبط بهذا الموضوع لم تحاول حتى أن تقيس الكاريزما بشكل مباشر، على الرغم من أن هذه السمة كانت دائماً تكمن في الخلفية. فقد انحصر التركيز عادة في جوانب القيادة التي تبدو أكثر مطاوعة للقياس العلمي.

أداء الرئيس وعظمته

حاول الباحثون في المجال التاريخي أن يتوصلوا لطريقة تمكنهم من التنبؤ بأن أي الطامحين لمنصب الرئاسة سيكون الرئيس الأكفأ، آخذين بعين الاعتبار ثروة المعلومات المتاحة عن خلفية كل مرشح وعن خبرته السياسية. لكن هذه المحاولات لم تكن ناجحة تماماً مع الأسف. وعلى سبيل المثال، فقد قمت بدراسة شاملة عن رؤساء الولايات المتحدة الثماني والثلاثين منذ واشنطن حتى كارتير (Simonton 1981 C) وقمت بتحديد مجموعتين من المتغيرات. اشتملت الأولى على عدد كبير من المتغيرات الخاصة بالسيرورة عن فترة ما قبل الرئاسة،

وإذا ظهر تمثال للزعيم في عاصمة الأمة خلال توليه مقاليد الحكم، وإذا اعتبر موحداً للدولة في اتجاه هدف عظيم، وعلى أنه يقودها نحو النصر العسكري ضد الأعداء الخطرين، وإذا كان هذا القائد يلقي بخطب طويلة، ولايبالي في تقديره للأمور الاقتصادية الأساسية، وإذا كان لدى الناس الرغبة في القيام بتضحيات شخصية من أجله، وإذا كان يتصف ببعض الفحولة. وقد قام سل بتطبيق قياسية المكون من ١١ نقطة حول الكاريزما على ٣٤ من زعماء دول العالم المعاصرين. وكان الزعماء الذين حصلوا على عشر نقاط، وهي تقع عند قمة هذا المقاس، هم هتلر وكينياتا وموسوليني وأتاتورك؛ أما عند قاع المقاس، وعند النقطة صفر فقد وجدت شخصيات مثل: بن غوريون، وفري Frei وأديناور، وفيما بين القمة والقاع وجدت شخصيات مثل: سوكارنو حصل على ٩ نقاط، و«ماو» حصل على ٨ نقاط، وكاسترو حصل على ٧ نقاط، وديغول حصل على ٥ نقاط، ولينين حصل على ٤ نقاط، وحصل نيريري على ٣ نقاط، وتشرشل على نقطتين. أمَّا خروتشوف فحصل على نقطة واحدة. وقد كان الرئيسان الأمريكيان الوحيدان بين هؤلاء الزعماء الـ ٣٤، هما فرانكلين

وتم التعريف الإجرائي لهذه المتغيرات لتكون مؤشرات تنبؤية ممكنة. وقد اشتملت هذه المتغيرات الخلفية الأسرية، والتعليم الرسمي، والعديد من الخصائص الشخصية (مثل العمر عند تسلم الرئيس مقاليد منصبه الرئاسي) والمهنة السابقة، والخبرة السياسية السابقة. أمّا المجموعة الثانية من المتغيرات فقد تم تحديدها إجرائياً على أنها معايير موضوعية للأداء الرئاسي الفعلي. وقد اشتملت هذه المعايير على جوانب عديدة من سلطة الرئيس التشريعية والتنفيذية، مثل استخدام حق الفيتو أو الاعتراض، والمفاوضات لعقد المعاهدات، ونوعية التعيينات التي يقوم بها في المحكمة العليا وفي مجلس الوزراء. وقد كان عدد هذه المتغيرات ومداها مماثلين بدرجة كبيرة لعدد المتغيرات التنبؤية ومداها.

وقد تبين أن هناك متغيراً واحداً من متغيرات السيرة السابقة على الرئاسة له فائدة تنبؤية عامة فيما يتعلق بالأداء الرئاسي الذي قيس قياساً موضوعياً: فالرؤساء الذين وصلوا إلى منصب الرئاسة من مواقعهم في نيابة الرئيس، عقب وفاة الرؤساء السابقين أو استقالتهم ثبت أنهم أقل نجاحاً من الرؤساء الآخرين. فهؤلاء الرؤساء غير المنتخبين يميلون إلى أن تحدث خلال

حكمهم استقالات أكثر من مجلس الوزراء وإلى أن يرفض مرشحوهم للتعين في مجلس الوزراء أو المحكمة العليا أكثر من قبل مجلس الشيوخ، وأن يرد استخدامهم لفيتو أكثر، من قبل الكونغرس، وأن يرفض حزبهم ترشيحهم للجولة القادمة من انتخابات الرئاسة. فمن بين نواب الرؤساء التسعة الذين أصبحوا رؤساء بشكل غير متوقع، وهم تايلر وفيلمور وأندرو جونسون وآرثر وتيودور روزفلت وكولج وترومان ولندن جونسون وفورد، لم ينتخب إلا أربعة منهم لفترة ثانية من الحكم. ومقارنة بذلك، فإن ٨ فقط من ٣٠ رئيساً تم انتخابهم بشكل طبيعي هزموا خلال عملية إعادة الترشيح أو إعادة الانتخاب وهم: جون آدمز وجون كويني آدمز، وفان بيبورن، وكليفلاند، وبنيامين هاريسون وتافت وهوفر وكارتر، ولايكاد كليفلاند يستحق الضم إلى هذه القائمة لأنه خسر الانتخابات ضد هاريسون على الرغم من أنه قد كسب أغلبية الأصوات الشعبية ولأنه هزم هاريسون في الانتخابات التالية فأصبح الرئيس الوحيد الذي يحكم فترتين غير متتاليتين... وهكذا، فإن احتمالات هزيمة الرؤساء غير المنتخبين في مساعيهم لإعادة انتخابهم تزيد بمقدار الضعف تقريباً، عند مقارنتهم بالرؤساء

جغرافياً، ومن ثم فليس هنالك من ضمان بأن الصفات القيادية ستكون هي ما تتوخاه عملية الاختيار بالدرجة الأولى.

وربما كان سبب فشلنا في اكتشاف معادلة موضوعية يمكنها أن تتنبأ بأداء الرئاسة هو أن المتغيرات المعيارية التي استخدمناها كانت أشد موضوعية مما يجب. فرفض المرشحين للتعين في مناصب مجلس الوزراء أو المحكمة العليا، ليس أكثر من ظاهرة سطحية، أي مجرد مظهر من مظاهر القصور الأعظم من حيث التأثير الشخصي للرئيس. ومثل هذه المقاييس قد تكون بعيدة تماماً عن الموضوع الأصلي لدراستنا الحالية: أي الكاريزما الرئاسية. وقد نجح أكثر إذا ما لجأنا إلى معيار أشد ذاتية، وقد ذكرت في الفصول السابقة البحث الذي قام به مارانل (1970م) الذي طلب من 571 مؤرخاً أن يقدروا 33 رئيساً على سبعة أبعاد للقيادة. وقد أخذت تقديرات مارانل هذه وقمت بدمجها، باستخدام التحليل العاملي، في بعد واحد أطلقت عليه اسم العظمة الرئاسية (Simonton, 1981 c). وانظر أيضاً: (Wendt & Lighl 1976) واعتبرت أعظم الرؤساء هم الذين يحصلون على درجات أعلى في كل من: المكانة العامة، وقوة الفعل، والنشاط

المنتخبين. وإذا ما أخذنا أداءهم الضعيف نسبياً في الاعتبار، فإن هذه الفروق لا تثير العجب. لكن لماذا يكون أداء هؤلاء الرؤساء أسوأ من أقرانهم الذين جاؤوا إلى الرئاسة عن طريق الانتخاب؟

قد يكون الأمر -من ناحية- هو أن الرئيس الذي نجح في الوصول إلى منصب الرئاسة من دون انتخاب لا يعد قائداً شرعياً. فهذا الرئيس غير المتوقع لابد أن يواجه الكونغرس المتشكل من شيوخ ونواب يمكنهم الادعاء بوجود ناخبين يقفون خلفهم وهذا الفارق الواضح في الشرعية قد يجعل الكونغرس غير مهياً بشكل كاف للموافقة على تعيينات الرئيس في مجلس الوزراء وفي المحكمة العليا، وأن يكون أميل لرد لجوئه لحق النقض ومن ناحية أخرى، فإنه من المحتمل بدرجة مماثلة أن هذه الهزائم السياسية تعبير عن افتقار هؤلاء الرؤساء لمهارات القيادة. فالرئيس غير المنتخب قد يحاول أن يعين أشخاصاً غير أكفاء، أو غير مقبولين لأسباب أخرى في المراكز العليا، كما أنه قد يفتقر إلى الكاريزما أو الفطنة المطلوبة لإقناع الكونغرس بتأييد استخدامه لحق الفيتو. ولنتذكر أيضاً أن المرشح لمنصب نائب الرئيس غالباً ما يختار من أجل تحقيق التوازن بين مرشحي الحزب أيديولوجياً أو

الرئاسي وإنجازات إدراته، وهي خصائص تبدو أقرب للكاريزما للوهلة الأولى من العد البسيط لعدد المرات التي رد الكونغرس فيها فيتو الرئيس، أو عدد الترشيحات المرفوضة. وأعظم رئيس للولايات المتحدة الأمريكية وفقاً لهذا المقياس هو فرانكلين روزفلت الذي كان تقديره مرتفعاً أيضاً على مقياس الكاريزما الذي قدمه سل. وقد ارتبط مقياس العظمة هذا ارتباطاً عالياً مع تقديرات أخرى للرؤساء الأمريكيين، ومع المتغيرات التي اعتبرها سل شواهد على القيادة الكاريزمية، وطبقاً لهذا المقياس يزداد احتمال وجود نصب تذكارية بنيت لتخليد ذكرى الرؤساء العظماء في عاصمة الأمة، ووجود حاضرة إقليم أو عاصمة ولاية سميت بأسمائهم وظهور صورهم على أوراق العملة الورقية الصغيرة، وما شابه ذلك. وهكذا فإن هذا المقياس يمزج ما بين الإجماع الأكاديمي، والإجماع الشعبي. بعد ذلك استخدمت «تحليل الانحدار المتعدد» لتحديد أفضل المؤشرات للتنبؤ بالعظمة بواسطة هذا المعيار الأكثر ذاتية. وقد أمكن التنبؤ بحوالي ٥٧٪ من فروق العظمة لـ ٣٣ رئيساً من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية بنجاح. وكانت أهم أربعة مؤشرات تنبئية هي مايلي:

أولاً: إن الرؤساء الذين حصلوا على أسوأ تقديرات كانوا هم الذين أصاب حكوماتهم وبال فضائح الكبيرة (بيتا = ٢٠, ٠). والرؤساء غرانت وهاردنغ ونكس هم رؤساء السلطة التنفيذية الثلاثة الوحيدون الذين وقعت خلال رئاستهم فضائح وصلت إلى مستوى مجلس الوزراء.

ثانياً: يميل الرؤساء الذين تعرضوا لمحاولات اغتيال غير ناجحة إلى أن يعتبروا أعظم من قبل مؤرخي الأجيال اللاحقة (بيتا = ٣٠, ٠). وترومان هو أحد الرؤساء الذين كتب لهم البقاء بعد محاولة اغتيال خطيرة. لكن الأمر اللافت للنظر هو أن الرؤساء الذين وقعوا ضحايا محاولة اغتيال، مثل لنكلن أو كندي، لم ترتفع تقديراتهم الخاصة بالعظمة بشكل مماثل.

ثالثاً: إن الرؤساء الذين كانت تقديراتهم هي الأعلى يميلون إلى أن تكون فترات حكمهم أطول (بيتا = ٢٤, ٠). فقد حصل فرانكلين روزفلت الذي عمل في البيت الأبيض ١٢ سنة و ٣٩ يوماً على أقل تقدير للعظمة. أمّا معظم الرؤساء الذين حصلوا على تقديرات ضعيفة أمثال تايلر وأندرو جونسون، وأرثر، وهاردنغ. فقد عملوا إما أقل من فترة رئاسية، أو فترة رئاسية كاملة واحدة. وتوحي هذه النتيجة بأن تقديرات

المؤرخين تميل إلى أن تكون في حالة اتفاق تقريبي مع تقديرات المعاصرين للرؤساء، الذين يرفضون انتخاب الرؤساء الأقل كفاءة لفترة ثانية.

الخلاصة

لابد من الاعتراف بأن دراسات القياس التاريخي التي تناولها هذا المقال هي كلها جهود أولية. وعلى الرغم من هذا فإن الجهد القليل الذي بذل حول الإستطبيق والكاريزما يكشف عن بعض الأشياء حول الطريقة التي تؤثر بها الانفعالات على أحكام التاريخ فقد رأينا في حالة الفنون كيف أن أحد الأهداف الظاهرة للتأليف الموسيقي هو إثارة المستوى المناسب من الاستثارة الانفعالية لدى المستمع. كذلك تمثل الأصالة اللحنية التي تولد هذه الاستثارة، في جانب منها،

استجابة المؤلف الموسيقي لأزمات حياته الشخصية وتقلباتها. وتكتسب الأعمال الدرامية أيضاً قوتها من خلال نقلها لمجموعة خصبة من الثيمات التي تتناول القضايا الرئيسية في الوجود الإنساني. وهي تعبر عن ذلك باستخدام أكبر عدد ممكن من الأقوال التي لاتبرح الذاكرة.

أمّا الدراسات الخاصة بالكاريزما فقد اعتمدت الأسلوب غير المباشر، ولكن، يبدو أنها تشير إلى شعبية الرئيس وتقديرات العظمة الخاصة به تعكس درجة عالية من اللاعقلانية فالطريقة التي تؤثر بها الحرب على هذه الأحكام، وكذلك التأثير غير المتجانس للكساد الاقتصادي في مقابل الازدهار أو الرخاء، وأصداء محاولات الاغتيال، والأزمات الدولية، كلها تشير إلى أحكام غير موضوعية، من قبل المؤرخين.

المصدر

- المقال مأخوذ من مجلة:

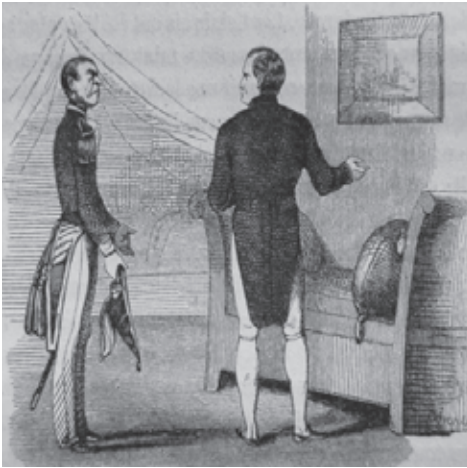
Creative Productivity and Performance. No. 49- 1981, P. 306 – 323.



تفاعل الحضارات وعقدة الآخر



د. محمد ياسين صبيح



عنها تبادل للمنتوجات الحضارية (صناعة، ثقافة، زراعة وغيرها)، ثم انتقل هذا

أدت التداخلات الحضارية المهمة عبر التاريخ، إلى حصول اختراقات مميزة في مجالات العلوم الإنسانية والعلمية وغيرها، التي تركت بصمة عالمية حضارية لا نزال ننهل منها حتى الآن.. فالصيغ الأولى لهذه التفاعلات والتقابلات، نشأت فيما بين النهرين وسورية الطبيعية، وفي مصر الفرعونية حصراً، فهذه التفاعلات الحضارية وإن تخللتها مشاحنات وحروب طاحنة، إلا أنها أدت إلى وجود تداخلات اقتصادية واجتماعية وثقافية هائلة، نتج

✽ شاعر وقاص وناقد.

وهذا ساهم في نشر بذور الثقافة اليونانية خلال اندفاعاتها اللاحقة، في شتى المجالات الفلسفية والعلمية (الرياضية وغيرها)^(٦)، لذلك لم تأت هذه الطفرة التطورية من فراغ أو من تأثير ذاتي بحت، كما يدّعي بعض المؤرخين الغربيين، إنما أتت كنتيجة طبيعية للتفاعل الذي حصل مع الشرق (سورية ومصر)، عندما كان طلاب العلم اليونانيون يجوبون المدن والشواطئ السورية والمصرية بحثاً عن المعرفة والثقافة، والتي كان لدورهم اللاحق العامل المهم في الطفرة الإغريقية^(٧)، ولم تكن هذه النهضة (الأوروبية) ذاتية المسببات فقط، وهذا ما أكدته المكتشفات التاريخية، حتى أن فيثاغورث مؤسس الفلسفة اليونانية نهل من مصر القديمة^(٨)، واستمر التأثير الشرقي بعد ذلك، من خلال حملة الإسكندر المقدوني على الشرق، حيث نجد الأثر الفارسي والهندي عند الكثير من المفكرين اليونان^(٩)، فتنظريه الفيض التي جاء بها أفلاطون اليوناني من خلال رحلاته إلى الشرق^(١٠) والخاصة بتطور الكائنات وانتقالها من الواحد إلى الكثرة، أي من الوجود البدئي إلى الوجود الزماني المتغير^(١١)، جاء نتيجة التفاعلات الثقافية والفكرية السورية وبلاد ما بين النهرين، كما عند الصابئة

التأثير والتفاعل إلى الأرض السورية، بما تمتلكه من تجمع حضارات مشرقية عدّة، وهي على تماس مباشر مع الحضارة المصرية القديمة، ومع العنصر الإغريقي على الجانب الآخر الذي بدأ بالظهور، حيث تمثل التأثير السوري بنقل المنتج الثقافي الكبير المتمثل بالأبجدية والحرف إلى الجانب الإغريقي، والذي أدى إلى اعتماد اللغة الأوغاريتية في اليونان القديمة في بداية نهضتها^(١٢)، كما كان إسهام الحضارة الفينيقية حاسماً في تطوير ذلك النظام اللساني الذي بدأ في اليونان؛ فمعلوم (أن الكتابة الأبجدية قد ابتكرت من قبل الفينيقيين في مطلع (الألف الأول ق.م)، في مدينة أوغاريت الأثرية، شمال مدينة اللاذقية)، وأنها انتقلت إلى اليونانيين في نحو (القرن الثامن أو السابع ق.م)، وأن هؤلاء الأخيرين قد استغرقوا قرناً آخر من الزمن قبل أن يطوروها ويضيفوا إليها الحروف الصوتية التي تحتاجها كتابة لغتهم؛ إذ إن الفينيقية، ككل اللغات السامية، لا تعرف سوى الصوامت، فلنا أن نقدر أن اللوغوس ما كان له أن يعلن عن ظهوره قبل (القرن السادس ق.م)، وذلك هو القرن عينه الذي تهجى فيه طاليس بأول حروف الفلسفة^(١٣)..

وغيرهم^(٩). كما أن صناعة الحرف والزجاج وغيرها من الصناعات الأساسية، كانت نتاج الحضارة السورية التي انتقلت إلى اليونان لاحقاً، والتي سخّرت هذه المكتشفات ببراعة نادرة لإعطاء الإبداعات الفلسفية والرياضية والعلمية لاحقاً..

في هذا الجو من التفاعل تمكنت اليونان (أوروبا) من تقديم إبداعات مهمة في مجالات الفلسفة والعلوم، وهذا إنجاز تاريخي يحسب لهم بالتأكيد، ثم ورّث اليونانيون هذه المعارف فيما بعد إلى روما البيزنطية، التي اجتاحت الشرق بما فيها سورية لاحقاً، في هذه الأثناء قويت شوكة الدولة الإسلامية جغرافياً، حيث سيطرت على مساحات كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا، واستطاع المسلمون في زمن الخلافة العباسية، الاستفادة من خبرات الفرق العلمية البحثية السورية ولبلاد ما بين النهرين والشرق القديم، من ترجمة أمهات الكتب اليونانية في شتى العلوم^(١٠)، حيث خرّجت هذه المراكز والفرق البحثية الأطباء والعلماء مثل الرازي، ابن سينا، ابن زهر والزهرابي^(١١) وغيرهم، كما كان للنافذة الغربية للدولة الإسلامية (الأندلس)، الدور الكبير في ظهور الكثير من العلماء وعلى رأسهم ابن رشد، هكذا نرى أن التفاعل

الحضاري أدى ثانية في فترة محددة إلى نشوء مركز ثقل حضاري جديد في الشرق تمثل في الدولة الإسلامية، لم يدم طويلاً للأسف لأسباب عدّة، من أهمها ظهور التأثير الكبير للفقهاء، حيث وصلت المواجهة بين العلماء والنخبة الفقهية وجماعة التشدد الديني إلى حد طرد ابن رشد مثلاً وحرق كتبه، وإلى تكفير العديد من العلماء، كالخوارزمي والكندي وابن سينا وأبي العلاء المعري وغيرهم الكثير^(١٢)، وفي أواخر انهيار العصر العباسي بدأت السيطرة العثمانية، والتي لم تكن من أولى اهتماماتها (الفكر والعلم)، بل التمدد التركي والتوسع الفقه الديني فقط، والانغلاق الثقافي، فأصبحت الدولة الإسلامية بالضمور الثقافي والاجتماعي، ونشطت الكثير من الحركات الأقلية والصوفية، كحالة انسلاخ عن الواقع المتخلف، وهروب من المواجهة، باتجاه الذاتي، الانعزالي، من دون أن ندخل في سبر الأسباب والأهداف والظروف الكلية لنشوتها..

في هذه الأثناء كانت أوروبا تستفيد ثانية من حضارة المنطقة السورية والعربية المتمثلة بالتراث الإسلامي العلمي، ومن التراث الأوروبي نفسه (اليونان خاصة)، للتأسيس لنهضة حضارية غير مسبوقة،

المتبادل الهام، الذي كان له دور كبير، استمر منذ أوائل القرن العشرين في ذهاب الكثير من أبناء المنطقة العربية للدراسة في أوروبا، والعودة، ومن ثم محاولة تأصيل الكثير من العلوم، والفروع الثقافية، مثل القصة والرواية، وهكذا نجد أن التفاعلات الحضارية بين الدول كان لها الدور الأساس في التطور الحضاري لها، حيث وجدنا أن المستعمر بنى المدارس الأولى وشق الطرقات الأولى وغيرها من الأمور التي تهتم بالدرجة الأولى لتطلعاته الإستراتيجية البعيدة، ولتعبير عن حسن نيته المزيفة.. ولكن بالمقابل لا ننكر بأن هذا التفاعل أدى إلى خلق حالة حضارية وثقافية، ساهمت في خلخلة المجتمعات العربية، التي كانت منغلقة على نفسها، وترفض الجديد بحجة التقاليد، نتيجة التأثير المهيمن للفترة العثمانية المنغلقة على نفسها.. وكذلك كان للرحلات العلمية والدراسية للكثير من المثقفين العرب إلى أوروبا الفضل في ظهور العديد من التنويريين أمثال محمد عبده وطه حسين ورفاعة الطهطاوي، وأديب إسحاق وعبد الرحمن الكواكبي، وبطرس البستاني وغيرهم، والذين ساهموا في وضع أسس النهضة الثقافية الجديدة. في هذا الجو من الانفتاح الذي بدأ

استطاعت أن تحقق فيها قفزات حضارية (صناعية واجتماعية وفكرية)، من خلال ظهور الثورة الصناعية، والثورة الفرنسية، وغيرها، حيث استطاعت تكريس سلطة القانون، واحترام الفرد كعامل أساسي في النهضة المجتمعية، ورسخت التقاليد العلمية والأكاديمية، والتي أسست لاحقاً لبحث علمي جاد ورصين، قاد العالم إلى تطور نهضوي كبير..

في نهاية الدولة العثمانية المريضة، التي احتكرت الخلافة الإسلامية، ولم تستطع الحفاظ على مكاسبها الحضارية (العلمية والاجتماعية)، وفقدت أفريقيا وآسيا العربية، لصالح الدول الاستعمارية الجديدة (فرنسا وإنكلترا وإيطاليا)، وبغض النظر عن الهدف النهائي الاستعماري غير المعلن للحملات التي شنتها هذه الدول على المنطقة العربية، إلا أنها ساهمت بشكل كبير في ظهور بؤار نهضة حضارية وثقافية جديدة، تمثلت في إدخال نابليون لأول مطبعة إلى مصر، إضافة إلى مئات العلماء الذين حاولوا بناء بعض الأسس الحضارية (مدارس، أبحاث)، وكل ذلك لا يبرر أبداً النيات الاستعمارية، والممارسات القاسية التي قامت بها هذه الدول، ضد شعوب المنطقة، إنما قصدنا هنا إبراز التأثير

عند الغرب، تم التعرف على النتاج الأدبي الجديد المتمثل بالقصة القصيرة والرواية والشعر الحديث النثري، وكان من الطبيعي الاستفادة من ذلك في تفاعل طبيعي بين الغرب والشرق، كما كان يحصل دائماً، وهكذا بدا الكثير من الكتاب العرب يشقون طريقهم بصعوبة، لكنهم أثبتوا مقدرة وعزم على إنتاج أعمال قصصية وروائية جيدة، استطاعوا أن يضعوا الذاتي والمحلي في اهتماماتهم، وخاصة في مصر وسورية، ثم لاحقاً تلتها باقي الدول العربية، والآن نرى أدباء عرب تركوا بصمة كبيرة في الأدب، وفي شتى ميادينه، لكن الكثير من هذه الأعمال لم تدخل إلى صلب المشكلة التي يعاني منها الإنسان العربي، بل كانت القضايا التي تطرحها، تدور حول الزوايا الميتة، من دون الدخول في اللب، مخافة الاصطدام مع الموروث الديني، بكل حمولاته، ومع السلطات القائمة، ومخافة أن يدخل الكاتب في متاهات صعبة، قد تجلب له العزل القسري ربما، أو الاختياري، لذلك لم يكن لهذه الأعمال تأثير مهم في الثقافة العربية، وبالتالي الحياة المجتمعية والسياسية، كما أنها لم تكن رائدة، بينما بقي رجال الدين والسياسة في المقدمة، حيث كان الأديب دوماً لاحقاً وتابعاً لهم،

إلا فيما ندر، مما أفقد الأدب دوره وبريقه وتأثيره، على عكس ما حصل على الشطر الثاني من المتوسط (أوروبا).. وهكذا خاض كثير من الأدباء والنقاد العرب في قضايا، بعيدة عن الهدف الأساسي، مثل إدانة التأثير الغربي في النتاج العربي، وكأننا تناسينا التفاعلات الحضارية التي جرت وتجري عبر السنين، وأهميتها في رفع السوية الحضارية والثقافية للمجتمعات، بشرط ألا تذهب الذاتية والخصوصية لكل مجتمع، وبدلاً من أن نشير إلى مواضع الضعف في هذه النتاجات الأدبية (بنيوياً وجمالياً)، والتتويه إلى إهمالها، يجب التطرق بحق إلى لب المشاكل، نجد أن بعض النقاد يتهمون بعض الكتاب بالتبعية للغرب، من دون الانتباه إلى أن تطور الأساليب غير مرتبط بنمط واحد غربي مثلاً، وهذا أفقد الأدب رؤيته وعمقه وقيمه..

أين تكمن المشكلة إذن؟ كما رأينا ليست العبرة في التأثر أو التأثير بالآخر، إنما تكمن المشكلة في كيفية تطويع هذا التأثير لتحقيق قفزة خاصة ذاتية، وهذا ينطبق على العلوم والصناعة وغيرها، فعقدة الآخر التي لا نزال نتشدد بها، ويحاول كثير من النقاد إعطاؤها أولوية، ليست

هي المعضلة، إنما تكمن المعضلة كما قلنا في رؤية الثقافة كفعل تأثيري تغييري لاندركه، ولا ننظر إليه إلا كحدث إجرائي تحليلي لقضايا بعيدة عن لب المشكلة، فالهروب إلى مواضيع هامشية، تعتبر نتيجة لممارسات خاطئة تقوم بها جهات فاعلة..

تكمن المعضلة القائمة في الثقافة الحضارية التي أجبرنا على الاعتقاد بها من خلال تكريسها في وسائل الاتصال والمنابر الثقافية المختلفة والمتاحة، الرسمية والخاصة (كمجتمع كلي مرتبط بالمووروثات التاريخية بغتها وثمرتها)، وليس كأفراد، هذه الثقافة التي رسخت الكثير من التقاليد والمفاهيم التي لا تصلح لبناء دول بمؤسسات تعطي دوراً حضارياً للثقافة، إنما تصلح ربما للحالة القبلية والشمولية فقط.

فالمشكلة تكمن في غياب بعض الحرية التي يجب أن تعطى للمجتمع ليأخذ دوراً بارزاً في تنظيم الحياة المدنية والثقافية ضمن أطر فاعلة تستطيع الثقافة من خلالها أخذ الدور الفعّال في إغناء الثقافة العامة، من خلال مصداقية طرح الأمور بفاعلية، من دون تكلف وحشو زائد..

فأهم ما استفاد منه الغرب، كان انفتاحه الثقافي الفردي والجمعي، من خلال تأطير الحالة المدنية بتوسعاتها الثقافية المختلفة

(الجمعيات والنوادي الثقافية والتاريخية والأدبية)، والتي كان لها الدور البارز في تعدد النشاطات، التي يمكن للفرد أن يشارك فيها كفاعل مؤثر وكمتلقي ديناميكي، تجعله يبتعد رويداً رويداً عن الحالة التقليدية الموروثة، وعن الحالة الانغلاقية الفكرية والاجتماعية، وبالتالي محاولة إبعاد الكثيرين عن الحالة التعصبية الإلغائية (الأيديولوجية والدينية وغير ذلك...)، وهذا يجعله أكثر تقبلاً للحالة التطورية، إضافة إلى تقبل المجتمعات الغربية للتفاعلات الحضارية التي تأثرت بها (تراث ابن رشد، ابن سينا، ألف ليلة وليلة بالنسبة للأدب... إلخ...)، وهكذا استطاع الغرب الانفلات من عنق الزجاجة، المتمثل بالمووروثات القبلية والأطر المتخلفة، التي تضع هوة بين التطور التقني والثقافي، ولكن على الجانب الآخر في المجتمعات العربية، وفي العالم الثالث بشكل عام، فإن استخدام التقنيات الحديثة، في كثير منه أخذ طابعاً سلبياً، وحتى السلطات لم تسمح بدخول هذه التقنيات خوفاً من تأثيرها المباشر على الهيمنة الحكومية، فالفراغ الثقافي (أدبي، فلسفي، ثقافي، وغيره...) يحوّل الإنسان العصري الرقمي إلى حالة أشبه بالآلة، قد تتلف كل شيء بكبسة زر، من دون إدراك لماهية

من دون أن نبحت عن السبب الكامن في أساليبنا المتبعة للتطور، والدفع باتجاه خلق إبداعاتنا المنظورة. حيث تستطيع الشعوب الاستفادة من التفاعلات الحضارية، عند توافر بعض الحرية في تناول تداولاتها ونواتجها، وفي خلق استنتاجات جديدة، دون أن يكون لدينا عقدة التأثر من الآخر.. لذلك نعتقد أنه آن لنا الانفتاح بشفافية منتجة، على مختلف الثقافات، وعدم جلد الذات بتأثرنا بثقافة ما (غربية أو غيرها)، إنما نبحت عن المفيد ونطوعه لصالح التطور الثقافي والمجتمعي المنشود..

فالتفاعل الحضاري الذي ساد قروناً بين مختلف الحضارات العالمية، مثلاً على ضرورة هذا التفاعل، وعدم الركون إلى العزلة الفكرية والثقافية التي ستولد حالات ثقافية وفكرية آسنة.

تكمن المشكلة أيضاً في ذواتنا، لأننا لم نكن قادرين على الاستفادة من التداخل والتفاعل الحضاري مع الغرب، لعدم مقدرتنا على التخلص من عقدة المستعمر، ولا اعتبارات موروثية أخرى.. فالآخر ليس شماعة لتعليق الفشل، أو التأخر عن الركب الثقافي، بل يجب أن يكون حافزاً للنهوض والمنافسة الخلاقة..

الذاكرة الجمعية والتاريخية، لذلك يكون الترميم بالنشاط الذهني المتمثل ثقافياً بكل الفروع (أدبية، فلسفية، تقنية، اجتماعية، وسياسية)، غير ذلك ستتشأ هوة حضارية كبيرة، تجعل الإنسان مسلوب العقل الذاتي، والتخيل الماص للمثالب الناتجة عن الهيمنة الرقمية، وعقدة الدونية تجاه الآخر، من هنا تأتي توجهات بعض النقاد، برفض الهيمنة الغربية في الأثر المحلي للإنتاجات الأدبية، وحتى في رفض التكنولوجيات الحديثة، ولكن ذلك يعتبر ضرباً من الخيال، فليست العبرة بالتأثر كما ذكرنا، بل في تطويع هذا التأثر لاستنباط طرق وأساليب ثقافية جديدة، يكون الذاتي فيها مهيمن..

لذلك يجب علينا التفكير بشكل مختلف، من خلال تعميق الحالة الثقافية، لتواكب التطور التكنولوجي، لخلق توازنات مطلوبة في المجتمع، وعدم الانجرار إلى متهاتات التعصب الأيديولوجي والديني، وذلك لا يتم إلا من خلال الحالة الانفتاحية التي تحدثنا عنها آنفاً، والتشجيع للحالة الثقافية والمجتمعية والفنية، من خلال إنشاء النوادي الثقافية والمجتمعية والتاريخية والفلسفية وغيرها، فليس من الصواب اعتبار الآخر مسؤولاً عن مشاكلنا، وضعف البنية الفكرية أو الجمالية للإنتاجات الأدبية، وحتى التقنية،

المراجع

- 1-Jan Burian, Pavel Oliva, Civilization Medieval Mediterranean, Svoboda, Prague 1984 (p275).
- ٢- جورج طرابيشي، نظرية العقل، بيروت: دار الساقي، ط١، (١٩٩٦م)، ص (٧٤-٧٥).
- ٣- مرجع سابق Civilization Medieval Mediterranean ص(٢٧٦).
- ٤- مرجع سابق Civilization Medieval Mediterranean ص(٢٧٦).
- ٥- جورج. جي. أم. جيمس، التراث المسروق، الفلسفة اليونانية فلسفة مسروقة، ترجمة شوقي جلال، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة (١٩٦٦م)- ص(٥٥) .
- ٦- مصطفى النشار، المصادر الشرقية، م، س، ص(١١٣).
- ٧- الدكتور سعد الدين كليب، البنية الجمالية في الفكر الإسلامي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق (١٩٩٧م)، ص(١٦).
- ٨- الدكتور جميل صليبا، من أفلاطون إلى ابن سينا، الهيئة العامة للكتاب، دمشق ص(٩٨).
- ٩- مرجع سابق، الدكتور سعد الدين كليب، ص(٢٢).
- ١٠- د. خالد أحمد الحربي، فرق العمل العلمية في الحضارة الإسلامية، كتاب مجلة العربي (١٨٩) الرياض (١٤٣٣هـ)، ص(٣٢+١٤).
- ١١- مرجع سابق، فرق العمل، ص(٨٤).
- ١٢- انظر الكتب (سير أعلام النبلاء) ص(٢٠٨+٦) وكتاب (لسان الميزان) ص(٣-٤٤٩) وكتاب (مجموع الفتاوى) ص(٣٧٤+٢٩) وغيرها.



قصر الحمراء شاهد على تفوق العبقريّة العربيّة



محمد مروان مراد



لمعالم الأندلس الزاهرة وكانت إطلالتي
المبهورة من على هضبة الحمراء، فوق
أعرق تحفة فنية خلفها العرب في أوروبا،
«قصر الحمراء»، ولا أبالغ حين أقول:

على مرتفع مكسو بالخضرة الزاهية،
تظللّه الأشجار المعمرة، وتنحدر في
خاصرته ساقية ماء صافية، جلست مع
مضيفي ودليلي في زيارتي - الحلم،

بأمة وناقده.

كانت إطلالة على جنة حقيقية من إبداع العبقريّة العربيّة، تبهّر العيون وتخلب الألباب...

تستلقي «غرناطة» أمامي في حضن الوادي العريض المنبسط وسط التلال والهضاب على الضفة اليمنى لنهر «شنيل» أحد فروع الوادي الكبير، ويخترقها فرع «نهر حدارة» ويلتقي به عند جنوب المدينة.

يعود الاهتمام بغرناطة إلى القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي - مع تولي زعيم البربر «باديس بن حبوس» السلطة في المدينة، حيث اختار هضبة الحمراء المشرفة على المدينة، لإنشاء قصر وقلعة وسور، نظراً لموقعها الحصين الذي يمكّن من صدّ غارات المعتدين. وكانت النقطة الهامة في تاريخ المدينة، مع تولّي السلطان محمد بن الأحمر زعيم بني نصر عام ٥٩٥هـ - ١١٩٨م، حيث شيّد قصرًا وسورًا منيعًا، وأجرى إليها مياه نهر «حدارة»، كما أقام فيها عدة أبراج لحراستها ومنها «برج الحراسة» الذي ما يزال قائمًا إلى يومنا...

وتمتّ فيما بعد إضافات عديدة إلى القصر في عهد محمد بن محمد بن الأحمر «الغالب بالله» (١٢٧٩-١٣٢٥م) الذي شيّد قصره الملكي، وأنشأ مسجداً

فخماً، تحوّل فيما بعد إلى «كنيسة سانتا ماريّا»، وتدين «الحمراء» بفخامتها وأبهرتها إلى السلطان «يوسف أبو الحجاج» (١٣١٨-١٣٥٤م) الملك الشاعر والفنان البارع، الذي امتدّ حكمه لعشرين عاماً، أنشأ خلالها معظم الأجنحة والأبهاء الملكية، وأغدق على الحمراء روائع الفن والزخرفة المبهرة.

الطبيعة الأسيرة في غابة أسطورية:

توجهنا من المدينة إلى هضبة الحمراء عبر طريق صاعد تحفّ به الأشجار الظليلة، دخلنا من باب «الرمان» الذي أنشئ في عهد الإمبراطور «شارلكان» لتستقبلنا من خلفه غابة أسطورية، تسلب البصر بأشجارها الباسقة، وشدو البلابل على أفنانها، وخيرير المياه الصافية في سواقيها، ومن طريق فرعية بلغنا «باب الشريعة» مدخل الحمراء الرئيسي، المفضي إلى «ميدان الأحباب» وعنده تستقبل الزوّار مجموعة الصروح والمعالم الأثرية وفي مقدمتها «قصر الحمراء» الذي يسميه الإسبان «القصر العربي».

قصر الحمراء في الواقع عدّة قصور وأجنحة بُنيت في أوقات متعاقبة، وقد تهدّمت أجزاء عديدة منه وخاصة «قصر

الشتاء» الذي أُقيم في موقعه قصر الإمبراطور شارلكان.

غير أنّ الجزء القائم من «قصر الحمراء» حالياً هو أبداع آثار الأندلس الباقية إلى يومنا. كما يُعدّ من أروع الآثار الإسلامية التي نَجَتْ من عوادي الزمان، وهو يبدو بعقوده وسقوفه ذات الزخارف الفنية الرائعة، وأعمدته الرخامية الأنيقة، من أبداع ما تراه العين من الصروح الأثرية.

❖ وآمنت حتى الغصن من نفحة الصّبا:
دخلنا إلى القصر من فناء «الريحان» الذي بني في عهد السلطان «محمد الغني بالله» (١٣٣٨-١٣٩١م) وهو عبارة عن صحن مستطيل واسع، يتكون من رواقين، في وسطه بركة ماء كبيرة تسبح فيها الأسماك، وتحفّ به شجيرات الريحان ذات الرائحة المعطّرة، وعلى جدران الرواق الشمالي من الفناء، وفوق الفسيفساء مباشرة نقشت أبيات منها:

«تبارك من ولّك أمر عباده

فأولى بك الإسلام فضلاً وأنعماً

ولو خير الإسلام فيما يريده

لما اختار إلا أن تعيش وتسلماً

فكم بلدة للكفر صبحت أهلها

وأسييت في أعمارهم متحكماً

فيابن العلا والحلم والبأس والندى

ومن فاق آفاق النجوم إذا انتمى

طلعت بآفاق المليكة رحمة

لتجلو ما قد كان بالظلم أظلماً

فآمنت حتى الغصن من نفحة الصّبا

وأرهبحت حتى النجم في كبد السما»

وعلى جدران ملحق جانبي في الفناء،

مقطوعتان للشاعر «ابن الجياب» أبو الحسن

علي الأنصاري الغرناطي المتوفى (١٢٧٤م)

نقشتا في مساحتين متقابلتين هما:

«أنا محلاة عروس

ذات حسن وجمال

فانظر الإبريق تعرف

فضل صدقي في مقال»

وفي المقطوعة الثانية:

«أنا فخر صلاة

سمته سمته السعادة

تحسب الإبريق فيه

قائماً يقضي عباده»

... ونقدم نحو ركن في جناح الريحان،

لنتوقف عند قاعة صغيرة معروفة باسم

«قاعة الأختين» لأن في أرضها قطعتي رخام

فريدتين متساويتين في حجمهما الضخم.

وقد حظيت القاعة بعناية سلاطين غرناطة

ومهندسيها وشعرائها، لأنّ الزائر يجد

فيها كل ألوان الزخرفة المبهرة التي تزيّن

ذاك صرح الزجاج من قد رآه
ظنّه لُجة تروء وهاله
شيدتني يد الإمام «ابن نصر»
حَرَسَ الله للملوك جلاله
* فَقَتُ الحِسان بحُلّيتي وبتاجي:
يقابل الزائر بعد اجتياز فناء الريحان،
بهو السفراء ويسمونه أيضاً «بهو قمارش»
الذي يضم أعظم وأفخم أبهاء الحمراء
كلها، فيه قاعة السفراء المعدة لعقد مجلس
العرش، وتظلّل البهو المستطيل الفخم
قبة بارتفاع ثلاثة وعشرين متراً، والفناء
مزخرف من جميع جوانبه، وتزيّن جدرانها
قصائد عدّة من بينها قصيدة الوزير
«لسان الدين بن الخطيب» محمد بن عبد
الله بن سعيد السلماي (١٣١٢ - ١٣٧٤م)
ومطلعها:

«فَقَتُ الحِسان بحليتي وبتاجي
من بعد ما نظمت جواهر تاجي
وحكيّت كرسي العروس وزدته
أنّي صنعتُ سعادة الأزواج
مَنْ جاءني يشكو الظمَاءَ فموردي
صرف الزلال العذب دون مزاج
فكأنني قوس الغمام إذا بدا
والشمس مولانا «أبو الحجاج»
وفي الجهة اليمنى بعد مدخل البهو
أبيات جاء فيها:

الجوانب الأخرى من القصر، وأروع ما فيها
الأشعار المنقوشة على الجدران، والتي تخلق
الأنظار بأسلوب كتابتها الرمزية المتشابكة،
ومن أمثلتها الأبيات المدوّنة فوق فسيفساء
جدران قاعة الأختين من قصيدة للشاعر
الأندلسي «ابن زمرك» أبو عبد الله محمد
ابن يوسف (٧٣٣ - ٧٩٣هـ):

«تمد لها الجوزاء كفّ مصافح
ويدنو لها بدر السماء مُناجيا
به البهو قد حاز البهاء وقد غدا
به القصر آفاق السماء مُباهيا
وكم حلة جلّلته بحليّتها
من الوشي تنسي السابري اليمانيا
أباهي من المولى الإمام محمد
بأفضل من يأتي ومن كان ماضيا
تبيت له خمس الثريا معيزة
ويصبح معتلّ النواسم وافيا»
... نتقدم خطوات إلى المدخل الجانبي
من قاعة «الأختين» لنطالع من جديد أبياتاً
جديدة يقول فيها الشاعر:
«كل صنّع أهدى إليّ جماله
وحبّاني بهاءه وكماله
فإذا مبصري تأمل حُسني
كذب الحسن بالعيان خياله
ورأى البدر من شُفوف ضيائي
حلّ طوع السعود مني ماله

«تحبيك مني حين تصبح أو تمسي

نغور المنى واليمن والسعد والأنس

هي القبة العليا ونحن بناتها

ولكن لي التفضيل والعز في جنس

جوارح كنت القلب لا شك بينها

وفي القلب تبدد قوة الروح والنفس»

أمّا الأبيات التالية فهي على الجهة

اليسرى:

وإن كان إشكالي بروج سمائها

ففي عدا ما بينها شرف الشمس

كساني مولاي المؤيد يوسف

ملابس فخر واصطناع بلا لبس

* جناح الأسود أبهى معالم الحمراء:

على أن أجمل معالم «الحمراء» وأكثرها

روعة وبهاء: جناح الأسود الذي شيده

السلطان «محمد الغني بالله»، ويشتمل

هذا الجناح على «بهو الأسود» وهو قاعة

مستطيلة بطول ٣٥ متراً، وعرض ٢٠ متراً،

ويحيط بمساحتها ١٢٤ عموداً من الرخام

الأبيض، تحمل أربع قباب، وفي وسط هذا

الجناح حوض مرمرى دائري، تتبثق مياهه

من نافورة مرتفعة، ويحمل الحوض اثنا

عشر أسداً من المرمر، تنفث الماء من

أفواهها على مدار السنين.

وعلى جدران الحوض، نقرأ قصيدة الشاعر

«ابن زمرك» الشهيرة التي يقول فيها:

«تبارك من أعطى الإمام محمداً

مغاني زانت بالجمال المغانيا

والا فهذا الروض فيه بدائع

أبى الله أن يلقي لها الحسن ثانيا

تشابه جوار للعيون بجامد

فلم ندر أياً منهما كان جارياً

ومنحوتة من لؤلؤ شق نورها

تجلى بمرفض الجمان النواحيا

ألم تر أن الماء يجري بصفحها

ولكنها أبدت عليه المجاريا

كمثل محب فاض بالدمع جفنه

وغيبض ذاك الدمع إذ خاف واشيا

وهل هي في التحقيق غير غمامة

تفيض إلى أسد الجهاد الأياديا

فيا من رأى الآساد وهي روابض

عداها الحيا من أن تكون عواديا»

جلاة العريف... متنزه السلاطين:

في الناحية الجنوبية من بهو الأسود

مدخل قاعة «بني سراج» وهو اسم الأسرة

الغرناطية التي لعبت دوراً هاماً في أحداث

غرناطة الأخيرة، وتمتاز بدقته العالية

ونقوشها الباهرة، أما في الناحية الشرقية

من جناح الأسود فتقع «قاعة الملوك» أو

قاعة العدل.

يتقدمنا الدليل إلى معلم قريب شمالي

«قصر الحمراء» صرح أندلسي ممتد على

(١٥٢٠ - ١٦١٠م)، الذي أمضى سنين في استنساخ النصوص وترجمتها، وضَمَّن إنجازه في كتابه: «استيعاب ما بغرناطة من التواريخ والأشعار» عام (١٥٦٥م)، وفي العام (١٧٦٤م) أصدر «خوان إجيبيريا» كتابه: «نزهات في غرناطة» معتمداً على مؤلف (الكاستيو) واحتوى على نصوص كثيرة من كتابات الحمراء.

ويُعزى للوزير المغربي «أبو العباس أحمد الغزال» الفضل في تدوين الكثير من كتابات القصر، وتضمَّن كتابه «نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد» وتوالت فيما بعد مؤلَّفات المستشرقين المخصصة لنصوص الحمراء، فظهرت ترجمة الإنكليزي «شكسبير» ودراسة الفرنسي الألماني الأصل: «روتنبورغ» الذي صحَّح الكثير من الأخطاء التي وقع فيها من سبقه إلى نصوص الحمراء.

أوين جونز... وإنجاز فكري متميز: على أنَّ العمل الأفضل في دراسة نصوص الحمراء وتوثيقها، والذي حظي باهتمام وتقدير الباحثين، أنجزه المهندس المعماري ومهندس الزخرفة الداخلية البريطاني «أوين جونز» المتوفى عام (١٨٧٤م)، وكان من أوائل زوّار الشرق الأوسط والأندلس، في بداية القرن التاسع عشر، وتأثروا بالزخرفة الإسلامية عامة، وبالعامة العربية بوجه خاص.

ربوة عالية هو قصر «جنة العريف» اختلطت أروقته العربية الأساسية بما أنشئ فوقها من أبنية دخيلة، وكان القصر متنزهاً لسلطين «غرناطة» وموئلاً للراحة والمتعة بالمناظر الطبيعية الخلابة..

ديوان شعر عربي على جدران الحمراء:
رُحنا نتقل مع الزوّار في سرداقات الفن المعماري البديع وكان سكّون شامل يحيط بنا، لا ترى فيه غير عيون بهرتها روائع العمارة الأنيقة، وأسارير مُشعّة بالفخر والاعتزاز.. ولم يكن مصدر ذلك كله ضخامة البناء وأبّهته، ولا شموخ المعالم الفنية الراقية، بل كان المثير للدهشة بشكل أكبر، تلك النقوش المحفورة في رخام الجدران، والمتضمنة نصوصاً من آيات القرآن الكريم، وقصائد الشعر العربي المعبّرة، والتي لا تزال قبلة أنظار الزائرين، يتوقفون أمامها يردّدونها بهمس ويستعيدون منها صفحات مجد غابر في تاريخ الأندلس العربي.

جهود المستشرقين لتسجيل نقوش الحمراء: أخبرني مضيقي ونحن وقوف أمام واحدة من القصائد المحفورة في الجدار، أن لهذه النصوص تاريخاً جديراً بالتسجيل، وأنَّ التعرف إليها اقتضى سنوات طويلة، كانت الخطوة الأولى على يد الغرناطي الموريسكي «ألونسو الكاستيو»

بدأ «جونسن» أسفاره وهو في الثانية والعشرين من عمره، فتوجّه إلى فرنسا وإيطاليا ثمّ إلى الإسكندرية والقاهرة، حيث التقى بالمهندس الفرنسي «جيل جوري» الذي رافقه من هناك إلى القسطنطينية واليونان ثمّ إلى قصر الحمراء في غرناطة، حيث قام بنسخ زخرفة القصر الغرناطي بأكملها وعاد برسوماته إلى لندن لينشرها في كتاب بطريقة الطباعة الحجرية الملونة التي كانت يومها في بدايتها.

اضطرّ أوين جونسن أن يبيع قطعة من الأرض ورثها عن أبيه ليموّل طبع كتابه بنفسه، لأنه لم يجد من ينشر أعماله عن قصر الحمراء بالطريقة الحديثة التي أرادها وهي الطباعة الحجرية الملونة، وقد تمّ نشر الكتاب سنة (١٨٤٢م)، وسماه «الحمراء»، وفي الصفحات الملونة التي يحتوي عليها الكتاب الذي يتألف من مجلّدين من الحجم الكبير جعل جونسن من كتاب (الحمراء) سفراً مهماً جداً في تاريخ الطباعة الملونة، إذ يُعدّ من أوائل الكتب التي نُشرت بالألوان في العصر الفيكتوري. ويوجد الآن عدد قليل جداً من نسخ هذا الكتاب في بعض المتاحف والخزانات البريطانية، أما بقية الـ ٤٥٠ نسخة التي طُبعت تحت إشراف «أوين جونسن» فقد

وجدت طريقها إلى مكتبات هواة جمع الكتب النفيسة في أوروبا وأمريكا.

زار «أوين» قصر الحمراء في غرناطة ربيع سنة (١٨٣٤م) بصحبة صديقه المهندس الفرنسي «جيل جوري» وقد قام الاثنان بدراسة جميع زخارف القصر ورسمها من جصّ منقوش ورخام منحوت وفسيفساء مزجج، وقد استعمل «أوين جونسن» و«جيل جوري» في نقل هذه الزخارف ورقاً رقيقاً تتبعاً للنقوش من خلف بالقلم الفحمي، وفي بعض الأحيان لجأ إلى استعمال الجصّ المبلل للحصول على النقوش البارزة والمحفورة في شكل قوالب، والتي كانت عنصراً أساسياً في تهيئة الرسوم اللازمة للطباعة الحجرية الملونة التي تمّ بها طبع الكتاب، وكذلك في التوصل إلى قراءة وترجمة الآيات القرآنية والأمثال والحكم والأبيات الشعرية التي تزيّن حروفها المتشابكة جُلّ جوانب القصر الساحر.

أمّا الآيات القرآنية والأمثال المنقوشة على جدران القصر فجعلها مكتوبة بالخط الكوفي، وفي أغلب الأحيان تبدو فيها الحروف بشكل منتظم من الجهتين، مما يجعل الكتابة تُقرأ من اليمين إلى الشمال وبالعكس ومن أعلى إلى أسفل وبالعكس أيضاً.

أصدرها الإسباني «كابانيلاس» الأستاذ في جامعة غرناطة وزميله المستشرق «أنتونيو بويرتا» وأخيراً مع كتاب «قصائد عربية على جدران ونوافير الحمراء» لمؤلفه «غارثيا غوميث» عميد الاستشراق الإسباني.

وتجدر الإشارة هنا إلى الطباعة الأنيقة لهذه المؤلفات وغناها بالصور المتقنة التي أبرزت روعة العمارة العربية الإسلامية، وغناها الفني والفكري، ولكن الاهتمام العربي بتلك الروائع لم يرق إلى المستوى المنشود، واقتصر الأمر على بحوث متفرقة وكُتب بعدد أصابع الكف في المكتبة العربية.

❖ **ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً:** وأخرج من الفردوس الأسطوري، فيقفز إلى خاطري شريط أليم تمثل وقائعه نهاية الحلم البهي لثمانية قرون من العز والمجد العربي.. بدأ الشريط في العشرين من كانون الأول عام (١٤٩٢م)، يتقدم فيه ملكا إسبانيا «فرديناند وإيزابيلا» في موكب ملكي مبهر، ويدخلان قصر الحمراء على وقع موسيقا الانتصار، ودقات الطبول، وتراتيل الرهبان، ويُقبل آخر سلاطين غرناطة «أبو عبد الله الصغير» لاستقبال الملكين.. يقبل حزينا منكسراً يجر أذيال الخيبة، وتتحشج في حلقه عبارة «لقد أصبحت أيها الملك سيد تراثا وديارنا»

أما الأبيات الشعرية فمكتوبة بالخط المغربي وحروفها متشابكة في شكل تلافيف متتابعة، ومعظم هذه الأشعار من نظم الشاعر «أبي عبد الله بن زمرك» الذي كان يقطن بلاط ملوك غرناطة، إذ كان وزيراً للملك محمد الخامس الذي حكم من ١٣٥٢ إلى ١٣٩١م، عدا الأبيات الشعرية التي توجد على جدران قاعة السفراء مكررة فإنها من نظم الشاعر «أحمد بن محمد القلبلي»، ومن أكثر كتابات القصر شيوعاً ويطالعك في جميع أرجائه شعار الناصريين وهو (ولا غالب إلا الله).

قام المستشرق الإنكليزي «لافوينته إلكنترا» بإصدار دراسات جديدة قدم فيها قراءة جيدة لكتابات الحمراء مع ترجمة إسبانية عام (١٨٥٩م)، بعنوان «كتابات غرناطة العربية» ولقيت دراسته اهتمام وتقدير عدد من المستشرقين.

وتابع الباحثون المختصون الاهتمام بالقصائد العربية التي تزيّن جدران الحمراء، ونشرت دراسات عديدة في مجلّات اشتملت على النصوص العربية وترجماتها، كما كان الأمر مع الباحثة الإسبانية «ماريا روبيرا» التي اهتمت بشعر «ابن الجياب» وقدمت عنه دراسة وافية، وكذلك الدراسة الأدبية والفنية التي

وأشخاصنا، هكذا قضت مشيئة الله، فكن في ظفرك رحيماً وعادلاً»..

ويرحل إلى طريق «البشرات» ليُشرف من تل على «غرناطة» المغتصبة، ويجهش بالبكاء على المجد الغابر، لتجيئه صيحة أمّه «عائشة الحرة»:

«ابك مثل النساء مُلكاً مُضاعاً

لم تحافظ عليه مثل الرجال»

غادة السمان: عدونا يحاول إلغاء

تاريخنا الحقيقي:

وأرفع رأسي طائفاً بعيني في أرجاء معالم الحمراء، وفيما أمسح دمعة حرّة انسالت على وجنتي، يجيئني صوت الياسمين الشامية غادة السمان «لعلّي جئت إلى الأندلس كما ذهب مجنون ليلي يطلب جمرًا وناراً. فقد علّمني في المدرسة أنّ العرب لم يغزوا الأندلس بالقوة العسكرية، بل بسلطة الحضارة أولاً، وبمشعلها الذي حملوه ذلك الزمان، ولم يستتب لهم الأمر هنا قروناً بسطوة السجان بل بسطوة الفكر المتفوّق.. وربما كان علينا أن نُعيد امتلاك أنفسنا وأوطاننا مارّين بهذه الدرب ذاتها، وبقوة الحضارة والضوء الداخلي، والعطاء الإنساني وجوهره الحرية والتسامح.

وتلاحظ غادة السمان أنّ تاريخ العرب في إسبانيا معرّض لسرقة إسرائيلية في

محاولة تضخيم الدور اليهودي، والحديث عن «موسى بن ميمون» وإغفال «ابن رشد» ونرى أنّ هناك خطة إسرائيلية لتهويد التراث العربي في إسبانيا وضمّه إلى مستوطنات الثقافة الإسرائيلية، بحيث تطمس الذاكرة الدولية، ويصبح اليهود هم الذين فتحوا إسبانيا وليس العرب.

وتقول الكاتبة إنّ مشاعرها لا تحمل العدوان: «وانطلاقاً من هذا الشعور الودي غير العدواني لا أملك إلا أن ألاحظ بحياد محاولة تضخيم الدور اليهودي في الأندلس من أجل توظيفه لمجد إسرائيل، وهذا أمر طبيعي. فكل دولة تحاول إعادة كتابة التاريخ بالطريقة التي تناسب مصالحها، ونحن مسؤولون عن تقصيرنا.

✽ اختراع دور لليهود في الأندلس:

إنّ الانتصارات الإسرائيلية الإعلامية الذكية على العرب في حقول السينما والفن (وسرقة الفولكلور الفلسطيني وتسويقه في الغرب على أنه الذوق الإسرائيلي)، هذه الانتصارات تواكبها حملة إعلامية ذكية على الصعيد الأندلسي.. وحتى المرء الذي لا يحمل أيّة كراهية مبدئية سيجد نفسه غاضباً متوجّعاً وهو يلاحظ انحياز بعض الكرّاسات السياحية الغربية إلى القشة اليهودية في الأندلس، غاضة الطرف عن

القلاع الإسلامية.. بل إن «النفخ» في الآثار اليهودية يتم أحياناً على حساب روائع الفن المسيحية، حيث ينصحك الدليل بزيارة الكنيس ويغفل ذكر كنيسة مجاورة أكثر غنىً فنيّاً وعظمة تاريخية، ولا تسلي عما يدور في بعض الندوات الجامعية الخاصة بتكريس دور مزور لليهود في الأندلس.

قليلة هي الأعلام العربية التي التفتت إلى هذه الحقيقة المؤلمة التي تتخذ شكل الممارسة اليومية. وأعني بها ظاهرة تضخيم الدور اليهودي في تاريخ الأندلس. وهي ظاهرة لا يملك السائح إلا أن يلاحظها على كل صعيد حيث يتم أحياناً اختراع دور لليهود في التاريخ الأندلسي، كله مبالغة.. وبينما يتابع الإعلام الصهيوني التهام الحقائق التاريخية، نتابع نحن شخيرنا التاريخي واستجمامنا القومي.. ويتمنى السائح دليلاً سياحياً عربياً للأندلس بالمعنى العصري العملي للكلمة - لا بمعنى أشعار الحنين وبكائيات الأطلال - يحمله السيّاح العرب معهم ليتعرّف أولادهم على حقيقة التاريخ الذي كان لنا في الأندلس بعزه وسقطاته... دليلاً على غرار «دليل ميشلان» الفرنسي الشهير ندفع تكاليف إصداره من مال عربي يهدر أحياناً على عرس باذخ البطر في لاس بالماس مثلاً، أو قصر في مارييا حنفياته من ذهب!.

وإذا كان الفن المبدع يخترع أشخاصاً وهميين فيجعلهم حقيقيين أمثال دون كيشوت وزهرة ومدام بوفاري وأنا كارنينا، فإنّ الإعلام الصهيوني المضلل يفعل العكس، إذ يحاول إلغاء تاريخ عربي حقيقي في الأندلس ويغتال أبطاله من جذورهم بحيث يبدون وهميين - مثل طارق بن زياد - الذي لم يفتح إسبانيا لأن اليهود هم الذين فعلوا ذلك!!

فهل نسارع إلى خوض حرب التحديّ الإعلامي الصهيوني هذه، أم نترك جيلاً عربياً ينشأ في منتجع مارييا مثلاً ويجهل أنّ الأندلس تقع في إسبانيا!!؟

وتتابع الكاتبة: أتجول في أروقة الحلم الأندلسية وأنشد في قلبي مواويلي الشامية المليئة بالأمل والطموح والبهجة، كما كنت أفعل في صباي قبل أن تكسر الهزائم المتعاقبة أجنتي وتسلبني الخيبات تورّد آمالي القومية.. وداخل ذلك الدهليز الحجري الصلد كالقلعة، تمرّ بأبواب قديمة موصدة، ويخيّل إليك أنّ الأجداد العظماء يقبعون خلفها وتقرع الأبواب وسط دهشة بقية السيّاح، ويخيّل إليك أنّ موسى بن نصير وطارق بن زياد والمنصور والحكم الثاني وهشام الثاني يقبعون خلفها.

وكنوزها، بالقصر الخالد وحدائقه، بقرميد البيوت الأحمر النابض تحت الشمس كقلب عار، بالأزقة البيض التي تتعالى منها أغاني الفجر وتمضي فيها عرباتهم، وإلى جوارك الكاتدرائية الرائعة بكل كنوزها وبهائنها... وتحت ذلك العناق بين أماكن العبادة المختلفة لإله هذا الكون الواحد، وتغمرك لحظة تسامح وحنان وفرح بتعايش الأديان.. هكذا بنى العرب مجدهم، لا بالحقد والأذى والغطرسة والانتقام... وتهبط من المأذنة وأنت تتابع غناء مواويلك الشامية في قلب الأندلس».

غمزني إحساس حاد بذلك وصرت واثقة وأنا أقرع الأبواب أن عبد الرحمن الداخل سيفتحها لحفيدته الضالة في أزمنة عدوانية.. وسأبكي طويلاً على صدره ولن يصدق حين أروي له ما فعله أحفاده بمجده العريق، وسيتبرأ من أقوام تقتتل فيما بينها والعدو يتابع بناء المستوطنات، وجلب المهاجرين من أقطار الأرض وطرد أحفاد العز الذي كان.. حين تصل إلى قمة المئذنة (الخيراندا) ستجد مكافأة جميلة في انتظارك: ستبسط إشبيلية تحت قدميك وديعة وعريقة بكل سحرها

الهوامش

- عائشة الحرّة: زوجة السلطان محمد بن سعد (الغالب بالله) وملكة غرناطة.

المصادر

- الآثار العربية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان، القاهرة (١٩٦٢م).
- الآثار الأندلسية في غرناطة، محمد عبد الله عنان، مجلة الفيصل / العدد ٥٧، ربيع الأول (١٤١٢هـ).
- نقوش الحمراء، محمد بن عودة، مجلة الأنوار، تونس، أعداد متفرقة (١٩٥٤م).
- قصر الحمراء، ديوان شعر منقوش على الجدران، صبيح صادق، مجلة الفيصل العدد ٢٥٣، ذو القعدة (١٤٢٦هـ).
- مصرع غرناطة، شوقي أبو خليل، دار الفكر في دمشق، (١٩٨٠م).
- دراسة لسقوط ٣٠ دولة إسلامية، د. عبد الحليم عويس، دار الصحوة، القاهرة، (١٩٩٢م).
- القلب.. نورس وحيد، غادة السمان، منشورات غادة السمان، بيروت (١٩٩٨م).



بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية



د. قحطان السيوفي



الرئاسية بالمشهد الداخلي في الولايات المتحدة، وحسب المؤلف والمقرر ينتهي موسم الاستعدادات هذا بانتخاب رئيس جديد في أول ثلاثاء من تشرين الثاني (نوفمبر) (٢٠١٦م)، وسينتخب الأمريكيون

يبدو أن بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية قد بدأ عملياً قبل عام تقريباً من التاريخ المقرر دستورياً الانتخاب رئيس لدولة الولايات المتحدة الأمريكية. ويستأثر موضوع الاستعدادات لهذه الانتخابات

❁ بامع في السياسة والاقتصاد ووزير وسفير سابق.

أيضاً كل أعضاء مجلس النواب، وثلاث أعضاء مجلس الشيوخ. ومما سيثير الاستغراب والدهشة لدى القارئ وجود ثلاثين مرشحاً للرئاسة الأمريكية من الحزبين الجمهوري والديمقراطي... والأمر الذي قد يثير الدهشة أكثر احتمالات أن يصل أحدهم إلى البيت الأبيض وقد تدفع الولايات المتحدة والعالم ثمن نقص خبرته بل ولنقل ثمن جهله.

المنافسة، بل الصراع على الرئاسة الأمريكية، أو السباق إلى البيت الأبيض بين مرشحي الحزب الجمهوري (وشعاره الفيل)، والحزب الديمقراطي (وشعاره الحمار) تحكمه اعتبارات متعددة، ومتشابكة بل ومعقدة أحياناً وهناك تناقضات تاريخية ومفارقات مختلفة المنابع... لأسباب محلية ودولية.

المشهد الأمريكي للاستعداد للانتخابات يظهر المرشح (سكوت ووكر) من الحزب الجمهوري، وهو حاكم ولاية، يضع في مقدمة برنامجه الانتخابي مثلاً العمل على إلغاء الاتفاق النووي الذي عقده دول (١+٥) مع إيران... ويجاهر بضرورة إعادة فرض العقوبات على إيران. بالمقابل هناك مرشحون من حزبي الفيل والحمار على السواء بالكاد يعرفون أين تقع إيران! وما

هي تفاصيل الاتفاق المبرم!! (جيب بوش) مرشح جمهوري من عائلة بوش... يعلن في برنامجه معارضته لسياسة جورج بوش الابن، المرشح (دونالد ترامب) مهرج جمهوري له تأييد واسع في الأوساط الجمهورية... وهو قليل المعرفة بشؤون السياسة الخارجية... ويطالب ببناء سور بين الولايات المتحدة والمكسيك بطول (٣٢٠٠) كم، وطرد جميع المهاجرين غير الشرعيين من الولايات المتحدة، علماً بأن لهؤلاء دوراً كبيراً في دعم اقتصادات العديد من الولايات الأمريكية وفي مقدمتها ولاية كاليفورنيا التي تقدم (١٣٪) من الناتج القومي الأمريكي، كما يطالب بإغلاق شركات صناعة السيارات الأمريكية في المكسيك.

هيلاري كلينتون المرشحة الديمقراطية وزيرة خارجية سابقاً، وزوجة رئيس سابق، تعتبر في رأي بعضهم أكثر خبرة واعتدالاً، وتميل للبعد عن المغامرات العسكرية الخارجية، وتدعو لدعم القوة العسكرية لتكون قادرة على التدخل عند الضرورات الملحة... وعلى الرغم من تعاطف، وهوى هيلاري كلينتون مع إسرائيل إلا أن الإعلام الليكودي الصهيوني في الولايات المتحدة بدأ يشن حملة مضادة لكلينتون ويحاول تزوير الأخبار عنها....

كما أن مساعدتها السابقة (هوما عابدين) التي تتحدر من أصول شرقية؛ تتعرض لحملة إعلامية قاسية. ومع ذلك تحافظ كلينتون على تقدمها بين المنافسين الديمقراطيّين.

مشهد مسرح الاستعدادات للسباق إلى البيت الأبيض يكشف مدى الاحتيال والمراوغة في اللعبة الانتخابية الأمريكية، حيث تسيطر الحملات الدعائية اللامنتطقية على المسرح بين المتنافسين، وجميعها تأخذ بعين الاعتبار المصالح الإسرائيلية والعمل على الاستفادة من موارد العالم العربي وإضعافه، بل والسعي لتفتيته... وما الدعم الأمريكي المستمر لما سمي الربيع العربي وتداعياته السوداء على العديد من الدول العربية سوى دليل واضح على ذلك... ومؤشر على ما تتضمنه وستتضمنه برامج المرشحين للرئاسة الأمريكية من عداوة واضح، وغير مباشر لحركة التحرر العربي بكل مكوناتها... واستمرار لمحاولات فرض الهيمنة الأمريكية المتراجعة في ضوء تقدم القطبية الثنائية منذ ما بعد عام (٢٠٠٥م)، مع ظهور مجموعة دول بريكس (الصين، روسيا، البرازيل، الهند، وجنوب أفريقيا) وتألقها سياسياً، واقتصادياً...

وحتى يحيط القارئ بكل أبعاد بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية؛ من المفيد الإشارة إلى أن سياسة جورج بوش الابن كانت قائمة على ردات فعل لأحداث أيلول الإرهابية (٢٠٠١م)، والتي كانت بدورها ارتداداً لتنظيم القاعدة الإرهابي على صانعيه (الولايات المتحدة) بمعنى آخر سياسة أمريكا بدعم الإرهاب، وارتداده عليها، وإجراءات ردود الفعل لجورج بوش الابن بغزو العراق وأفغانستان... ثم جاء الرئيس أوباما ليعتمد سياسات التردد والانكفاء... وحرب أمريكية في الخارج بالوكالة عن طريق حلفاء أمريكا التقليديين في الشرق الأوسط الذين دعموا، ويدعمون الإرهاب...

إنّ التظاهر بمكافحة الإرهاب حالياً، والتردد والبطء في آليات عمل الإدارة الأمريكية هو نوع من الحركات البهلوانية ظاهرها نوع من النفاق الدبلوماسي الدعائي، وباطنها رغبة في إدامة عمر الإرهاب بحجة توفير المناخات المناسبة لمحاربته خلال سنوات طويلة... إنّ السياسة الأمريكية في عهد بوش الابن، وباراك أوباما بالتتالي تأخذ طابع العمل الجيوسياسي العبثي المغامر في عهد الأول، كما

تأخذ طابع التراجع والانكفاء من حيث الشكل حالياً في الولاية الثانية لأوباما. العلامة التجارية لأمريكا في الشرق الأوسط مشوهة في عهد أوباما بقدر ما كانت في عهد جورج دبليو بوش. ربما يكون من الظلم مقارنتهما، لأن بوش كانت أخطاؤه في أعماله - على رأسها غزو العراق وأخطاء أوباما كانت الامتناع فيما يتعلق التعامل مع إرث بوش. لكن تكاليفهما حقيقية.

أين تقع قضايا الشرق الأوسط والعالم العربي في بازار الانتخابات الرئاسية الأمريكية؟ تداعيات الربيع العربي الأسود من الإرهاب التكفيرى... وما رافقه من استهداف وتدمير لمؤسسات، ومكونات الدولة الوطنية في العالم العربي لتفتيته... وعمليات القتل، والذبح، الإبادة الجماعية وتشريد الملايين... على يد داعش وأخواتها من التنظيمات الإرهابية... كل ذلك يحظى بمباركة ضمنية في برامج المرشحين للسباق إلى البيت الأبيض؛ باعتبار أن كل ذلك يخدم أمن إسرائيل... ويجعل العالم ينسى (فلسطين). القضية العربية المركزية... ويحوّل قضايا العرب إلى مشاكل اقتتال داخلي أو بين الدول العربية... وتصبح

مشاكل اللاجئين من الدول العربية قضايا الساعة... بالمقابل يحتل موضوع الاتفاق النووي الإيراني حيزاً هاماً في أغلب برامج المرشحين للانتخابات الرئاسية الأمريكية ولاسيما المرشح (سكوت ووكر) من الحزب الجمهوري.

إنّ معارضي الاتفاق النووي في الولايات المتحدة بما في ذلك المرشحين للرئاسة هم حلف بين لوبي الصناعة، واللوبي الإسرائيلي، مما يذكر بالتحذير الذي سبق لـ (دوايت أيزنهاور) أن أطلقه من خطر تحالف الصناعة والعسكر... ولعل أهم صفة لمعارضي الاتفاق النووي الإيراني في أمريكا... أنهم مؤيدون للحرب على العراق، وأنها كانت أشبه بمشوار للجيش الأمريكي مع أنها كلفت أمريكا آلاف القتلى، وما يقارب تريليون دولار.

الانتخابات الرئاسية الأمريكية والسباق إلى البيت الأبيض، في ظل العام الأخير لإدارة أوباما، أشبه ببازار للمرشحين من الحزبين الجمهوري والديمقراطي يعرض فيه هؤلاء برامجهم الانتخابية من خلال حملات إعلانية دعائية يغلب عليها، عادة، الترويج والحماس لأمن إسرائيل، ومحاربة مكونات حركة التحرر العربي باتجاه تشجيع الإرهاب، أو السعي لإطالة

السياسية والاقتصادية لأصحاب مراكز القرار في أمريكا: شركات صناعة الأسلحة، شركات النفط، بيوتات المال في وول ستريت؛ واللوبي الصهيوني الحريص على أمن إسرائيل... وكل قضايا الشرق الأوسط، والعالم العربي ينظر إليها من خلال مصالح أصحاب مراكز القرار التي أشرنا إليها... ويبقى السؤال هل استخدام القوة الصلبة (العسكرية)، أم القوة الناعمة (الدبلوماسية) خياراً إستراتيجياً أم تكتيكياً بالنسبة للمشاركين في السباق إلى البيت الأبيض؟

عمر التنظيمات الإرهابية.. وبما يؤدي لنشر الفوضى الخلاقة (التي بشرت بها الوزيرة الأمريكية كونداليزا رايس) في الشرق الأوسط، وتفتيت الوطن العربي، وتغذية الصراعات الطائفية والمذهبية... وكل ما يصب في مصلحة الكيان الصهيوني... من دون أن ننسى تكالب المرشحين على المصالح النفطية الأمريكية في الشرق الأوسط والمنطقة العربية ناهيك عن الترويج لمصالح شركات صناعة الأسلحة الأمريكية. أي يميل المرشحون لإرضاء المصالح



تقدم العلم مجموعة منتقاة من الأخبار العلمية



م . فايز فوق العادة



من الأخبار العلمية. يبدو كل خبر من هذه الأخبار مستقلاً عن الفترة الزمنية التي نُقلَ أثناءها. ينظر المتلقي إلى الخبر وكأنه طُرِحَ من وقتٍ قريب.

تُخلف الإنجازات العلمية أثراً عميقة ومديدة لا يحدها مكان أو زمان. من هنا كانت خصوصية الخبر العلمي. يبقى الخبر العلمي مضيئاً وفاعلاً لفترة غير محدودة. تتميز بعض الأخبار العلمية بديمومة تواجدها، إنها لا تغيب أبداً عن الذاكرة. نجد في معادلة تاريخية لأينشتاين خير مثال: تكافؤ الطاقة جداء الكتلة في مربع سرعة الضوء. عندما تُكتشف الحياة بعيداً عن الأرض، سيبقى نبأ اكتشافها ماثلاً على الدوام. نعرض فيما يلي مجموعة منتقاة

رئيس الجمعية الكونية السورية.

التحكم بطيران الحمام:

قال علماء صينيون إنهم نجحوا في تجربة لتوجيه طيران الحمام عن بعد باستخدام تقنية إلكترونية. زرع العلماء أقطاباً كهربائية في دماغ حمامة كي يتمكنوا من توجيهها أثناء الطيران يميناً ويساراً أو إلى الأعلى والأسفل. كان هؤلاء العلماء قد أجروا تجارب مماثلة ناجحة على الفئران.

قوة ضوء الشمس:

استطاع العلماء أن يقيسوا بشكل مباشر قوة ضوء الشمس التي تغير من سرعة دوران كويكبات أو صخور الفضاء. يقوم ضوء الشمس بدفع الكويكبات برفق لدى امتصاصها الضوء على سطوحها المواجهة للشمس ثم إشعاعه وهي تدور بما يؤدي إلى تأثير ارتدادي ضئيل يعادل دفع محرك صغير. إن طلي الكويكبات الخطرة على الأرض بالأبيض يلغي هذا التأثير ويغير بالتالي من مساراتها فيبعدها عن الأرض.

مياه الصرف الصحي للتدفئة:

بدأ الخبراء في بعض البلدان الصناعية باستخدام منظومات خاصة في أنفاق تحت الأرض تقوم بامتصاص الحرارة من البالوعات وتحويلها إلى شبكة من أنابيب

المياه الساخنة التي تغذي مساحات سكنية واسعة. يوفر هذا المشروع كميات كبيرة من الطاقات المستخدمة في التدفئة.

اكتشاف حلقة مفقودة:

يقول العلماء إنهم اكتشفوا بقايا أحفورية في شمال كندا قد تشكل دليلاً على انتقال أنواع معينة من الأسماك إلى الحياة على اليابسة في العصور الغابرة. تعود الأحافير المكتشفة إلى فصائل من الكائنات تشبه الأسماك وتتشارك في خصائصها مع التماسيح وقد وجدت شبه مكتملة ويبلغ طول إحداها نحو ثلاثة أمتار.

انهيارات جليدية على كوكب المريخ:

التقط أحد المسابر الفضائية صوراً رائعة لانهيارات جليدية في منطقة القطب الشمالي من كوكب المريخ. حدثت الانهيارات من قمة جبل يرتفع نحو (سبعمئة متر) ويكسو قمته جليد غاز الفحم. أما سفوح الجبل فتتكون من جليد الماء وغبار وتربة سوداء. حدث أحد الانهيارات عندما انفصلت كتلة جليدية من أعلى الجبل وانزلقت فأحدثت عاصفة غبارية امتدت نحو مئتي متر كما تتأثر الجليد على مدى مماثل.

كواكب شبيهة بالأرض:

بينت الدراسات المجرة بالأشعة تحت الحمراء على مجرة درب التبانة التي تنتمي إليها الشمس أن سحباً كثيفة من الغبار تطوق النجوم الشبيهة بالشمس. تتراوح نسبة هذه النجوم من عشرين بالمئة إلى ستين بالمئة من مجمل نجوم المجرة. يدرس العلماء هذه السحب بدقة في محاولة لتكوين تصور عن التاريخ المبكر للمنظومة الشمسية. يعتقد العلماء أن معظم هذه السحب في طريقها إلى التكاثر لتكوين كواكب شبيهة بالأرض.

أقدم تابع صناعي:

بدأ عصر الفضاء بإطلاق سبوتنيك في الرابع من تشرين الأول عام (١٩٥٧م). لكن أقدم تابع صناعي ما زال في مداره حول الأرض هو فانغارد (١) الذي أطلق في (١٧) آذار من العام (١٩٥٨م). اعتمد التابع الطاقة الشمسية ودرس لأول مرة شكل الأرض وحجمها وغلافها الجوي. نظراً لصغر كتلة التابع فقد اندفع نحو مدار مرتفع يضمن له الاستمرار في الدوران حول الأرض لعدة قرون تالية.

اكتشاف سمكة غريبة:

اكتشف العلماء في إحدى جزر الأرخيل الأندونيسي سمكة غريبة وفريدة من نوعها

وتختلف عن الأسماك البحرية بعيونها التي لا تشبه عيون الأسماك الأخرى إذ إنها توجد في مقدمة الرأس كما أنها تسمح للسمكة بقياس العمق تماماً كما يفعل الإنسان. يتميز جسم السمكة بالنعومة واللينة بما يمكنها من الانزلاق سريعاً والاختباء وهذا يفسر سبب عدم اكتشافها حتى الآن.

طاقة الهيدروجين:

كان أحد العلماء يحاول تحليل كمية من المياه المالحة بتعريضها لموجات إشعاعية من جهاز خاص صممه لمعالجة السرطان. اكتشف هذا العالم أن الموجات تسببت بإحراق هيدروجين المياه. يجري العالم الآن دراسات عن إمكانية استغلال الطاقة المنبعثة عن احتراق الهيدروجين والتحقق فيما إذا كان استخدامها في السيارات ممكناً. تسببت الأشعة بإضعاف روابط جزيئات الماء وتحرير الهيدروجين.

انسياب الماء إلى أعلى:

من المعروف أن الماء يندفع منسباً من أعلى إلى أسفل. استطاع بعض العلماء تحريك الماء باتجاه معاكس. وضعوا لوحاً بلاستيكيّاً مائلاً بنبضات ذات تردد معين. أصبح بمقدور الماء في سياق الحالة الطينية الناجمة أن يتحرر من أسر الجذب

تطوير وقود جديد للسيارات:

بدأ العلماء في الهند بتطوير خلايا وقود الهيدروجين مستخدمين التكنولوجيا الخاصة بوقود الصواريخ التي تنقل المركبات إلى الفضاء. يقول هؤلاء العلماء إن نجاح تكنولوجيا الوقود التي طوروها في مجال الصواريخ قد شجعهم على المضي قدماً في تأمين بديل عن النفط لتشغيل السيارات.

تحويل خلايا جلدية إلى خلايا جذعية:

حقق العلماء إنجازاً كبيراً بتحويل خلايا جلد بشري إلى خلايا جذعية مما قد يمهّد الطريق لابتكار وسائل علاج جديدة لأمراض مختلفة كالسرطان والسكري والزهايمر. تكمن أهمية الخلايا الجذعية في إمكانية تحويلها إلى (٢٢٠) نوعاً مختلفاً من الخلايا. تمّ الإنجاز بتحويل الخلايا إلى خلايا جذعية عن طريق إدخال أربع جينات مختلفة إلى الخلايا الجلدية بوساطة فيروس.

فئران لمقاومة السرطان:

أعلن العلماء أنهم نجحوا بإنتاج سلالة من الفئران أبدت مقاومة كبيرة لأشد أنواع السرطان. أدى حقن خلايا الدم البيضاء التي استخلصت من أفراد هذه السلالة ونقلت إلى فئران المختبرات العادية إلى وقاية هذه الأخيرة من السرطان. يعكف

الثقالي وأن تندفع قطراته نحو الأعلى. يقول هؤلاء العلماء إن النبضات غيرت شكل قطرات الماء والقوى المؤثرة فيها. أدى انضغاط قطرات الماء بسبب النبضات إلى توليد قوة محصلة دفعتها نحو الأعلى.

تأكيد جديد لنظرية النسبية:

من جديد يعود العلماء للبحث عن تأكيد إضافي لصحة نظرية النسبية، فقد أعلن عدد من الباحثين أن معادلة آينشتاين التاريخية التي تنص على أن الطاقة تساوي جداء الكتلة في مربع سرعة الضوء صحيحة إلى سبع مراتب بعد الفاصلة العشرية. انطوت التجربة التي أجراها الباحثون في هذا السياق على قياس أشعة غاما المنطلقة من ذرات الكبريت والسيليكون وتحديد كتل النوى قبل وبعد الإطلاق.

وفاة سلحفاة معمرة:

توفيت سلحفاة معمرة في حديقة حيوان أسترالية. بلغ عمر السلحفاة المتوفاة (١٧٦) عاماً. كانت سلحفاة معمرة أخرى قد سبقتها إلى الموت وكان عمرها (١٨٨) عاماً. كان عمر السلحفاة المتوفاة خمس سنوات عندما زار داروين جزر الغالا باغوس واصطحب معه السلحفاة على متن السفينة التي استخدمها لدراسة نماذج الحياة حول العالم.

العلماء الآن على دراسة الجينات التي تمنح
الفئران هذه المقاومة.

الدلافين لها أسماؤها الخاصة:

اكتشف العلماء أنَّ الدلافين تتواصل
مع بعضها البعض بأسماء خاصة. تستطيع
الدلافين التعرف على غيرها من الفصيلة
نفسها ويمتاز كل منها بهوية خاصة. إن لهذا
الاكتشاف أهمية كبيرة، إذ كان من المعتقد
حتى الآن أن هذه المقدرة تقتصر على
الإنسان فقط.

أبحاث جديدة لاسترجاع الذاكرة:

طوّر العلماء طريقة جديدة لقراءة
الأفكار بالاعتماد على نظم مسح الدماغ.
نجح العلماء بذلك في مساعدة الأشخاص
للتغلب عن ذكرياتهم بعد توفير الظروف
الملائمة لتشكيل نمط تفكير في الدماغ
مماثل للنمط الذي يتشكل عند التقاطه
الأشياء بهدف تذكرها. قد تفيد هذه
الأبحاث على نحو خاص الأشخاص
المصابين بمرض الزهايمر.

اكتشاف عناصر الحياة الأولى خارج

المجموعة الشمسية:

رصد العلماء عناصر أساسية للحياة
داخل غبار كوني يحوم حول نجم جديد.

تتكون العناصر المكتشفة من الأسلاف
الغازية للحموض النووية وبروتين واحد.
يقع النجم الوليد على مسافة (٢٧٥) سنة
ضوئية عن الشمس. يماثل النجم مع سحابته
البديئة الحالة الأولية للمجموعة الشمسية
التي سادت قبل (٥٠٠٠) مليون سنة. السنة
الضوئية وحدة لقياس المسافات الكونية
تساوي المسافة التي يقطعها الضوء في
سنة زمنية كاملة مرتحلاً بسرعه المعهودة
ثلاثمئة ألف كم في الثانية. تكافئ السنة
الضوئية نحو عشرة مليون مليون كم.

رصد الحركة داخل الخلية الحية:

تمكن العلماء من تصوير الخلايا الحية
بالأبعاد الثلاثة حيث ظهرت أدق التفاصيل
وتم رصد الحركة داخل الخلايا الحية.
استخدم العلماء لهذه الغاية تقنيات التصوير
التوموغرافي. طبق العلماء مباشرة هذا
الاختراع لدراسة بعض أنواع السرطان مما
مكنهم من معرفة التركيبة الداخلية للخلية
وتحديد وفصل عدد من الخلايا السرطانية
المنشطة للمرض والتي تسهم في انتشاره.

الأماس من عمر الأرض:

قال علماء إنهم عثروا على قطع من
الأماس في أستراليا يُعتقد أن عمرها
من عمر الأرض. يعني ذلك أن كوكب

الأرض قد تبرد بأسرع مما كان يُتصور سابقاً. لاشك أنَّ نسبة كبيرة من سطح الأرض كانت عبارة عن كتلة هائلة من الحمم البركانية الملتهبة. خلص العلماء إلى استنتاج مفاده أن هذه القطع تشكلت بعد (٣٠٠) مليون سنة فقط من تشكل الأرض الذي حدث قبل (٤٦٠٠) مليون سنة.

أبحاث الوعي المعاصرة:

ماذا يعني بالنسبة للكائن البشري أن يكون واعياً يفكر ويشعر بالعواطف وأن تكون له تجربة ذاتية مع العالم. يقول علماء البيولوجيا إن كامل التجربة الذاتية ليست أكثر من سلوك مجموعة واسعة من الخلايا العصبية وجسيماتها المرافقة، أما علماء الفيزياء الكوانتية فيقولون إننا لن نفهم الدماغ قبل أن نكونَ فهماً دقيقاً للجسيمات الأولية حيث ربما تنشأ المشاعر والوعي. يقول فريق آخر من العلماء إننا لن نفهم أبداً ماهية الوعي ببساطة لأننا واعون. تستمر الأبحاث من دون توقف وربما تشهد إضافات جديدة إلى هذه الآراء.

السلوك والوراثة:

يبحث العلماء عن رؤية معقولة وواقعية لدوافع السلوك البشري: رؤية

تمزج البيئة والوراثة بطرائق معقدة وغير متوقعة. يقول بعض العلماء إن العوامل الوراثية تفسر ما تتراوح نسبته من ثلاثين إلى سبعين بالمئة من السمات السلوكية عند البشر وفي كثير من الحالات تكون نسبة السببية الوراثية للعلل الفيزيائية أعلى. لقد تراجعت إلى حد كبير وجهة النظر القائلة إن البيئة والظروف الموضوعية هما المحرك للسلوك وبات على العلماء اليوم أن يعيّنوا الدور المحدود لهما في السلوك.

نشأة الحياة:

يعرف العلماء اليوم أنه بإضافة طاقة على شكل حرارة أو كهرباء إلى مزيج من المواد شبيه بما كان سائداً في الغلاف الجوي المبكر للأرض يُمكن إنتاج جزيئات من النمط الذي نجده في النسيج الحية، كما يعرفون أيضاً أنه كان بمقدور هذه العمليات أن تحوّل محيطات العالم في زمن جيولوجي قصير إلى مزيج من الجزيئات فيما يُعرف بالحساء البدئي. يركّز العلماء على فهم الآلية التي سببت نشوء خلية توالدية مكتفية بذاتها. ربما ينجح العلماء في وقتٍ ليس ببعيد بإنتاج شيء مماثل في المختبر.

استنساخ قطط مشعة:

قام علماء باستنساخ قطتين تشعان باللون الأحمر عندما يجري تعريضهما للأشعة فوق البنفسجية. كانت ثلاث قطط أخرى قد استنسخت تحمل جينات يُمكن أن تفرز بروتيناً بلون أحمر يجعلها تتوهج وتشع في الظلمة. إن ما يهم في الأمر هو إدخال جينات غريبة أثناء الاستنساخ الأمر الذي جعل العلماء المشرفين على هذه التجارب يؤكدون إمكانية استخدام التقنية نفسها للمساعدة في القضاء على الأمراض الوراثية.

العالمية ماري كوري:

لعبت ماري سكلودوفسكا كوري - وهي امرأة بولونية قضت معظم حياتها في فرنسا- دوراً أساسياً في الدراسات المبكرة للنشاط الإشعاعي كما اكتشفت عنصر الراديوم والبولونيوم وفازت مرتين بجائزة نوبل. أدت تجاربها على النشاط الإشعاعي إلى وفاتها في النهاية. كان العداء للمرأة العالمية ومقاومتها قوياً جداً في أواخر القرن التاسع عشر إلى درجة أنه على الرغم من فوز ماري كوري مرتين بجائزة نوبل فلم تصبح عضواً في أكاديمية العلوم الفرنسية. كانت ماري كوري الشخص الوحيد الذي فاز بجائزة نوبل مرتين.

فجوة في الفضاء الكوني:

استخدم الفلكيون منظومة من العواكس الراديوية الضخمة لسبر توزع المادة في حيز من الفضاء. اكتشف الفلكيون لدهشتهم أن بقعة من الفضاء تمتد لألف مليون سنة ضوئية تخلو تماماً من أي أثر للمادة. لاحظ الفلكيون انخفاضاً ملحوظاً في درجة حرارة الخلفية الإشعاعية الكونية في تلك البقعة.

نمو الديناصورات:

اكتشف العلماء أن الديناصورات كانت تنمو بسرعة كبيرة وأنها كانت تُنجب في الثامنة من العمر قبل أن يصل حجمها إلى حجم البالغين. وعلى الرغم من أن الديناصورات من سلالة الزواحف وارتقت لتصبح من الطيور فإنها كانت تنمو بسرعة كبيرة. خلص العلماء إلى هذه الاستنتاجات بعد حفريات واسعة اكتشفوا بعدها بقايا كثيرة للديناصورات.

هل نتحدث النباتات؟

عثر العلماء على دليل يثبت أن النباتات تتبادل المعلومات فيما بينها. بث نبات روائح معينة إلى نبات آخر بهدف التحذير من التعرض لبعض الآفات. راقب الباحثون نبات الشويلاء ولاحظوا أنه يسارع بإفراز رائحة عابرة عندما يُصاب من إحدى

الحشرات الضارة وأن هذه الرائحة أدت إلى ردود فعل دفاعية لدى التبغ البري.

الفلك وعلم الحياة:

تعيش أسماك القرش الحوتية في المناطق المدارية. يقول العلماء إنّ البقع على أجسامها تقي جلودها من مخاطر المحيط.

يشبه توزيع تلك البقع توزيع الأضواء عبر القبة السماوية التي تزينها نجوم الليل. هكذا عمد العلماء إلى استخدام برنامج حاسوبي خاص بدراسة توزيع النجوم على القبة السماوية في بحث توزيع البقع على أجسام تلك الأسماك بما يُمكن من تصنيفها بشكل أسهل.

المراجع

- تم انتقاء هذه المجموعة من الأخبار العلمية من مواقع الإعلام العلمي المتخصصة التالية على شبكة الإنترنت:

- 1- Universe Today.
- 2- Physicsworld.
- 3- Biolugy News.
- 4- Evolution News.



الأشعة غير المرئية



وهدان وهدان



من المسلم به أن الضوء هو مصدر الأشعة بمختلف أنواعها وإنَّ العين البشرية تدرك وتبصر ما يسمى بالنطاق المرئي للأشعة من خلال شبكيته من دون الحاجة إلى استخدام وسائل إظهار لها، إلا أنَّ هناك نطاقاً آخر من الأشعة غير مرئي للعين المجردة يحتاج إلى استخدام وسائل إظهار حتى تدركه وتبصره، وهذا الجزء من الأشعة هو ما يسمى بالأشعة غير المنظورة، وبفضل التقدم العلمي والتكنولوجي في مجال الأشعة أصبح لهذا النوع من الأشعة

بأمة ومترجم.

استخدامات واسعة في شتى مجالات الحياة، فقد تم استخدامها في المجالات الطبية والصناعية والأمنية والجنائية، ومن أهم أنواع الأشعة غير المنظورة التي أصبح لها استخداماً واسعاً في المجالات الأمنية يأتي في المقدمة الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية والأشعة السينية.

الأشعة تحت الحمراء

هي الموجات الكهرومغناطيسية غير المنظورة التي تلي الأشعة المنظورة ومصدرها في الطبيعة ضوء الشمس وأي مصدر حراري يعتبر مصدراً للحصول عليها ويحصل عليها من الحرارة المشعة من الأجسام الساخنة ومن أجهزة الإنارة الخاطفة ومن المصابيح الكهربائية ويبلغ طول موجتها من (7000-1000000) أنغستروم، ومن المعلوم أن هذه الموجات الكهرومغناطيسية عند اصطدامها فإن رد فعل مواد الجسم الذي اصطدمت به إما السماح بمرورها أو يمتص أجزاء منها ويحتفظ بها لبعض الوقت ثم يقوم بإشعاعها على هيئة موجات حرارية وهذه الموجات الحرارية يمكن تسجيلها باستخدام كاميرات حرارية خاصة وقد أمكن باستخدام هذه الكاميرات الحرارية التعرف على كمية الحرارة المنبعثة من كل مادة وهو ما أطلق

عليه مجازاً البصمة الحرارية للمادة، وبسبب هذه الخواص والتطبيقات العلمية لهذا النوع من الأشعة تعددت أنماط استخدامها في المجالات الأمنية والجنائية لإفراط في الحرص من عدم اكتشافها ولكن في حالة الاشتباه بذلك يتم من خلال التصوير الجوي بالأشعة تحت الحمراء تحديد أماكن وجود النباتات المخدرة ومعرفة سبب تباين البصمة الحرارية التي تستشعرها الأفلام الحساسة للأشعة تحت الحمراء. ومن أهم استخدامات هذه الأشعة:

١ - عمليات المراقبة والرؤية الليلية:

يتم من خلال استخدام أجهزة الرؤية الليلية التي تعمل بالأشعة تحت الحمراء تمكين رجال البحث من القيام بعمليات المراقبة والرؤية الليلية إذ إنَّ الأشعة تحت الحمراء المنعكسة من تحركات أفراد معينين تجري مراقبتهم تمكن من رؤيتهم من دون أن يشعروا بذلك من خلال هذه الأجهزة كما يمكن تصويرهم أيضاً.

٢ - التعرف على وجود أحياء تحت

الأنقاض في حوادث الانهيارات والتعرف على أماكن الأحياء في حوادث الطائرات والسفن:

تولّد أجسام الأشخاص الأحياء تحت الأنقاض إشعاعاً حرارياً يمكن لأجهزة

كما في حالة حدوث قطع جزء منها نتيجة عملية المقاومة أو أثناء التسلق أو الهرب أو حوادث السيارات أن يتم فحصها بالأشعة تحت الحمراء التي تظهر فيما إذا كان النسيجان ينتميان لقطعة واحدة أم أن هناك اختلافاً بينهما حتى وإن كان الظاهر للعين المجردة أن لونها واحد وذلك لاختلاف المواد في امتصاص وإشعاع الأشعة الحرارية أو الحمراء المنعكسة مما يمكن من إجراء المقارنة.

الأشعة فوق البنفسجية:

هي من الأشعة غير المنظورة وتوجد بوفرة في الطبيعة في أشعة الشمس وأهم مصادرها مصابيح غاز الزئبق ذات الضغوط المختلفة حيث يحصل من خلالها على مجالات مختلفة من الأشعة القصيرة والمتوسطة والطويلة حيث يبلغ طول موجتها من (١٠٠٠ - ٤٠٠٠) أنغستروم. وتتميز هذه الأشعة من خلال تأثيرها على بعض المواد من خلال خاصية التألق (التوهج) التي تحدثها للمواد عند تعريضها لها أو عند سقوطها عليها فتظهر تلك المواد متوهجة ذات لون بخلاف لونها الأصلي، ومن أنماط استخدام تلك الأشعة في المجالات الأمنية ما يلي:

البصمة الحرارية استعاره والذي يكون مختلفاً عن الإشعاع الحراري للمكان نفسه وبذلك يمكن تحديد أماكنهم وكونهم على قيد الحياة. وكذلك تتسم حوادث الطائرات والسفن بتأثير ضحاياها على مسافات متباعدة ويمكن من خلال التباين في درجات الحرارة المنبعثة من أجسامهم والوسط الموجودين فيه باستخدام الكاميرا الحرارية المحمولة جواً تحديد أماكنهم والعمل على إنقاذهم.

٣- معاينة مسارح الجرائم وتحديد

أماكن إخفاء بعض أدوات الجريمة:

تستخدم الكاميرات الحرارية في تصوير مسرح الجريمة بعد ارتكابها بوقت مناسب للتعرف على الآثار التي تركها الجناة خلفهم وخاصة ذات التأثير الحراري، كما ويمكن أيضاً تحديد أماكن إخفاء بعض أدوات الجريمة باستخدام تلك الكاميرات التي تمكن من تمييز البصمة الحرارية للمكان المخبأ فيه تلك الأدوات والبصمة الحرارية للأدوات ذاتها مما يسهل عملية ضبطها.

٤- مقارنة أنواع الأنسجة ذات الألوان

المتشابهة:

يمكن في حالة قيام شك في أن بعض الأنسجة تنتمي لجزء واحد من الثياب

١- إثبات وجود المواد والآثار الخفية:

يتخلف عادة عن بعض الحوادث والجرائم آثار لا تكون ظاهرة للعين المجردة ولا يمكن التعرف على وجودها بالطرق العادية لمعاينة مسرح الحادث ويكون من بين هذه الآثار ما يتأثر بإسقاط هذه الأشعة على الأماكن التي يرجح وجود هذه الآثار بها فتحدث تآلقاً بتلك الآثار إذا كانت طبيعة مادتها تسمح بذلك مما يمكن من تحديد مكانها، وتلعب هنا خبرة ودور الخبير الجنائي دوراً كبيراً في النتائج المرجوة من خلال دراسته لنوعية الجريمة ومكان وقوعها والأسلوب الذي ارتكبت به. فتستخدم هذه الأشعة في جرائم القتل لكشف آثار الدماء التي تم مسحها من أرض الجريمة لتحديد مكان واقعة القتل الأصلي في حالة نقل الجثة وتنظيف مكان وجودها الأصلي من بركة الدماء وكذلك تستخدم في كشف أثر الدماء من على الملابس التي تم غسلها بعد ارتكاب الفعل وتستخدم أيضاً في جرائم الاغتصاب للكشف عن المتلوثات المنوية وتحديد مكانها على الملابس القائمة.

٢- بيان الاختلاف أو التماثل بين مادتين:

يعثر أحياناً في مسرح الحادث أو يتخلف عن الجريمة مواد تتشابه في الشكل الخارجي ويكون من الضروري لغايات

الوصول للحقيقة تحديد ما إذا كانت تلك الآثار من جوهر مادة واحدة أم لا فمثلاً قد يعثر في مسرح الحادث على قطع من الزجاج متناثرة (حوادث السيارات، السرقات) وبمساعدة هذه الأشعة والتي تستطيع أن تظهر التباين في اللون والتركيب إذا كانت المواد المكونة لقطع الزجاج المعثور عليها مختلفة مما يدل على اختلافها.

٣- إظهار البصمات الكامنة على

الأسطح المتعددة الألوان:

عندما تسقط الأشعة فوق البنفسجية على سطحين مختلفين في مادتهما ولو كانا متجاورين فإن درجة توهج كليهما تختلف حسب نوعية مادته فقد يكون أحدهما متوهجاً والآخر معتماً وتستخدم هذه الميزة في إظهار البصمات الموجودة على الأسطح متعددة الألوان بوساطة استخدام مسحوق إظهار للبصمة له خاصية التوهج عند إسقاط الأشعة فوق البنفسجية عليه فيمكن عند ذلك تصوير التوهج الذي يكون حاملاً لشكل البصمة من دون باقي ألوان السطح المتعددة ونستطيع بعد ذلك مضاهاتها.

٤- كشف بعض أنواع الجرائم عن

طريق إظهار مواد التتبع:

تقتضي بعض إجراءات البحث والتحقيق في أنواع من جرائم السرقة والتي يكون

الأشعة السينية

من الأشعة غير المنظورة ويمكن الحصول عليها عن طريق التوقف المفاجئ للإلكترونات المتحركة بسرعة، وتمتاز هذه الأشعة بقدرتها العالية في اختراق الأجسام والمواد والنفاذ منها مما جعل لها استخدامات متعددة في المجالات الطبية والصناعية والجنائية والأمنية ومن أهم أنماط استخدامها أمنياً وجنائياً ما يلي:

١- تصوير الجثث المجهولة للتعرف عليها واكتشاف الإصابات العظمية فيها وظروف الوفاة:

ففي حالة العثور على جثة مجهولة وقبل القيام بتشريحها يجري الطبيب الشرعي تصويرها بالأشعة السينية للوقوف على إصابات العظام فيها وللبحث عن المقذوفات النارية المستقرة داخل الجسم فضلاً عن العلامات التي تساعد في التعرف عليها من خلال العظام والأسنان.

٢ - كشف المواد المخدرة المخفأة داخل الأجسام البشرية والحيوانية:

يقوم بعض المهريين بإخفاء المواد المخدرة وخاصة الهيرويين والكوكايين داخل لفائف محكمة الغلق ووضعها بآماكن حساسة من الجسم البشري أو الحيوانات لتهريبها أثناء المرور

للجاني صلة بالمكان وتتردد مشروع عليه استخدام بعض المواد التي تتميز بخصائص التألق الفسفوري أو الفلوري عند تعرضها للأشعة فوق البنفسجية وتكون هذه المواد غير ظاهرة للعين وغير ضارة بالوقت نفسه وتوضع في الأماكن التي يرجح قيام الجاني عادة بالسرقة منها (مثل دولااب ملابس يوضع به نقود أو مجوهرات) من دون أن يكون مسموحاً له بفتح تلك الأماكن، ففي حالة اتصاله وسرقة النقود من تلك الأماكن المنثور عليها تلك المواد تعلق بيده من دون أن يراها أو يشعر بها وبوجودها على يديه وعند تعريض يديه للأشعة فوق البنفسجية يظهر عليها وجود تلك المواد مما يدل ويؤكد اتصاله بتلك الأماكن وارتكابه لفعل السرقة.

٥- كشف التزوير والطمس المتعمد للوثائق وإظهار الكتابة المححاة في المستندات:

يلجأ المزورون إلى استخدام مواد كيميائية لإزالة بعض الكتابات أو العلامات من الوثائق والمستندات بحيث لا تترك أثراً ظاهراً للعين المجردة وعند الشك في تلك الوثائق وتعرضها للأشعة فوق البنفسجية تكشف من خلال خاصية التألق وجود مثل تلك العمليات.

المتفجرات وأسلاك التوصيل وبطاريات التشغيل وبذلك نستطيع كشفها وإبطال مفعولها، إلا أن بعض هذه الطرود تعد كشرِك خداعي بحيث تنفجر عند تعرضها للأشعة السينية لذلك يجب التعامل معها من خلال القواعد التالية:

أ- تعريضها من على بعد عن الخبراء للأشعة وإجراء التصوير فإذا حدث انفجار يكون الخبراء في مأمن من ذلك.

ب- استخدام دائرة تلفزيونية مغلقة بحيث تعرض الرسالة أو الطرد للأشعة داخل مكان مؤمن وتنقل الشاشة التلفزيونية الصورة إلى الخبراء بما يمكن التعامل به بسلام.

هذه أهم أنواع الأشعة غير المنظورة التي تستخدم في المجالات الأمنية والجنائية إضافة إلى وجود أنواع أخرى من هذه الأشعة تستخدم في مجالات أخرى ومن أهمها أشعة الليزر التي لها استخدامات متعددة في المجالات العسكرية والطبية.

بالمنافذ الجمركية والحدودية عند نقلها ويمكن باستخدام الأشعة السينية الكشف عن وجود تلك المواد بتعريض أجسام المشتبه بهم لها مما يمكن من ضبط الجناة منهم.

٣- كشف عمليات إخفاء الأسلحة النارية والمعدنية:

يعتمد بعض الجناة إلى إخفاء الأسلحة النارية داخل حقائب أو أمتعة أو غيرها من الأشياء عند انتقالهم لارتكاب جرائمهم بتلك الأسلحة وخاصة في حوادث خطف الطائرات ويمكن غالباً باستخدام الأشعة السينية كشف أماكن وجود تلك الأسلحة وإحباط مثل تلك الجرائم.

٤- الكشف عن الطرود والرسائل المشتبه في حملها مواداً ناسفة أو متفجرة:

تكمُن قدرة هذه الأشعة على الاختراق والنفوذ من تحديد محتويات الطرود والرسائل الكاملة للمواد المتفجرة إذ بوساطة التصوير بهذه الأشعة يظهر وجود

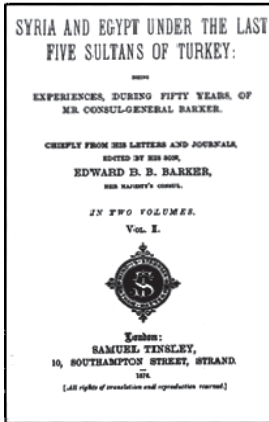


سورية ومصر تحت حكم آخر خمسة سلاطين في تركيا تجارب خمسين عاماً للقنصل العام السيد باركر

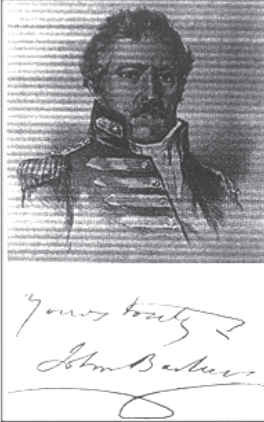
مأخوذة من الرسائل والصحف بشكل رئيسي
نشرها ولده قنصل جلالته إدوارد ب. باركر



عبد الله حجار



غلاف الكتاب (١٨٦٧م)



قنصل انكلترا بحلب
جون بادكر

يقع الكتاب الذي صدر في لندن عام (١٨٧٦م) ضمن مجلدين الأول يضم (١٨) فصلاً في (٣٦٦) صفحة والثاني (١٧) فصلاً ضمن (٣٤٠) صفحة. حوى المجلدان خبرات السيد جون باركر قنصل انكلترا في حلب ثم في مصر، وقد قام بنشرها ولده إدوارد الذي كان بدوره قنصلاً لملك انكلترا، معتمداً في ذلك على رسائل والده الخاصة وما نشرته الصحف.

يستحق الكتاب بالكامل أن يترجم إلى العربية، ولكنني سأستخلص منه

بأمة ومؤرخ سوري.

السيرة الذاتية للقنصل جون باركر مع الأحداث الهامة التي تختص بتاريخ حلب والمنطقة وأحداثها، وسوف أذكر بالتفصيل وصفه الهام في الفصل السابع عشر من المجلد الأول زلزال حلب المدمر عام (١٨٢٢م).

القنصل جون باركر (١٧٧١ - ١٨٤٩م)

ولد جون بن وليم باركر في ٩ آذار (١٧٧١م) في إزمير (سميرنا) التي توقف فيها والده وهو في طريقه إلى الهند بسبب سوء صحته وكان واحداً من اثني عشر ولداً لأبيه. أرسل إلى لندن للدراسة وأبدى ذكاء ومواهب خاصة وهو في الخامسة عشرة من العمر والتحق بأعمال المصارف وتدرّج ليصبح مسؤولاً وأمين صرف ما أهله لاحقاً للتعامل مع شركة الهند الشرقية وشركة الشرق Levant. لكن قدره لم يكن في عالم المال والتجارة لأنّه كان يبحث عن مجال أوسع.

قصد القسطنطينية والتحق بخدمة السفير البريطاني «جون سبنسر سميث» الذي لمح ذكاءه ومواهبه فعيّنه سكرتيره الخاص. وأرسله لحل مشكلة كنائب قنصل إلى حلب في أيار (١٧٩٩م) حيث أصبح قنصلاً عاماً فيها في ١٨ تشرين الثاني ١٨٠٣ واستمرّ حتى العام ١٨٢٥. ثم عيّن قنصلاً في مصر (الإسكندرية)

أيام محمد علي باشا وبقي قنصلاً ٧ سنوات خلفه الليوتنانت كولونيل باتريك كامبل. وعاد باركر إلى السويدية في ٣١ أيار (١٨٣٣م) ليعتني بحديقته التي يعتبرها «فردوسه الصغير» ويقيم في سورية بين السويدية وبتياس وزيارة حلب. وفي حلب تزوّج في ١٥ حزيران (١٨٠٠م) مريان الابنة الوحيدة للتاجر والقنصل دافيد هيز وحفيدة توماس فرنون، ويذكر أنّ جميع القناصل في حلب كانوا من اليهود القادمين من إسبانيا ما عدا القنصل الفرنسي والإنكليزي. وعندما طالب وكيل شركة الهند الشرقية في القسطنطينية العام (١٨٠٢م) بنقل البضائع إلى الهند وبغداد عن طريق دجلة من دون المرور بحلب، عارض باركر ذلك وبيّن نتيجة خبرته أنّ الطريق المارة بحلب هي أمنة وأرخص وأسرع فتبنّت الشركة طريق حلب - البصرة. وبنهاية الحرب مع فرنسا قدّم الباب العالي إلى باركر تقديرًا لخدماته وتعاونيه ميدالية سليمان مع الطغرة السلطانية لم يطبع منها سوى ٢٠ قطعة فقط.

وعندما سمع في شباط (١٨٠٧م) بانقطاع العلاقات التركية البريطانية أرسل زوجته الحامل مع ولديه إلى لبنان برفقة ترجمانه نعوم حسون (والد رزق الله

تدمر؛ غادر حلب في ١٧ تشرين الأول (١٨١٢م) وعند وصوله إلى دمشق مرض مدة أسبوعين وعندما شفي عاد بتختروان إلى حلب دون أن يتمكن من مرافقتها إلى تدمر حيث أطلق عليها لقب «أميرة الصحراء». ويذكر باركر حضوره حفلات أعراس العاملين في قنصليته والاحتفال بالعرس بالتفصيل.. كما يصف البيت الحلي التقليدي وكيف أن الفنان الوافد من بلاد فارس كان يقضي أحياناً ثمانية أشهر لإنجاز رسم سقف قاعة الاستقبال لوحده. كما يصف أحد المطربين واسمه «حنا آجقباش»، الذي كان يضع إبهام يده اليمنى في أذنه ويُميل رأسه ويبدأ بالصياح ويصرخ المستمعون وراءه بأهات الاستحسان (أي يكون قد ابتدأ بموأل أمان أمان..). وعاصر باركر وعاش وكتب عن الطاعون الذي اجتاح حلب وسورية عام (١٨١٣م) ويذكر انه في أيار (١٨١٣م) قصد أريحا قرب جبل الأربعين مع عائلته وتابع إلى اللاذقية للقاء السيدة ستانهوب واستشارة طبيبها. لكنه للأسف فقد طفليته في يوم واحد بسبب الطاعون. وكره اللاذقية وعاد إلى حلب في كانون الأول وقد عود نفسه على «شكر الله والإذعان لإرادته». وقد عانت السيدة ستانهوب كثيراً من المرض لكنها تعافت. ويذكر أن الجاليات الأوروبية أغلقت أبواب

حسون رائد الصحافة العربية وصاحب أول صحيفة صدرت باسم «مرآة الأحوال» العام ١٨٥٥ (في إستبول) وهرب، عندما وصل فرمان توقيفه إلى حلب، عن طريق اللاذقية إلى بيروت فجونية فدير القمر حيث مقر الأمير بشير الشهابي. ولم يعد إلى حلب إلا بعد انتهاء الحرب وصدور فرمان عفو، فوصل بيروت ثم بواسطة تختروان وصل إلى حلب في ٢ حزيران (١٨٠٩م) حيث استقبل رسمياً.

ويعلمنا باركر الابن ما سمعه من البطريرك اللبناني عن حكاية إرسال نعيم حسون كبير تراجمة جون باركر ولده رزق الله إلى دير بزمان للأرمن في لبنان ليصبح كاهناً، وهربه من الدير بعد أن عمل «مقلباً» في رهبانه وتساءل كيف يمكن لأديب وشاعر أن يصبح كاهناً. كما يعلمنا باركر ما تم في نهاية العام (١٨١٢م) عند انتهاء ولاية راغب باشا واستلام خلفه جلال الدين باشا (المعروف بشعبان أوغلو) كيف دعا ٢٠ شخصية من زعماء الإنكشارية إلى وليمة في حديقة الشيخ أبو بكر وقتلهم جميعاً وقطع رؤوسهم ورمأها بالبركة ثم احتل القلعة وبذلك قضى على الإنكشارية وتفرق أنصارها وكان ذلك في ٢٥ تشرين الثاني (١٨١٣م). كما أراد باركر أن يرافق السيدة هستر ستانهوب في رحلتها من دمشق إلى

الخانات وكانت تتواصل في ما بينها عن طريق الأسطحة. وقد عمّ الطاعون جميع سورية وأزمير وحتى القسطنطينية في نيسان (١٨١٤م). قليلون كانوا يعيشون ٣٦ ساعة بعد بدء إصابتهم، وكثيرون كانوا يموتون خلال ٢٤ ساعة. وتوقف الطاعون أخيراً في ١٥ آب (١٨١٤م) وراح ضحيته ٨٠٠٠ نسمة.

ويضيف باركر: «وأنا متأكد أنّ ضعف هذا العدد هرب من ظلم الوالي جلال الدين باشا». كما يذكر بطلة الأكراد الشهيرة عايشة خاتون التي تزعمت جمع الأكراد في الجبال طيلة عشرين عاماً وتوفيت عام (١٨١٣م)، وأبقت سلطات الزعيم زوجها بيدها بعد وفاته وكانت تلبس كالرجال وتضع الخنجر والمسدس. وضغط خادمها يوماً على يدها إشارة إعجاب وهي تركب الحصان فأردته قتيلاً برصاصة مسدسها.

كما تحدّث عن السيدة هستر ستانهوب التي كان على تواصل معها عن طريق الرسائل ويذكر عنها في لقاءاته معها أنّها ثرثرة لا تترك مجالاً لغيرها للكلام. وعند عودته من انكلترا إلى صيدا حيث دعتّه إلى العشاء لديها في أيلول (١٨٢٠م) تتبّأت بقولها إنّّه في وقت قصير لن يبقى في حلب حجر على حجر. وبالفعل بعد سنتين كان زلزال حلب المدمّر في ١٣ آب (١٨٢٢م)

الذي حدّثا عنه باركر بالتفصيل وقد عاشه بجسده وروحه، كما سنرى لاحقاً، وكان خلالها قنصل فرنسا في حلب إدمون دو لسبس ابن عم فردينان الذي نفّذ مشروع فتح قناة السويس العام (١٨٦٩م). ويذكر باركر أنّ الدور المبنية على شكل قوسي (مقبب) لم تتهار، كما أنّ مئذنة الجامع الكبير المبنية قبل ٩٠٠ عام قاومت جميع الهزّات الأرضية. كما أنّه في صيف (١٨٢٣م) ظهر وباء الكوليرا لأول مرّة في حلب وكان يسمّى «الهواء الأصفر».

ويبدو أنّ باركر كان خبيراً في اختيار الخيول العربية الأصيلة وتبيّن إحدى رسائل حزينان (١٨٢٥م) تكليفه من قبل قنصل هولندا المسنّ والمريض بشراء فرس عربية أصيلة لملك فورتمبرغ وقيامه بجولة استغرقت أسبوعين بحثاً عن الفرس المناسبة التي يجب أن تتمتع بالسرعة وقوّة التحمل والعمر بين ثلاث وست سنوات، عند أعراب البادية انطلاقاً من حلب إلى دير الزور فالبادية قرب تدمر وصولاً إلى شرق حمص وبيّن بفاتورة تفاصيل التكاليف التي بلغت أكثر من ١٠٠٠٠ قرش أو ما يعادل أكثر من ٣٥٠ جنيه إسترليني. ولمعرفة أهمية المبلغ نذكر أنّ الراتب التقاعدي الذي مُنحه القنصل باركر بعد إنهاء خدمته القنصلية كان ٦٥٠ جنيه في العام.

ويذكر باركر أن الفرس «النجدي» كان أفضل الخيول العربية. وقد أرسل الفرس ومهر وفحل غير مخصي معاً عن طريق استنبول إلى أوروبا.

وكانت مسز ستانهوب غالباً ما تذكر «لاسكاريس» في رسائلها إلى باركر. كان جاسوساً لنابليون وكان يتقلد ويتجول كمتسول وكان معه غالباً كمرافق فتح الله صائغ الحلبي الذي ذكره لامارتين في كتاب «رحلات إلى سورية»، ولم يكن لامارتين أو صايغ يشك بأنه كان جاسوساً. وقد ترك لاسكاريس زوجته وأرسلها لتعود عن طريق القسطنطينية إلى موطنها في جورجيا، وتوفي في القاهرة العام (١٨١٧م) وقد تكفل قنصل انكلترا فيها بنفقات دفنه.

وتحدث جون باركر عن الأمير بشير الشهابي وعن مجيء إبراهيم باشا إلى سورية (١٨٣١ - ١٨٤٠م) واستيلائه على عكا في ٢٧ أيار (١٨٣٢م) وتوقفه في السويدية حيث أرسل رسالة بالعربية إلى باركر يعلمه فيها أنه تذوق فواكه حديقته ونام في داره، وأعلمه أن السويدية هي أجمل مكان بعد دمشق التي تعتبر الفردوس الأرضي من دون منازع، وقد أقام مركزه الرئيسي في أنطاكية خلال وجوده في سورية.

ويذكر بناء إبراهيم باشا ثكنة عسكرية في حلب تتسع لـ ٤٠٠٠ فارس في الشيخ

أبو بكر مع مستشفى قريب منها لجنوده. كما يذكر معركة نيزيب التي جرت في ٢٥ حزيران (١٨٣٩م) وانتصر فيها إبراهيم باشا الذي اشترى الفرق العثمانية وضباطها وخسر جيش السلطان ١٠٠٠٠ أسير و ١٥٠٠٠ بندقية و ١٠٤ مدافع. لكن الحلفاء هاجموا بأسطولهم بيروت في ١٦ أيلول (١٨٣٩م) (١٣ بارجة حربية و ٤ سفن بخارية) ثم صيدا وطرابلس واللاذقية وعكا، وخسر المصريون ٢٠٠٠ رجل والإنكليز ومن معهم ١٨ قتيلاً و ٤٢ جريحاً وهرب جيش إبراهيم باشا وسلم ٢٠٠٠٠ نسمة أنفسهم.

وفي نهاية كانون الأول (١٨٤٠م) عادت سورية إلى السلطنة العثمانية وسحب محمد علي جيوشه من كنديا وساحل آسيا الصغرى وأرسل فرمان يؤكد ملكية محمد علي وعائلته من بعده على مصر.

ويشير باركر إلى مجيء بعثة الكولونيل تشيزني لاكتشاف ومسح منطقة الفرات لبيان صلاحيته للملاحة العام (١٨٣٥م)، وقيام زوجته مريان باركر بتاريخ ٢٣ أيار (١٨٣٥م) بتدشين إحدى السفينتين في نهر العاصي وتسميتها «دجلة»، وكان باركر قد تعرّف على الكولونيل تشيزني خلال وجوده في مصر. وتمّ عن طريق الجمال والعربات نقل كامل معدات البعثة وقطع السفينتين «دجلة» و«الفرات» من حرقا وخزان البخار

وسواء إلى مرفأً براجيك شمال جرابلس، وأزيل المخيم في السويدية في ٥ أيلول (١٨٣٥م). ويبيدي باركر عميق إيمانه عندما يروي حادث غرق السفينة «دجلة» في نهر الفرات قرب قرية «الصالحية» (موقع مدينة دورا أوروبوس) على أثر إعصار عاصف جرى في ٣١ أيار عام ١٨٣٦م). وأن أول ما فعله تشيزني عند خروجه من الماء ومشاهدة السفينة «الفرات» التي قاومت العاصفة والاعصار أن شكر الباري قائلاً: «الحمد لله، ما زال لديّ السفينة الثانية».

كان تشيزني مشهوراً بتقواه، ويعتمد في جميع أعماله على القدرة الإلهية التي يمكن أن توصله إلى نهاية سعيدة وإلى تمجيد الله. ويحدثنا باركر عن انتشار البروتستانتية في سورية ولبنان والمصاعب التي كان يعانيها في توزيع الكتب والمطبوعات على الطائفة...

كان جون باركر صياداً ماهراً بالبندقية، اصطاد مرة ٦٦ حجلاً «وضعها ذيل ورأس بالتأوب ودعا جاره رئيس دير الرهبان الفرنسيين لمشاهدتها، فرفع رئيس الدير ذراعيه من الدهشة وقال مازحاً: «هذه مذبحه يجب أن نصلي ترتيلة على أرواحها، لكن الكنيسة لا تسمح بذلك لأنها ماتت دون اعتراف وفي معركة. ويذكر أنه اصطاد مرة في أنطاكية وخلال جولة استغرقت ٦ ساعات ٧٢ طائراً من نوع الحجل. كان

باركر ذا شخصية قويّة وصاحب نكتة لا يخلو فصل من فصول كتابه من ذكر طرفة أو نكتة حصلت في المجتمع المحيط به. وخلال سنوات عديدة كان يقضي شهري تموز وآب الحارين في قرية «السفيرة» التي يأتي الحجل في لحظات الحر إلى مياهها الحلوة والليالي فيها رائعة، لكن الحرارة شديدة بحيث يجب إمساك طرف البندقية بمنشفة من شدة الحرارة، ويجب ترطيب المنشفة كل ربع ساعة. أحب سورية وفضل أن يعيش فيها على العيش في لندن عند تقاعده. وكان له بيتان أحدهما في بتياس والآخر في السويدية حيث يوجد معمل صنع الحرير الخاص بزوجه وحيث أقام حديقته الغنية بالأشجار المثمرة وأنواع الزهور وكان يعتبرها «فردوسه الصغير». وعندما كان الشتاء يمنع باركر من العمل في حديقته في السويدية كان يأتي إلى حلب ليرى أصدقاء الصيادين وسواهم. ويروي أن نصري حوّا من سكان حيّ «الجديدة» دعاه إلى وليمة أيام الصيام، قدّم له فيها طاولة طعام ضمت ٣٠ صحناً صيامياً من أنواع السمك من بينها الفراتي والأسود والحلوى وسواها (في الصيام لا تقدّم اللحوم) فعلق باركر على ذلك قائلاً: «إذا كانت هذه إماماتك في الصوم، أتمنى أن أصوم بهذا الشكل كل أيام عمري».

الناس بالشعب الإنكليزي بأريحية ضيافته وكرمه، بحيث أنه عندما نشبت الحرب مع روسيا العام (١٨٥٤م) كان مئات من السوريين والأكراد على استعداد للمشاركة فيها بحماس تحت العلم البريطاني.

ويختتم الفصل الأخير من الكتاب بأن القول بعدم عيش المسلم والمسيحي معاً بانسجام هو خطأ كبير. وفي رأي القنصل باركر الأب والابن أن المواطنين بمعتقدات مختلفة يعيشون بسلام تام في تركيا. لكن قرون من الجهل والبربرية جعلت السلطات الحاكمة في تركيا تنظر بدونية نحو أتباعها المسيحيين. لقد حان الوقت كي لا يسمح للعنصر الديني بأن يدخل مجال السياسة. ولأوروبا المتحضرة الحق في أن تطلب من تركيا حداً معيناً من النظام في حكم دول قريبة جداً من قلبها، وأن توقف القسوة الوحشية والبغض البربري الشديد. ولها الحق كذلك بأن تدعم، وبشكل جماعي إذا لزم الأمر، الإصلاحات التي هي وحدها فقط المبادئ العامة للعدالة والإنسانية المنسجمة مع الأفكار العامة للعصر الذي نعيش فيه، ويمكن لحكومة قوية أن تحقق ذلك بسهولة. وعندها لن نسمع عن «المسألة الشرقية» أو عن «الرجل المريض» حيث تتطور عناصر صحيّة وتظهر حياة جديدة في هيكل الدولة. لكن يجب أن يُعزَل كل تمييز في المعتقد الديني إلى الأبد.

توفي جون باركر في «بتياس» إثر سكتة قلبية في ٥ تشرين الأول (١٨٤٩م) وعمره ٧٨ سنة و٧ أشهر. وكان قد صعد الجبل الأقرع لوحده قبل ثلاثة أيام من وفاته وتناول طعام غداء جيداً قبل أن يصاب بالسكتة القلبية. دُفن قرب الكنيسة الأرمنية وبعد سنتين أُقيم له قبر بألواح من المرممر تحمل كتابة جُلبت من جنوة في إيطاليا.

ويتحدث الكتاب في فصوله الأخيرة التي تابعتها ولده القنصل إدوارد عن قومة البلد في حلب من ١٦ تشرين الأول إلى ٩ تشرين الثاني (١٨٥٠م) واستغرقت ٢٤ يوماً. وكذلك عن مجيء الكولونيل تشيزني وقد أصبح جنراً إلى السويدية العام (١٨٥٦م)، وهو المهووس بالمواصلات وإيجاد أقصر طريق بين لندن والهند، وذلك لدراسة موضوع إقامة خط حديدي يصل بين البحر المتوسط وإيران مروراً بحلب وتدمر والعراق، وكانت الصعوبة هي في اجتياز المنطقة بين الإسكندرونه وحلب مع فرق الارتفاع بينهما.

ولعله ليس من الخطأ أن نذكر أنه خلال خمسين عاماً من الحياة المفيدة التي قضاها باركر في سورية ومصر رفع، بصفاته المتميزة، سمعة الاستقامة والإنصاف في التعامل لدى الرجل الإنكليزي، والتي رآها منتشرة عند وصوله وساهم في زيادة ثقة

القنصل جون باركر يصف زلزال

(١٨٢٢م):

يقول جون باركر في رسالة وجهها في الثاني من آذار (١٨٢٣م) إلى أخته السيدة ريتشاردس في ويلز: «لم أتضايق من الأشواك في طريقي والتي كستها الزهور، شكراً لله، منذ عودتي إلى حلب. لقد استمتعنا بحق، ماريان وأنا، بكل السعادة التي يمكن أن يسبغها الله على المخلوقات. ويشع ضوءٌ جديدٌ من الهناء يوم استلامنا أخباراً جيدة من قبلك. ولم يُعرف شيء عن الاضطراب الذي كان قادمًا.

في الثالث عشر من آب (١٨٢٢م) في الساعة التاسعة مساءً دُمّرت بالكامل وخلال زلزال استمرّ (١٠ - ١٢) ثانية كلٌّ من حلب وأنطاكية وإدلب وأريحا ودركوش وأرمناز وكلّ قرية وكوخ في البشليك وبعض مدن بشليك دمشق والرافدين وحتى بغداد وأصبحت أكوام أحجار وركاماً، فقدّ خلالها، بحسب أقلّ تقدير، ٢٠٠٠٠ إنسان حياتهم (عشر سكان حلب) وعددٌ مماثل شوّه أو جرح. لقد شعر بالصدمة في البحر بعنفٍ شديد على بعد فرسخين (حوالي ١٠ كم) من قبرص وقد اعتُقد أنّ سفينة قد اصطدمت بالصخور وغرقت. وشوهت ومضات نار بركانية في فترات مختلفة خلال الليل تشبه ضوء القمر، لكنها لم تترك في أي مكان

بحسب علمي، صدعاً أو شقاً أو هوة على الرغم من أنّه في الأراضي المنخفضة كانت تشاهد في كل مكان شقوقٌ صغيرة، تتدفق المياه منها ولا تلبث أن تغور وتختفي. ولم يلحظ شيء في الطقس أو في حالة الجو. ولم تكن الأبنية في أعالي الجبال أكثر أماناً من الأبنية المجاورة لضفاف الأنهار أو على شاطئ البحر.

وعلى الرغم من الهزات الأرضية التي كانت تحدث بين وقت وآخر في هذا البلد، لكن من المؤكّد أنّه منذ عدّة قرون لم يحدث أيٌّ منها أيّ ضررٍ ماديّ باستثناء هزة أرضية حدثت منذ ٢٧ سنة عندما هدمت جزئياً مدينة اللاذقية. كما أنّه في العام (١٧٥٥م) شعر بهزة أرضية في حلب وأنطاكية وقد تنبّه السكان بحيث تركوا منازلهم مدّة ٤٠ يوماً ولم يحصل سوى أضرار مادية قليلة ولم يمت أحدٌ.

ويتابع باركر في رسالته وصف الزلزال فيقول: «عندما تسمح عودة النهار يتعرّف الناس على بعضهم يهرع الأحياء إلى احتضان بعضهم بعضاً بشعور فرح باستمرار وجودهم. لكن يعقب هذا الفرح على الفور حزن شديد، حيث فقد العديد من السكان الأصدقاء والأهل والأطفال والأزواج والزوجات. وتهتز الأرض تحت أقدام الذين نجوا منذ ١٣ آب وحتى ٩

تشرين الأول طيلة ٥٦ يوماً وليلة كئيبة جعلت الإنذار بالخطر والقلق قائماً. وفي كل مرة تهتز الأرض كان الشعور بالخوف من أن تكون تلك ليلتهم الأخيرة. وقد جرح الكثير وعانوا سكرات الموت، وكان للميت تعزية صغيرة عدا مشهد الموت المأساوي هو قيام الأحياء بدفن الموتى. يضاف إلى تلك المحن سماع السوريين التبعاء بانتشار وباء الكوليرا في بلاد الرافدين المجاورة لسورية.

«لقد اعتبرت إنقاذي من فكي الموت معجزة، حيث نمنا (السيد باركر وزوجته) في الغرفة العليا المطلّة على نهر العاصي في أنطاكية، وكان السقف مدعماً بجيزان والواح خشب ومغطى بالقرميد. وكنتُ وزوجتي في السرير وعلينا بعض الثياب. وبدأ الزلزال بهزة معتدلة كالتي تسبقها والتي مرّت من دون ضرر، وأقنعتنا نفسينا أنها بسيطة لكنّها ازدادت خلال ثواني وسمع صوت انهيار عام. في البدء انهار السور العالي ذو الفتحات في الأبراج للمدينة القديمة والذي يستند عليه جزءٌ من بيتنا. وحال سقوطه أقنعتنا أنفسنا خلال جزء من الثانية بأمل أنّ الهزة قد انتهت. لكنّها عادت بقوة إضافية، وخلال ثانيتين أو ثلاث انهارت الجدران الأربعة كما لو كانت مصنوعة من العجينة، ومن حسن حظنا سقطت نحو الخارج ورأينا

نفسينا بلطف في الأسفل على أقدامنا في الغرفة السفلى قرب الباب وتحت نجفته. وضعتُ ذراعي اليسرى حول عنق زوجتي ونحن نتوقع في تلك اللحظة الموت بسقوط حجر أو جائز علينا. وشعرتُ بالتعزية في تلك اللحظة الكئيبة أنّه قدّر لنا أن نموت معاً، أهدنا بين ذراعي الآخر، وأن ندفن معاً في القبر نفسه. «حسناً يجب أن نموت إنّها إرادة الله». حاولنا من دون جدوى فتح الباب المغلق بأحجار كبيرة، وكان الجيران ينتحبون جميعاً والصراخ المعقّد لجيراننا عال جداً بحيث أن أصواتنا لم تكن تسمع ولا أحد ينتبه إلينا. وأخيراً جاء حنا وأنطوني لنجدتنا، وقد حمتهما نجفة الباب من تساقط الأحجار فوقهما، وفتح الباب بحيث سُمح لنا بالخروج. ولحسن الحظ كان أحد المصاييح معلقاً في شجرة المشمش الكبيرة في باحة الدار وكان نوره سبباً في إنقاذ حياة العديد من جيراننا التبعاء الذين لم يكن بالإمكان إخراجهم من الخراب حتى الصباح لو لم يساعد ضوء المصباح في إنقاذهم.

ترى ما هي القوة (القدرة) التي ألزمت آلاف الأحجار أن تحترم أجسادنا وتحطم إلى مئة قطعة جميع الأغراض المتحركة في غرفتنا المؤلفة من هيكلَي سريرين وكرسيين وطاوله؟

جاء رجل مسكين من البيت صباحاً وانتشل من الركاب جثث والدته وزوجته وأولاده الأربعة. وجاء رجل آخر، كان فرحاً لانسحابه -بشعوره الذاتي- إلى البساتين عند الهرة الأولى، عاد باكراً في الصباح من أجل شيء تافه ولقي حتفه عندما ظن أن الخطر قد زال.

هل سيفشق السيد الأعظم (السلطان العثماني) أخيراً على رعاياه المظلومين الذين ارتأى الله أن تصيبهم نكبة مروعة كهذه؟ هل يقبل أن لا يعفيهم في السنوات القليلة القادمة من دفع ضرائبهم؟ إنه حدث جمل كفداحة الكارثة، فهي لن تُعطى أي اعتبار، وهي مصادفة أرسلها الله، إن لم تكن سبباً، لتحرر الشعب من اضطهاد الباب العالي لسنتين أو ثلاث على الأقل.

إن الظلام الدامس أثناء الليل واستمرار الهزات الأكثر عنفاً خلال فترات زمنية قصيرة، وانهيار الجدران المتساقطة والصراخ والأنين وأصوات المنازعين والبنائسين في تلك الليلة أشياء لا يمكن وصفها. وعندما يبرز فجر وتسمح عودة النور للناس بترك البقعة التي أنقذتهم فيها العناية الإلهية يبدو مشهد مؤثر جداً. ترى كثيراً من الذين لم يعتادوا الصلاة ساجدين على ركبهم يعبدون خالقهم،

وترى آخرين يركضون ليعانق بعضهم بعضاً وقد عمّ الملامح والوجوه جو من الحبور والمحبة والأخوة.

في نكبة عامة يكون فيها التركي (المسلم) والمسيحي واليهودي وعابد الأوثان ضحايا من دون تمييز خاضعين للعناية الإلهية النزيهة، ينسى كل واحد ولفترة أحقاده الدينية، ويكون الشعور السائد في تلك اللحظة المفرحة هو أن كل واحد ينظر بلامبالاة إلى أكبر فقدان أصابه. لكن ما أن تزداد حدة أشعة الشمس حتى يبدأ الناس بالتدريج بتذكر حاجاتهم الطبيعية من المأوى والغذاء، ويصبحوا أحياء إلى أقصى مدى في مواجهة المشهد الحزين أمامهم، حيث يواجهون قدراً كبيراً من البؤس الإنساني نادراً ما يحصل بسبب اضطراب الطبيعة العنيف.

هكذا وصف قنصل انكلترا جون باركر زلزل العام (١٨٢٢م) الذي عاناه شخصياً وعاش دقائقه وثوانيه. والجدير بالذكر أن باركر طلب من لندن إرسال إعانات لمن عانوا من الزلزال المدمر، وأرسل إليه أكثر من ١٠٠٠ جنيه إسترليني بدأ بتوزيع جزءاً منها على المتضررين من الزلزال. إلا أن الحكومة العثمانية رفضت تقبل رعاياها مساعدات من الخارج وأمرت برد المساعدات المقدمة.

مع:

الأديب الدكتور هزوان الوز



إعداد: محمد خالد الخضر



الأديب الدكتور هزوان الوز كاتب وروائي وقاصص ويبحث في الأدب والسياسة إضافة إلى ترجماته الكثيرة عن الروسية ومن هذا وذاك يرقى فيما يذهب إليه إلى سمو أدبي رفيع من خلال منظومة وطنية وثقافية وأخلاقية تجتمع في كتاباته ليخلص إلى عالم إنساني أرقى، وحول ما يكتب كان الحوار التالي:

- تعدد الاختصاصات والمعارف لدى الكاتب هل تثقل كاهله أم تعطيه أفقاً أوسع ومقدرة على الخوض بقضايا جديدة والغوص بتفاصيلها؟

✻ أديب وصحفي سوري.

• الأمران معاً، تثقل كاهله إذا لم يكن كاتباً بحقٍّ، وتمنحه أفقاً إذا كان كاتباً بحقٍّ. ففي الحال الأولى يتجلى التعدد بعثرة للطاقة، وفي الحال الثانية يشرع هذه الطاقة على أمداء مفتوحة.

إنّ تعدد الاختصاصات يعطي أفقاً ثقافياً أوسع وإمكانية للتكامل أفضل فكرياً وانفعالياً وهذا ما يمكنه من الإحاطة الأشمل والنفوذ الأعمق. مع الإشارة إلى أنّ تلك الاختصاصات وإن بدت متباعدة عن بعضها فهذا التباعد ظاهري لأنّ صلاتها في الحقيقة تشاركية، بل تكاملية على نحو أدق، تشبه الإنسان نفسه.

لقد كتبت في غير حقّ معرفي: في الإبداع السرد، قصّة ورواية، وفي الفكر التربوي، والإعلامي، والترجمة عن الروسية، وأعتقد أنني استطعت إنجاز ما كنت أطمح إليه في هذه الحقول جميعاً، كما أعتقد أنني لم أبدد طاقتي في مجال الكتابة كما قد يقدر أحد آخر، فلقد كان لي خياراتي التعبيرية الخاصة بي، والمنطلقة من إلحاح اللحظة التاريخية لفعل الكتابة، ولذلك كان كلّ عمل ممّا أنجزت مرتبطاً بشرطين اثنين: ما يورقني على المستوى الشخصي، وما يبدو مؤرقاً على المستوى الجمعي، ولذلك أيضاً كان كلّ عمل ضرورة فردية وجماعية في مرحلته، ولعلّك تكتشف ذلك من خلال

إحالة كلّ منجز إلى السنة التي صدر فيها، أو المرحلة التي كان مؤرقاً بها.

- انتهجت طريق الجرأة والمباشرة في الطرح منذ عملي الأدبي الأول / عيون في الخريف / حيث دخلت إلى عوالم البسطاء والكادحين ومعاناتهم فضلاً عن نقد الممارسات الخاطئة في الواقع العربي والسياسي. هل يتعلق ذلك بنظرة فكرية إزاء الأحداث السابقة طوال العقدين الماضيين أم برغبة في تصوير الواقع؟

• قد لا يكون مفهوم «مرور الكرام» - كما هو متواتر ومستقر بين الناس - مستحباً لدى الكاتب الذي يريد التأثير والإبداع، فالكتابة موقف من الواقع، وهذا الموقف يتطلب رفع الصوت أحياناً ودس الأنف في أعماق المجتمع وزواياه لتحسس الرطوبة والعفونة والعطن، ولذلك فالأدباء أصحاب المواقف من ذوي الإبداع يشهرون أقلامهم كما السيف أو يسرون بصور عارية وهم يتوقعون أي شيء.

الجرأة في مقاربة الموضوعات الأكثر التصاقاً بحيوات الناس ومؤرقاتهم ضرورة في الإبداع، وغيابها يعني تعليق هذا الإبداع في الفراغ، وشخصياً لا أعتقد أنني فيما كتبت، بل فيما صدر لي، تجاوزت حدود الواقع إلى حدود المباشرة على الرغم مما بين الحقلين من مشتركات، لأنني طالما

لتصنيف كتابتي تحت أي مرجع واقعي، أو دلالة واقعية، أو نظرية نقدية تتطلق من الواقع، بل الكتابة نفسها بعيداً عن التصنيف والتبويب والحقول مسبقة الصنع. يكفي المبدع أن يكون مخلصاً للواقع، ويكفيه أن يكون هذا الإخلاص صادراً عن وعي حقيقي بالواقع، بل عن معرفة حصيفة به، وإن لم يكن كذلك فستكون الكتابة عندئذ ظلاً للواقع لا الواقع نفسه، أو شبهاً بالواقع بدلاً من أن تكون صورته.

- ألا تجد أن أدبك يوغل في شرح الواقع الحزين إلى حد التراجيديا ولا سيما مجموعة / حكايا طائر السمرمر؟

• الواقع أكثر إحزاناً من أدبنا لذلك أخاف أن أكون مقصراً في هذا المجال.

نحن نعيش الحزن ونحلم بالسعادة، طريقنا إلى السعادة مفروش بأحزاننا، وهذه ليست نبرة حزينة وليست فكرة مطلقة ولكنها واقعية إلى درجة تكاد معها تصبح جوهر الحياة. الولادة لا تكون بغير ألم والانفراج لا معنى له إلا بعد الكبت، أمّا الفرح الذي يأتي من فرح ويعقبه فرح آخر فسيورث الملل لا محالة، وأنا سعيد بطبعي وسعيد في حياتي.

الحزن خزان الإبداع كما يُقال، ولولاه لما كان هذا الإبداع، ولكن أيّ حزن؟ الحزن الذي يستطيع المبدع صياغته على نحو

آمنت بأن الكتابة مسؤولية، واستجابة لمثيرات الواقع، ومواجهة دائمة لمعوقات تطوره وتقدمه، ولطالما كان هذا الإيمان البوصلة التي توجه الموضوعات التي أختار لتكون محكيات للنصوص القصصية التي سأكتب، ولعل ذلك هو ما قصدت إليه بتعبير عوالم البسطاء والكادحين الذين يمثلون بالنسبة إليّ رصيماً غالياً فيما يعني الكتابة ورسالته، أما أن يكون هذا مرتبطاً بنظرة فكرية، فلا بد أنه كذلك، بل إذا شئت الدقة لا بد أنه يصدر عن رؤية للحياة والواقع، وهذه الرؤية ليست وليدة أي أيديولوجية ومن أي درجة كانت، بل وليدة الواقع نفسه الذي غالباً ما مثل بالنسبة إليّ المرجع والغاية بأن.

- في أي نوع من أنواع الأدب الواقعي تدرج فيه قصصك التي تكتبها؟

• مع أنني لا أعتقد بالنخوم الصارمة بين أنواع الأدب لكن يمكن أن أقول إن تلك القصص تدرج تحت الواقعية وكفى ذلك مهما يكن من أمر الواقعيات التي قالت بها نظريات نقدية مختلفة.

في إجابتي السابقة أشرت إلى ما اصطلحت عليه بالمرجع والغاية، أي الواقع، وهذا الأخير لديّ أصل في كل ما كتبت وأكتب، وهو هدف بأن في كل ما كتبت وأكتب، ولذلك لم تكن تعني أي فعالية

يبتعد معه عن حرائق الواقع ليخلق حرائق النص الذي يكتبه، وهذه الأخيرة هي ما تجعل الحزن نبيلاً وشفيفاً وفاعلاً في إرادة التغيير لدى القارئ للخلاص من تشوهات الواقع وآثامه.

- ما رأيك بالقصة القصيرة جداً، وهل تعتبرها جنساً أدبياً يندرج تحت اسم القصة، وهل لها مستقبل كالقصة القصيرة والرواية؟

• يصعب القطع في هذا المجال لأنّ هذا النوع لم يضع قدماً راسخة أو يحدد بعداً خاصاً به، فبدا كملعب من غير لاعبين، وباستثناءات تكاد لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، وأنت تعرف كما يعرف السادة القراء أنّ زهرة أو بضع زهور لا تصنع ربيعاً.

لقد شهد العقد الأخير من القرن الفائت محاولات كثيرة لجعل القصة القصيرة جداً ظاهرة في المشهد القصصي، السوريّ على الأقل، غير أنّ تلك المحاولات سرعان ما ارتطمت بحائط الوهم بأن كل نص حكائي قصير هو قصة قصيرة جداً بالضرورة، وسرعان أيضاً ما تصدعت تلك المحاولات لغير سبب، ومن ذلك توجه كثير من الأصوات الجديدة إلى هذا النوع من الكتابة اعتقاداً منها بأنه جواز

مرور إلى المشهد القصصي الذي بدا آنذاك صاحباً بالظاهرة، ومنه إقدام فقراء الموهبة على ركوب الموجة، أي الظاهرة، ولعل ذلك ما كان سبباً في عدم صمود الظاهرة طويلاً، ولعله ما جعل الظاهرة صوتية بامتياز كما وصفها أحد النقاد المتابعين للحراك القصصي السوريّ.

- أنت كتبت مقالات في السياسة. هل هناك رابط بين هذا النمط الثقافي والأدبي، وبين القصة والرواية؟

• الأدب والثقافة نتاج إنساني يخضع لقواعد وشروط لكنه يبقى نتاجاً إنسانياً يعبر عن مواقف الحياة والإنسان، والرابط بين ما أكتب بالسياسة أو الثقافة أو الأدب كالرابط بين خطوط اللوحة الفنية وألوانها ومكوناتها.

شخصياً لا أرى أنّ ثمة حدوداً حاسمة بين مجالات الإنتاج الفكريّ، بل إنّ ثمة تراسلاً بهذه الدرجة أو تلك بينها جميعاً، وأعتقد أنّ الموضوع هو الذي يختار شكله من جهة، ويحدّد تخومه الأجاسية من جهة ثانية. وفي الحالين ليس ثمة فروق بين الكتابة الفكرية والكتابة الإبداعية إلا بالشكل وحده، فكلتاهما مؤرقتان بالإنسان، وبالتوير والتغيير، أعني أنّهما تستهدفان الإنسان كل على طريقته، وبوسائله

- قمت بترجمة العديد من الكتابات الأدبية. هل أثر ذلك على شخصيتك الثقافية والأدبية؟

• إذا سلّمنا بأن قراءة النتاج الإنساني الثقافي هي عملية تفاعلية بين القارئ والنص الذي أثّرت فيه مكونات عدّة منها الزمان والمكان فإن الترجمة هي تفاعل مع المقروء وإعادة إنتاج له مع التشدد في الأمانة للغة النص وفكره والتحليق عالياً في فضائه، وبذلك تكون الترجمة منحتني فضاءات أخرى رحبة للتحليق فيها.

لقد كان لمعرفة بلغة أخرى غير لغتي الأم، بل لتمكّني من تلك اللغة، دور كبير في معرفة أخرى، هي الإبداع المكتوب بتلك اللغة، وفي قراءته في مصادره، ومن المؤكّد أنّ ذلك كان له أثره في ثقافتي أولاً وفي بنائي للنص الذي أكتبه ثانياً، ومن البدهيّ بأنّ أن يكون واضحاً بهذه الدرجة أو تلك في مجمل ما كتبت، من دون أن يعني هذا أثراً مباشراً وجهيراً، بقدر ما يعني تعبيراً عن زاد ثقافي بمغامرات الآخر.

إنني شديد الإيمان أنّ أي كتابة لا ترفدها ثقافة الآخر، كتابة محدودة في أفق يخصها، وأرى، في هذا المجال، أنّ منجز الآخر، فكرياً وإبداعياً، ضرورة لأي كاتب، وبمنأى عنه، وفي غيابه، تتجلّى الكتابة بوصفها مثاقفة مع نفسها، وغير

الخاصة، وسأعود معك إلى إجابة عن سؤال سابق لأؤكد أن الموضوع هو الذي يختار فضائه التعبيريّ.

- لماذا لم تقف عند جنس أدبي واحد ولقد عددت اتجاهاتك الثقافية؟ أليس صعباً في ظل أعمالك الإدارية الجسيمة والشاقة؟

• ألم أقل في إجابة سابقة إنني سعيد في حياتي؟ ومصدر هذه السعادة أنني أعرف كيف أدير شأني إنساناً ومسؤولاً، أعني على المستوى الذي يخصني بوصفي أباً للأسرة، وعلى المستوى الذي يخصّ عملي بوصفي معنياً بوحدة من أهم المؤسسات التي تخص المجتمع عامة. وبين المستويين أنا هزوان الوز نفسه، أعني الأب والكاتب والمترجم والمسؤول، وأعني أكثر أنني أمنح كلّ صفة ما يليق بها من الجدية والمسؤولية، الأمر الذي مكّني من أن أكون الكاتب والمترجم عندما يجب أن أكون، أي عندما يلح عليّ هذا الموضوع الإنسانيّ أو ذاك، ومن أن أكون المسؤول عندما يجب أن أكون كذلك. وأستطيع أن أقول إنني في الحالين أحمل نفسي ما يجب من أمانة الأداء، ومن الإيمان بواجبين: واجب الكلمة، وواجب الإدارة، وإنني لا أجد فرقاً بين الحالين إلا في الدرجة فحسب.

- ما رأيك بالساحة الثقافية بشكل عام

وبما يدور عليها؟

• أتت سنوات الحرب إلينا كما تأتي النار على المعادن وانكشف الجوهر، فأظهرت سنوات الحرب في بلادنا قامات ثقافية وأدبية تستحق الاحترام والتقدير، وفي الوقت نفسه وبعيداً عن منطق التخوين والاقتتال هناك أسماء كثيرة وكبيرة في ساحتها الثقافية أقل ما يمكن أن يقال فيها إنها أضاعت بوصلتها، منها من سقط على الطريق ومنها من يترنح. وفي كل الأحوال لقد خلقت الظروف حالة أو حراكاً عند المثقفين يتلمسون به الطريق الذي يجب أن يسلكوه بعيداً عن المهادي والمطبات في ثقافتهم التي يجب أن تشكل لهم وللأجيال القادمة وللوطن حصناً يحميهم ويفتح لهم الطريق إلى العالم المعاصر.

- استقبلت مجموعتك القصصية

الصادرة قبل نحو سنة، أعني «صباح الياسمين.. صباح الغاردينيا»، عن اتحاد الكتاب العرب، بحفاوة واضحة، ولا سيما أنها صدرت بعد توقف عن الكتابة الإبداعية يبدو طويلاً. ما الذي جعلك تعود إلى كتابة القصة القصيرة من جهة، وإلى النشر في هذا المجال من جهة ثانية، ولا سيما أن المتابع لمسارك الثقافي صار يعتقد بإخلاصك للكتابة الفكرية والترجمة وحدهما؟

خاف أن المثاقفة بمعناها الحقيقي هي ما تتجزه الكتابة من علاقات مع مغامرات الآخر، وما يجب أن تتركه من أثر في تلك المغامرات في الوقت نفسه.

- هل ترى واقع الترجمة واقعاً سليماً

على الساحة الثقافية؟ وكيف تقيّمها؟

• يبدو واقع الترجمة ليس على النحو الذي نطمح إليه، مع تقديري للخطوات التي تمت في هذا المجال، فالترجمة تتطلب خطة واقعية واضحة المعالم ومكتملة العناصر وتتعاظم مع موضوع الترجمة على أنه طريق باتجاهين، نترجم للآخر ويطرجم لنا، وهذا الطريق إلى ساحات ثقافية متعددة من ساحات الثقافة في العالم، نوسع به مصادر المعرفة والثقافة والحضارة ونقرب به بني البشر من بعض لتأخذ يد العولمة بعداً إيجابياً بعيداً عن الهيمنة الثقافية.

أمّا تقييم هذا الواقع وتقويمه فشان الجماعة البشرية، بل المؤسسات، لا شأن فرد وحده، وإذا ما كنت مصراً على معرفة رؤيتي الخاصة له، فسأكتفي بالقول إنه أشبه بشخص سليم ظاهراً ومريض حقيقة، بل، إذا شئت الدقة أكثر، أشبه بأنثى تتقن تجميل نفسها لتخفي ما هي عليه في الحقيقة، فيخيّل للناظر إليها أنها حسنة، بينما هي في الواقع ليست كذلك.

• نعم كان ثمة مسافة زمنية طويلة بين صدور مجموعتي الثانية وصدور مجموعة «صباح الياسمين»، ولكن خلال ذلك لم أتوقف عن كتابة القصة، كما لم أتوقف عن نشرها، ولعلك تلاحظ أن مجمل النصوص التي تضمنتها المجموعة هي نصوص منشورة في غير دورية ثقافية.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى كنت أقدر أن المجموعة ستحظى بما حظيت به من اهتمام القراء والنقاد، ولغير سبب، ومن تلك الأسباب أنني اخترت تضمينها النصوص التي تمثل خطوة جديدة في أدواتي القصصية، وفي وعيي بفن القصة، ولا سيما ما يعني بناء النص القصصي وتحريره من كونه حكاية فحسب ليصير فناً في الوقت نفسه. ومنها أنني اخترت تلك النصوص بعد مراجعة كافية لمنجزتي في هذا المجال، أي للمجموعتين اللتين صدرتا من قبل، ومنها ثالثاً أن وعيي بفعل الكتابة، بوظيفته ووسائله، تقدّم على المستوى المعرفي خلال تلك السنوات التي فصلت بين زمنيّ صدورهما وصدور سابقتها.

- وماذا عن رواية «كتاب دمشق، حاء

الحبّاء الحرب»؟

• على الرغم من غمرة الأعباء التي نهضت بها في السنوات الثلاث الفائتة خاصة، أعني إدارتي لمؤسسة التربية في ظروف استثنائية

تعرفها ويعرفها القراء جميعاً، فإنني لم أكن أدرج جهداً في متابعة المنجز الروائي السوري الذي عني بالحديث عن النزيف الذي يعيشه الوطن منذ نحو خمس سنوات، ولشدّ ما كان يدهشني أن معظم ذلك الحديث كان خطاباً أكثر منه أدباً، وأن معظم أصحابه سقط في شرك الكتابة المسبقة على الواقع بدلاً من أن تكون الكتابة منطلقاً من هذا الواقع نفسه، ولعل ذلك هو ما دفعني، بل ما ألح عليّ، في كتابة روايتي التي تشير إليها، ولعله أيضاً ما حررني من سطوة الكتابة التي تمضي إلى نفسها مسلحة بالرؤية السابقة على الكتابة نفسها، ولعلّه ثالثاً ما يجعلني أعتقد بأن الرواية شاهدٌ عدل على نزيف الوطن وليست شاهداً تم تلقينه ما يجب أن يقول في حضرة الواقع.

- نحو ثلاثة عقود، وأكثر، وأنت أحد الكتاب السوريين الذين كان لهم حضور في المشهد الثقافي السوري الذي غالباً ما يوصف بأنه مشهد نازل على المستوى النقدي، هل يمكن أن تحدثني وتحدث السادة القراء عن الاستجابات النقدية لتجربتك الإبداعية خاصة؟

• أنا أنظر بعين التقدير إلى المستوى النقدي في المشهد الثقافي السوري ولو وصف بالنحولة نظراً لما كان له من أثر إيجابي في كتابات المبدعين السوريين

دواخل المتلقي انسياب الدم في العروق
ليعطي أروع تجليات الإبداع في علاقته
مع الإنسان.
وأقدر أن يكون لروايتي الصادرة مؤخراً
استجابات نقدية أكثر مما حظيت تجربتي
به من متابعة، وأن يكون ثمة مرجعان لتلك
الاستجابات: واقعي، يرتبط بمحكي الرواية،
أي بما شهدته سورية فيما مضى من
السنوات، وفني، يرتبط بالعمارة السردية
المنبتقة، كما أرى، من المرجع الأول،
والتي رأيت أنها الأكثر اتساقاً مع تحولات
الأحداث ومصائر الشخصيات فيها.

على مدى زمني طويل، وآمل أن يرتقي
هذا المستوى إلى حد الطموح. ومن
جانب آخر أسعدني أن تحظى تجربتي
الإبداعية بمتابعة من قامات نقدية
شكلت علامات بارزة في مجال النقد
الأدبي ليس على صعيد الساحة الثقافية
السورية فحسب بل إلى ما هو أبعد منها
مثل الدكتور عبد الله أبو هيف والدكتور
نضال الصالح والدكتور عاطف بطرس،
إذ كانت إسهاماتهم النقدية كشفاً أنيقاً
مرتكزاً إلى أسس علمية عن توهج الروح
في كتاباتي، وبذا صار النص ينساب في

صدر للأديب الدكتور هزوان الوز

- أولاً: الأعمال الأدبية

- ١- «عيون في الخريف»، قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (١٩٩٤م).
- ٢- «حكايا طائر السمرم»، قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (١٩٩٧م).
- ٣- «سرير من الوهم»، رواية، دمشق (٢٠٠٠م).
- ٤- «صباح الياسمين.. صباح الغاردينيا»، قصص، اتحاد الكتاب العرب، دمشق (٢٠١٤م).
- ٥- «كتاب دمشق، حاء الحب راء الحرب»، رواية، دار الفارابي، بيروت (٢٠١٥م).

- ثانياً: الدراسات

- ١- «نحو مجتمع معرفي»، دار الشرق، دمشق (٢٠١١م).
 - ٢- «الوطن في لحظة الحقيقة»، دار الشرق، دمشق (٢٠١٢م).
 - ٣- «الإعلام / أدوار وإمبراطوريات/»، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٢م).
- ثالثاً: الترجمة (أعمال للكاتبة الروسية غالينا شيرياكوفا)

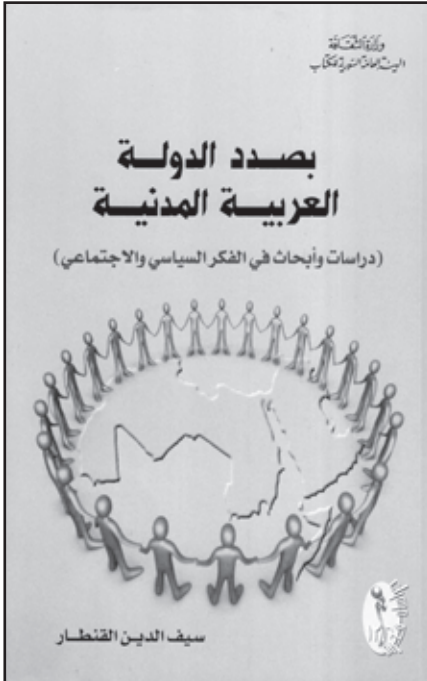
- ١- «اثان وواحدة» قصص.
- طبعة أولى، دمشق (٢٠٠١م).
- طبعة ثانية، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٣م).
- ٢- «حب ميتيا»، رواية، وزارة الثقافة، دمشق (٢٠١٤م).



بصد الدولة العربية المدنية



عرض وتقديم: سمر الزركي



شغلت حرية المرأة اهتمام المفكرين ورواد النهضة، ودعاة المشروع القومي النهضوي وقد نادى هؤلاء الرواد برؤية جديدة، تسهم في رفع الحيف عن المرأة، وتجلى ذلك مع ظهور تيارين، أحدهما تشبّع بمبادئ الثورة الفرنسية، وشعارات الحرية، والعدالة، والسماح للمرأة بالعمل.

فقد دعا رفاة الطهطاوي إلى التعلم المختلط، ورأى فيه الشكل الطبيعي والإنساني للعلاقة بين الجنسين، وأكد أن عمل المرأة هو الذي يصونها ويقربها من الفضيلة، فقال:  كاتبة سورية.

«فإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال، فهي مذمة عظيمة في حق النساء».

التيار الثاني، أثر ولهدف ذاته العودة إلى التراث العربي الإسلامي، فدعا إلى إعادة حق الاجتهاد والتأويل، ليفهم الناس ما انطوت عليه الأديان من تسامح ومساواة، فقد أكد الشيخ محمد عبده على ذلك بقوله: «إنَّ المرأة والرجل متماثلان في الحقوق والأعمال والذات والشعور والعقل، أمَّا الرجال الذين يحاولون عبر ظلم النساء أن يكونوا سادة في بيوتهم فإنَّما يولدون عبيداً لغيرهم».

ومن الإنصاف القول إنَّ قاسم أمين كرَّس جلَّ حياته للدفاع عن قضية المرأة، ووضع في كتابيه «تحرير المرأة» و«المرأة الجديدة» خلاصة رسالته. وجوهرها أنَّ قضية المرأة قضية سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية، تتصل بتطور المجتمع، ومجمل الظروف الواقعية التي يعيشها، فهي رهن بركيِّ المجتمع، وتتقدم بتقدمه، كما أنَّ الأمم المتقدمة تقاس بحرية المرأة، ومكانتها في المجتمع.

وأكد أنَّ المساواة التامة بين الرجل والمرأة أهم ركن من أركان بناء الدولة الحديثة التي تصدَّى الباحث سيف الدين القنطار للحديث عنها في كتابه «بصدد

الدولة العربية المدنية» الصادر عن وزارة الثقافة- الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق ٢٠١٥م، بمئة وستين صفحة من القطع الكبير.

تتناول موضوعات الكتاب السجال الفكري- السياسي- الاجتماعي الذي تجلَّت إرهاباته بداية القرن الماضي مع تنامي شعور نخبة المثقفين العرب بحتمية القراءة النقدية للواقع العربي، وبعث مشروع النهضة العربية، من خلال الدعوة إلى بناء الدولة الحديثة، بمناهضة الاستبداد، والإصلاح الديني، والعلمانية، وتحرر المرأة، وإقامة المجتمع المدني، والأخذ بناصية التقدم، والتفاعل الخلاق مع معطيات الحضارة المعاصرة، والتأكيد على أهمية المثقف ودوره في بناء الدولة. فجاءت عناوين البحوث في الكتاب متسلسلة على النحو التالي:

- ١- الدولة في الفكر السياسي ماضياً وحاضراً.
- ٢- المثقف والسلطة.
- ٣- الدولة والمجتمع المدني.
- ٤- الدولة والعلمانية.
- ٥- الدولة وحرية المرأة.
- ٦- موقع السياسة وأثرها في التجربة الثقافية العربية.
- ٧- الدولة ومسألة الحرية.
- ٨- العولمة والدولة العربية الحديثة.

٩- الثورات والانفاضات العربية، وبناء الدولة الحديثة (والثورة المصرية أنموذجاً).

ومن دون ريب فقد بدا هذا المشروع النهضوي مفعماً بالطموح، وبدأت تجلياته بعد أن حمل لواءه عصابة من المتنورين والروّاد، الذين وضعوا نصب أعينهم إيقاظ العرب من سباتهم الطويل، وأقدموا بحماس عزّ نظيره على نشر الوعي، ولم تتل صلابة الواقع وعناده، ولا كثرة الخصوم وشراستهم من عزيمة هؤلاء الروّاد، وسطع نجم مفكرين وكتاب وأدباء كجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وقاسم أمين، وطه حسين، وإبراهيم اليازجي وغيرهم... وكان القلم سلاح هؤلاء الروّاد فأقاموا الدنيا ولم يقعدوها، بجرأتهم وهم يدعّون إلى نشر العلم بهدف محاربة الاستبداد والجهل، وإعلاء شأن الحرية، ورفع معظمهم راية العقلانية في التصدي لضلالات الخرافة والرجم بالغيب، وداعب خيالهم حلم السيادة، وبناء دولة عربية منيعة الجانب، ولكن هذا الحلم ظل معلقاً على صليب التخلف الهائل وأطماع الغرب. على حد تعبير الباحث سيف الدين القنطار الذي رأى -من خلال تقديمه للكتاب- أنّ الانبعاث السياسي كان جوهر المشروع النهضوي وعموده الفقري،

ولذلك سعى هؤلاء المفكرون والمنورون والأدباء إلى تقديم رؤية سياسية ذات بُعد ثقافي- إستراتيجي، بعد أن لاحظوا افتقار العرب إلى العلوم السياسية منذ القديم، إذا استثنينا مدينة الفارابي الفاضلة، ومآجاء في مقدمة ابن خلدون، وأعمال إخوان الصفا. وقد استقطب المشروع النهضوي - كما ذكر القنطار- عقول الناس منذ البداية، وجذبهم إلى ميدان السياسة، وارتبط بتحويلات اجتماعية واقتصادية، أسهمت في إظهار فئات اجتماعية، وقوى طبقية حديثة، عبّرت عن جوانب هامة من مطامحها، وجسدت كثيراً من أفكارها، وخلقت مناخاً تحريراً، كان من ثماره تعاظم مقاومة العرب لسياسة الانتداب والوصاية والاحتلال الأوروبي للأراضي العربية وتجزئتها، وقد انصبّ اهتمام المتنورين على مسألة الاستقلال، وخلص العرب من الاحتلال الأجنبي، والتصدي للحركة الصهيونية، وعلى مجابهة الكيان الصهيوني.

وطوّر روّاد النهضة أفكارهم خلال الحرب العالمية الأولى، وفترة ما بين الحربين، وفي غمرة المعركة السياسية والاجتماعية التي جرت بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد أن تمكن العرب من أن يظفروا بالحرية.. والاستقلال بلداً إثر

بلد، تردد في كتاباتهم دمج التنوير بالفكر التاريخي، وكان هذا يتطلب فيما يتطلب الدفاع عن حق الفرد في الحرية، والتحرر من الجهل والفقر، واعتبار ذلك ركناً أساسياً في بناء دولة العرب الديمقراطية بعد أن ظل احتجاج الديمقراطية «كعب أخيل» يشل قدرة الشعب ويحول دون تحقيق أهدافه.

ويجد القنطار أن هذا المشروع النهضوي -وبعد قرن من الزمن- قد سار في طريق شائكة ومتعرجة، ثم تراجع حتى خبا ضوءه، وخفت صوته، ودُفعت القيم التي بشر بها إلى الخلف، وطويت أفضل صفحاته. حتى أصبحت كالتذكريات الدارسة.

وبدا -جلياً- أن نمط الدولة العربية القطرية كان سبباً حقيقياً من أسباب إعاقة المشروع النهضوي، وإقامة الدولة العربية الواحدة.

ولاسيما أنه ظهرت في العالم العربي أنماط مختلفة من الدول، كانت السمة المشتركة بينها مصادرة الرأي، والإطباق على الحريات العامة، وفرض سلطان الدولة المركزية السياسي بالقوة، فحذر المفكرون من مغبة ذلك وعاقبته الوخيمة.

ورحم الله الدكتور طه حسين القائل: «لا يقبل العقل الحر أن يفرض عليه رأي من الآراء، أو مذهب من المذاهب، ولا يمكن

أن يخضع هذا العقل الحر لنمط بعينه من التفكير والتعبير والعمل والنشاط، والعقل الحر لا يقبل دكتاتورية مهما كان لونها، ومهما كان غرضها، ومهما كان أسلوبها في الحكم». وذكر الباحث سيف الدين في التقديم أيضاً أن حلم بناء الدولة العربية الواحدة واجه صعوبات عدة، فقد نهج أعداء العرب من كل شاكلة ولون نهجاً ثابتاً يهدف إلى تكريس التجزئة، ولهذه الغاية كانت اتفاقية (سايكس بيكو)، وإقامة الكيان الإسرائيلي، ولهذا الهدف أيضاً كانت مختلف قيود التبعية الاقتصادية والسياسية والفكرية، التي أصبح أبناء الأمة كلها ضحية لها.

ولعلَّ أخطر ما واجه العرب، ليس قدرة هؤلاء الأعداء على مجابهة طموحهم الوحدوي وتكريس التفتت، وإنما نجاحهم في تعميق التناقض بين العرب لدرجة التناحر والصراع، واستعداد بعضهم على بعض، ليتخاطبوا بلغة السلاح، فيزيدوا من الإحساس الجمعي لدى أبناء الأمة العربية بأنهم مدفوعون إلى معارك وصراعات مأساوية لا ناقة لهم فيها ولا جمل.

ويتابع القنطار: وهكذا كان الواقع العربي الراهن يطرح معضلاته باستمرار على جميع المفكرين وقادة الرأي، بحيث كان الكلام حول مستقبل العرب، وأفاق

العمل لتغيير هذا الواقع على كل شفة ولسان، وقد توقع كثيرون أن حالة الحطام العربي الراهن لن تستمر.

ومما لا شك فيه أن تحقيق هذا الهدف، ليس رهناً بفرد قادر على صناعة التاريخ، ولا وقفاً على قوة سياسية وحيدة، أو سلطة مهما امتلكت من مقومات القوة، ولكنه فعل سياسي يشارك فيه الشعب بشبابه ونسائه، ونخبه الفكرية وقادة الرأي فيه؛ لينجز هؤلاء جميعاً ما بدأ به المنورون ولم يكتمل، كي لا يبقى العرب من محيطهم إلى خليجهم معلقين على صليب التجزئة والتخلف والتبعية.

وإنَّ الواقع المأزوم الذي نعيشه وتعيشه البلاد العربية -اليوم- يجعلنا نبدأ ببحث «الثورات والانقضاضات العربية وبناء الدولة الحديثة...».

إذ بيّن الباحث في هذا البحث أنَّ العامل الأساسي لقيام الثورات على مدى التاريخ، والمحفز لها هو القهر السياسي، والاستغلال الاقتصادي، والظلم الإنساني. وقد اعتمد القنطار في هذه الدراسة على أحداث تاريخية مشهورة، ذاكراً أنَّه سار خلف سبارتاكوس (١٠٩-٧١ ق.م) آلاف العبيد توفراً للحرية، وكان السبب المباشر للثورة الأمريكية في عهد جورج واشنطن عام (١٧٧٩م) الاستغلال الاقتصادي لشركة

هندية- إنجليزية احتكرت بيع الأمريكيين، وقامت الثورة الفرنسية عام (١٧٨٩م) بسبب المجاعة التي أودت بحياة سدس سكان باريس، وقضت هذه الثورة على نظام الحكم المطلق للملك لويس السادس عشر، ودكت الجماهير بغريزتها أبراج الباستيل.

كما قدّمت ثورة (١٩٠٥م) في روسيا العبر والدروس على أنه لا الاستغاثات يمكن أن تخفف من الأوضاع البائسة التي ينوء الشعب تحت وطأتها، ولا الالتماسات ورفع صور القيصر تحول دون إصدار أوامر بإطلاق الرصاص على الموكب الأعزل..

وقامت الثورة المصرية عام (١٩٥٢م) نتيجة الفساد الهائل، والفقر المدقع للذين سادا في عهد الملك فاروق.

ورأى الكاتب القنطار أن الحراك الشبابي المصري، في العصر الحالي، قد قدم نماذج مختلفة من أساليب النضال بهدف التغيير أهمها وأبرزها أسلوب التغيير السلمي، وتمثّل هذا الأسلوب بالتظاهرات والاعتصام والمسيرات الليلية تتدفق فيها أمواج الشباب ذوي الاتجاهات العلمانية والديمقراطية والثورية والليبرالية والدينية تكتظ بهم الشوارع والساحات العامة يرفعون شعارات ويعبرون عن أهداف محددة عميقة الدلالات كالحرية، وحق الناس في التعبير

ماذا تعني الديمقراطية؟ ومتى بدأ الحديث عنها والتفكير بها؟ وكيف يمكن أن تصبح مبدأً في العلاقات بين الدول؟

ويلفت الباحث القنطار إلى الحضارات القديمة (السومرية، الآشورية، الفينيقية، الفرعونية، وإلى الحضارتين الصينية واليابانية، وسواهم من الشعوب القديمة الذين دمجوا بين مفاهيم الحكم والسلطة وبناء الدولة بالأساطير.. فتمة قوى خارجية هائلة، وآلهة متعددة تتدخل في مصائر البشر، وتصنع أقدارهم وتُملي عليهم إرادتها مثل (زيوس) و(جوبيتر) وغيرهما..

ويستعرض الباحث في هذا الفصل أنموذجاً أثرت الفكر السياسي عبر العصور والحضارات المتعاقبة بدءاً من صولون، وكونفوشيوس، وحكام مدينة أفلاطون الفاضلة، وروائعه الثلاث التي شكلت الدعامة الأولى في نشأة علم السياسة عبر كتابه «الجمهورية» وكتاب «القوانين»، وكتاب «السياسة» الذي تحدث فيه عن نموذج الدولة الزمنية التي قسمها أفلاطون إلى ست دول، ثلاثة منها تتقيد بالقوانين وتتمثل في: حكم الفرد المستتير، وحكم الأقلية الأرستقراطية، وحكم الديمقراطية المعتدلة، وثلاث دول لا تتقيد بالقوانين يتجلى فيها: حكم الفرد

من دون خوف، ووضع المصالح العليا للشعب فوق المصالح الشخصية، وإقصاء الفاسدين ومصادرة الأموال المنهوبة، وبناء دولة القانون والمؤسسات والوحدة الوطنية في ضوء التعددية السياسية، ولقد عبّرت هذه الشعارات عن جوهر هذا الحراك، وعن تطلع شبابها إلى المستقبل الذي يفتح اليوم بيد الأجيال الشابة التي تبشر بمفاهيم معاصرة وثقافة جديدة لديها التصميم والإرادة.

ويعود الباحث القنطار في هذا الكتاب إلى تجليات الدولة في الفكر السياسي ماضياً وحاضراً وذلك لشعور المرء أنّ تاريخ الفكر الإنساني يعيد بحث المسائل الجوهرية ذاتها، أي تلك المسائل المتعلقة بحياة الإنسان على وجه الخصوص، وبتنظيم علاقته بمن حوله، إذ تطبع الوحدة والتشابه منهج التفكير البشري المنبثق من طوفان الأسئلة الفكرية والسياسية التي أوحى بالجدل الساخن بين سقراط ومجايلييه من الفلاسفة والحكماء الذين انشغلوا بحياة الناس ومصائرهم، وطبيعة تلك الدولة التي ستنظم حيواتهم، وكيفية تحقق تلك الأهداف والغايات المنوطة بها عبر تساؤلات أبرزها: هل يجب أن يكون رجال الحكم من النخبة أم من الشعب؟

الاستبدادي، وحكم الأقلية الأوليجاركية، وحكم الديمقراطية المتطرفة.

ويشير الباحث إلى الدولة الدستورية عند أرسطو الذي نقد جمهورية أفلاطون لعدم إيمانه بالحكم المطلق. معتبراً أنَّ الدستور هو مثله الأعلى إذ يجعل العلاقة بين الحاكم والمواطنين علاقة بين أحرار. ويتفق مع أفلاطون على أن الضامن الوحيد للحكم الصالح هو القانون المرتكز على قواعد عامة وليس على أوامر، ما يجعل المواطنين راضين عن الحكم لا مرغمين عليه. ومن ثم يأتي الباحث على ذكر الفارابي الذي أسهم بنقل فلسفة أفلاطون وأرسطو إلى العربية حيث تناول من خلال كتبه مفاهيم السعادة، والعدل الطبيعي والوضعي، والمدينة الفاضلة التي تعني «الدولة» التي هي ثمرة الاجتماع الإنساني التي شبهها بالبدن التام الصحيح الذي تتعاون أعضاؤه كلها على حفظ الحياة.

ويقف الباحث عند كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» لابن خلدون وحديثه عن نشوء الدول وتطورها قوة وضعفاً وما تحتاجه من المناصب ووسائل الدفاع في البر والبحر، وكلامه المفصل في الضرائب والجباية،

وحديثه عن مراحل الدولة الأربع التي تنشأ في البداية على أنقاض دولة سابقة لها، ويشترك رجال الدولة في هذه المرحلة في الدفاع عنها، ويبنون مجدها بالقوة والعزم. وفي المرحلة الثانية: انفراد صاحب السلطان بالحكم بعد تخلصه ممن اشتركوا معه في تأسيس الدولة، وصنعه لبطانته الخاصة من المشايخين والموالين والمناصرين. وسيادة الاستقرار والترفع في المرحلة الثالثة القائم على الخوف، وتمتع المناصرين بالترف والمال.. مما يمهد للمرحلة الرابعة إذ يتحول الاستقرار إلى ركود، وينتهي بتحلل الدولة، وينذر بزوالها. ويستعرض البحث الدولة في الفكر الأوروبي المعاصر، وتأثره بالفلاسفة الإغريق وقد أتى على ذكر كتاب «يوتوبيا» لتوماس مور (١٤٧٨-١٥٣٥م) الذي تحدث فيه عن مجتمع منظم ذاتياً، يقوم على أسس ذات طبيعة اشتراكية من حيث العمل، والملكية، والخدمات العامة، وينطوي على مبادئ رفيعة للدولة باعتبارها المكان المنشود لهناء البشر، يحكمها أمير يستمر حكمه طالما حكم بالعدل..

ويلفت الباحث إلى ميكافلي (١٤٦٩-١٥٢٧م) وكتابه «الأمير» الذي فصل بين الأخلاق والسياسة فصلاً تاماً.. معتبراً

أنَّ غاية السياسة هي المحافظة على قوة الدولة.. مشيراً إلى أن السمعة السيئة لم تلحق بميكافيلي في حياته، وإنما بعد موته، إذ اقترنت بمقولته الشهيرة «الغاية تبرر الوسيلة».

ويشير البحث إلى مونتيكيو (١٦٨٩-١٧٥٥م) ونظريته في مبدأ فصل السلطات التي أخذ بها العالم، وجعلها قاعدة تقوم عليها النصوص الدستورية لحكومات العالم ودوله منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى اليوم.

ولم يفت الباحث الإشارة إلى جان جاك روسو (١٧١٣-١٧٧٨م) والحكم الديمقراطي الذي رأى «أن المساواة هي قاعدة دعم النظام السياسي ذلك لأن المساواة بمعناها الاجتماعي والاقتصادي كفيلة بأن تحمي الحرية والعدالة بأن واحد».

ويأتي تصوّر هيغل لصعود الدولة وانحدارها من فكره الحداثوي الذي حاول الارتقاء من الفلسفة إلى العلم، وترسيخ ملكوت العقل.. إذ نظرت الهيغلية إلى الدولة بوصفها كائناً طبيعياً، وليس مجرد نتاج عقد اجتماعي، هي الكلي في ذاته، ومن أجل ذاته إنها كما يقول: «شخص حقيقي، يكمن في إرادتها المنطق الكامل، وهي مصدر حرية الأفراد التي يدعيها كل منهم، وتكتمل الإنسانية فيها وبها...».

إلا أن ماركس على الرغم من تبنيه لفلسفة هيغل الجدلية إلا أنه تميّز عنه برؤيته الواقعية التي انزاحت عن رؤية هيغل المثالية بتحليل ماركس للدولة البرجوازية ويتجلى التباين بينهما بأن ماركس قلب المعادلة رأساً على عقب بجعله المادة أولاً، والفكر نتاجاً لها.. فيما كان هيغل يقول بأولوية الفكر.. حيث بنى جدله على أساس ذلك.

فكرس ماركس جهده الفكري لتحليل طبيعة الدولة البرجوازية، وتتبع مسيرتها التاريخية في كتابه «رأس المال» معتبراً أن إدراك الناس ليس هو الذي يحدد معيشتهم بل العكس هو الصحيح إذ إن معيشتهم الاجتماعية هي التي تحدد إدراكهم معتبراً أن الناس هم الذين يصنعون تاريخهم.. داعياً إلى مجتمع خالٍ من استغلال الإنسان للإنسان، وأمة لأمة.. وإلى إشادة عالم دونما طبقات.

وعن المثقف والسلطة يفرد الباحث بحثاً يعرف فيه بالمثقف والنظرات الإشكالية التي تطال دوره وموقعه في المجتمع وعلاقته بالسلطة قريباً وبعداً، لافتاً إلى رسالته النابعة من طبيعته الإنسانية التي تميزه عن سواء على رأي إدوارد سعيد: «إنني لكوني مثقفاً أقدم مشاغلي إلى جمهور.. وأكتب ما أكتب بعد تفكير وتأمل لأعبر عما أؤمن

به، ولأقنع الآخرين به، ويختلط لديّ بصورة معقدة العام بالخاص...».

وعن العلاقة الجدلية بين الثقافة والسياسة يشير الباحث إلى الساحة السياسية المتسمة بالتعقيد الشديد والتضاريس الوعرة معتبراً أنّ التدخل الفعّال في تلك الساحة لا بد من استناده إلى إيمان المثقف بمفهوم العدل والإنصاف مستحضراً مقولة جان جينيه (١٩١٠-١٩٨٦م) التي تحدد إقدام المثقف أو إحجامه بالانخراط في الساحة السياسية بقوله: «إنك حين تتشر مقالات في مجتمع ما.. تدخل للتو واللحظة دنيا السياسة، ومن ثم فإذا أردت ألا تكون سياسياً فلا تكتب مقالات ولا تتحدّث علناً». وتبقى المعادلة التي تحكم علاقة المثقف بالسياسي في مدى نجاح المثقف في خدمة ذوي السلطان، والحصول على مكافأة منهم، وإصدار الأحكام النقدية الجريئة التي تكشف مثالبهم وعيوبهم في الوقت نفسه.

وفي بحث حول الدولة العلمانية ولماذا العلمانية الآن (...) يرى الباحث أنّ الدولة العلمانية هي دولة الضرورات الثلاث.. ضرورة المساواة بين المواطنين جميعاً بضمان حرية المعتقد، والقناعة الروحية للأفراد بصفتها شأناً شخصياً... وضرورة

صيانة الصالح العام بصيانة حقوق الناس من دون تمييز عرقي بين أبيض وأسود، أو تمييز طبقي بين غني وفقير وعدم التطاول على هذه الحقوق، وحمايتها من قبل الدولة باعتبار ذلك وظيفة الدولة الأهم، والمسوّغ لوجودها.. إضافة إلى ضرورة علمنة التعليم، بوضع مناهج تعزز القيم الأخلاقية والإنسانية العامة لدى النشء، وتدرّس الإرث الإنساني كله من دون تمييز بين دين وآخر..

ونختم ببحث ناقش فيه الباحث العولمة والدولة العربية الحديثة ذاكراً أنّ العولمة ترجمة لكلمة Mondialism (العالمية)، أو كلمة Globalization (الكوكبية) التي تعتبر أنّ العالم حضارة واحدة وحسب تعريف روبرتسون: «إنها تعني عامة تشكيل العالم وبلورته بوصفه موقفاً واحداً، وظهوراً لحالة إنسانية واحدة، وتعني من وجهة نظر سياسية أنّ للأحداث، والقرارات والنشاطات في مكان ما من العالم، نتائج وآثاراً مهمة بالنسبة لأفراد وجماعات مجتمعات أخرى، وتعني ثقافياً ذلك التكوين الذي يشهد تبادلاً وتفاعلاً ثقافيين بصورة مستمرة».

وتأتي العولمة المعاصرة لتشكل مرحلة من مراحل تطور العولمة التاريخي عبر تفوق بعض الدول وفي مقدمتها الولايات المتحدة

الأمريكية- تكنولوجياً واقتصادياً وعسكرياً- ومعرفياً- عبر السيطرة الاقتصادية والعسكرية، واختراقاتها في مجال الاتصالات بوساطة الإنترنت حيث حافظت من خلال ذلك على أفضليتها على المستوى الدولي.. إضافة إلى ما تشكله الهيمنة الثقافية من قوة جذب لشباب العالم مستمد من قوة الدعاية والإعلام في تعويم النموذج الأمريكي عالمياً.. مما دفع بريجنسكي وفوكوياما وهينتنغتون للتعبير عن غبطتهم بالانهيار الدراماتيكي للثنائية القطبية.. إذ يعتبر فوكوياما أن النظام الرأسمالي الليبرالي هو المرحلة النهائية في التطور العقائدي للجنس البشري.. وبالتالي فالوصول إلى هذا النظام هو نهاية التاريخ!؟».

لكن ماذا عن العرب والعولمة إذ وجد العرب أنفسهم أمام تحدي هذا الانعطاف التاريخي، ودفع ساستهم لمواقف متباينة من ذلك فثمة من يرى أنه لابد من التكيف مع منطق العصر ووقائعه، والنظرة للعولمة بوصفها ظاهرة موضوعية لا تخضع لاعتبارات ذاتية داعين للتواصل مع المجتمع الدولي والتفاعل الخلاق مع سياساته.. وثمة

من يرفض ذلك قطعياً، ويرى فيه نزعة استسلامية تنقاد لمنطق القوة الجائر. أمّا الموقف الثالث لا يحث على الانقياد والاستسلام، ولا إلى العداء والرفض، داعياً للاستناد إلى القدرات الذاتية، وإلى مقومات القوة الإبداعية للحفاظ على الهوية بوصفها نواة لقوة إقليمية تمتلك مقومات تجعل منها لاعباً أساسياً في الحلبة الدولية. أخيراً: إن الزمن لا يعود إلى الوراء، كما أن الشعوب لا تنام على الضيم مهما طال أمده. وإنّ بناء النظم العربية السليمة التي تدعو إليها القوى الشبابية -اليوم- تقوم على التساوي بين مواطنيها في الحقوق والواجبات، وعلى قاعدة التنمية البشرية والاقتصادية المستدامة، وامتلاك ناصية العلوم العصرية والتكنولوجيا المتطورة، وتشجيع الإنتاج العلمي والصناعي، وعلى الاستفادة من ثورة الاتصالات وذلك لبناء مجتمع المعرفة، وخلق ثقافة عربية عصرية قادرة على التفاعل مع ثقافة العالم من موقع النديّة، والتصميم على صياغة حاضر وضاء، ومستقبل مشرق يتجسّد ببناء الدولة العربية المدنية التي طالما تطلّعنا إلى بنائها.



إصدارات جديدة



إعداد: حسني هلال

قصص غسان ونوس



رغبة.. زيارة.. طواف.. طالع..

رجل مثله.. بلا معنى.

وردة آخر وقت.

تلك كانت عنوانات بعض قصص، في مجموعة «بقايا ندم»، للأديب المهندس غسان كامل ونوس.

على الرغم من «دوار الصدى» الذي قاساه طويلاً، و«الاحتراق» الذي عاناه في «ظلال النشوة الهاربة».. رغم «أحمر.. أبيض» ما مرّ به ومسؤولية ما صدر عنه،

✻ أديب وصحفي سوري.

في عمله الوظيفي. ما زال في جعبة غسان «العائد» من «هامش الحياة.. هامش الموت»،
ما زال هناك في ركنٍ ما من مروءته، على ما لم يفعل «بقايا ندم»:

- المجموعة: بقايا ندم.

- المؤلف: غسان كامل ونوس.

- التصميم: محمد سلامة حمود.

- اللوحة: سنان غسان ونوس.

- الناشر: دار الهندسة والأدب.

تتوافر المجموعة - ذات المئة وتسع عشرة صفحة - هذه، على شجرة هموم شائكة
الفصون إبرية الأوراق وملتفة الأفرع، تتشاكل فيها الشخصية والعامة، وتتعالق الثقافية
بالسياسية. ولئن ألمح المؤلف المهندس الأديب المهتم، غسان ونوس إلى مفاتيح بعض
الحلول، فقد أبقى أبواب الاجتهاد مشرعة.



دراسة أدبية



الأدب والأدبية كمفهومين، في النقد
الحديث وفي النقد القديم.. كمفهومين
(عربي وغربي).. ومن ثم تقاطع هذين
المفهومين مع الفلسفة والتاريخ، مع علم
النفس، مع الجنس الأدبي، مع النص ومع
المتلقي. مجموع ما سبق هو موضوع كتاب
«الأدب والأدبية».

- الأدب والأدبية «دراسة نظرية
وتطبيقية».

- د. حسن إبراهيم الأحمد.

- الهيئة العامة السورية للكتاب.

صدرت هذه الدراسة حديثاً (٢٠١٥م) في دمشق:

يتمثل مسعى هذه الدراسة في مقارنة مصطلحي الأدب والأدبية من زاوية نقدية حديثة وعربية قديمة، برؤية تكاملية تنطلق من مقولات نظرية الأدب. وتعزز ذلك بالتطبيق على نصّ تراثيٍّ غنيٍّ وفريد في مضامينه وسياقاته وبنياته الفنية، نازعة في ذلك منزعاً تحليلياً نصياً، يستوعب مفردات أبي حيان التوحيدي التشكيلية في نصّه الإنشائي.



دراسة في الفكر العربي المعاصر

ضمن إصدارات الهيئة العامة السورية للكتاب هذا العام (٢٠١٥م) كتاب يعرض للهوية العربية على مساحة (١٧٦) صفحة من القطع الكبير، يسعى المؤلف من خلال دراسته هذه للإحاطة بـ«الهوية العربية» كمفهوم أولاً وكانتماء ثانياً، ثم يتوقف عند رؤية الهوية في مرايا عدّة: مرآة الدين.. مرآة الأيديولوجيا.. مرآة الأمة ومرآة القطرية. منتهياً إلى مستقبل الهوية في الوطن العربي..

يزيد من أهمية هذه الدراسة للكاتب «عهد كمال شلغين» صدورها في زمن الأزمة التي تمرّ بها البلاد العربية ووطننا السوري خاصة، حيث غدت الهوية هويات و...!

- الهوية العربية «صراع فكري وأزمة واقع».

- عهد كمال شلغين.

- الهيئة العامة السورية للكتاب دمشق

(٢٠١٥م).

يقول الكاتب في مقدمة كتابه:

صار الإنسان في العالم العربي حائراً
بائراً لا يدري إلى أية هوية ينتمي، فالكثرة
الكاثرة من الهويات طغت عليه، فلم يعد
بوسعه من حيث إثباته لذاته، إلا أن ينغلق
على نفسه ويعود إلى انتمائه الخاص..



الماهدون



صدر مؤخراً عن الهيئة العامة السورية للكتاب، كتاب جديد يحمل الرقم /١٢٨/ من سلسلة «آفاق ثقافية» التي تصدرها الهيئة في كتابها الشهري:

- الكتاب: الماهدون «نقاد الرواية السورية».

- الكاتب: سمير روجي الفيصل.

- الناشر: الهيئة العامة السورية للكتاب- دمشق.

يختص الكتاب -حسب مؤلفه- بدراسة ما أنتجه نقاد الرواية السورية الرواد وتحليله ونقده، وهو إنتاج كتبه ثمانية نقاد، أولهم شاكِر مصطفى في خمسينيات القرن العشرين، والباقيون عدنان بن ذريل، حسام الخطيب، محي الدين صبحي، فائق المحمد، محمود منقذ الهاشمي، محمد أبو خضور، عبد الله أبو هيف، في سبعينيات القرن العشرين وبدايات ثمانينياته. هؤلاء النقاد الثمانية ومعهم ناقدان آخران، كانوا البادئين بتبنيه القراء والأدباء، إلى النصوص الروائية السورية وأصحابها، داخل سورية وخارجها. يتألف الكتاب من /٣٧٣/ صفحة من القطع الوسط، تتوزعها فصول ثمانية، إضافة لمقدمة وخاتمة.





رئيس التحرير

نجمي السكري والجمالية الموسيقية

لا أعتقد أن هناك موسيقياً سورياً، احتل مكانة عالمية راسخة في أذهان عشاق الموسيقى مثلما فعل الموسيقار وعازف الكمان الشهير نجمي السكري هذا الفنان الذي ظل على مدى عقود زمنية عدّة في كثير من الدول الأوروبية يثير إعجاب المولعين بالموسيقى، وكثيراً ما كان يوصف بكلمة «رائع» التي قد لا تكفي لوصف الشعور الذي يحسّ به المستمع إلى عزفه لأعمال العمالقة: «سيزار فرانك» و«أرنست شوسون» و«مانويل دوفالا» و«برامس» و«باغانيني» وغيرهم..

براعة نجمي السكري، أهّلتة للمشاركة في مسابقات دولية في العزف على آلة الكمان، وحصل على جائزة الملكة إليزابيث في بروكسل، وعلى جائزة «جان تيبو» في باريس، وجائزة «لوفنتريت» في نيويورك، وكل ذلك ما كان ليتم لولا تميز أداء السكري الخارق، ونبذ ذوقه وثقافته العالية، وقد كان

دقيقاً نائب عميد الكونسرفتوار الحكومي الموسكوفي حين قال عنه «إن التقنية اللامعة والصوت الدافئ، والأداء العاطفي ذو المضمون.. كل هذا يسمح له أن يؤدي أعقد المقطوعات سواء من الناحية الفنية أو التقنية». لقد تمتع خلال سنوات عطائه المثمرة بخبرة كبيرة، سمحت له بأداء حفلات فنية كبيرة، بدرجة عالية من الدقة، جعلته يحتل مرتبة عالية بين العازفين المشهورين في العالم، وقد كانت البداية الكبيرة منذ عام (١٩٦٧م)، إثر تفوقه الباهر في حفل فني كبير أقيم في مدينة نيويورك الأمريكية، ويكمن سر إبداع السكري في عمله الجدي بشكل مستمر لإتمام قدرته للوصول إلى الكمال في فنه، وهذا ما ضمن له النجاح والمكانة الكبيرة التي وصل إليها على المستوى العالمي.

مستوى الإعجاب والمحبة والقدرة الفنية الكبيرة التي وصل إليها السكري جعل رابطة أهالي طلاب المعهد العالي للموسيقى «الكونسرفتوار» في مدينة ليون الفرنسية «في معبد شابخ» يقولون: «لقد اكتشفنا عازفاً سورياً للكمال من الدرجة الأولى.. إنه نجم عظيم، وعازف بارع.. لقد استرعى الانتباه في مجال بناء المخططات الصوتية، إن كلمة عبقرية لا تعطي القوة الحقيقية لظاهرة نجمي السكري».

في النقد والتحليل الموسيقي، كُتب عن نجمي السكري الكثير، وجميعها كتابات أشادت بعزفه المتوهج على آلة الكمان وخاصة لكونشيرتو كمان «باغانيني» من مقام «دو. ماجور» حيث قدّمه بإمكانات موسيقية شديدة الحساسية، وبمستوى فيه قمة الجمال والعاطفة والأداء الذي لا عيب فيه، والمرء لا يشعر على الإطلاق بأن السكري يعزف موسيقى صعبة بشكل شيطاني، بل على العكس يسمع الموسيقى في جوهرها ومن دون أية عقبات فنية أو وجود كثير من التفسيرات حولها.. في كل ما قدّم من أعمال كان تقديمه للعزف المتسق، ولعرضه المثير الأخاذ

والمصقول رائعاً على نحو فريد في الحركة وفي الإيقاع المتألق جداً
المضعم بسلسلة غير عادية..

هناك قصة أو حكاية ترويه العجائز مفادها أن الآلة الموسيقية
للشيطان هي الكمان، وإن هناك شيئاً روحياً في عزف السكري خارج حدود
الطاقة البشرية، وهذا ما يجعل المرء يصدق هذه الحكاية، فهو كما يقول
عنه النقاد يعزف كالشيطان نفسه، والعزف الرائع لأي شخص آخر محكوم
عليه بالفشل، وقد كان الناقد «بيير بوتى» دقيقاً عندما كتب عن السكري
في صحيفة الفيغارو الفرنسية: «السكري بارع في مجالين معاً الموسيقى
والتعليم يده اليسرى لا تضعف أو تتعب أبداً، سواء في عزف المقاطع
الأكثر صعوبة، أو بالنسبة للأوتار الثلاثة وأصوات الجواب.. دقته في العزف
دائماً كاملة وتامة إلى حد الإعجاز، وبالنسبة لقوس كمانه، فقد كان عريضاً
متجاوباً معه، يسمح له بالعزف وإصدار الأصوات بكل راحة.. السكري الآن،
يتربع بين العظماء».

نجمي السكري كان خلال مسيرته الفنية الحافلة بالعطاء والإبداع يفخر
بوطنه سورية ويصر على أن يقدم بالسوري أولاً قبل كل شيء، صحيح أنه كان
يعيش في باريس، ولكن ذلك لم يجعله ينسى بلده، وأشهد أنني حضرت له
حفلة في باريس، وكان شعوري لا يوصف عندما أظهر براعة لا حدود لها كانت
تتجلى بالخفة والثقة بالنفس من خلال طريقته المدهشة التي سحرت
الحضور في تقديمه لكابريسيو لـ «باغانيني» حيث تفاعل نص موسيقي رائع
وأقواس وألحان تأملية في ارتفاعات باعثة على النشوة، فحقق بذلك أعلى
المتطلبات الجمالية الموسيقية.



لاتنسى أن تضع أغلفة كتب